



عناصر الموضوع

المجلد السابع والعشرون

مفهوم الفواحش

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (فحش): تدل على قبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ[1].

و«الفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»[2].

يقال: فحش الأمر فحشًا: جاوز حده، فهو فاحشٌ، وفحش القول أو الفعل فحشًا وفحاشةً: اشتد قبحه، والفاحشة مؤنث الفاحش القبيح الشنيع من قولٍ أو فعلٍ، والجمع: فواحش[3].

وقيل: «المتفحش الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، والفحش والفاحشة هو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي»[4].

والفاحش: السيئ الخلق المتشدد البخيل[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الفاحشة هي التي توجب الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة»[6].

قال ابن فارس: «كل شيءٍ جاوز قدره فهو فاحشٌ، ولا يكون ذلك إلا فيما يتكره»[7].

وقال الراغب: «فَحُشَ فلانٌ: صار فاحشًا، والمتفحش الذي يأتي بالفُحش»[8].

قال ابن الأثير: «وكثيرًا ما ترد الفاحشة بدلالة الزنا، ويسمى الزنا فاحشةً»[9].

وقال الغزالي: «الفحش: هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز؛ فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها»[10].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٨.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٣.
(٣) المعجم الوجيز ص ٤٦٣.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٥٥.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص ١٧١.
(٧) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٨.
(٨) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٧٣.
(٩) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ص ٤١٥.
(١٠) إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ١/ ١٠١.



الفواحش في الاستعمال القرآني

وردت مادة (فحش) في القرآن الكريم (٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢٤	﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]

وجاءت الفاحشة في القرآن الكريم على أربعة أوجه[٢]:

الأول: المعصية: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾[الأعراف: ٢٨] **يعني: المعصية.**

الثاني: الزنا: ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾[النساء: ١٥] **يعني الزنا.**

الثالث: اللواط: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾[العنكبوت: ٢٨] **يعني: إتيان الرجال.**

الرابع: نشوز المرأة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾[النساء: ١٩] **يعني: العصيان والنشوز**[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ٨٦٧-٨٦٨.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٦٦-٤٦٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ١١٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإثم:

الإثم لغةً:

هو الذنب[(١)]، وقيل: أن يعمل ما لا يحل له.

الإثم اصطلاحًا:

الإثم: استحقاق العقوبة[(٢)]. والإثم ما يجب التحرر منه شرعًا وطبعًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ [البقرة:٢٠٦].

الصلة بين الفاحشة والإثم:

أن كل فاحشةٍ إثمٌ، وأن فاعلهما يستحق العقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

٢ الذنب:

الذنب لغةً:

الإثم والجرم والمعصية، وعلى هذا يكون الذنب مرادفًا للإثم والفاحشة.

الذنب اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين الفاحشة والذنب:

أن الفاحشة والذنب كليهما يشعران المرتكب لهما بالخزي والبعد عن رضا الله.

٣ الزنا:

الزنا لغة:

الزنا معناه الفجور، يقال: زنا يزني زنًا: فجر.

الزنا اصطلاحًا:

عرفه الحنفية بأنه وطء الرجل المرأة في القبل في غير الملك وشبهته».

الصلة بين الفاحشة والزنا:

الزنا إحدى الفواحش التي يعاقب فاعلها في الدنيا والآخرة.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١/ ٢٨.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت ١/ ٢٥٠.

٤ المنكر:

المنكر لغةً:

خلاف المعروف ، والمنكر: الأمر القبيح، وأنكرت عليه فعله إذا عبته ونهيته[١] .

المنكر اصطلاحًا:

ما ليس فيه رضا الله من قولٍ أو فعلٍ ، وهو ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك.

الصلة بين الفاحشة والمنكر:

أن المنكر أعم من الفاحشة؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل.

٥ الكبائر:

الكبائر لغة:

الكبائر جمع كبيرةٍ، وهي لغةً: الإثم.

الكبائر اصطلاحًا:

كل ذنبٍ عظم الشرع التوعد عليه بالعقاب وشدده، أو عظم ضرره في الوجود، وهي ما كان حرامًا محضًا شرع عليه عقوبة محضة بنصٍ قاطعٍ في الدنيا والآخرة[٢] .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى:٣٧].

﴿كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾هي الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها، وتوعد فاعلها بعقاب الآخرة، نحو القذف، وقيل: «الكبائر هي كل ما توعد فيه بالنار، وقال الضحاك: أو كان فيه حدٌّ من الحدود. وقال علي وابن عباس: هي كل ما ختمه الله بنارٍ أو غضبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ»[٣] .

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٥٣٩.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ١٩٣ .
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩.

تنزيه الله تعالى عن الأمر بالفواحش

لا يختلف العقلاء في أن الله سبحانه وتعالى جعل من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية السمحة حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح الإنسان في هذا النظام، ويشمل صلاح عقله وصلاح عمله، ومن يقولون بغير ذلك فلا خلاق لهم.

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء:٤٣].

بيد أن حصول الأخطاء وارد على الناس كافة، وهذه طبيعة من تكوين البشر، ومن الناس من يقر بالخطأ ويتوب إلى الله؛ فيتقبل الله توبته؛ وجاء في الحديث «عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)»[(١)].

ومن الناس من يجيد تبرير الأخطاء، فكل خاطئ يبرر ما شاء له أن يبرر، ومن ثم يلقون باللائمة والخطأ على الغير، فترى هؤلاء الكفرة يدعون على الله الكذب ويقولون على الله ما لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

قيل: (فاحشة): «كانت النساء تطوف بالبيت عراة عليهن الرهاط» وفي الطبري: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قبلها النسعة»[(٢)].

فتلك الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم الطواف عرايا، ثم جاء الرد من الله فقد كذبهم الله؛ لأن الله لا يأمر بالقبيح من الأفعال.

قال القرطبي: «الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة، وقال الحسن: هي الشرك والكفر، واحتجوا على ذلك بتقليدهم أسلافهم، وبأن الله أمرهم بها، وقالوا: لو كره الله ما نحن عليه لنقلنا عنه. ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ بين أنهم متحكمون، ولا دليل لهم على أن الله أمرهم بما ادعوا».

وفيه كشف لباطل الكافرين، ونقض لدعواهم أن الله أمرهم بتلك الفواحش، ومما يدحض كذبهم أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وفي الحديث: عن عبد الله بن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء، رقم ٧٥٨.

(٢) النسعة: قطعة من الجلد مضفورة. والرهط جلد يقد سيورا عرض السير أربع أصابع أو شبر، تلبسه الجارية الصغيرة قبل أن تدرك، وتلبسه أيضا وهي حائض.

مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)[1].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل:٨١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يعني: القمص، واحدها سربال، قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروع التي تقي الناس في الحرب».

فقد ذكر الله النعمة التي اختصهم بها، وهي ملابس تقيهم الحر، ثم بين نعمته عليهم بلبس الدروع التي تقيهم الجرح من السيف أو الرمح.

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ هو خطاب لجميع العالم، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا، فإنه عام في كل مسجد، لأن العبرة للعموم لا للسبب.

وقال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:٩٠].

الفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل، قال ابن عباس: هو الزنا. والمنكر ما أنكره الشرع بالنهي عنه، وهو يعم جميع المعاصي: الرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها، وقيل: هو الشرك، والبغي هو الكبر والظلم والحقد والتعدي، وحقيقته تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، ولكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣].

قال: «لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت وعَيَّرهم المشركون نزلت هذه الآية، والفواحش: الأعمال المفرطة في القبح ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نكاح الأمهات في الجاهلية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا، وقيل: سرها وعلانيتها».

وقال الزمخشري: «﴿الْفَوَاحِشَ﴾: ما تفاحش قبحه، أي: تزايد، وقيل: هي ما يتعلق بالفروج»[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، رقم ٩١.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٤٣٩.

أنواع الفواحش

تتعدد أنواع الفواحش التي يوسوس بها الشيطان للإنسان، فالشيطان لا ييأس من محاولة إغواء الإنسان ليقع فيما حرم عليه، ويتسرب إليه من خلال الشهوات الحيوانية الدنيئة والرذائل والقاذورات التي نهى الله عنها ليحيا المجتمع نقيًّا طاهرًا منها، وهي: (الزنا، واللواط، البذاءة، والقذف)، وغيرها مما ينكره الطبع السليم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

في الآية الكريمة نهي عن مقاربة أو ملابسة جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي، وقيل: «قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ نهي عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي، و﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما عقد عليه القلب من المخالفة، وظهر وبطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له الأشياء»؛ لأن الله تعالى قد أمر خلقه بترك ظاهر الإثم وباطنه، وذلك سره وعلانيته، والإثم كل ما عصي الله به من محارمه، وقد يدخل في ذلك سر الزنا وعلانيته وكل معصية لله فيها أمر باجتنابها، فيكون الأمر عاما بالنهي عن كل ما ظهر أو بطن من الفواحش.

والفاحشة: الفعلة الشديدة السوء، بهذا غلب إطلاقها، والجمع الفواحش، وتشمل:

١ . الزنا.

قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ [النساء:١٥].

الفاحشة في هذا الموضع الزنا، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾، فجعل الله الشهادة على الزنا خاصة أربعة تغليظا على المدعي وسترا على العباد.

والزنا: الوطء في قبل خال عن ملك وشبهة.

لا شك أن الزنا فاحشة من أبشع الفواحش التي نهى الإسلام عنها وتوعد من يقترفها بالعذاب الشديد؛ لأنها تؤدي إلى اختلاط الأنساب التي حفظها الإسلام، كما أنها تؤدي إلى كشف العورات التي أمرنا الله تعالى بسترها وعدم الاقتراب منها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

قال الزمخشري: «﴿فَاحِشَةً﴾ قبيحة زائدة على حد القبح، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ وبئس طريقا طريقه، وهو أن تغضب على غيرك امرأته أو أخته أو ابنته من غير سبب»[(١)].

في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥١٥.

يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن)[١].

فآفة الزنا فاحشة حرم إتيانها، ونهى الله عن الاقتراب منها في آيات القرآن الكريم والحديث الشريف.

والإسلام حرم الانحراف عن السلوك القويم الذي يمثل خروجا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وشرع العلاج لمن يرتكب الفاحشة وينتهك المحارم حتى ينتهي عن ذلك، ووضع لها الحدود الرادعة التي تتناسب وخطورة الذنب وقاية للمجتمع من الضياع والفساد.

وقد حرم الله الزنا لمنع الإفساد واختلاط الأنساب، وجعل حد الزنا قاسيا لما يصيب المجتمع من الأمراض الأخلاقية والنفسية التي تهتك ستر المجتمع وتمزق أوصاله وتؤدي به إلى الهلاك، فكانت حكمة الله من تحريم الزنا وفرض العقوبات الرادعة لمقترفيها، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [النور:٢-٣].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم:٣٢].

هذ نعت للمحسنين، أي: هم الذين لا يرتكبون كبائر الإثم، وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام.

والفواحش الزنا، وقال مقاتل: كبائر الإثم كل ذنب ختم بالنار، والفواحش كل ذنب فيه الحد، ﴿ٱللَّمَمَ﴾: هي صغائر الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه».

قال الزمخشري: «الكبائر» الذنوب التي لايسقط عقابها إلا بالتوبة، «والفواحش» مافحش من الكبائر[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن عطية: ﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ الزنا، قاله ابن عباس، وغيره من المعاصي التي شناعتها ظاهرة وفاعلها أبدا مستتر بها، وكأنهم خصوها بمعاني الفروج، والمنكر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم ٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم ١٦٩٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٥/ ٦٤٥.

أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والرذائل، وتشمل اللواطة، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

قال ابن عطية: ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ هنا إتيان الرجال في الأدبار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم، وأنهم كانوا يأتي بعضهم بعضًا، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغرباء»[(١)].

٢. اللواط.

اللواط: إتيان الذكور في الدبر، وهو عمل قوم نبي الله لوط عليه السلام، وتعد أبغض الفواحش؛ لأنها تفسد الدين والدنيا معًا، وتهدم الأخلاق، وتمحق الرجولة، وتذهب الخير من حياة مقترفيها، ومن ثم يلحق مرتكبيها الخزي والعار؛ لأن اللواط ضرر عظيم للفرد والمجتمع، ومتى انتشرت هذه الآفة في مجتمع عاقبه الله بأمراض تنتشر فيه.

وقد بين القرآن الكريم جريمة اللواط، وما حل بقوم لوط عليه السلام الذين فعلوا الفواحش.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل:٥٤-٥٥].

وفيها ينكر الله على قوم لوط إتيانهم للفاحشة، وعدم إنكارهم لها؛ فهم يبصرون المنكر، ولا ينكرونه، وهم يأتون الرجال شهوة، ويفسدون الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي استمتاع الرجل بالمرأة.

قال النحاس: «أي: وأنتم تعلمون أنها فاحشة فذلك أعظم لذنبكم. وقيل: يرى بعضكم ذلك من بعض ولا يكتمه منه. وقيل: المراد بالبصر العلم بقبح هذا الصنيع. وقيل: كانوا يتناكحون أمام أنظار المشاهدين كما تفعل الكلاب والحمير؛ فالرؤية إذًا بصرية، أي: يرى بعضهم بعضًا دون خجل ولا حياء»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

فهؤلاء القوم أحدثوا فاحشة استمتاع الرجال بالرجال، فأمر الله لوطا عليه السلام لما نزل بقريتهم سدوم في رحلته مع عمه إبراهيم عليه السلام أن ينهاهم، ويغلظ عليهم، والإتيان المستفهم عنه والعمل، أي: أتعملون الفاحشة؟! وكني بالإتيان على العمل المخصوص، وهي كناية مشهورة، والفاحشة: الفعل الدنيء الذميم، والمراد

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٢٤.

(٢) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس، ٥/ ١٤٢.

هنا فاحشة معروفة، فالتعريف للعهد، وأنكر عليهم إتيان الفاحشة، وعبر عنها بالفاحشة التي لم تكن معروفة في البشر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لتفظيع فعل هذه الفاحشة، وتسمية هذا الفعل فاحشة؛ لأنه يشتمل على مفاسد كثيرة، منها استعمال الشهوة في غير ما خلقت له؛ لأن الله خلق في الإنسان الشهوة لإرادة بقاء النوع؛ ولأن ذلك الفعل يجلب أضرارا للفاعل والمفعول بسبب استعمال محلين في غير ما خلقا له.

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

قطع السبيل: الطريق، يفعلون هذا مع فساد أخلاقهم وانتكاس فطرتهم.

قال ابن كثير: «فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا»[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء:١٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧].

«قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال أبو عبيدة: مطموسة بجلد كالوجه. وقال ابن عباس والضحاك: استعارة، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل ولم يروا شيئًا، فجعل ذلك كالطمس»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء:٧٤].

ومما سبق من الآيات نجد أن قوم لوط، قد وصفوا بعدد من الأوصاف نوجزها فيما يلي:

أنهم جاؤوا بفعل لم يسبقوا إليه، وأنهم مسرفون في ضلاهم؛ فقد جمعوا بين الشرك والرذيلة.

وأنهم أصحاب فطرة فاسدة؛ فهم مفسدون ظالمون؛ لإتيانهم الرجال؛ ولأنهم صاروا يرون القبيح حسنا والحسن قبيحا، فهم قوم سوء فاسقون، بل قوم مجرمون فاجرون، فهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، فقد جمعوا بين أصناف المنكرات والرذائل، وهذه الأصناف كلها تدخل في إطار الفاحشة.

وإتيان المرأة في دبرها، منهي عنه.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٨.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢١٩.

قال تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ قال جابر: سببها أن اليهود قالت: إن الرجل إذا أتى المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول. وعابت على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وانتشر كلام الناس، فنزلت الآية مبيحة الهيئات كلها، إذ كان الوطء موضع الحرث، فلفظة (الحرث) تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة؛ إذ هو المزدرع»[(١)].

تحريم فاحشة اللواط: إن اللواط أفحش فاحشة وشر رذيلة، وهو شر من الزنا؛ لهذا حرمت النصوص الشرعية هذه الفاحشة، ورهبت منها ترهيبًا عظيمًا، إن الله لما ذكر الزنا:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء:٣٢].

فجاءت ﴿فَٰحِشَةً﴾ نكرة، ولما ذكر اللواط.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت:٢٨].

فتعريف الفاحشة في اللواط إنما يدل على أنه أفحش من الزنا.

ولا خلاف أن عمل قوم لوط أعظم من الزنا.

قال ابن القيم: «ومن تأمل قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقوله تعالى في اللواط: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ تبين له تفاوت ما بينهما؛ فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، أي: تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها»[(٢)].

والمسلم مأمور باجتناب الفواحش، فكل آية في القرآن تحرم علينا الفاحشة، فهي محرمة لفعل قوم لوط، وقد عاقب الله أهل هذه القرية بالهلاك، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوهم، ونكسوا في العذاب على رؤوسهم، فالجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف:٨٤].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٩٩.

(٢) الداء والدواء، ابن القيم ص٣٩٧.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن مقارفة هذه الفاحشة اللعينة، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم دواعيها وما يؤدي إلى ملابستها، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)**(١).

ففي الحديث تجد النهي عن نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وكذا نظر الرجل إلى عورة المرأة والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالإجماع، أما قوله صلى الله عليه وسلم: **(ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد)** وكذا المرأة مع المرأة؛ فهو نهي تحريم إذا لم يكن بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه؛ لأن ممارسة الفواحش (الزنا واللواط) تؤدي إلى الإصابة بالأمراض المهلكة، إذ تنتقل الأمراض التناسلية عن طريق الاتصال الجنسي غير المشروع، ومنها: الإيدز، الزهري، السيلان.

الإيدز: يعني فقدان جسم الإنسان القدرة على مقاومة الأمراض، وينتقل المرض عن طريق الاتصال الجنسي المحرم بين الذكور والذكور (اللواط)، أو بين الذكور والإناث (الزنا).

الزهري: وهو مرض خطير ينتج عن ممارسات الجنس الشاذة.

السيلان: مرض ينتشر في أوساط الفسقة الفجرة لارتباطه بارتكاب الفاحشة، فهو غالبا ما يصيب الجهاز البولي والتناسلي للرجل والمرأة، وتنتقل العدوى من الشخص المصاب إلى السليم عن طريق المباشرة باللواط أو عند الزنا بالنساء، وغير ذلك.

وأما حد جريمة اللواط: فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به، ففي الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)**(٢).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم ٣٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، ٤/ ١٥٨، رقم ٤٤٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢١، رقم ٦٥٨٩.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به؛ لأنه لا خير في بقائهما؛ لفساد طويتهما، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه، فلا حياء ولا كرامة ولا إيمان لهؤلاء.

ولما كان الجرم شديدًا والعاقبة وخيمة وجب دعاء الله تبارك وتعالى والتضرع إليه؛ لأن الله لا يرد من طلب معونته بالصدق معه، والبعد عن أسبابها، وما يذكر المرء بها، والابتعاد عن أصحاب السوء، وأن يشغل المرء نفسه بالطاعة، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية، فالعاقل من يفكر في كل عمل يقوم به، فيدرك أن النشوة المحرمة تعقبها منغصات وآلام وندم وقلق يلازمه دائمًا.

ومن ثم فإن عليه المبادرة بالزواج، فإن لم يستطع فالإكثار من الصوم، فالصوم جنة؛ لأنه يكبح جماح الشهوات، والخشوع في الصلاة، والإقبال على الله؛ فإنها تنهى عن كل فاحشة وكل منكر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومن ثم فإنه يجب أن يدرك الناس أن الله يغفر الذنوب جميعا.

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد، وهذا في حق التائبين خاصة.

٣. البذاءة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١].

قال ابن عطية: «قال بعض الناس: الفاحشة متى وردت في القرآن معرفة فهي الزنا، ومتى وردت منكرة فهي المعاصي، يراد بها سوء عشرة الزوج، ومرة غير ذلك»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ الفاحشة: الفعلة الشديدة السوء، بهذا غلب إطلاقها، وهي متى وردت منكرة فهي المعاصي، ووصفها بـ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ يراد به أنها واضحة في جنس الفواحش، أي: فاحشة عظيمة، وقد اختلف في المراد من الفاحشة هنا، وفي معنى الخروج لأجلها، قال القرطبي: «قال ابن عباس وابن عمر والحسن والشعبي ومجاهد: هو الزنا، فتخرج ويقام عليها الحد. وعن ابن عباس

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٩٨.

أيضًا والشافعي أنه البذاء على أحمائها، فيحل لهم إخراجها»[1].

وقال ابن عطية: «قال ابن عباس: ذلك النداء على الأحماء، فتخرج ويسقط حقها في السكنى»[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

يخاطب الله نساء النبي؛ لأنهن صرن على عهد مع الله أن يؤتيهن أجرا عظيما، ويحذرهن من المعاصي، وجعل عذاب المعصية على فرض أن تأتيها إحداهن عذابا مضاعفا، والمراد بالنساء هنا الحلائل، والفاحشة المعصية، وكلما وردت الفاحشة في القرآن نكرة فهي المعصية، وإذا وردت معرفة فهي الزنا ونحوه.

وقال ابن عطية عن (الفاحشة): «إذا وردت موصوفة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عشرته، ولذلك يصفها بالبيان، إذ لا يمكن سترها»[3].

وقد تطلق الفاحشة على الأعمال السيئة عمومًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف:٢٨] قيل: (فاحشة) «كانت النساء تطوف بالبيت عراة عليهن الرهاط»[4].

كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قبلها النسعة، فتلك الفاحشة التي وجدوا عليها آباءهم الطواف عرايا.

وقال القرطبي: «الفاحشة هنا في قول أكثر المفسرين طوافهم بالبيت عراة، وقال الحسن: هي الشرك والكفر»[5].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء:١٩].

قال ابن عطية: «واختلف الناس في معنى الفاحشة هنا، فقال الحسن بن أبي الحسن: هو الزنا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: الفاحشة في هذه الآية البغض والنشوز. وقاله الضحاك وغيره»[6].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣].

«قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيرهم المشركون؛ فنزلت هذه الآية. والفواحش الأعمال المفرطة في القبح، ما ظهر منها وما بطن، وعن مجاهد قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ نكاح الأمهات

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٦٨٨.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٩٨.
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٩٨.
(٤) معاني القرآن الكريم، أبو جعفر النحاس ٣/ ٢٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٩٨.

في الجاهلية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزنا. وقال قتادة: سرها وعلانيتها»[1].

٤ . نكاح المحارم.

من الإعجاز التشريعي في القرآن أن الله تبارك وتعالى أنزل فيه تحريم الزواج بين بعض الأفراد، وهذا المنع إما لشدة القرابة بين الذكر والأنثى، التي من شأنها أن تأبى على كل واحد منهما أن يعاشر الآخر معاشرة الأزواج، لما في ذلك من منافاة للفطرة، ولما قد ينعكس عن ذلك من آثار غير حميدة على أبناء المجتمع، كما يكون له تأثير على النسل، إلى جانب ما يكون هناك من موروثات تنتقل من فرد إلى فرد من أفراد الأسرة القريبين من بعضهم كل القرب، ومن ثم نص القرآن على حرمة التزوج بالمحارم: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الإخوة، وبنات الأخوات، وهو ما يعرف بنكاح المحارم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء:٢٢].

يقال: كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، فصار حرامًا في الأحوال كلها؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج؛ فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه[2].

وقيل: «الصحابة تلقت الآية على ذلك المعنى؛ ومنه استدلت على منع نكاح الأبناء حلائل الآباء، وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه[3].

وكانت في قريش مباحة مع التراضي، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: تقدم ومضى، أي: لكن ما قد سلف فاجتنبوه ودعوه، فإن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ عقب بالذم البالغ المتابع، وذلك دليل على أنه فعل انتهى من القبح إلى الغاية.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٥٤٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٤٣.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٤٤٥.

﴿عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٣-٢٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، وتلا هذه الآية[1].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ فحرم نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم، فقد بين في هذه الآية ما يحل من النساء وما يحرم، كما ذكر تحريم حليلة الأب، فحرم الله سبعا من النسب وستا من رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواترة سابعة، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ففي الحديث: (عن قبيصة بن ذؤيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها والمرأة وخالتها؛ فنرى خالة أبيها بتلك المنزلة؛ لأن عروة حدثني عن عائشة قالت: حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب)[2].

فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات، والبنات، والأخوات، والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فعطف على المحرمات المذكورات قبلها، وقد اختلف في تأويلها، فقيل: «المراد بالمحصنات هنا المسبيات ذوات الأزواج خاصة، أي: هن محرمات، إلا ما ملكت اليمين بالسبي من أرض المعركة، وفي قول آخر: هن ذوات الأزواج؛ ويرجع ذلك إلى أن الله حرم الزنا. وقيل: يراد به العفائف، أي: كل النساء حرام، وألبسهن اسم الإحصان، من كان منهن ذات زوج أو غير ذات زوج»[3].

والسبع المحرمات بالصهر والرضاع: الأمهات من الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء، والربائب: ابنة زوجه، وحلائل الأبناء -الحلائل جمع حليلة، وهي زوج الابن- والجمع بين الأختين، وألا يتزوج الابن امرأة أبيه، أي: من سبق للآباء الزواج منهن.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ أي: اللاتي دخلتم بهن.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: لا يحل له الزواج من ابنة زوجته التي دخل بها.

وقال ابن عطية: «اختلف العلماء في

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٥١٠٨، ص ١٠١٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٤٣.

معنى قوله: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ فقال ابن عباس وطاوس وابن دينار: الدخول في هذا الموضع الجماع، فإن طلق الرجل بعد البناء وقبل الوطء؛ فإن ابنتها له حلال. وقال جمهور من العلماء منهم مالك ابن أنس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم: إن التجريد والتقبيل والمضاجعة وجميع أنواع التلذذ يحرم الابنة كما يحرمها الوطء»[1].

وقد جاء النهي صريحًا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج البنت)**[2].

وعن مالك عن غير واحد أن عبد الله بن مسعود استفتي وهو بالكوفة عن نكاح الأم بعد الابنة إذا لم تكن الابنة مست فأرخص في ذلك، ثم إن ابن مسعود قدم المدينة فسأل عن ذلك فأخبر أنه ليس كما قال وإنما الشرط في الربائب، فرجع ابن مسعود إلى الكوفة، فلم يصل إلى منزله حتى أتى الرجل الذي أفتاه بذلك فأمره أن يفارق امرأته.

قال مالك في الرجل تكون تحته المرأة ثم ينكح أمها فيصيبها: إنها تحرم عليه امرأته ويفارقهما جميعا ويحرمان عليه أبدًا إذا كان قد أصاب الأم، فإن لم يصب الأم لم تحرم عليه امرأته وفارق الأم.

وقال مالك في الرجل يتزوج المرأة ثم ينكح أمها فيصيبها: إنه لا تحل له أمها أبدًا، ولا تحل لأبيه ولا لابنه، ولا تحل له ابنتها وتحرم عليه امرأته. قال مالك: فأما الزنا فإنه لا يحرم شيئا من ذلك؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فإنما حرم ما كان تزويجًا ولم يذكر تحريم الزنا، فكل تزويج كان على وجه الحلال يصيب صاحبه امرأته فهو بمنزلة التزويج الحلال، فهذا الذي سمعت والذي عليه أمر الناس عندنا[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ الَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾، وهي في التحريم نحو ما جاء في الحديث الشريف:

عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **(جاء عمي من الرضاعة فاستأذن علي، فأبيت أن آذن له حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال: إنه عمك فأذني له.**

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب فيمن يتزوج المرأة ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، ٣/ ٤١٧، رقم ١١١٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٢٢٤٢.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب النكاح، باب ٣/ ٢٠٤.

قالت: فقلت: يا رسول الله، إنما أرضعتني المرأة، ولم يرضعني الرجل؟! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه عمك فليلج عليك. قالت عائشة: وذلك بعد أن ضرب علينا الحجاب. قالت عائشة: يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة)[(١)].

فإذا أرضعت المرأة طفلًا حرمت عليه؛ لأنها أمه، وبنتها؛ لأنها أخته، وأختها؛ لأنها خالته، وأمها؛ لأنها جدته، وبنت زوجها؛ لأنها أخته، وأخته؛ لأنها عمته، وأمه؛ لأنها جدته، وبنات بنيها وبناتها؛ لأنهن بنات إخوته وأخواته.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: حرم جمع الزوجتين بعقد النكاح، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن) كما جاء في الحديث.

عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة أخبرته أن أم حبيبة بنت أبي سفيان أخبرتها أنها قالت: (يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان. فقال: أوتحبين ذلك؟ فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن ذلك لا يحل لي. قلت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم. فقال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن. قال عروة: وثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم، فلما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة. قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة)[(٢)].

ومن المحارم، كذلك تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو بين المرأة وخالتها، فقد جاء في الحديث: (عن قبيصة بن ذؤيب أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنكح المرأة على عمتها والمرأة وخالتها، فنرى خالة أبيها بتلك المنزلة؛ لأن عروة حدثني عن عائشة قالت: حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب)[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٥١٠٨، ص ١٠١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف)، رقم ٥١٠٧، ص ١٠١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها، رقم ٥١٠٨، ص ١٠١٤.

أسباب ارتكاب الفواحش

تتنوع أسباب ارتكاب الفواحش تبعا لاختلاف الأفراد في المجتمع، فتجد لكل عاص أسبابه الخاصة التي تدفعه لارتكاب الفاحشة، فقد تكون هذه الأسباب بسبب عصيان أوامر الله أو اجتناب نواهيه، وكل عصيان لله يكون بتتبع خطوات الشيطان، واتباع هوى النفس بممارسة الفاحشة، أو تقليد أصحاب السوء؛ لذلك كان الأمر من الله تعالى بعدم الاقتراب من الفواحش على نحو ما سنبينه.

أولًا: عصيان أوامر الله تعالى:

المعصية: مخالفة الأمر قصدًا[1].

وهي نوعان:

- إما أن لا تفعل أمرًا، فتتمرد عليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف:٦٩].
- وإما أن ترتكب أمرًا منهيًا عنه، نحو قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٦].

وهذه تحدث وقت صدور الأمر بافعل أو لا تفعل، ويقال لك: افعل فلا تفعل، أو يقال لك: لا تفعل فتفعل، ولا تسمى عاصيًا إلا إذا لم تطبق الأمر ساعة صدوره إليك، فقد خلق الله الكون لحكمة يعلمها، وخلق الإنسان ليعبده ويمجده ويسبح بحمده ويفعل ما يأمره به، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

قال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: المعنى: وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقروا لي بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذ العبادة هي مضمون الأمر[2].

لذلك فإن الإنسان إذا ما سولت له نفسه عصيان أوامر الله تعالى وطاعة الشيطان فلا يلومن إلا نفسه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [الأنعام:١٥].

قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦﴾ [الشعراء:٢١٦].

فقد حذرنا الله تعالى من مغبة المعصية وعواقبها الوخيمة، وحذرنا من التمادي فيها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء:٤٢].

قال: «والمعنى: لو يسوي الله بهم الأرض، أي: يجعلهم والأرض سواء. تمنوا لو لم يبعثهم الله وكانت الأرض مستوية عليهم؛ أنهم من التراب نقلوا»[3].

---

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٢٣٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٨٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٥٢.

وذلك لأنهم عصوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

ولقد لعن العصاة المعتدون بسبب عصيانهم؛ ولأنهم لم يكونوا ينهون أنفسهم عن ارتكاب المعاصي.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾ «أي: لا ينهى بعضهم بعضا، وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ ذم لتركهم النهي، وكذا من بعدهم يذم من فعل فعلهم»[(١)].

ذم الله تعالى هذه الفرقة الملعونة؛ لأنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، وإن نهى منهم ناه فعن غير جد، بل كانوا لا يمتنع الممسك منهم عن مواصلة العاصي ومؤاكلته وخلطته.

وقال ابن عطية: «والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين، فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه»[(٢)].

ثانيًا: اتباع خطوات الشيطان:

كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان، وخطوات الشيطان هي نزغات الشيطان، فالشيطان يدعو البشر إلى الانغماس في الشهوات وعمل المنكرات والوقوع في الفحشاء، والخطوات التي يقع فيها البشر كثيرة، وقد توعد الشيطان الإنسان بأن يفسد عليه إيمانه وطاعته لله، ليس فقط على سبيل الخطايا وحدها، أو السبل وحدها، بل هو تعبير لما يريده الشيطان من الإنسان منذ تكليفه إلى حين خروج الروح من الجسد، فالشيطان يسلب الإنسان دينه من حيث لا يدري لا يكاد المرء يميز بين مراحله كحال الخطوة التي تتبعها الخطوة، وطريق الشيطان يبدأ بالوسوسة، فتسول له نفسه، أو التزيين بالتحسين تارة أخرى غير ذلك، ثم تتوالى الخطوات حتى يتم الزلل؛ فيقع الإنسان في المعصية، وهذا ما يتضح من خلال السياق القرآني، فالله يبين أن تلك الخطوات إنما هي أوامر شر وفحش وسوء، ولذا جاء النهي عن اتباع خطوات الشيطان.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ

(١) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٦.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٢٤.

﴿يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور:٢١].

يأمر الله تعالى المؤمنين بألا يتبعوا خطوات الشيطان، وما يأمر به أولياءه، والشيطان إنما يأمر أولياءه بفعل الفاحشة وإشاعتها وارتكاب المنكرات، فمن اتبع خطوات الشيطان جره إلى ارتكاب هذه الموبقات.

أما خطوات الشيطان، فقيل: آثاره. وقيل: عمله. وقيل: طرقه التي يدعوهم إليها. وقال قتادة والسدي: «كل معصية لله، فهي من خطوات الشيطان»[1].

وقال ابن عطية: «وكل ما عدا السنن والشرائع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان»[2].

واتباع خطوات الشيطان إنما يقصد بها اتباع ما يصد عن سبيل الله، وقد تكرر النهي في القرآن الكريم عن اتباع خطوات الشيطان، ولم يقل: لا تتبعوا الشيطان. وجاء ذكر خطوات الشيطان في أربعة مواضع، كلها بصيغة النهي عن اتباعها، وهذه المواضع:

ذكر خطوات الشيطان في موضعين :

- في سياق ذكر الطعام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة:١٦٨].

- القول على الله بلا علم، وهذا يكون بالخوض في الشريعة وأحكامها بجهل كما يقع في ذلك كثير من الناس الذين يبيحون المحرمات، ويسقطون الواجبات، وينتهكون حمى الشريعة، ويهونون أحكامها لدى العامة بما يستحسنونه من آرائهم وأفكارهم.

ومنهم من يفتون الناس بغير علم، ووجه دخوله في القول على الله بلا علم؛ لأنه لو علم عظمة الله لما اجترأ على انتهاك شريعته، وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام:١٤٢].

وخطوات الشيطان مع الإنسان فيما يتعلق بالطعام لها مسلكان: تحريم حلال، أو إباحة حرام.

إذ يزين الكسب المحرم بحيث يصير ما يشترى به الطعام مالا حرامًا، وقد يكون الدافع للكسب الحرام خوف الفقر والجوع، وهذا هاجس من الشيطان، وعلى أن خطوات الشيطان لا تقتصر على إباحة المحرم فقط، بل تكون كذلك في تحريم الحلال من الطعام أو غيره. «وعن مسروق قال: أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح،

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٨٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٣٧.

فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم. فقال: لا أريده. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعًا أبدًا. فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فأطعم وكفر عن يمينك»[1].

وجاء ذكر خطوات الشيطان في سياق الأمر بأخذ شرائع الإسلام كلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة:٢٠٨].

فمن اتبع خطوات الشيطان في الترخيص للناس وإرضائهم بغير حق، فإنه ينتهي به المطاف إلى إباحة المحرمات وإسقاط الواجبات؛ لأن الله لما أمر بالدخول في الإسلام كافة وأخذ الشرائع كلها، نهى عن اتباع خطوات الشيطان؛ لأن الشيطان يصد الناس عن الأخذ بالشرائع كلها.

وجاء ذكر خطوات الشيطان في سياق النهي عن الفواحش، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور:٢١].

وجاء ذكر خطوات الشيطان في سياق النهي عن الفواحش، وهي طريقة الشيطان في استدراج الإنسان إلى المعاصي بأخذهم إليها شيئا فشيئا، حتى يقعوا في الفاحشة؛ لذا حذرنا الله من اتباع خطوات الشيطان باختلاق الذرائع إلى الفواحش والمنكرات التي يأمر بها الشيطان.

قال ابن عاشور: «ومن يتبع خطوات الشيطان يفعل الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر الناس بالفحشاء والمنكر، أي: بفعلهما، فمن يتبع خطوات الشيطان يقع في الفحشاء والمنكر؛ لأنه من أفراد العموم، والفحشاء كل فعل أو قول قبيح»[2].

والشيطان في تحقيق عداوته للإنسان يسلك بخطواته كل طريق للإغواء، ويأتي الإنسان من كل مكان.

لذا كان واجبا على الإنسان أن يجعل الشيطان عدوا له، فلا يستسلم لوساوسه؛ لئلا يقوده إلى المحرمات.

ثالثًا: اتباع الهوى:

إن المتأمل لآيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد حذرنا من هوى النفس، فنهى عن اتباعه، وبين خطورته على الفرد والمجتمع؛ لأن اتباعه في غير طاعة الله إثم عظيم، وآفة تتطلب اليقظة والحذر، ومن ثم فإنه إذا تمكن الهوى من النفس حملها بما تهوى، وجعل الشهوة قائدها إلى كل شر ورذيلة، وينهاها عن كل خير وفضيلة، فهوى

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٨٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٨/ ١٨٧.

النفس يزين للشخصية المريضة المنكر، ويجمل لها الباطل، ويقلب لها المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ فترى صاحب الهوى يتبع هوى نفسه، فهي الآمرة بالشر الناهية عن الخير.

وقد حرص الإسلام على تخويف النفس من الله، فلا يعصيه من خلال منع النفس عن هواها.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات:٤٠].

«قال ابن عباس: المعنى خافه عند المعصية؛ فتنهى عنها و(الهوى) شهوات النفس وما جرى مجراها، وأكثر استعماله إنما هو في الشهوات»[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣].

«قوله: ﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ معناه: جعل هواه مطاعًا فصار كالإله، والهوى قائد إلى كل فساد؛ لأن النفس أمارة بالسوء، وإنما الصلاح إذا ائتمرت للعقل، وقال ابن عباس: الهوى يعبد من دون الله»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ جعلناه غافلا، وقيل: من ظننا غافلين عنه، و(الفرط) يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦].

قال ابن عطية: «قوله تعالى: ﴿أَخْلَدَ﴾ معناه لازم وتقاعس وثبت، وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ يحتمل أن يراد إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، ويحتمل أن يراد بها العبارة عن الأسفل والأخس، قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ قال الجمهور: إنما شبه به في أنه كان ضالا قبل أن يؤتى الآيات ثم أوتيها فكان أيضا ضالا لم تنفعه، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللهث في حال حمل عليه، وتحرير المعنى فالشيء الذي تتصوره النفس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب»[(٤)].

فالحيرة والتخبط من أهم صفات هوى النفس في القرآن الكريم، وقد حذرنا الإسلام من اتباع هوى النفس.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢١٢.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٥١٢.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٨٧.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾

[المائدة:١٠٥].

قال ابن عطية: «وجملة ما عليه أهل العلم في هذا: الأمر بالمعروف متعين متى رجي قبول أو رجي رد الظالم ولو بعنف، ما لم يخف المرء ضررا يلحقه في خاصيته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا الطاعة وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم، محكم واجب يوقف عنده»(١).

لذا فالعاقل من علم ما أعد الله تعالى من الثواب لمن نهى النفس عن الهوى واستحضر عاقبة اتباع الهوى.

رابعًا: التقليد:

يقع كثير من الناس في المعصية ويرتكبون الفواحش بسبب التقليد الأعمى، أو التقليد عن جهل بالأمور، فقد يرتكب المرء الفاحشة رغبة في تقليد أصحاب السوء، فيكون في هذه الحالة إمعة لا رأي له، ولعل هذا ما نهينا عنه، وقد يكون التقليد لأسباب عقائدية، أو لعدم الرغبة في الدخول في دين الله وإنكارهم له.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾

[البقرة:١٦٨-١٧٠].

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ نهي للمشركين المتلبسين بالمنهي عنه، وأما المؤمنون فتحذير وموعظة، واتباع الخطوات يراد به اتباع ذلك المسلك منه، فجعل المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه مؤديا للصواب كالذي يتبع خطوات المقتدى به، والاقتداء بالشيطان خضوع النفس للعمل بما يوسوسه لها من الخواطر المؤذية لاتباعها، ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة التي وهبها الله له، ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: إنه لا يأمركم إلا بالسوء، أي: يحسن لكم ما فيه مضرتكم؛ لأن عداوته أمر خفي عرفناه من آثار أفعاله، والأمر في الآية للتعبير عن وسوسة الشيطان، وفي تلقيهم ما يوسوس لهم بأنهم لا إرادة لهم ولا يملكون أمرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من نسبة أشياء ما أمر الله

(١) المصدر السابق ٢ / ٢٤٩.

بها، وسمي (الفحشاء) لاشتماله على أكبر الكبائر، وهو الشرك والافتراء على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:١٧٠].

فإن المقصود بالخطاب في ذلك هم المشركون؛ فإنهم الذين ائتمروا لأمره بالسوء والفحشاء، وخاصة بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، وفي هذه الآية زيادة تفظيع لحال أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات أعقب ذلك بذكر إعراضهم عمن يدعوهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة دون تأمل ولا تدبر، وبدون حجة إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم، ما وجدوهم عليه من أمور الشرك، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢].

قال ابن عطية: ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ وهي بمعنى الملة والديانة، والآية على هذا تعيب عليهم التقليد، وقرأ مجاهد ﴿عَلَىٰ أَمَّةٍ﴾ أي: على نعمة؛ فالآية على هذا استمرار في احتجاجهم؛ لأنهم يقولون: وجدنا آباءنا في نعمة من الله، وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضا الله عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إنما هو للرد على قولهم: ﴿نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ويقصد منه الرد ثم التعجيب والتخطئة، هذه الآية ذم للذين أبوا أن يتبعوا ما أنزل الله وأصروا على تقليد العصاة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨].

والتقليد الذي يرفضه الإسلام هو التقليد الذي يمارسه الإنسان بدون تفكير، وهذه الآية لإبطال التقليد الذي تعيبه على المشركين هو تقليدهم من ليسوا أهلًا لأن يقلدوا؛ لأنهم لا يرتفعون عن رتبة مقلديهم إلا بأنهم أقدم جيلًا وأنهم آباؤهم، ولأن التقليد الذي رفضه الإسلام عليهم هو تقليد في أعمال الفساد، والتقليد في الفساد يستوي فيه التابع والمتبوع، وقد رد الله عملهم تلك الفواحش للضلال والغرور واتباع الشياطين أوليائهم من أئمة الكفر، فإن قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ دعوى باطلة؛ إذ لم يبلغهم الله بها.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٠.

خامسًا: الاقتراب من دواعي الفواحش:

لاشك أن لكل جريمة أسبابها ودوافعها المؤدية إليها، وحتى يأمن المجتمع وقوع أي فاحشة فلا بد أن يسعى جادا إلى منع الأسباب المؤدية إليها؛ لأنه متى وجدت الأسباب والدوافع وجدت النتيجة، لذا جاء الإسلام بالقول الفصل بالبعد عن تلك الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى كل شر وتدفع للهاوية.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١].

قال ابن عطية: «نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي و(ظهر وبطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء»[١].

والنهي عن مجرد الاقتراب يحمل في طياته دلالة؛ لأنه لا يوجد حكم شرعي في كتاب الله أو السنة إلا وله حكمة مقصودة منه، وأحكام الشرع تجلب المصالح، دنيوية أو أخروية، وتدرأ المفاسد بكل أنواعها؛ لأن الفواحش معاص يستحى منها؛ لأنها تشمل الإباحية، والانحلال الخلقي، والزنا، وخيانة الأمانة، والمال الحرام، والسرقة، هذه كلها فواحش، إذا انتشر خبرها كان فضيحة، لذا كان النهي عن الاقتراب منها، فلا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم، فـ(ما ظهر) هي الأمور العلانية بين الناس، والباطن منها ما كان بين الإنسان وربه، وهي الأمور التي تأتونها سرا في خفاء لا تجاهرون بها، فإن كل ذلك حرام لأن النهي من الله جاء عن ظاهر كل فاحشة وباطنها، والفواحش الباطنة كبائر القلوب تقترف في السر، والفاحشة الظاهرة ما تقترفه الجوارح، العين تزني، وزناها النظر، الأذن تزني، وزناها سماع ما لا يحل لك سماعه، اليد ترتكب فاحشة باللمس أو الضرب، والرجل ترتكب فاحشة بالسير إلى المحرمات، واللسان يرتكب فاحشة بذكر العورات والخوض في الأعراض، وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)**[٢].

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا، رقم ٢٦٥٧.

الوقاية من الوقوع في الفواحش

لقد أعطى الإسلام الجانب الأخلاقي والسلوكي للمسلم الأهمية القصوى، إذ غرس معاني الخير والفضيلة والإيمان والتقوى في نفوس المسلم؛ لأن هذه المعاني تدفع نحو كل خير، وتمنع كل شر، وتجعل المؤمن مراقبا لله في السر والعلن، وتصقل الإنسان بأخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه وتعاليمه.

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة:١٣٨].

إن المنهج الإسلامي فيه وقاية من الفواحش والرذائل، وجعل للمحافظة على المجتمع الإسلامي؛ ليكون طاهرا نقيا عفيفا يتحلى بالفضائل منهجا وسلوكا وتعاملا، وليتخلى عن الرذائل في مناحي الحياة كافة.

وقد جاءت رسالة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم؛ لتتم مكارم الأخلاق؛ ولهذا اهتم الإسلام بجملة من التدابير الواقية من الفواحش بنوعيها: القولية والفعلية، فجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يقترفون فاحشة الزنا.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان:٦٨].

وتتعدد وسائل الوقاية من الفواحش التي بينها الله تعالى في القرآن الكريم ووضع الضوابط التي ينبغي علينا التمسك بها، فجعل من بينها إقامة الحدود؛ لأن الإنسان إذا ما علم أنه إذا ما أجرم في حق الناس وأيقن أن المجتمع سيقيم عليه الحد فإنه سيفكر كثيرا قبل الإقدام على المعصية.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

وقد زودنا الله تعالى بعدد من النواهي، فنهانا عن مجرد الاقتراب من كل ما من شأنه أن يوقعنا في المعصية الموجبة للحد.

١. منع وسائل الوقوع في الفواحش.

لعل أول الوسائل الوقائية من الوقوع في الفواحش التربية الإيمانية التي تدفع المؤمن إلى فعل الطاعات وترك المعاصي وتقيه من المعصية، وإذا ما وقع في الذنب بادر إلى التوبة بالندم على فعله والإقلاع عنه والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى، ليحقق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥].

إذ من صفات المؤمنين أنهم إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وفي

الآية دلالة على أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين، فعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، أذنبت ذنبًا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أذنبت فاستغفر ربك)، قال: فإني أستغفر، ثم أعود فأذنب. قال: (فإذا أذنبت فعد فاستغفر ربك) فقالها في الرابعة، فقال: (استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور)[(١)].

وقوله: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يغفرها أحد سواه، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)[(٣)].

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: (أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك. قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: اعمل ما شئت)[(٤)].

في الحديث دليل على صحة التوبة بعد نقضها بمعاودة الذنب؛ لأن التوبة الأولى طاعة، وقد انقضت وصحت، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثاني إلى توبة أخرى مستأنفة، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وإنه لا غافر للذنوب سواه سبحانه وتعالى.

وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)[(٥)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٦٣٠٧، ص ١٢١٣.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم ٢٧٥٨، ص ١٢٦٤.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب

وهذا يدل على أن باب التوبة مفتوح أمام الناس كافة، ومن ثم يستطيع الإنسان أن يتوب إلى الله.

وقال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:٢٣].

فحسن إيمان يوسف عليه السلام منعه من الوقوع في الفاحشة التي حاولتها التي هو في بيتها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**)[(١)].

٢. غض البصر.

وهذا الأمر ليس قاصرًا على الرجال دون النساء، إنما هو مطلوب من الجنسين الرجال والنساء.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ [النور:٣٠-٣١].

في الآية بيان آداب ما تقتضيه المجالسة بعد دخول المرء المنزل، بألا يكون الداخل إلى البيت محدقا بصره إلى امرأة فيه، بل إذا جالسته غض بصره، واقتصر على الكلام، ولا ينظر إليها إلا النظر الذي يعسر صرفه؛ لأن الغض التام لا يمكن، ومن المفهوم أن المأمور بالغض فيه هو ما لا يليق تحديق النظر إليه، ويشمل غض البصر عما اعتاد الناس كراهية التحقق فيه، كالنظر إلى خبايا المنازل، بخلاف ما ليس كذلك.

وفي هذا الأمر بالغض أدب شرعي عظيم ويكون من الحياء، وجاء الأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار؛ لأن النظر رائد الزنا، فالمراد بحفظ الفروج حفظها من أن تباشر غير ما أباحه الدين.

٣. ترك النساء إبداء الزينة.

نهى الله النساء عن إبداء زينتهن لما للزينة من أثر في إثارة الشهوات، فتكون سببًا لارتكاب الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا

سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، رقم ٢٧٤٩، ص ١٢٦٠.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، رقم ٦٨٠٦، ص ١٢٩٨.

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

وكذلك منعهن من الضرب بالأرجل؛ لأن من النساء من كن إذا لبسن الخلخال ضربن بأرجلهن في المشي بشدة لتسمع قعقعة الخلاخل غنجًا وتباهيًا بالحسن، فنهين عن ذلك مع النهي عن إبداء الزينة؛ لأن سماع هذه الزينة أشد تحريكًا للشهوة من النظر للزينة، وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شأنه أن يذكر الرجل بلهو النساء ويثير منه إليهن من كل ما يرى أو يسمع من زينة أو حركة، لئلا يثير ذلك دواعي الشهوة منهن إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١].

٤. عدم وصف المرأة.

وضع الإسلام آدابا يلتزم بها المسلمون، فلا يجوز للمرأة أن تصف لزوجها ما تراه من محارم النساء، ففي الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها)[(١)].

ولا يخفى أن ذلك إنما سدا للذريعة، وحماية عن مفسدة وقوعها في قلبه وميله إليها بحضور صورتها في نفسه.

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

٦. تيسير الزواج.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١].

فقد جعل الله تعالى الزواج حماية للإنسان من الوقوع في الفاحشة؛ فكان الحض على النكاح؛ لأن فيه سترا للمسلم، ومن ثم كان الأمر بالاستعفاف لمن لا يجد النكاح، وفي الحديث: عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء)[(٢)].

٧. عدم اللمس المباشر بين الجنيسين.

فقد حرم الإسلام تحريم المصافحة بين الرجال والنساء الأجنبيات، فقد كانت بيعة النساء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بالكلام دون مصافحة، وما مست يد رسول الله يد امرأة إلا زوجة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة:١٢].

قال ابن عطية «اختلفت هيئة مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، رقم ٥٢٤٠، ص ١٠٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة، رقم ٥٠٦٦، ص ١٠٠٥.

بعد الإجماع على أنه لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط، فروي عن عائشة رضي الله عنها وغيرها أنه صلى الله صلى الله عليه وسلم بايع باللسان قولًا»[1].

٨. عدم النوم في فراش واحد.

ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)[2].

٩. مصاحبة الصالحين.

لاشك أن مصاحبة الصالحين من علامات الأبرار، ومصاحبة الأخيار والصالحين من الإسلام؛ لأن الإنسان يحتاج دائما لمن يرشده، لذلك يجب علينا مصاحبة الصالحين، فمن عقل المرء أن يختار مصاحبة الصالحين فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فالصديق الصالح هو الذي يرشد صاحبه إلى طاعة الله، فالمتقون يجتمعون على طاعة الله لا يغش بعضهم بعضًا، ولا يدل بعضهم بعضًا إلى ضلالة أو فاحشة أو ظلم، وإذا وجد صاحبه على ظلم رده عن ظلمه، وإن حصل من أحدهما معصية ينهاه أخوه ويزجره عنها، حتى لا يندم يوم لا ينفع الندم.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

ولا شك أن مصاحبة الصالحين وسيلة لاكتساب الأخلاق الإسلامية الفاضلة، كالإيثار والمروءة، والمسلم يحرص على مصاحبتهم والجلوس معهم للنجاة يوم القيامة من فزع ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف:٦٧-٦٨].

فإذا كان معهم في الدنيا نجا من الفزع، وفي الحديث: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحا منتنة)[3].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٢٩.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم ٣٣٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم ٢٦٢٨.

في الحديث حث على مجالسة أهل الخير، والتحذير من مجالسة أهل الشر، فمن خالط صحبة السوء ناله نصيب من أخلاقهم، إلا من رحمه الله، ومن خالط الصالحين وجالس ذوي التقوى والمروءة وأصحاب مكارم الأخلاق؛ فإنه غالبا ما تناله نفحة طيبة بصحبتهم، فيسلك مسالكهم.

١٠. اجتناب مواطن الفواحش.

يجب على المسلم أن يتجنب مواطن الفواحش ولا يقترب منها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى:٣٧].

هذه صفات للمؤمنين الذين يجتنبون كبائر الإثم، وهي الآثام العظيمة التي نهى الشرع عنها، وتوعد فاعلها بعقاب الآخرة، نحو القذف والاعتداء والبغي، والفواحش جمع فاحشة، وهي الفعلة القبيحة التي شدد الدين في النهي عنها وتوعد عليها بالعذاب أو وضع لها عقوبات في الدنيا للذي يظهر عليه من فاعليها، مثل قتل النفس والزنا والسرقة والحرابة.

وكبائر الإثم والفواحش قد تدعو إليها القوة، ولما كان كثير منها متسببا عن قوة الغضب، كالقتل والجراح والشتم والضرب؛ فقد أثنى على الذين يجتنبونها، فبين أن من صفاتهم المغفرة عند الغضب.

لذا فليحرص المسلم على الحياء الذي يجنبه السقوط في المعصية، ففي الحديث: عن أبي السوار العدوي، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**الحياء لا يأتي إلا بخير**)[١].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**)[٢].

والصدق مع النفس وتطهيرها من ظن السوء بالمؤمنين بفعل الفاحشة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

قال ابن عطية: «أمر الله تعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظن، وألا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابر، وحكم على بعضه بأنه إثم»[٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم ٦١١٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٦٢٤٣.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٥١.

إخوانا»[١].

١١. الانشغال بالعبادات.

إن عبادة الله هي المحرك الأساسي لحياة الأمة، والباعث لحضارتها، والضابط لمنظومة قيمها الإنسانية، إذ يهتم الإسلام بحياة المسلمين وعباداتهم الدينية، وفي علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان الآخر، وهو ما يمكن من خلاله تحديد مدى فهم المسلم لدينه وتطبيقه لتعاليمه والعمل بقيمه وفضائله واجتناب نواهيه، والابتعاد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ومفهوم العبادة في الإسلام مفهوم واسع شامل، ذكرها الله سبحانه وتعالى في معرض بيان وظيفة الإنسان في هذه الحياة، فجعلها الغاية من خلقه، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

قال ابن عطية: «اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع؛ لأنه لو أراد ذلك لم يصح وقوع الأمر بخلاف إرادته، فقال ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: المعنى ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وليقروا لي بالعبودية، فعبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ إذ العبادة هي مضمن الأمر»[٢].

ولهذا كانت حياة المسلم كلها كما أرادها الله عبادة خالصة له سبحانه في جميع جوانبها، فالمسلم عبد لله في كل تحرك وسكون.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام:١٦٢].

قال ابن عطية: «أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته وذبيحته وغيرها وقصر تصرفه مدة حياته وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله وإرادته وطلب رضاه، وفي إعلان النبي صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل»[٣].

ومتى اهتم المسلم بالعبادات التي فرضها الله عليه سلم من الوقوع في الخطيئة، إذ يجب توطيد العلاقة بين العبادة والمعاملة، حتى لا نجد من يؤدي فروض الإسلام كاملة تامة ولكنه يسقط أمام أول اختبارات المعاملة في خطابه للآخر، أو تعامله معه، أو أدائه الوظيفي، أو واجبه الأسري نحو أسرته وحمايتها.

والعبادات تقرب الإنسان مما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم ٦٠٦٤ ص ١١٧٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٨٢.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٦٩.

والظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، وأمثال ذلك من العبادة.

ولم يترك الله سبحانه وتعالى عبده إذا وقع في المعصية، بل جعل له مخرجا منها، فجعل الصلاة هي السبيل.

قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال ابن عطية: «أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنفوذ لأمره وتلاوة القرآن الذي أوحى إليه، وإقامة الصلاة، أي: إدامتها والقيام بحدودها، ثم أخبر حكما منه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ﴾ صاحبها ﴿عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وذلك عندي بأن المصلي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وتذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يدي العظمة وأن قلبه وإخلاصه مطلع عليه مرقوب صلحت لذلك نفسه، تذللت وخامرها ارتقاب الله، فاطرد ذلك في أقواله وأعماله، وانتهى عن الفحشاء والمنكر»[(١)].

ومن ثم تجد أن من يخلص في العبادة لله ينل البركة والطمأنينة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة.

١٢. عدم إشاعة أخبار الفواحش.

الإشاعة هي الإظهار والنشر للأخبار من غير تثبت وتحر للصواب، ولقد نهى الإسلام عن إشاعة أخبار الناس وبث الشائعات بألوانها المختلفة عنهم، ومن ثم عدم الخضوع لمبرراتها المصحوبة بالكذب والخداع وما تحمله من بث لبذور الفتنة في المجتمعات.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات:٦].

فقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ أي: فتثبتوا، التبين: التعرف والتفحص، ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر في الأمر الواقع والخبر الوارد إليكم حتى يتضح ويظهر، ومشاورة المختصين والرجوع إلى المصادر الموثوقة قبل نشر الخبر، فمن الخطر الجسيم إعادة نشر أي خبر قبل التثبت من مصدره ومن مضمونه والهدف منه، ولا سيما إذا كان هذا الخبر يتعلق بما ينال إنسانًا من رميه بالفاحشة وما قد يترتب عليه.

لذا فإن الله سبحانه وتعالى ذم المنافقين بإذاعة الأخبار الكاذبة على غير الحقيقة لأغراض خفية في نفوسهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٣١٩.

﴿أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣].

في الآية إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وفيها توبيخ للمنافقين ولوم لمن يقبل مثل تلك الإذاعة من المسلمين لما أخبروا به وأفشوا.

لذلك فمن الواجب على المسلم الحذر والتحري قبل إشاعة الأخبار، وعدم التحدث بكل ما يسمعه، جاء في الحديث عن حفص بن عاصم رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع)[(١)].

وذلك إذا لم يتثبت من الخبر؛ لأنه يسمع عادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع لا محالة يكذب، والكذب الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه وإن لم يتعمد ذلك.

وفي الإشاعة أضرار كثيرة، فإذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل له عذرًا. فالستر مطلوب للناس، وهو أنفع من التشهير حتى مع فرض صحة الخبر، ولا شك أن التماس العذر للآخرين من محاسن الأخلاق، وقد بين القرآن الكريم والسنة النبوية طريقا واضحا للتعامل مع الشائعة يتمثل في التثبت

(١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، رقم ٥.

والتبين دون قبول مضمون ما في الشائعة وعدم العمل بمقتضاها.

والمسلم مطالب بعدم الانسياق وراء الإشاعات مهما كانت، وأن يتحرى الصدق، وأن يتذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وعلى كل عاقل أن يتروى ويتثبت في كل ما يقال وينقل، وألا يبادر بالتصديق، فإن الأصل في الإنسان البراءة، ولنتذكر دائما قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

فكل إنسان محاسب على ما يقول، ومن ثم فإنه لا يجوز إشاعة أخبار الفواحش، ويجب على المسلم أن يتثبت من الأخبار والشائعات، ويعلم مصدرها والهدف منها قبل أن يشارك في نشرها، ففي الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)[(٢)].

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢.

يعيب إنسانا أو يفضحه لقول قاله أو لرأي، ولم يكن ليعنفه لذلك.

وفي الحديث عن ابن عمر قال: (صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله. قال: ونظر ابن عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك! والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك)[(١)].

١٣. إقامة الحدود.

إن نعمة الله علينا تكمن في ديننا القويم من جميع الوجوه، في العبادة والأخلاق، والسلوك في المعاملات، وفي حقوق الله وحقوق العباد، فهو دين يجمع بين الرحمة والحكمة، إذ من طبيعة البشر أن تكون لهم إرادات متباينة، فمنهم من ينزع إلى الخير، ومنهم من ينزع إلى الشر، ولذلك فرض الله الحدود وأوجب على ولاة الأمور إقامتها، وقد أنزل الله تعالى الآيات للناس لتبين للناس ما يترتب على الشر من المفاسد في الدنيا والعذاب في الآخرة، وما يترتب على الخير من المنافع في الدنيا والثواب في الآخرة، وقد فرض الله بحكمته عقوبات دنيوية محددة أو مفوضة إلى ولاة الأمور، فأحكام الحدود هي من أعمال القضاء، إذ عليها يكون حفظ الضروريات، ففي حد الردة حفظ الدين، وفي حد الزنا حفظ الأنساب، وفي حد الخمر حفظ العقل، وفي حد القذف حفظ العرض، وفي حد السرقة حفظ المال.

قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ١-٢].

في الآيتين دليل واضح على أن الحدود فريضة فرضها الله على عباده، ويجب على ولاة الأمور أن ينفذوا ما فرض الله عليهم، وعليهم أن يقيموا فرائض الله التي فرضها عليهم في عقوبة المجرمين، حتى لا تعم فوضى لا يحدها حد، وقد اقتضت حكمة الله أن تتنوع هذه العقوبات بحسب الجرائم، لتردع المعتدين وتمحو الفساد، وتقيم أود الأمة وتكفر جريمة المجرم فلا يجمع له بين عقوبة الدنيا والآخرة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، ٤/ ٣٧٨، رقم ٢٠٣٢.
قال الترمذي: حسن غريب.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٩٨٥.

ولا شك أن إقامة الحدود فرض واجب يقيمه ولي الأمر، لتستقيم حياة الناس، إذ يجب إقامة الحد على من اقترف إثما مما يوجب الحد، وقد شرع الله إقامة الحدود صونا للأعراض، ودفعا للفساد، وحماية للحقوق، وردعا للمجرمين، حتى تستقيم الحياة وتعم الطمأنينة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨].

حد الزنا: الزنا هو فعل الفاحشة في قبل امرأة لا تحل له، وهو فاحشة عظيمة من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله وقتل النفس بغير حق.

والزنا درجات متفاوتة في القبح، فالزنا بامرأة ذات زوج من أعظم الفواحش، والزنا بحليلة الجار أعظم، والزنا بذات محرم أشد وأعظم، غير أنه في كل الأمور فاحشة ممقوتة تستحق إقامة الحد، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:2].

قال ابن عطية: «قدمت (الزانية) في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنا النساء أفشى، وكان لأمراء العرب وبغايا الوقت رايات، وكن مجاهرات بذلك، وإذا العار بالنساء ألحق إذ موضعهن الحجبة والصيانة فقدم ذكرهن تغليظا واهتماما. وهذه الآية باتفاق ناسخة لآية الحبس وآية الأذى اللتين في النساء»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المقصود بالآية الكريمة الإغلاظ والتشديد على الزناة والتوبيخ بحضرة الناس، فلا خلاف أن الطائفة كلما كثرت فهو أليق بامتثال الأمر.

ومن رحمة الله بعباده وما اقتضت حكمة الله تعالى التدرج في إنزال العقوبة بفاعل الزنا، فكان في أول الأمر عقوبة الزنا بالإيذاء والتوبيخ والتعنيف، ثم تدرج الحكم بالعقوبة من ذلك إلى الحبس في البيوت بقوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء:١٥-١٦].

ثم استقر الأمر وجعل السبيل، فجعل عقوبة الزاني البكر مائة جلدة والرجم للثيب حتى يموت، وهذا التدرج يأخذ به إلى العفاف والطهر، وحتى لا يشق على الناس هذا الانتقال فلا يكون عليهم في الدين حرج، وذلك كما في الحديث عن عبادة

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠.

ابن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[1].

أثر انتشار الفواحش في المجتمع

الإسلام دين يحث على الفضيلة وينفر من الرذيلة، ولقد حرص الإسلام على محاربة العادات التي تتسم بالفواحش، لما تسببه من مفاسد، وتلحق أضرارا بالمجتمع، فانتشار الفواحش في أي مجتمع يعد تدميرًا له.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن عطية: «ظهور الفساد فيهما هو بارتفاع البركات ونزول رزايا، وحدوث فتن، وتغلب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر، وقال ابن عباس: الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقلما تجد أمة فاضلة مطيعة مستقيمة الأعمال إلا يدفع الله عنها هذه، والأمر بالعكس في أهل المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أمر البلاد في وقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان الظلم عم الأرض برا وبحرا، وقد جعل الله هذه الأشياء ليجازي بها عن المعاصي فيذيق الناس عاقبة أذنابهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله»[2].

ولقد توعد الله الذين يتتبعون عورات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا، رقم ١٩٦٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤٠.

الناس ويحبون أن يلصقوا بهم الشائعات الفاسدة بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور:١٩].

قال ابن عطية: «الآية عامة في كل قاذف منافقا كان أو مؤمنا، فالقاذف المؤمن لا يتصف بحب شياع الفاحشة في المؤمنين جملة، لكنه يحبها لمقذوفه، وكذلك آخر لمقذوفه وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم»(١).

وقد حرم الله ذلك لأن نشر الفاحشة في المجتمع طريق لهدم الأسرة والمجتمع بهذه الوسائل، ومن ثم تجد أعداء الله هم أحرص الناس على نشر الرذيلة وهدم الفضيلة بين المسلمين، وتراهم يمكرون بهم.

وكان من الأحرى بهم أن يأخذوا بيد الإنسان وإن كان عاصيًا؛ بهدف البقاء عليه.

ففي كل يوم تطالعنا بعض وسائل الإعلام بنشر أخبار الفساد التى تلقى قبولا يوما بعد يوم من الناس التي تتشوق لهذه الأخبار التي قد تحمل في طياتها تشهيرا بإنسان صدقا أو كذبا، وربما يتسبب هذا الخبر الذي يحمل تشهيرًا في تشويه سمعة إنسان بغير حق، وهذا التصرف ليس من الإسلام في شيء.

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تتبع سقطات الناس في المجتمع، فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يشهر بإنسان أخطأ في أمر ما؛ وإنما كان عندما يغضب من فعل شخص أو لا يعجبه قوله ويخشى أن ينتشر هذا القول أو الفعل بين الناس فى المجتمع المسلم كان صلى الله عليه وسلم يصعد المنبر، ويخطب الناس، ويقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا»، ولا يذكر اسم الفاعل حتى لا يشعره بحرج، أو يجعله مسار تندر أو سخرية في المجتمع، فالإنسان وإن كان فاحشا؛ فإنه يجب الإبقاء عليه بحيث يمكن علاجه، ولا نكون سببًا في انحرافه، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستر على مرتكب الجريمة؛ لعله يتوب بينه وبين نفسه أو يعود إلى الله.

ويجب على من ابتلي بشيء من الأذى والفساد والفسق وعدم المبالاة ألا يجاهر بما ارتكب من الفاحشة، إذ عليه أن يستر نفسه، وألا يعين الشيطان على نفسه، وليشعر بشيء من الحياء، فقد جاء في الحديث: «عن سالم بن عبد الله قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١.

وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[1].

بل إن الإسلام حرم حتى على الزوج أن يذكر فحولته وقدرته على الجماع مع زوجه، لما في ذلك من خصوصية لا ينبغي لأحد غير الزوجين أن يطلع عليها؛ لأنه ذريعة إلى تحريك النفوس، وقد لا يكون عند الرجل من يغنيه عن الحلال، فيتخطى إلى الحرام، ومن هذا كان المجاهرون خارجين عن منهج الله لأنهم متحدثون بما فعلوه من المعاصي.

ولا شك أن انتشار الفاحشة في المجتمع يؤدي إلى انتشار المفاهيم الخاطئة؛ لأن الناس إذا اعتادوا أن يروا الفواحش ليل نهار دون رادع فسوف يترسخ فى أذهانهم مفاهيم خاطئة عن المجتمع وأفراده، فيتخيل كل واحد منهم أن تلك الممارسات الفاحشة هي أمور طبيعية، وذلك حسب ما تكون لديه من أفكار ومفاهيم خاطئة، بل قد يقع فى تلك الرذائل والموبقات والفواحش دون إحساس أو وازع من ضمير.

لقد حرص الإسلام على محاربة فاحشة الزنا لما تسببه من مفاسد كبيرة تلحق أضرارًا بالغة في المجتمع، ومن ثم نرى أن فاحشة الزنا من أكبر المفاسد وأشدها خطرا على المجتمعات التي تنتشر فيها؛ لأن الزنا مناقض لصلاح المجتمع في حفظ الأنساب والأعراض والفروج، والزنا يجمع صفات الشر كلها، ويفتح على الناس أبواب المعاصي كلها، من ظلم الخلق، وإضاعة أهله وأمواله، وكسب الحرام، ويولد الأمراض، ويورث الفقر والمسكنة، وهذا الداء يورث نفرة الناس ووحشتهم منه، وسقوطه من أعينهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم ٦٠٦٩.

الاعجاز التشريعي في تحريم الفواحش

الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم عبارة تشمل كل ما شرعه الله لعباده، وهو المنهج الذي أراده الله لعباده أن يسلكوه ويأتمروا به قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

فالقرآن الكريم مصدر التشريع للمسلمين ثم يأتي بعده الحديث الشريف، وكلاهما مصدر تشريع، وبيان لكل من آمن بالله وباليوم الآخر، فالله يعلم ما يصلح لعباده، هذا ما تقر به الفطرة السليمة؛ لأن الله أعلم بما خلق، فينهاه عما يضره، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك:١٤].

وفيما يتعلق بالإعجاز التشريعي في تحريم الفواحش، فقد جاء القرآن هداية للناس أجمعين، واشتمل على أحكام تشريعية تكفل سعادة الناس في الدنيا والآخرة، وتصون أعراضهم، وتحقق لهم الأمن والطمأنينة والسكينة، وتضمن لهم الحقوق في الوفاء باحتياجاتهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٩].

ومن ثم نرى أن منهج الإسلام في مكافحة الجريمة يقوم على أمرين: الأول هدفه منع وقوع الجريمة أصلًا، إذ يبين لهم مخاطرها وعواقب ارتكاب ما نهى عنه، باعتبار أن الوقاية خير من العلاج، فحرم الله الزنا، وشدد في عقوبة الزناة، ولم يدان منه عقوبة، بل حرم حتى الا قتراب من الزنا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٢-٣٣].

فكل ما يقرب من الزنا فهو حرام، كالقبلة والتبرج وإظهار الزينة المثيرة للشهوة والملامسة، ونشر الصور البذيئة، وقول الشعر الماجن، وغير ذلك من مثيرات الشهوات وما يقرب من ارتكاب الفاحشة.

أما الثاني فهو يأتي بعد وقوعها، وهدفه منع تكرارها سواء من فاعلها أو من غيره، ويسمى عقابًا.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور:٢].

كذلك حرم الله قذف المحصنات؛ لأن ذلك الجرم من الجرائم الاجتماعية التي تشيع الفاحشة بين المسلمين وتنزع الحياء من المجتمع، وتورث الضغائن والأحقاد، وربما تؤدي إلى ارتكاب الجرائم، وقد لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وتوعدهم في الآخرة بعذاب شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النور:٢٣].

وترى الإعجاز التشريعي في محاربة الإسلام للفاحشة التي فعلها قوم لوط عليه السلام، فقد فضح الذين ارتكبوا الفاحشة؛ لأن في فعلهم هذا مخالفة للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

فهذه الفاحشة تنقل الأمراض الخبيثة عن طريق الاتصال الجنسي غير المشروع، ومنها: الإيدز، والزهري، السيلان، وغير ذلك، فالأمراض الجنسية هي الحصاد الطبيعي للإباحية البعيدة عن الأخلاق القويمة.

وترى الإعجاز التشريعي في حد اللواط وبيان عقوبته، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به، ففي الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)**(1).

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتل الفاعل والمفعول به؛ لأنه لا خير في بقائهما؛ لفساد طويتهما، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق في بقائه.

فالتشريع يهدف لتحقيق حفظ النسل، وحفظ النسل من أعظم أسباب البقاء، ومن أسباب عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

واستخلاف الله في الأرض بحفظ النسل بالترغيب بما يحصل به استمرار النسل وبقاؤه، بالنكاح الشرعي، بتحريم فاحشة اللواط، والمعاقبة على اقترافها.

وقد جعل الإسلام الإصلاح ذاتيا، بتزكية النفس، والقلب السليم هو أداة تطبيق هذه المرحلة، وإن كان وجوده لازما ليتميز به العاقل من غيره؛ لأن الإنسان في مرحلة الإصلاح الذاتي بحاجة لأن يختار من بين النصائح ما يملى عليه القرار المناسب، وما يصاحبه من عوامل وأسباب تكون مجموع المبادئ التي يجعلها العاقل نبراسا لا يحيد عنه؛ لأن أول ما جاء به الإسلام هو تغيير النفوس.

هذا الإصلاح يؤدي لصلاح المجتمع، ويحافظ على التقاليد التي تربط العلاقات بين أفراد المجتمع، وقد أشركت الشريعة المجتمع كله في الإصلاح، ليؤدي العمل الذي يعجز عنه الفرد مع نفسه، فالمجتمع لا يخلو من ضعاف النفوس الذين لا ينتفعون بالإيمان، والمجتمع الذي يريده الإسلام هو الذي يسود فيه الأمن والطمأنينة، ولذلك دعت الشريعة إلى الأمر بالمعروف والنهي

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، ٤/ ١٥٨، رقم ٤٤٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢١، رقم ٦٥٨٩.

عن المنكر من غير عنف ولا غلظة.

وقد أوجب الإسلام تغيير المنكر على كل أفراد المجتمع، كل حسب طاقته، وهو فرض كفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من الناس، ويدل على ذلك الوجوب قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وجاء في الحديث الشريف الأمر بتغيير المنكر، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[(١)].

وقد ربط الإسلام هذا الواجب بحقيقة المسلم، وهي الإيمان، وهي أكثر حثا للمؤمن على الفعل.

ولا يخفى ما للإعجاز التشريعي في تحريم الفواحش من أهمية قصوى في القضاء على ممارسة الفاحشة، بل إن التشريع هو رأس الأمر ومناط التكليف، وبدونه تصير شريعة الغاب هي الغالبة، ويفجر أصحاب الأهواء، قال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

لقد حرم الإسلام بعض السلوكيات لما تفضي إليه من جرائم، والمتأمل في العقوبات الشرعية يلاحظ وجود الرادع، فمن يرتكب فاحشة الزنا ويشاهد عقوبتها؛ فإنه سيتحاشاها، ويفهم الردع جيدًا، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور:٢].

فالردع قد يمنع المجرم من العود، وعقوبة القصاص التي تطبق في الجرائم العمدية ليس فيها عفو من جانب الأولياء، وتجد العقاب بالجلد على الجرائم الحدية، كما هو الحال في القذف والزنا لغير المحصن، هذه العقوبة تنطوي على فوائد متعددة، فهي تحقق الردع والزجر كونها تطبق أمام الناس.

إن التشريع القرآني يتميز بأن عقابه رادع زاجر مكفر عن الإثم الناتج عن الجرم، والأحكام التي نص عليها القرآن الكريم تحقق النتائج المرجوة، مما يدل على إعجاز القرآن التشريعي في تطهير المجتمع من الفاحشة.

وللتشريع الإسلامي مميزات تميزه وتساعد على دوامه بين الناس راضين بعدالته وتمشيه مع مصالح الأفراد في المجتمع، والشريعة الإسلامية لها مميزاتها

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم ٤٩.

التي تجعل الناس تنقاد إليها عن قناعة؛ لأنها تتفق والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي تخاطب العقول السليمة، وتحض على العمل، وتنادي بالتقوى ونبذ الفاحشة.

موضوعات ذات صلة.

الذنب، الربا، الزنا، المنكر



عناصر الموضوع

مفهوم القبر

أولًا: المعنى اللغوي

القبر من مادة قبر أي: دفن وواري بالتراب، والقبر للميت وهو مدفن الإنسان، يقال: قبرت الميت وأقبرته قبرًا أي: دفنته وجعلت له مكانًا يدفن فيه، أو أمرت بأن يقبر وأعنت على دفنه، وقيل: أقبرته أي: صيرت له قبرًا يدفن فيه ويوارى فيه، وفي الآية القرآنية: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾[عبس:٢١].

أي: أُلهِم كيف يدفن، أو جعله ممن يقبر ولم يجعله يلقى للكلاب أو الطيور، وكأن القبر مما أكرم به بنو آدم. والقبر واحد، والجمع قبور، والمقبرة بفتح الباء وضمها واحد المقابر؛ وهو موضع القبور، يقال: نقلوا من القصور إلى القبور، ومن المنابر إلى المقابر[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

لا يكاد المعنى الاصطلاحي للقبر يخرج عن معناه اللغوي، وقد وردت تعريفات منها: «القبر هو المكان الذي يدفن فيه الميت»[(٢)]، وهو «مقر الميت»[(٣)]، وقيل: «القبر هو الحفرة التي يستقر بها الميت، والمقبرة: اسم للمكان المشتمل على الحفرة وما ضمت»[(٤)].

وقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم القبر من الناحية المعنوية فقال: (**إن القبر أول منازل الآخرة؛ فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج فما بعده أشد منه**)[(٥)]، وهذا وصف لحال الميت في القبر.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٨٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٤٠، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٤٧، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٦٨.

(٢) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ١/ ٢٩٣.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٥١.

(٤) المتواري على تراجم أبواب البخاري، أبو العباس الجذامي، ١/ ٨٥.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم ٤٢٦٧، ٢/ ١٤٢٦. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٧، رقم ١٦٨٤.



القبر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قبر) في القرآن الكريم (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ [عبس:٢١]
الاسم	٧	﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج:٧]

وجاء القبر في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو مقر الميت[٢]، ولم تخرج عن معناها اللغوي، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر:٢٢]. يعني: كما لا يسمع ولا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٢٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٩٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأجداث:

الأجداث لغة:

الأجداث جمع جدث، حيث يقال للقبر: جدث وجدف [(١)].

الأجداث اصطلاحًا:

هي القبور، أماكن دفن الميت [(٢)].

الصلة بين الأجداث والقبور:

مترادفتان.

٢ البرزخ:

البرزخ لغة:

وهو الحائل بين شيئين [(٣)].

البرزخ اصطلاحًا:

هو الفترة الممتدة من موت الإنسان إلى بعثه، حيث يقال للميت هو في البرزخ؛ لأنه بين الدنيا والآخرة [(٤)]. والبرزخ نوعان: زماني وهو الفترة الممتدة بين الموت والبعث، ومكاني وهو: القبر [(٥)].

الصلة بين القبر والبرزخ:

قد يأتي البرزخ مرادفًا للقبر من حيث إنهما مكان دفن الميت، ويأتي أحيانًا بمعنى الحياة داخل القبر.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٠/ ٣٣٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ١٨٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ١٠٩.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي، ١/ ٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ١٣٠.

(٣) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ١١١٦.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٧/ ٢٧١، ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن، الباوردي، ١/ ٣٨٣، التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم، ١/ ٢٤٣.

(٥) انظر: مفاهيم إسلامية، مجموعة من علماء أوقاف مصر، ١/ ٦٩.

٣ الضريح:

الضريح لغة:

ضرح الضريح للميت يضرحه ضرحًا أي: حفر له ضريحًا، وسمي الضريح في القبر ضريحًا؛ لأنه انضرح عن جالي القبر فصار في وسطه [١].

الضريح اصطلاحًا:

الضريح هو الشق في وسط القبر، وقيل: الضريح القبر كله، وقيل: هو قبر بلا لحد [٢].

الصلة بين القبر والضريح:

القبر يطلق على كل مدفن للميت، أما الضريح يطلق على القبر كله والشق وسطه.

٤ اللحد:

اللحد لغة:

من لحد أي: مال عن الاستقامة، يقال: لحد للميت وألحد له أي: حفر له لحدًا في أحد جانبي الجدث [٣].

اللحد اصطلاحًا:

هو «حفرة مائلة عن الوسط» [٤]، وهو الشق الذي يكون في جانب القبر موضع الميت، وسمي باللحد؛ لأنه أميل عن وسطه إلى جانبه بأن يحفر في عرضه أو جانبه [٥].

الصلة بين القبر واللحد:

القبر اسم عام يطلق على كل مدفن للميت، أما اللحد فهو طريقة خاصة بأن يحفر في جانب القبر للميت.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٤/ ١٢٢، جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ١٥٦.
(٢) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٣/ ١٢٧، اللطائف في اللغة، اللبابيدي، ١/ ٢٩٠.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٠٨، المغرب في ترتيب المعرب، لأبي المكارم بن علي ١/ ٤٢٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ١/ ٢٨٨.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٣٨٨، الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٢٨.

القبر وكرامة الانسان

أولًا: القبر تكريم إلهي للإنسان عن باقي المخلوقات:

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وصان كرامته، وحمى حقوقه، وجعله خليفةً في الأرض، وخصه بخصائص لا مثيل لها تميز بها عن باقي المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الاسراء:٧٠].

ويستمر حفظه له وعنايته به منذ خلقه حتى بعد الممات بحفظ جسده بعد مماته، بأن جعله يقبر ويدفن فلا يرمى للسباع والحيوانات المفترسة والطيور، وهذا ما علمه الله للإنسان من زمن آدم عليه السلام؛ إكرامًا له وتفضلًا عليه، فجعل في غريزة نوعه وفطرته أن يواري ميته بالتراب[(١)].

لذلك سن الله سبحانه وتعالى القبر للإنسان، وامتن عليه به، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس:٢١].

أي: جعله ذا قبر يوارى فيه، وجعل مثواه جوف الأرض كرامة له ورعاية؛ لأن القبر مما أكرم به الإنسان[(٢)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٣٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٩/ ٢١٩، تفسير المراغي، ٣٠/ ٤٥.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٤/ ٧٠٣، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣١/ ٥٨، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٨٣١.

فهذه الآية تدل على وجوب دفن الأموات وإقبارهم؛ إكرامًا لهم، دون إحراقهم كما يفعل الكفار كالمجوس والهندوس، فالواجب على المسلمين احترام موتاهم، ودفنهم كما أراد الله سبحانه وتعالى.

ثانيًا: الدفن في القبر:

لقد شرع الله الدفن للميت تحت التراب، وألا يترك على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر:٢].

أي: إذا جاء الأجل صرتم إلى المقابر ودفنتم فيها، فالآية فيها كناية عن الموت ودفن الموتى في المقابر، حيث يؤتى بالأموات ويدفنون في المقابر[(٣)]، وقد حث الإسلام على دفن الميت في القبر؛ لأن فيه تكريمًا للإنسان، فجعل الأرض وعاء للأحياء في المساكن والمنازل، وللأموات يدفنون في بطونها في القبور، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥][(٤)].

وهذا ما أجمع عليه المسلمون بأن دفن الميت ومواراة بدنه فرض، فبعد الفراغ من الصلاة على الميت ينبغي أن يدفن الميت في القبر، وهو الحفرة الخاصة ذات الصفات التي تحفظ حرمته، وتصونه من

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ٤٧٣، التفسير الحديث، دروزة عزت، ٢/ ١٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٤/ ١٣٣.

الامتهان، وتجعله في مأمن من تناول السباع وخروج رائحة الجسد، حيث بعد دخوله القبر يوضع على شقه الأيمن ويوجه إلى القبلة، ثم يهال عليه التراب، ويسن أن يعمق القبر، وأن يوسع، وأن يلحد له فيه، وهو: أن يحفر في قاع القبر حفرة في جانبه إلى جهة القبلة، فإن تعذر اللحد فلا بأس بالشق، وهو أن يحفر للميت في وسط القبر، لكن اللحد أفضل؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (اللحد لنا، والشق لغيرنا)(١)(٢).

ثالثًا: تعليم الإنسان الدفن:

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة ٣١].

هذه الآية أصل في دفن الميت(٣)، حيث روي أنه لما قتل قابيل أخاه هابيل، ولم يعرف كيف يصنع به ويواري جثته، وتحير في ذلك؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم، بعث الله غرابًا يبحث في الأرض منقبًا في غذائه، أو يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا، فحفر حفرة، فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله، ففعل لأخيه مثلها ووارى بدنه فيها؛ لأن بدن الميت عورة، والجثة سوأة لا تطيقها النفوس، وبذلك تعلم الدفن للميت، ووارى سوأة أخيه(٤)، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ دليل أنه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلم ابن آدم منه الدفن، فحين رأى القاتل الغراب يبحث في الأرض، تعلم منه سنة الدفن(٥).

ويقول القرطبي في تفسير الآية السابقة مبينًا هذا المعنى: «بعث الله الغراب حكمة، ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١].

فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق، فرضًا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين، وأخص به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين»(٦).

إن في مشهد تعلم الإنسان الدفن من الغراب، والذي صورته الآية الكريمة لعبرة للخلق «فهذا المشهد العظيم هو مشهد أول حضارة في البشر، وهي من قبيل ستر المشاهد المكروهة، وهو أيضًا مشهد أول

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الجنائز، باب ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: اللحد لنا، ٣/ ٣٥٤، رقم ١٠٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٦٤، رقم ٥٤٨٩.

(٢) انظر: تحفة الفقهاء، السمرقندي، ١/ ٢٥٥، الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، ١/ ١١٨.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ١١٢.

(٤) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ١/ ٥٠٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٨، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٨٧٧.

(٥) انظر: تفسير المراغي، ٦/ ١٠١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ١٤٣.

علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضًا مشهد أول مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه»[1].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ١٧٤.

عذاب القبر

إن عذاب القبر حق، وهو ثابت بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله يعذب من استحق العذاب إن شاء، وإن شاء عفى عنه، وقد دلت الآيات القرآنية على عذاب القبر في مواضع كثيرة منها:

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ١-٤].

حيث فسر ابن عباس الوعيد في الآية بما ينزل من العذاب في القبر، ففي الآيات وعيد بعد وعيد، وردع وتنبيه لمن ألهتهم الدنيا عن العمل الصالح والاستعداد للآخرة، بأن ليس الأمر بالتفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، حتى إذا قبرتم عوقبتم بالعذاب، فهذا وعيد من الله بأنهم سوف يعلمون عاقبة فعلهم بعذاب في القبر، وما يحل بعده من عذاب في الآخرة[2].

يقول القرطبي في تفسير سورة التكاثر: «فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، وإن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم، حسبما أخبر به الصادق، وأن الله سبحانه وتعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ١٧٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/ ١٩٤، التفسير المنير، الزحيلي، ٣٠/ ٣٨٨.

الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره من كرامة وهوان، وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

هذه الآية الكريمة من الآيات الدالة على عذاب القبر، فقد فسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق على المعرض عن الله قبره، ويحصر فيه ويعذب، جزاء إعراضه عن ذكر ربه[(٢)].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (المؤمن في قبره في روضةٍ، ويرحب له قبره سبعين ذراعًا، وينور له كالقمر ليلة البدر، أترون فيما أنزلت هذه الآية) قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

قال: (أتدرون ما المعيشة الضنك؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليهم تسعةٌ وتسعون تنينًا، أتدرون ما التنين؟) قال: (تسعةٌ وتسعون حيةً لكل حيةٍ سبعة رؤوسٍ ينفخون في جسمه ويلسعونه، ويخدشونه إلى يوم القيامة)[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

هذه الآية خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولو ترى يا محمد صلى الله عليه وسلم أولئك الطغاة في ساعة الاحتضار وهم في خضم الشدائد وغمرة السكرات، وحولهم الملائكة الذين كانوا يتعجلون نزولهم، فها هم قد حل الموت بهم وجاءهم العذاب الذي لا رجعة فيه، وغشيتهم سكرات الموت، وحضرتهم ملائكة العذاب، يستعجلون خروج أرواحهم الخبيثة، ولو تراهم وهم على هذه الحال لرأيت أهوالًا عظامًا[(٤)].

والملائكة تقول لهم عند قبض أرواحهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/ ١٧٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥١.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي هريرة، ١١/ ٥٢١، رقم ٦٦٤٤.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٢١٧.

(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٢/ ٥٠٨.

والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصي وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[1].

وفسر القرطبي بسط الملائكة أيديهم أي: بالعذاب ومطارق الحديد أو لقبض أرواحهم[2].

ولقد ذكر بعض العلماء أن هذه الآية تصف حال الكافر عند القبض، وعذاب القبر، وأن هذا الخطاب والعذاب الموجه من الملائكة إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده[3].

ويقول الشيخ الفوزان: «وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبر الملائكة -وهم الصادقون- أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ فدل على أن المراد به عذاب القبر»[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

لقد وعد الله في هذه الآية الفسقة المكذبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى، أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر، واختلف أهل التأويل في بيان معنى العذاب الأدنى، فقال البعض: هو مصائب الدنيا. وقال آخرون: عذاب القبر. وقيل غير ذلك، وقد فسرها ابن عباس بعذاب القبر[5].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] هذه الآية تدل على عذاب القبر، وقد احتج بعض أهل العلم بهذه الآية في تثبيت عذاب القبر.

ونقل القرطبي أن الجمهور على أن العرض المذكور في الآية في البرزخ؛ لأنه بين ما لهم في الآخرة فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟﴾[6].

قال السيوطي: «وفي (العجائب للكرماني): في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه»[7].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٣٠٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٤١.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٣٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٦٤.
(٤) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص ٢٧٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ١٩١، تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي، ١/ ٣٤٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٥/ ٣١٩، زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٤٠، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٨٥.
(٧) الإكليل في استنباط التنزيل، ص ٢٢٦.

ويعني قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: هذا العرض ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة يقال لهم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وهو عذاب جهنم[1].

ويقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: «والنص يلهم أن عرضهم على النار غدوا وعشيا، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة، وقد يكون هذا هو عذاب القبر، إذ أنه يقول بعد هذا: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة، وهو عذاب سيئ، عرض على النار في الصباح وفي المساء، إما للتعذيب برؤيتها وتوقع لذعها وحرها- وهو عذاب شديد- وإما لمزاولتها فعلًا، فكثيرًا ما يستعمل لفظ العرض للمس والمزاولة، وهذه أدهى ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب»[2].

ويدل على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة**)[3].

وإن من الأدلة على ثبوت عذاب القبر من السنة النبوية، ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم الصحابة رضي الله عنهم الاستعاذة من عذاب القبر، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء، كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: (**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**)[4].

إن أهل السنة يصدقون بأن الله سبحانه وتعالى يعذب هذا في قبره، أو ينعم هذا في قبره، كما وردت في ذلك أدلة مجملة ومفصلة، ولكن الكيفية محجوبة عنا، حتى ولو لم ندرك ذلك فقد أدركه الأنبياء، ولو كشفنا عن الميت ورأيناه كما وضع فإنا لا ننفي أنه يعذب أو ينعم، أو يضيق عليه قبره أو يوسع عليه؛ وذلك لأن هذا من علم الآخرة، وأهل الدنيا ليسوا مطلعين على أمور الآخرة، وقد أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر ونعيمه اعتمادًا على عقولهم وحواسهم؛ لأنهم لا يشاهدون شيئا من ذلك، ونرد عليهم بأن عذاب القبر

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٣١٢.
(٢) في ظلال القرآن، ٥/ ٣٠٨٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده، رقم ١٣٧٩، ٢/ ٩٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، رقم ١٣٤، ١/ ٤١٣.

من علم الغيب الذي يعتمد على النصوص الصحيحة، وليس للعقل ولا الفكر دخل فيه، وأحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، وعدم إدراك الإنسان للشيء لا يدل على عدم وجوده، والله أعلم[1].

ولابن القيم في إثبات عذاب القبر كلام نفيس، فقد ذكر بأن الله تعالى قد جعل الدور ثلاثًا، وهي دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، وجعل الله لكل دار أحكامًا تختص بها، فجعل الله الأحكام في دار الدنيا تسري على الأبدان والأرواح تبع لها، وجعل الأحكام في دار البرزخ تسري على الأرواح والأبدان تبع لها، وجعل الأحكام في دار القرار تسري على الأرواح والأبدان معًا، ثم بين أن سعة القبر وضيقه ونوره وناره ليس من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا[2].

أسباب عذاب القبر

إن أسباب عذاب القبر كثيرة:

١ . الكفر.

فللكافر نصيبٌ من العذاب، ومبدأ ذلك حاصلٌ في القبر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠].

٢ . النفاق.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١].

وأغلب ما ورد من أقوال المفسرين أن إحدى المرتين هو عذابهم في البرزخ قبل الآخرة.

٣ . الأعمال السيئة، وسائر المعاصي والذنوب.

وقد ذكر بعضها في أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، كالذي روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال: (**إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان**

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ص ٢٨٣.

(٢) انظر: الروح، ١/ ٦٣.

يمشي بالنميمة)[١].

وحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يكثر أن يقول لأصحابه: (هل رأى أحد منكم من رؤيا؟) قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وإنه قال ذات غداة: (إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه، فيتدهده الحجر ها هنا، فيتبع الحجر فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى) قال: (قلت لهما: سبحان الله ما هذان؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق) قال: (فانطلقنا، فأتينا على رجل مستلق لقفاه، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه -قال: وربما قال أبو رجاء: فيشق-).

قال: (ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى) قال: (قلت: سبحان الله ما هذان؟)

قال: (قالا لي: انطلق انطلق، فانطلقنا، فأتينا على مثل التنور - قال: فأحسب أنه كان يقول - فإذا فيه لغط وأصوات) قال: (فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا) قال: (قلت لهما: ما هؤلاء؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق).

قال: (فانطلقنا، فأتينا على نهر -حسبت أنه كان يقول- أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرًا) قال: (قلت لهما: ما هذان؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق) قال: (فانطلقنا، فأتينا على رجل كريه المرآة، كأكره ما أنت راء رجلا مرآة، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها) قال: (قلت لهما: ما هذا؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق).

فانطلقنا، فأتينا على روضة معتمة، فيها من كل لون الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل، لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط) قال: (قلت لهما: ما هذا ما هؤلاء؟) قال: (قالا لي: انطلق انطلق).

قال: (فانطلقنا فانتهينا إلى روضة عظيمة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم ٢١٨، ١/ ٥٣.

لم أر روضة قط أعظم منها ولا أحسن) قال: (قالا لي: ارق فيها) قال: (فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها، فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء) قال: (قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر) قال: (وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة) قال: (قالا لي: هذه جنة عدن وهذاك منزلك) قال: (فسما بصري صعدا فإذا قصر مثل الربابة البيضاء) قال: (قالا لي: هذاك منزلك) قال: (قلت لهما: بارك الله فيكما ذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله).

قال: (قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجبا، فما هذا الذي رأيت؟) قال: (قالا لي: أما إنا سنخبرك، أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق، وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا، وأما الرجل الكريه المرآة، الذي عند النار يحشها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم، وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة) قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأولاد المشركين، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسنا وشطر قبيحا، فإنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، تجاوز الله عنهم)[(١)].

وقد ذكر الإمام ابن القيم والعلامة السفاريني الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصل:

أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وعدم إطاعتهم لأمره، وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله روحًا عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه، ولا بدنًا كانت فيه أبدًا، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار بارتكاب مناهيه ولم يتب ومات على ذلك؛ كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه، فمستقل، ومستكثر، ومصدق، ومكذب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، رقم ٧٠٤٧، ٩/ ٤٤.

وأما المفصل: ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما؛ لأن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس، والآخر كان لا يستتر من البول، فهذا ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس، وهذا ترك الطهارة الواجبة، وعمن يعذب لكونه مر على مظلوم فلم ينصره، ومن يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار، وتعذيب الزناة والزواني وأكلة الربا، والذين تتثاقل رؤوسهم عن صلاة الفجر، وأهل الغلول، وتعذيب الذين يمنعون الزكاة، والذين يوقدون الفتنة بين الناس، والجبارين، والمتكبرين، والمرائين، والهمازين، واللمازين [(١)].

«فعذاب القبر عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله: فالنمام، والكذاب، والمغتاب، وشاهد الزور، وقاذف المحصن، والموضع في الفتنة، والداعي إلى البدعة، والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به، والمجازف في كلامه، وآكل الربا، وآكل أموال اليتامى، وآكل السحت من الرشوة وغيرها، وأكل مال أخيه المسلم بغير حق، أو مال المعاهد، وشارب المسكر، والزاني، واللوطي، والسارق، والخائن، والغادر، والمخادع، والماكر، وآخذ الربا ومعطيه وكاتبه وشاهداه، والمحلل والمحلل له، والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه، ومؤذي المسلمين ومتتبع عوراتهم، والحاكم بغير ما أنزل الله، والمفتي بغير ما شرع الله، والمعين على الإثم والعدوان، وقاتل النفس التي حرم الله، والملحد في حرم الله، والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها، والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والنائحة والمستمع إليها، ونواحو جهنم، وهم المغنون الغناء الذي حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم؛ والذين يبنون المساجد على القبور، ويوقدون عليها القناديل والسرج، والمطففون في استيفاء مالهم إذا أخذوه، وهضم ما عليهم إذا بذلوه، والجبارون، والمتكبرون، والمراؤون، والهمازون واللمازون، والطاعنون على السلف، والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم، وأعوان الظلمة الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، والذي خوفته بالله وذكرته به فلم يرعو ولم ينزجر، فإذا خوفته بمخلوق مثله خاف وارعوى وكف عما هو فيه، والذي يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدي، ولا يرفع به رأسًا، فإذا بلغه عما يحسن به الظن ممن

(١) انظر: الروح، ابن القيم، ص٧٧، لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ٢/ ١٩.

يصيب ويخطيء عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه.

والذي يقرأ القرآن فلا يؤثر فيه، وربما اشتغل به، فإذا استمع قراءة الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب، وود أن المغني لا يسكت، والذي يحلف بالله ويكذب، فإذا حلف بالولي أو برأس شيخه أو أبيه أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين لم يكذب ولو هدد وعوقب، والذي يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين أقرانه، وهو المجاهر، والذي لا تأمنه على مالك وحرمتك، والفاحش اللسان الذي تركه الخلق إتقاء شره وفحشه، والذي يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها ولا يذكر الله فيها إلا قليلًا، ولا يؤدي زكاة ماله طيبة بها نفسه، ولا يحج مع قدرته على الحج، ولا يؤدي ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها.

ولا يتورع من لحظه ونظره ولا من لفظه ولا أكله ولا خطوه، ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام، ولا يصل رحمه، ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم، ولا يرحم الحيوان البهيم، بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، ويرائي للعالمين، ويمنع الماعون، ويشتغل بعيوب الناس عن عيبه، وبذنوبهم عن ذنبه، فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم، بحسب كثرتها وقلتها، وصغرها وكبرها، ما لم يغفر الله لهم ويتجاوز عنهم بتوبة أو رحمة منه تعالى»[(١)].

(١) الروح، ابن القيم، ص٧٨.

أحكام تتعلق بالقبر

أولًا: الصلاة على المؤمنين:

إن الصلاة على المؤمنين فرض كفاية، وهي من خصائص هذه الأمة، وقد صلى الصحابة رضي الله عنهم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما رغب النبي صلى الله عليه وسلم بل أمر بذلك فقال: (صلوا على صاحبكم)[1] فهذا أمر، والأمر يدل على الوجوب[2]، ودل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يوم موت النجاشي: (إن أخًا لكم قد مات، فقوموا، فصلوا عليه)[3].

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة على الكافرين والمنافقين؛ لأنهم كفروا وماتوا على الفسق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة:٨٤].

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين[4].

وقد استدل البعض بهذه الآية على وجوب الصلاة على المؤمنين، بدليل أن النهي عن الشيء أمر بضده فالنهي عن الصلاة على المنافقين للتحريم فضده وهو الأمر بالصلاة على المؤمنين للوجوب، واعتبرها البعض دليل فقط على المشروعية وعدم تحريم الصلاة على المؤمنين، وأنه مما يستفاد من الآية الصلاة على المؤمنين وليس الأمر بالوجوب[5].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ نص في الامتناع من الصلاة على الكفار، واختلفوا هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصلاة على المؤمنين؟ فقيل: يؤخذ؛ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإذا زال وجبت الصلاة، ويكون هذا نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

يعني: الكفار، فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون، وقيل: إنما تؤخذ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من ترك مالًا، رقم ١٦١٩، ٣/ ١٢٣٧.

(٢) انظر: فقه السنة، سيد سابق، ١/ ٥٢١، الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، مجموعة من المؤلفين، ١/ ١١٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب في التكبير على الجنازة، رقم ٩٥٢، ٢/ ٦٥٧.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٤٧.

(٥) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٤١٣، تفسير ابن عرفة، ابن عرفة، ٢/ ٦٣٥، الفروق، القرافي، ٢/ ٥١.

الصلاة من دليلٍ خارجعن الآية، وهي الأحاديث الواردة في الباب، والإجماع»[1].

والخلاصة أن الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، سواء بالوجوب أو الاستحباب، وقد أكدت الأحاديث على الوجوب وكذلك الإجماع.

وذكر الرازي في تفسيره الحكمة من النهي عن الصلاة على الكفار والمنافقين، حيث أشار إلى أن السبب في منع الرسول صلى الله عليه وسلم من أن يصلي على من مات منهم؛ هو إذلالهم وتخذيلهم وإهانتهم[2].

«وصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميت هي رحمة له، وغفران لذنوبه؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة، وأن تطلب له من الله أن يلحقه بالصالحين، وإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام، ودعا بهذا الدعاء، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله، وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ»[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٢٢١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، ١٦/ ١١٥.
(٣) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٣٨٩.

ثانيًا: الوقوف على قبورهم والدعاء لهم:

لقد شرع الله للمسلمين الوقوف عند قبور المؤمنين والدعاء لهم، كما نهى عن الوقوف على قبور الكفار والمنافقين والدعاء لهم.

يقول تعالى مخاطبًا للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].

في هذه الآية نهي من الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي على من مات من الكفار والمنافقين، وألا يتول دفنهم وتقبيرهم، وألا يدعو لهم أو يستغفر لهم، أو يقف على قبورهم للزيارة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت، وقف على قبره ودعا له بالتثبيت فنهي عن ذلك في حق المنافقين، والعلة في ذلك أنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا، والحال أنهم فاسقون خارجون عن دائرة الإسلام[4].

يقول الطاهر ابن عاشور: «ومعنى ولا تقم على قبره، لا تقف عليه عند دفنه؛ لأن المشاركة في دفن المسلم حق على المسلم على الكفاية، كالصلاة عليه، فترك

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٤٠٥، زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٢٨٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٢٢٣، البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٤١٣.

النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عليهم وحضور دفنهم، إعلان بكفر من ترك ذلك له»[(١)].

قال السيوطي: إن في الآية السابقة تحريم للصلاة على الكافر، والوقوف على قبره، ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه، ومشروعية الوقوف على قبره، والدعاء له، والاستغفار[(٢)].

إن الوقوف على قبر المؤمن سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم فعلها ودعا إليها ففي الحديث عن عثمان بن عفان قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: **(استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت، فإنه الآن يسأل)**[(٣)].

بناء القبور وزيارتها

أولًا: بناء القبور:

إن ديننا الحنيف شرع للمسلمين دفن موتاهم في المقابر وفق سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هديه صلى الله عليه وسلم حفر القبور لا بناؤها، فقد ثبت نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء القبور ففي الحديث عن أبي الزبير أنه سمع جابرًا يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم **(نهى أن يقعد على القبر، وأن يقصص ويبنى عليه)**[(٤)].

وفي رواية عند مسلم **(نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه)**[(٥)].

فلا يجوز بناء القبور، ولكن يحفر في الأرض ويجعل فيه لحد من جهة القبلة بقدر الميت، ويكون القبر عميقا بقدر نصف الرجل؛ حتى يكون بعيدا عن السباع والكلاب، ويكون أبعد عن الروائح الكريهة التي قد تخرج من القبر، وإذا دعت الضرورة إلى البناء، بأن كانت الأرض صلبة ولا

(١) التحرير والتنوير، ١٠/ ٢٨٥.
(٢) انظر: الإكليل، السيوطي، ١/ ١٤٣، محاسن التأويل، القاسمي، ٥/ ٤٧٢.
(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم ٣٢٢١، ٣/ ٢١٥.
(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في البناء على القبور، رقم ٣٢٢٥، ٣/ ٢١٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٥٥، رقم ٦٨٤١.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب النهي عن تجصيص القبور والبناء عليها، رقم ٩٤، ٢/ ٦٦٧.

يستطيعون الحفر فلا مانع من جعله بين أحجار، يبنى أحجار ويجمع بينها، ثم يوضع فوقها ألواح وغيرها حتى تستره عن السباع وعن الكلاب ونحو ذلك، ويوضع عليها أحجار تستره عن ذلك حسب الطاقة من دون حاجة إلى بناء إلا عند الضرورة[(١)].

يقول ابن القيم: «ولم يكن من هديه صلى الله عليه وسلم تعلية القبور ولا بناؤها بآجر، ولا بحجر ولبن ولا تشييدها، ولا تطيينها، ولا بناء القباب عليها، فكل هذا بدعة مكروهة، مخالفة لهديه صلى الله عليه وسلم، وكانت قبور أصحابه لا مشرفة، ولا لاطئة، وهكذا كان قبره الكريم، وقبر صاحبيه، فقبره صلى الله عليه وسلم مسنم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء لا مبني ولا مطين، وهكذا كان قبر صاحبيه، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واشتد نهيه في ذلك حتى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا، ولعن زورات القبور، وكان هديه أن لا تهان القبور وتوطأ، وألا يجلس عليها، ويتكأ عليها، ولا تعظم بحيث تتخذ مساجد فيصلى عندها وإليها، وتتخذ أعيادا وأوثانا»[(٢)].

(١) انظر: فتاوى نور على الدرب، ابن باز، ١٤/ ٩٥.

(٢) زاد المعاد، ١/ ٥٠٤.

ثانيًا: زيارة القبور:

يشرع للإنسان أن يزور القبور على سبيل الاتعاظ والتذكر بما أمامه، والإحسان إلى المقبور نفسه كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، فهذا أمر مطلوب؛ لأنه جاء في الحديث عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)**[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال صلى الله عليه وسلم: (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت)**[(٤)].

إن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور أكمل الهدي وأحسنه.

يقول ابن القيم: «كان إذا زار قبور أصحابه يزورها للدعاء لهم، والترحم عليهم، والاستغفار لهم، وهذه هي الزيارة التي سنها لأمته، وشرعها لهم، وأمرهم أن يقولوا إذا زاروها: **(السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن**

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه، رقم ١٠٦، ٢/ ٦٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه، رقم ١٠٨، ٢/ ٦٧١.

شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية)[1].

وكان هديه أن يقول ويفعل عند زيارتها، من جنس ما يقوله عند الصلاة على الميت، من الدعاء والترحم والاستغفار، فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به، والإقسام على الله به، وسؤاله الحوائج، والاستعانة به، والتوجه إليه، بعكس هديه صلى الله عليه وسلم، فإنه هدي توحيد وإحسان إلى الميت، وهدي هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم، وإلى الميت، وهم ثلاثة أقسام: إما أن يدعوا الميت، أو يدعوا به، أو عنده، ويرون الدعاء عنده أوجب وأولى من الدعاء في المساجد، ومن تأمل هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، تبين له الفرق بين الأمرين»[2].

فزيارة القبور شرعت لشيئين:

- إما أن يتذكر الإنسان بزيارتها مآله؛ لأنه سيصير مثلما صار هذا المقبور، فيتوب ويجتهد في العمل، ويتذكر الآخرة، ويتذكر ما أمامه، ويستعد لهذا اليوم ويأخذ أسباب الرحيل، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].
- أو أن يحسن إلى الميت بالدعاء له، فإنه في أمس الحاجة إلى دعوة صادقة، أما أن تنعكس القضية، ويصبح الإنسان يزور القبر ليسأل صاحبه، فهذا عكس ما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولهذا قسم العلماء زيارة القبور على وجهين:

- زيارة شرعية.
- وزيارة بدعية.

فالزيارة الشرعية: أن يكون مقصود الزائر الدعاء للميت؛ كما يقصد بالصلاة على جنازته الدعاء له، حيث الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي على موتى المسلمين وشرع ذلك لأمته، وكان إذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره، فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم، وكذلك الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافرًا، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء للميت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين.

وأما الزيارة البدعية: فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء، فالزيارة على هذه الوجوه مبتدعة لم يشرعها النبي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب ما يقال عند دخول القبور، رقم ١٠٤، ٢/ ٦٧١.
(٢) زاد المعاد، ١/ ٥٠٧.

صلى الله عليه وسلم ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك[1].

إن من البلايا التي وقع الناس فيها اليوم، تعظيم القبور، بالبناء عليها وتجصيصها، أو اتخاذ المساجد عليها، والصلاة عندها، أو الطواف بها، وإضاءتها وإيقاد السرج عليها، وتعليتها ورفعها، واتخاذها عيدًا، والاستغاثة بأهلها، فكل هذا من المنكرات التي يجب الحذر منها والتحذير منها.

القبر في المثل القرآني

إن من الأساليب القرآنية التي استعملها القرآن الكريم لتقريب المعنى ضرب الأمثلة، ولقد مثل القرآن بالقبر والأموات المقبورين بأمثلة من أروع ما ضرب من الأمثال القرآنية دقة بيان وروعة أسلوب ووضوح معنى وهي:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

يضرب الله سبحانه وتعالى مثل المؤمن والكافر بالحي والميت، لا يستويان، فكما لا يتساوى الأحياء والأموات، لا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والنفوس والمشاعر، والكافرون أموات القلوب والحواس، لا يستوي أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة تنزيل الله، وأموات القلوب لغلبة الكفر عليها؛ حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تعرف الهدى من الضلال، لا يستوي من شرح الله صدره للإسلام، ومن أقام على الكفر والضلال، فالإيمان حياة القلوب ونور البصائر، وانشراح للصدور وبهجة للنفوس، وجلاء الأفهام وربيع الأكوان، أما الكفر فإنه ظلمة في القلب، ووحشة في النفس، وموت للروح، وغشاوة على البصيرة،

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١/ ١٦٥.

وحيرة للعقول، وضيق في الصدور، نعم إن الكفر موت، موت في الضمير وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل، وانفصال عن الطريق الواصل[1].

وفي الآية تمثيل لحال الكفار بالنسبة إلى سماعهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم والوحي النازل عليه، فكما لا يقدر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد، فكذلك لا يقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من أحياء عباده، عن معرفة الله، وفهم كتابه وتنزيله، وواضح حججه، فالكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع[2].

«ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم وأنى لهم أن يسمعوا وقد قبروا وهم أحياء في غياهب الشرك ولحود الضلال، فلا سبيل إلى سماعهم وقد جعلوا بينهم وبين الحق برزخًا وحاجزًا من المكابرة والجحود والتقليد الأعمى والتعصب للأهواء»[3].

فالله يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها، يسمع أولياءه الذين خلقهم لجنته، وكما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم بالهداية والدعوة إليها، كذلك الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم لا ينتفعون، فالكفار بمنزلة أهل القبور في أنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ولا يقبلونه[4].

وهذا ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالأموات، وإشباع في إقناطه صلى الله عليه وسلم من إيمانهم[5].

يقول الطاهر ابن عاشور: «لما كان أعظم حرمان نشأ عن الكفر هو حرمان الانتفاع بأبلغ كلام وأصدقه، وهو القرآن، كان حال الكافر الشبيه بالموت أوضح شبهًا في عدم انتفاعه بالقرآن وإعراضه عن سماعه»[6].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣].

في هذه الآية ينهي الله المؤمنين من موالاة اليهود، هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم، قد يئسوا من ثواب الله في الآخرة، وأن يبعثوا، كما يئس الكفار الأحياء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٥٧، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢٥٥، في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٢٩٣٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٢٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٤٥٨.

(٣) التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٦/ ٢٦٤.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٤/ ٣٤٠، لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٤٥٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢٥٥.

(٥) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٥٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٥٠، محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ١٦٥.

(٦) التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢٩٥.

من أمواتهم الذين هم في القبور أن يرجعوا إليهم، فمثل يأس الكافر من ثواب الله في الآخرة كمثل يأس الكافر الحي من عودة الميت من قبره، وقال آخرون: بل معنى ذلك: قد يئسوا من الآخرة أن يرحمهم الله فيها، ويغفر لهم، كما يئس الكفار الذين هم أصحاب قبور قد ماتوا وصاروا إلى القبور من رحمة الله وعفوه عنهم في الآخرة؛ لأنهم قد أيقنوا بعذاب الله لهم.

وقد رجح الطبري قول من قال: قد يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة وكرامته؛ لكفرهم وتكذيبهم رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم على علم منهم بأنه لله نبي، كما يئس الكفار منهم الذين مضوا قبلهم فهلكوا، فصاروا أصحاب القبور، وعلل ترجيحه لهذا القول بأنه أولى القولين بتأويل الآية؛ لأن الأموات قد يئسوا من رجوعهم إلى الدنيا، أو أن يبعثوا قبل قيام الساعة -المؤمنون والكفار- فلا وجه لأن يخص بذلك الخبر عن الكفار، وقد شركهم في الإياس من ذلك المؤمنون[1].

لقد ضرب الله مثل يأس هؤلاء الكفار من الآخرة ومن ثواب الله فيها، حتى أصبحوا لا يوقنون بالبعث بسبب كفرهم وعنادهم، فانقطع رجاؤهم ويئسوا من نعيم الآخرة كمثل يأس الكفار من بعث موتاهم المقبورين أو من رحمة الله بهم لتيقنهم بعذاب الله لهم[2].

وقد ذكر الطاهر ابن عاشور صور التشبيه المحتملة من التعبير القرآني في الآية فقال: إذا كان اليهود لا ينكرون الآخرة كان معنى يأسهم من الآخرة محتملًا أن يراد به الإعراض عن العمل للآخرة، وتشبيه إعراضهم هذا بيأس الكفار من أصحاب القبور وجهه شدة الإعراض وعدم التفكر في الأمر، فشبه إعراضهم عن العمل لنفع الآخرة بيأس الكفار من حياة الموتى والبعث وفيه تشنيع المشبه، ومن أصحاب القبور على هذا الوجه متعلق بيئسوا.

ويجوز أن يكون من أصحاب القبور بيانًا للكفار، أي: الكفار الذين هلكوا ورأوا أن لا حظ لهم في خير الآخرة، فشبه إعراض اليهود عن الآخرة بيأس الكفار من نعيم الآخرة، ووجه الشبه تحقق عدم الانتفاع بالآخرة، والمعنى كيأس الكفار الأموات، والمشبه به معلوم للمسلمين بالاعتقاد، فالكلام من تشبيه المحسوس بالمعقول، وفي استعارة اليأس للإعراض ضرب من المشاكلة أيضًا.

ويحتمل أن يكون يأسهم من الآخرة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٤٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٠٣، التفسير الموضوعي لسور القرآن، مجموعة مؤلفين، ٨/ ١٢٠.

أطلق على حرمانهم من نعيم الحياة الآخرة، وذكر أن من المفسرين الأولين من جعل يأسهم من الآخرة هو إنكارهم البعث، وجعل تشبيه يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور أن يأس الكفار الأحياء كيأس الأموات من الكفار، أي: كيأس أسلافهم الذين هم في القبور إذ كانوا في مدة حياتهم آيسين من الآخرة فتكون ﴿مِنَ﴾ بيانيةً صفةً للكفار، وليست متعلقة بفعل يئس فليس في لفظ الكفار إظهار في مقام الإضمار وإلا لزم أن يشبه الشيء بنفسه كما قد توهم[(١)].

وعلى جميع الأقوال وأيًا كان وجه التشبيه، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة قوم غضب الله عليهم، بأبلغ أسلوب، وأحكم بيان، وهو ضرب المثل، حيث وصفت هؤلاء القوم بأنهم قد أحاط بهم غضب الله؛ بسبب فسوقهم عن أمره، وإعراضهم عن طاعته، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء.

خروج الموتى من قبورهم للحساب

إن خروج الموتى للحساب والجزاء يكون من القبر، فبدء الحياة الآخرة للإنسان تكون بانتهاء حياة البرزخ، وقد جاءت الآيات القرآنية تتحدث عن البعث من القبور إلى دار الحساب والجزاء، وذلك في سياق إثبات البعث، والحديث عن أهوال القيامة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

يؤكد سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن القيامة التي وعد أن يبعث فيها الموتى من قبورهم آتية لا محالة، فالله سيبعث من في القبور من الأموات أحياء إلى موقف الحساب ولا شك في ذلك ولا مراء[(٢)].

فالله سبحانه الذي أوجد الإنسان والنبات والمخلوقات بأطوار مختلفة قادر على إعادة إحياء الموتى بعد موتهم وبعثهم وإخراجهم من القبور للحساب، فهو سبحانه الذي بدأ الخلق وهو يعيده، إنه على كل شيء قدير، «فلما أقام سبحانه وتعالى الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرًا على الإعادة وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر

(١) انظر: التحرير والتنوير، ٢٨/ ١٦٩، باختصار.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٥٧٢.

عن وقوعه، فلا بد من القطع بوقوعه»[(١)].

فإذا تأملنا في خلق الحيوان والنبات أمكننا أن نستدل بذلك على وجود الخالق وقدرته على إحياء الموتى، وعلى غيرها من الممكنات، وأن الساعة آتية لا شك فيها، وأنه يبعث من فى القبور للحساب والجزاء، ولولا ذلك ما أوجد هذا العالم؛ لأن أفعاله سبحانه وتعالى مبنية على الحكم الباهرة، والغايات السامية[(٢)].

وقد جاءت الآيات تتحدث عن خروج أهل القبور في سياق الحديث عن أهوال يوم القيامة، ففي سورة الانفطار تصور الآيات مشهد الاضطراب والزلزال الذي يصيب الكون، فالسماء تنفطر وتنشق، والكواكب تنتثر، والبحار تنفجر، والقبور تتبعثر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:٤].

فالقبور يصير باطنها ظاهرها، والتراب الذي كان فيها يبعثر ويزال، ويخرج الموتى منها مسرعين للحساب والجزاء، «وبعثرة القبور إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة، وإما أن تكون حادثا بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل، الكثير المشاهد والأحداث، فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها- كما أنشأها أول مرة- لتتلقى حسابها وجزاءها»[(٣)].

وفي سياق الوعيد لمن أنكر البعث، وللكافر الذي لا يعمل للآخرة، وأنكر نعم الله عليه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات:٩].

أي: ألا يعلم هذا الإنسان أن القبور ستبعثر، وأن الموتى سيخرجون منها لملاقاة الله، وللحساب والجزاء، وأن الله أعد ثوابًا وجنةً للمؤمن، وعقابًا ونارًا للكافر، أفلا يعتبر ويعد العدة ويحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويملأ صحيفته بالعبادة، ففي الآية «تهديدٌ ووعيدٌ، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أيفعل ما يفعل من القبائح؟ أو ألا يلاحظ فلا يعلم حاله إذا بعث من في القبور من الموتى؟!»[(٤)].

«فالمعنى: لو علم الإنسان الكافر ما له في ذلك اليوم لزهد في الكفر، وبادر إلى الإسلام»[(٥)].

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير، حقير المطامع، صغير الاهتمامات، ومهما كبرت أطماعه، واشتد طموحه، وتعالت أهدافه، فإنه يظل مرتكسًا في حمأة الأرض، مقيدًا بحدود العمر، سجينًا في سجن الذات، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١٤/ ٢٦.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٧/ ٩٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٨٧٤.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٩/ ١٩١.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٤٨٢.

الذات، عالم يصدر عن الله الأزلي، ويعود إلى الله الأبدي، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء فاللفتة في الآية الكريمة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح؛ لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه، مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب المال والدنيا، وتوقظ من غفلة البطر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ إنه مشهد اضطراب الكون، وهو مشهد عنيف مثير، بعثرة لما في القبور، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير، وتحصيل لأسرار الصدور التي خبأتها بعيدا عن العيون، تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي، فالجو كله عنف وشدة وتعفير أفلا يعلم إذا كان هذا؟ ولا يذكر ماذا يعلم؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر [1].

المنجيات من عذاب القبر

إن السلامة من عذاب القبر والنجاة منه، باتباع سبل وأسباب النجاة -أسأل الله لنا ولكم النجاة- وإن من أعظم سبل النجاة من عذاب القبر هو تحقيق التوحيد والاستقامة على طاعة الله واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد جاء في الحديث عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المسلم إذا سئل في القبر: يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] [2].

ومن أنفع الأسباب كذلك للنجاة من عذاب القبر ما ذكره الإمام ابن القيم أن من أنفعها أن يتفكر الإنسان قبل نومه ساعة يحاسب فيها نفسه على ما خسره وما ربحه في يومه ويذكرها بعمله، فإن كان مقصرًا زاد في عمله، وإن كان عاصيًا تاب إلى الله،

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/ ٣٩٥٧، بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت)، رقم ٤٦٩٩، ٦/ ٨٠.

وليجدد له توبة قبل نومه بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعود الذنب إذا استيقظ، ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة، وإن استيقظ استيقظ مستقبلًا للعمل مسرورًا بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاته، وفي ذلك نجاة من عذاب القبر، ومن عذاب النار[١].

فالذي ينجي المرء من عذاب القبر أن يكون الإنسان مستعدًا للموت، حتى إذا فاجأه الموت لم يعض أصبع الندم، ومن الاستعداد للموت الإسراع في التوبة، وقضاء الحقوق، والحذر من المعاصي، والإكثار من الأعمال الصالحة، فإن الإيمان والطاعات من الصلاة والصوم والزكاة والصدقة والحج والجهاد وبر الوالدين وصلة الأرحام وذكر الله عز وجل، وحضور مجالس العلم التي ضيعها الناس وانشغلوا عنها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من صالح الأعمال تحفظ العبد المؤمن، وتثبته في القبر، وبها يجعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا[٢].

ففي الحديث الذي رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخلٌ، ويؤتى من عن يمينه، فيقول الصوم ما قبلي مدخلٌ، ويؤتى من عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخلٌ، ويؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات: ما قبلي مدخلٌ.

فيقال له: اقعد فيقعد، وتمثل له الشمس قد دنت للغروب فيقال له: ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم، وما تشهد به؟ فيقول: دعوني أصلي، فيقولون: إنك ستفعل ولكن أخبرنا عما نسألك عنه قال: وعم تسألوني عنه؟ فيقولون: أخبرنا عما نسألك عنه، فيقول: دعوني أصلي. فيقولون: إنك ستفعل ولكن أخبرنا عما نسألك عنه، قال: وعم تسألوني؟ فيقولون: أخبرنا ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم وما تشهد به عليه؟ فيقول: محمدًا، أشهد أنه عبد الله، وأنه جاء بالحق من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله.

ثم يفتح له بابٌ من قبل النار فيقال له: انظر إلى منزلك وإلى ما أعد الله لك، لو عصيت فيزداد غبطةً وسرورًا، ثم يفتح له بابٌ من قبل الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك،

---

(١) انظر: الروح، ١/ ٧٩.
(٢) انظر: القيامة الصغرى، عمر الأشقر، ١/ ٦٨.

وإلى ما أعد الله لك فيزداد غبطةً وسرورًا)، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧])[١].

ومن المنجيات من عذاب القبر الرباط والشهادة في سبيل الله، ففي حديث فضالة ابن عبيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر)[٢].

وكذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المقدام بن معدي كرب خصال الشهيد، ومنها: أنه يجار من عذاب القبر حيث قال صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصالٍ: يغفر له في أول دفعةٍ، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجةً من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[٣].

اللهم اجعلنا من أهل الرباط والشهادة في سبيلك.

وإن في المحافظة على قراءة سورة الملك لنجاة أيضًا من عذاب القبر، فقد ورد في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (سورة الملك هي المانعة تمنع من عذاب القبر)[٤].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الجنائز، رقم ١٤٠٣ ١/ ٥٣٥.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٥٦١، ٣/ ٢١٩.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطا، رقم ١٦٢١، ٤/ ١٦٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ١٢١٨، ٢/ ٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، رقم ١٦٦٣، ٤/ ١٨٧.
قال الترمذي: حديث صحيح غريب.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ١٣٧٥، ٢/ ٦٧.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير، رقم ٣٨٣٩، ٢/ ٥٤٠، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١١٤٠.

نعيم القبر

إن نعيم القبر للمؤمن ثابت كما أن عذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة، فالقبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار، يقول ابن القيم: «مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانا، ويحصل لها معه النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين»[(١)].

وإن أول نعيم يلقاه المؤمن في قبره أن الله سبحانه وتعالى يثبته عند سؤال الملكين.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فالله سبحانه وتعالى يثبت المؤمنين بالقول الثابت الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم في الحياة الدنيا فلا يزلون إذا افتتنوا في دينهم، فيجعلهم متمسكين بالحق، ثابتين عليه لا يصرفهم عنه صارف، وعند الموت يثبتهم على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وبعد الموت في القبر الذي هو منزل من منازل الآخرة، فلا يتلعثمون، ولا يضطربون إذا سألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم، فيجيبون بالصواب عن معتقداتهم، وفي مواقف القيامة يثبتهم الله فلا تدهشهم أحوال القيامة الغريبة عنهم[(٢)].

وتحدث القرآن الكريم عن مقام الشهداء ونعيمهم في مرحلة البرزخ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فالآيات تنهى عن القول للشهداء أنهم أموات، بل هم أحياء في قبورهم حياة ذات معالم خاصة، يرزقون فيها على كيفية، الله أعلم بها، وفي هذا إشارة إلى أن المؤمن الذي يضحي بنفسه في سبيل نصر دينه ودعوة ربه هو من الشهداء الأبرار الذين يظفرون بجنان الخلد، وهم أحياء، أرواحهم في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت[(٣)].

كما ثبت في الحديث عن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية:

(١) الروح، ص ٥٢.

(٢) انظر: التفسير الواضح، حجازي، ٢/ ٢٦٠، التفسير المنير، الزحيلي، ١٣/ ٢٤٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٢٥.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٤٠.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: (أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، لها قناديل معلقةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعةً) فقال: (هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مراتٍ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تركوا)[1].

«إن الذي خص الله به الشهداء في ذلك، وأفاد المؤمنين بخبره عنهم تعالى ذكره، إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر، من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحدًا غيرهم في برزخه قبل بعثه، فذلك هو الفضيلة التي فضلهم بها وخصهم بها من غيرهم، والفائدة التي أفاد المؤمنين بالخبر عنهم»[2].

فهل هناك أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله سبحانه وتعالى، وتمتعهم برزقه، والفرح، والاستبشار، وزوال كل خوف وحزن، إنه نعيم القبر، حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا[3].

إن حياة البرزخ إما حياة نعيم ينعم فيها المطيعون، أو حياة عذاب يعذب فيها العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠][4].

فهنيئًا لمن عد عدته، وأخذ أهبته، ليحظى بأكمل نعيم، فقد روي عن البراء بن عازب قال:(خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلسنا حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكت في الأرض، فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثًا).

ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه ملائكةٌ من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، رقم ١٢١، ٣/ ١٥٠٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٢١٦.
(٣) انظر: تفسير المراغي، ٢/ ٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٥.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٥٩.

الموت، عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ). قال: (فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عينٍ حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسكٍ وجدت على وجه الأرض) قال: (فيصعدون بها، فلا يمرون، يعني بها، على ملإٍ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟

فيقولون: فلان بن فلانٍ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى).

قال: (فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة).

قال: (فيأتيه من روحها، وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره). قال: (ويأتيه رجلٌ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي، ومالي)[(١)].

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجزاء، العذاب، الموت، النجاة، اليوم الآخر

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٤٩٩، رقم ١٨٥٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.



عناصر الموضوع

مفهوم القتال

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قتل) تدل على إذلالٍ وإماتةٍ. وهما معنيان متقاربان[1].

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إن اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتلٌ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موتٌ. يقال: قتله قتلًا وتقتالًا. وقاتله مقاتلةً وقتالًا. والقتلة -بالكسر- الحال أو الهيئة التي يقتل عليها، يقال: قتله قتلة سوء. والقتلة -بالفتح- المرة الواحدة. والقتلى: جمع قتيل، على وزن فعيل بمعنى مفعول للمفرد المذكر والمؤنث»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من المعلوم أن هناك فرقًا في الدلالة والحكم بين القتل والقتال، وقد بين ذلك الفرق بجلاء الشيخ الإمام محمد الصالح العثيمين رحمه الله، وذلك بقوله: «القتل أخص من القتال؛ فهناك فرق بين القتل والقتال، فليس كل من جاز قتاله جاز قتله، ولهذا نقاتل إحدى الطائفتين المقتتلتين حتى تفيء إلى أمر الله، مع أنها مؤمنة لا يحل قتلها. أما القتل فليس يلزم منه مقاتلة الجميع، فقد يكون واحدٌ من هؤلاء يستحق القتل فنقتله ولا نقاتل الجميع، فتبين بهذا أنه لا تلازم بين القتال والقتل، وأن جواز القتال أوسع من جواز القتل؛ لأن القتل لا يكون إلا في أشياء معينة»[3].

ومن هذا التفريق الدقيق بين المصطلحين يتبين دقة تعريف الإمام أبي بكر ابن العربي رحمه الله في قوله: «هو الصد عن الشيء بما يؤدي إلى القتل»[4].

وتستعمل كلمة: (القتال) اصطلاحًا بمعنى كلمة: (الجهاد) في اصطلاح الفقهاء، وهو قتال الكفار بالبدن، وإذا أطلقت كلمة الجهاد فلا يراد بها إلا هذا المعنى عندهم[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٩٣.
(٣) الشرح الممتع شرح زاد المستقنع ٢/ ٤٨.
(٤) أحكام القرآن ٢/ ٤٢٨.
(٥) انظر: المقدمات الممهدات، ابن رشد ١/ ٣٤٢، أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني ٢/ ٩٠٨.

القتال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قتل) في القرآن الكريم (١٧٠) مرة[١]، يخص موضوع البحث منها(٧١) مرة.

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٦	﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾[الفتح:٢٢]
الفعل المضارع	٢٨	﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾[التوبة:١٣]
فعل الأمر	١٤	﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾[المائدة:٢٤]
المصدر	١٣	﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾[الأحزاب:٢٥]

وجاء **القتال في القرآن الكريم بمعنى: المقاتلة والمحاربة بين اثنين**[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٣-٥٣٦، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٢٢-٩٢٥.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٧٩٧-١٧٩٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٥٦-٥٧، المعجم الوسط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧١٥، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص٤٩٤-٤٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٢٣٨-٢٣٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهاد:

الجهاد لغة:

الجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب، أو اللسان، أو ما أطاق من شيء، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود[(١)].

الجهاد اصطلاحًا:

الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو[(٢)]، وزاد بعضهم وغلب استعماله شرعا في الدعوة إلى الدين الحق[(٣)].

الصلة بين الجهاد والقتال:

الجهاد أشمل من القتال من وجوه، أهمها: أن الجهاد يغلب عليه جهاد الحق ضد الباطل والقتال قد يكون من الحق على الباطل والعكس، وأن الجهاد مراتبه أربع، وهي: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد المنافقين، وجهاد الكافرين، والقتال يكون بالسلاح ضد الكفار.

٢ الحرب:

الحرب لغةً:

الحرب: نقيض السلم، ورجل محرب أي: شجاع، وفلان حرب فلان أي: يحاربه، وحربته تحريبًا أي: حرشته على إنسان فأولع به وبعداوته[(٤)].

الحرب اصطلاحًا:

«دفع بشدة عن اتساع المدافع بما يطلب منه الخروج؛ فلا يسمح به ويدافع عنه بأشد مستطاع»[(٥)].

الصلة بين الحرب والقتال:

القتال قد يقتضي هجومًا فتكون المقاتلة، وقد يقتضي الدفاع فتكون المقاتلة أيضًا، وهذا

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٤.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٠٨.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٣.
(٤) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٣/ ٢١٣.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٣٧.



بخلاف الحرب؛ الذي هو تكتيك إداري حينما يتطلب الدفع بشدة لاتساع المدافع بما يطلب منه الخروج.

٣ الباس:

البأس لغةً:

يطلق على العذاب، والشدة في الحرب، يقال: بؤس، ككرم[١].

البأس اصطلاحًا:

الشدة على العدو وغلبته في الحرب.

الصلة بين البأس والقتال:

البأس هو ناتج عن الحرب، التي هي جزء لا يتجزأ من مفهوم القتال.

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٥٣١.

مراحل تشريع القتال

جاء تشريع القتال تحقيقًا للحكمة الربانية في مواجهة الواقع الذي عاصره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه -رضوان الله تعالى عليهم- بأحكام مرحلية تواجه كل مرحلة بما تتطلبها وبما يتفق مع قدرة المسلمين وعلاقتهم مع الأعداء.

فقد نزل الأمر بالقتال مرتبًا متدرجًا وفق خطوات الإعداد التربوي لهذه الأمة التي حملها الله تعالى مسؤولية إبلاغ هذا الدين للعالمين. فقد كان القتال ممنوعًا في أول الإسلام، ثم صار مأذونًا فيه ردًا للعدوان، ثم مأذونًا فيه للدفاع عن النفس، ثم مأمورًا به أمرًا عامًا مطلقًا.

وقد أجمل العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله مراحل تشريع القتال بكلمات جامعة دقيقة في كتابه «زاد المعاد» فعقد فيه فصلًا بعنوان «ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل» قال فيه:

- أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. فنبأه بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وأرسله بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين، ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.
- ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.
- ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.
- ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة؛ وأهل حرب؛ وأهل ذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر أن يقاتل من نقض عهده.

ولما نزلت: (سورة براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان[1].

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٤٣.

لذلك يتناول هذا المبحث التطور التاريخي للمراحل التي شرع فيها القتال. ويمكن أن نجملها بأربعة مراحل:

أولًا: مرحلة الكف عن القتال

بدأ الوحي يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن فاجأه جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١].

ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ الرسالة والدعوة. ثم أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ الرسالة وإنذار قومه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١-٢].

فبدأ بدعوة أهل بيته، ثم بدعوة عشيرته الأقربين وقومه بالحسنى والموعظة، وأمره مع ذلك بالصفح والإعراض عن المشركين، فقال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦].

ثم أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالدعاء إلى الدين بالوعظ والمجادلة بالأحسن فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي هذه المرحلة -ويمكن أن نقول في هاتين المرحلتين المتصلتين في مكة المكرمة- لم يكن هناك أمر بقتال دفعًا أو هجومًا. ولذلك قال الإمام أبو بكر الرازي الجصاص: «لم تختلف الأمة أن القتال كان محظورًا قبل الهجرة»[1].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

ولكن كبر على المشركين ما يدعوهم

---

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٢٥٧.

إليه، فناصبوه العداء، وتفننوا في صنوف الإيذاء والبلاء، يصبونهما على المؤمنين، حتى وصل بهم الأمر أن يتآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم لتصفيته جسديًا.

كل هذا والقرآن الكريم يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بالصبر والصفح والكف، ولم يأذن له بقتال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا﴾ [النساء: ٧٧].

ولما قال عبدالرحمن بن عوف وأصحاب له: (يا رسول الله كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلاء! فقال عليه الصلاة والسلام: (إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم)[(١)].

وقد كانت نفوس بعض المسلمين تتشوف إلى الإذن بالجهاد ليميلوا على المشركين ميلة واحدة وليدفعوا عن أنفسهم العدوان الواقع عليهم؛ فقد قال العباس بن عبادة بن نضلة ليلة بيعة العقبة: (والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منىً غدًا بأسيافنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[(٢)].

قال الإمام الحافظ ابن كثير الدمشقي رحمه الله: «كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبًا لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء لائقًا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دارٌ ومنعة وأنصار»[(٣)].

ويقف الأستاذ سيد قطب رحمه الله عند آية سورة النساء يتلمس حكمة هذا الموقف، والأمر بالكف عن القتال، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصبر والاحتمال حتى وبعض المسلمين يلقى من الأذى والعذاب ما لا يطاق، وبعضهم يتجاوز العذاب طاقته فيفتن عن دينه. وبعضهم لا يحتمل الاستمرار في العذاب فيموت تحت وطأته يقول قولة المؤمن الذي يتحرز عن الجزم فيما لا يمكن الجزم به لئلا يقول على

(١) أخرجه النسائي في سننه، أول كتاب الجهاد، ٦/ ٣.
وصححه الحاكم على شرط البخاري، ٢/ ٦٦ و ٣٠٧، ولم يتعقبه الذهبي.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٦٢.
قال الهيثمي في المجمع: ٦/ ٤٥: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.
وانظر: السيرة، ابن إسحاق ص ٤٤٨، الطبقات الكبرى، ابن سعد ١/ ٢٢٣، تاريخ الأمم والملوك، الطبري ٢/ ٣٦٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٩.

الله بغير علم، فحسبه أن يشير إلى ما يراه من حكمة ثم يكل العلم الحقيقي إلى الله تعالى.

أما حكمة هذا: فلسنا في حلٍ من الجزم بها؛ لأننا حينئذ نتألى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسبابًا وعللًا، قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم سبحانه أن فيها الخير والمصلحة.

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب على أنه مجرد احتمال وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره أسبابًا وعللًا، لا يعلمها إلا هو ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح! إنها أسباب اجتهادية تخطئ وتصيب، وتنقص وتزيد، ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله، وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان:

- ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة.
- وربما كان ذلك أيضًا، لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ، في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتي قد يدفعها القتال معها -في مثل هذه الفترة- إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة.
- وربما كان ذلك أيضًا، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولًا إلى أولياء كل فرد، يعذبونه هم ويفتنونه و«يؤدبونه»! ومعنى الإذن بالقتال -في مثل هذه البيئة- أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي في كل بيت وكل محلة؟
- وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!
- وربما كان ذلك، أيضًا، لأن النخوة

العربية، في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعا على كرام الناس فيهم وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة -في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر -وهو رجل كريم- يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.

- وربما كان ذلك أيضًا، لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة. أو بلغت أخبارها متناثرة حيث كانت القبائل تقف على الحياد، من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.

- في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال ودفع الأذى. لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا -وقتها- ومحققًا، هذا الأمر الأساسي هو «وجود الدعوة»[1].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٤-٧١٥.

ثانيًا: مرحلة الإذن بالقتال:

أذن الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، وبدأ بتأسيس المجتمع الإسلامي الجديد فيها، وبدأ عهدٌ للإسلام مجيد. ومع هذا لم يشرع القتال في أول العهد بالمدينة، وإنما كان هناك أيضًا أمرٌ بالكف والصبر الجميل، وعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها، معاهدة عرفت بصحيفة المدينة[2].

ولعل الحكمة في عدم القتال في أول العهد في المدينة تظهر أيضًا -علاوة على ما سبق- في أمرين:

الأول: لأن هناك مجالًا للتبليغ والبيان، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة وبقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تصريف شؤونها السياسية. فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحًا ولا يثير حربًا، ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان واضحا أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة، فالمجال أمام الدعوة مفتوح، والتخلية بين

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٥٠١، زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٦٥-٦٦، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله ص٥٧.

الناس وحرية الاعتقاد قائمة.

الثاني: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد التفرغ -في هذه المرحلة- لقريش التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى الواقفة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها[(١)]!

ولكن هذا الموقف كان مما زاد في عناد المشركين وزاد في كيدهم وعدوانهم وتآمرهم. وعند ذلك أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال دفعًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

فكانت هذه الآية الكريمة أول آية نزلت في الجهاد -كما قال غير واحد من العلماء- فيها إذنٌ بالقتال لدفع العدوان ورده عن المؤمنين، لم يكن فيها وجوبٌ ولا أمرٌ.

ونقل الإمام محيي السنة البغوي[(٢)] عن المفسرين في هذه الآية أنهم قالوا: «كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل هذه الآية[(٣)]. وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال، فنزلت هذه الآية بالمدينة. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة، فكانوا يمنعون فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة».

ثالثًا: مرحلة القتال دفاعًا:

ثم فرض الله تعالى القتال على المسلمين بعد ذلك إذا كانت البداية من الكفار،

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٩.

(٢) معالم التنزيل ٥/ ٣٨٨-٣٨٩.

(٣) قال ابن حجر في الكافي الشافي ص ١١٣: لم أجده هكذا. وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين، وهو منتزع من أحاديث، أقربها ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قوله: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)، وذلك أن مشركي أهل مكة كانوا يؤذون المسلمين بمكة، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في قتالهم بمكة، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنزل الله عليه: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا).

فأوجب الله تعالى قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم. فقال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله: «اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية: فقال بعضهم: هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك. وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت بـ«براءة»[(١)].

فعن الربيع قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من يقاتله، ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت «براءة».

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم ينسخ. وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذراري. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حكمه اليوم، فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية. فعن يحيى بن يحيى الغساني، قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز أسأله عن قوله: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»، قال: فكتب إلي: «إن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم».

ثم قال رحمه الله: «وأولى هذين القولين بالصواب، القول الذي قاله عمر بن عبد العزيز؛ لأن دعوى المدعي نسخ آيةٍ يحتمل أن تكون غير منسوخة، بغير دلالةٍ على صحة دعواه، تحكمٌ. والتحكم لا يعجز عنه أحد»[(٢)].

---

(١) أسرف بعض العلماء في قضية النسخ، وجعلوا آية سورة براءة -أو آية السيف كما يقولون- ناسخة لآيات كثيرة تأمر بالصفح أو تنهى عن المسالمة. وهذا مردود عند المحققين من العلماء. فقد قال الطبري رحمه الله في التفسير ١٠/ ١٣٥: إن الناسخ الذي لا شك فيه من الأمر، هو ما كان نافيًا كل معاني خلافه، الذي كان قبله. فأما ما كان غير نافٍ جميعه، فلا سبيل إلى العلم بأنه ناسخ إلا بخبر من الله جل وعز، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس في قوله: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) دلالةٌ على الأمر بنفي معاني الصفح والعفو.
وقال الزركشي، رحمه الله، في كتابه البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٣-٤٤: ما لهج به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف قول ضعيف، فهو من المنسأ - بضم الميم - بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة توجب ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، ليس بنسخ، إنما النسخ: الإزالة، حتى لا يجوز امتثاله أبدًا.. فليس حكم المسايفة ناسخًا لحكم المسالمة، بل كل منهما يجب امتثاله في وقته.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦١-٥٦٣.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٢-٢١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٦٢،

فلم يأمر الله تعالى المسلمين بقتال من طلب مسالمتهم ولا من هادنهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وينطوي في هذه المرحلة الأمر بالقتال في بعض الأزمنة والأمكنة دون غيرها:

فقد أمر الله تعالى بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وقد اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم؛ فقال قوم: كان كبيرًا ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

كأنه يقول: فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري، وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم غزا هوازن بحنين، وثقيفًا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة.

وقال آخرون: إنه غير منسوخ. قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يقاتلوا فيها، وما نسخت[1].

ونهى عن القتال عند المسجد الحرام فقال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

قال محيي السنة البغوي: «وكان هذا في ابتداء الإسلام، كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام، ثم صار منسوخًا بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

هذا قول قتادة. وقال مقاتل بن حيان: قوله ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث أدركتموهم في الحل والحرم، صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ ثم نسختها آية السيف في براءة، فهي ناسخة منسوخة. وقال مجاهد وجماعة: هذه الآية محكمة، ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم»[2].

رابعًا: مرحلة القتال مطلقًا:

ثم أمر الله تعالى المسلمين بالقتال مطلقًا للمشركين كافة، إذ هم يقاتلونهم كافة.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٢-٥٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩-٩٠.

(١) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢١٤.

فقال الله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩١ - ١٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة: ١٢ - ١٥].

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

فكانت هذه المرحلة الأخيرة التي استقر عليها أمر الجهاد، إذ إن سورة التوبة -وفيها آية السيف أو آية الجزية- من أواخر القرآن الكريم نزولًا[(١)].

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي: «فأمر بقتال المخالفين لدين الإسلام كافة، حتى لا يكون دين إلا دين الله تعالى الذي تعبد به عباده»[(٢)].

وهذا هو الذي خلص إليه أيضًا العلامة المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله حيث قال بعد أن تتبع السياق التاريخي لهدي النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل.

قال: «فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة.

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة.

والمحاربون له خائفون منه. فصار

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٢٥٦ - ٢٥٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١٠٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٨.
(٢) اختلاف العلماء، الطحاوي، اختصار الجصاص ٣/ ٤٢٦.

أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلمٌ مؤمن به، ومسالمٌ له آمنٌ -أهل ذمة- وخائف محارب»[1].

وهذا النظر للمراحل التي مر بها تشريع القتال والجهاد يشير إلى الأحكام المرحلية ليست أحكامًا نهائية تنسخ غيرها مثلًا أو تتعارض معها، فإن الإسلام يواجه كل مرحلة بما يناسبها. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تعريفه بسورة التوبة «براءة»: «هذه السورة مدنية، من أواخر ما نزل من القرآن- إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن- ومن ثم قد تضمنت أحكامًا نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض والسورة- بهذا الاعتبار- ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته- حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها- وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج، وعن مدى حسمه كذلك.

وبدون هذه المراجعة تختلط هذه الصور والأحكام والقواعد كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكامًا مرحلية فجعلت نهائية ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى»[2].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ١٦٠.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٩١.

أصناف المقاتلين

ألمحت فيما سبق إلى أن القتال ظاهرة اجتماعية، عرفتها البشرية منذ عهدها الأول، وإلى أن القتال في الإسلام الذي هو الجهاد في سبيل الله -كما تقدم- له غاية وهدف، ولذلك تنوع القتال بحسب أصناف المقاتلين، وفيما يأتي بيان لذلك بإيجاز، في النقاط الآتية:

أولًا: الكفار وأئمتهم:

إذا أطلقت كلمة القتال، فإن أول ما يتبادر إلى الأذهان هو قتال الكافرين والمشركين بعامة، وقد تواترت الآيات القرآنية الكريمة في ذلك، فقال الله تعالى مبينًا أن شأن الكفار هو قتال المؤمنين، فكان من الواجب قتالهم لرد العدوان ودرء الفتنة عن المسلمين: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩١- ١٩٣].

وهذا أمرٌ بقتالهم، أينما وجدوا في كل وقت، وفي كل زمان قتال مدافعةٍ، وقتال مهاجمةٍ، ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدؤوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاءً لهم على اعتدائهم، وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام، يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم. ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، وهي: «أنه يرتكب أخف المفسدتين، لدفع أعلاهما».

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به، سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به: أن ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ تعالى، فيظهر دين الله تعالى على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه، من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود، فلا قتل ولا قتال، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة، بقدر ظلمه[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٩.

قال الإمام أبو جعفر الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: واقتلوا -أيها المؤمنون- الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم وأمكنكم قتلهم، وذلك هو معنى قوله: «حيث ثقفتموهم»أي: اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم. وأما قوله: «وأخرجوهم من حيث أخرجوكم» فإنه يعنى بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ومنازلهم بمكة، فقال لهم تعالى ذكره: أخرجوا هؤلاء الذين يقاتلونكم - وقد أخرجوكم من دياركم - من مساكنهم وديارهم كما أخرجوكم منها والشرك بالله أشد من القتل[(١)].

وتأتي الآيات الكريمة لتأكيد هذا المعنى فيقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

يقول تعالى ذكره لفريق الإيمان به وبرسوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ورسوله من أهل الحرب، فاضربوا رقابهم حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى، فشدوهم في الوثاق كيلا يقتلوكم، فيهربوا منكم. فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحرروهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضًا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل[(٢)].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قوم: هي منسوخة بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٧].

وبقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥].

وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم أو يسترقهم أو يمن عليهم، فيطلقهم بلا عوض أو يفاديهم بالمال، أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٥٣.

وعطاء، وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد وإسحاق.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾. وهذا هو الأصح والاختيار، لأنه عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده»[1].

ثم تتوارد الآيات الكريمة في الأمر بقتال الكفار عندما يتولون ويعرضون عن الدين والتزام الأمان والسلم، وعندما ينقضون العهود والمواثيق، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٨٩].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وهذه المعاني نصت عليها الآيات الأخرى، وخصت بالذكر أئمة الكفر وصناديده، وهم القادة في الكفر، من الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنايتهم، ولأن غيرهم تبعٌ لهم، وليدل على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر[2].

فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٧-١٣].

ثانيًا: أهل الكتاب:

وإذا كان القتال موجهًا في المطلب

(١) معالم التنزيل ٧/ ٢٧٨.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٠.

السابق للكفار بعامة ولأئمتهم وصناديدهم بخاصة، فإن الأمر كذلك توجه للمؤمنين بقتال صنف من الكفار، وهم أهل الكتاب، فإنهم استجمعوا من الصفات ما يسوغ قتالهم إلى أن يسلموا أو يدفعوا الجزية.

فقال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجًا واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفًا، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم؛ وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحرٍ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ أي: إن لم يسلموا ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن قهر لهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: ذليلون حقيرون مهانون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صغرة أشقياء[(١)].

وقد أخبر الله تعالى عن أهل الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر مع إظهارهم الإيمان بالنشور والبعث. وذلك يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون مراده لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الذي يجري حكم الله فيه من تخليد أهل الكتاب في النار وتخليد المؤمنين في الجنة، فلما كانوا غير مؤمنين بذلك أطلق القول فيهم بأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ومراده حكم يوم الآخر وقضاؤه فيه، كما تقول: أهل الكتاب غير مؤمنين بالنبي، والمراد بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل فيه: إنه أطلق ذلك فيهم على طريق الذم؛ لأنهم بمنزلة من لا يقر به في عظم الجرم، كما أنهم بمنزلة المشركين في عبادة الله تعالى بكفرهم الذي اعتقدوه. وقيل أيضًا: لما كان إقرارهم عن غير معرفة، لم يكن ذلك إيمانًا، وأكثرهم بهذه الصفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ فإن دين الحق هو الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣٦.

وهو التسليم لأمر الله وما جاءت به رسله والانقياد له والعمل به، والدين يتصرف على وجوه: منها الطاعة، ومنها القهر، ومنها الجزاء. ودين اليهود والنصارى غير دين الحق لأنهم غير منقادين لأمر الله ولا طائعين له، لجحودهم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل: فهم يدينون بدين التوراة والإنجيل معترفون به منقادون له؟

فالجواب على ذلك: في التوراة والإنجيل ذكر نبينا، وأمرنا بالإيمان واتباع شرائعه، وهم غير عاملين بذلك بل تاركون له، فهم غير متبعين دين الحق.

وأيضًا: فإن شريعة التوراة والإنجيل قد نسخت، والعمل بها بعد النسخ ضلال، فليس هو إذًا دين الحق.

وأيضًا: فهم قد غيروا المعاني وحرفوها عن مواضعها وأزالوها إلى ما تهواه أنفسهم دون ما أوجبه عليهم كتاب الله تعالى، فهم غير دائنين دين الحق[1].

والذي يتلخص بعد ذلك: أن هذه الآية الكريمة فيها أمرٌ بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم، ولا يحرمون ما حرم الله، فلا يتبعون شرعه في تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير الحق، لأنه إما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا، وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس بسبب أنهم أهل كتاب. وغاية ذلك القتال ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام، كلٌّ على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: حتى يبذلوها في حال ذلهم وعدم اقتدارهم ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادما ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجراها

---

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢٨٢. وانظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٢١.

عليهم المسلمون مما ينفي عزهم وتكبرهم ويوجب ذلهم وصغارهم[(١)]؛ وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم. وإلا بأن لم يفوا ولم يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى يسلموا[(٢)].

ثالثًا: المرتدون.

وهذا صنف ثالث من أصناف الذين يقاتلهم المسلمون، ويكون قتالهم جهادًا في سبيل الله؛ لأنه قتال لإعلاء كلمة الله تعالى، بل قد يكون قتالهم أولى من قتال الكفار الأصليين. وفي بيان حال المرتدين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

قال الإمام عبد الحق ابن عطية رحمه الله في بيان الردة وما يترتب عليها، في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

«أي: من يرجع عن الإسلام إلى الكفر. قالت طائفة من العلماء: يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل.

وقال عبيد بن عمير وطاووس والحسن -على خلاف عنه- والشافعي في أحد قوليه: يقتل دون أن يستتاب. وروي نحو هذا عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل.

ومقتضى قولهما أنه يقال له للحين: راجع. فإن أبى ذلك قتل، وقال عطاء بن أبي رباح: إن كان المرتد ابن مسلمين قتل دون استتابة، وإن كان أسلم ثم ارتد استتيب، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين.

واختلف القائلون بالاستتابة: فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يستتاب ثلاثة أيام. وبه قال مالك وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي والشافعي في أحد قوليه.

وقال الزهري: يدعا إلى الإسلام، فإن تاب وإلا قتل.

وروي عن علي أبي طالب رضي الله عنه أنه استتاب مرتدًا شهرًا فأبى فقتله، وقال النخعي والثوري: يستتاب محبوسًا أبدًا. قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا الباب.

قال القاضي أبو محمد: كان رضي الله

---

(١) قال الماوردي في تفسيره النكت والعيون ٢/ ٣٥٢ في معنى الصَغَار: فيه خمسة أقاويل: أحدها: أن يكونوا قيامًا والآخذ لها جالسًا، قاله عكرمة. والثاني: أن يمشوا بها وهم كارهون، قاله ابن عباس. والثالث: أن يكونوا أذلاء مقهورين، قاله الطبري. والرابع: أن دفعها هو الصغار بعينه. والخامس: أن الصغار أن تجري عليهم أحكام الإسلام، قاله الشافعي.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٣٤.

عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد أو قلة جرمه المقترن بالردة»[1].

رابعًا: الطائفة الممتنعة عن أداء أحد أركان الإسلام.

إن تتبع الأحكام الشرعية في قتال فئات وطوائف تتصف بصفة معينة أو تمتنع عن الالتزام بحكم من الأحكام الظاهرة أو تترك شعيرة من شعائره يجعلنا نخرج بحكم كليٍّ أو قاعدة عامة في قتال الطائفة الممتنعة عن أداء أحد أركان الإسلام، وهو وجوب قتالها حتى تعود إلى الإقرار والطاعة والالتزام، فتتمتع عندئذ بالعصمة، أو تعود إليها العصمة التي سقطت عنها بامتناعها عن أداء الركن.

وقد أبان عن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله خير بيان وأوضحه، واستدل له بالآيات الكريمة الواضحة الدلالة فقال:

«أجمع علماء المسلمين على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها حتى يكون الدين كله لله، فلو قالوا: نصلي ولا نزكي، أو نصلي الخمس ولا نصلي الجمعة ولا الجماعة، أو نقوم بمباني الإسلام الخمس ولا نحرم دماء المسلمين وأموالهم، أو لا نترك الربا ولا الخمر ولا الميسر، أو نتبع القرآن ولا نتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نعمل بالأحاديث الثابتة عنه، أو نعتقد أن اليهود والنصارى خير من جمهور المسلمين وأن أهل القبلة قد كفروا بالله ورسوله ولم يبق منهم مؤمن إلا طائفة قليلة، أو قالوا: إنا لا نجاهد الكفار مع المسلمين، أو غير ذلك من الأمور المخالفة لشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته وما عليه جماعة المسلمين؛ فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعها كما جاهد المسلمون مانعي الزكاة، وجاهدوا الخوارج وأصنافهم، وجاهدوا الخرمية والقرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن شريعة الإسلام.

وذلك لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

فلم يأمر بتخلية سبيلهم إلا بعد التوبة من جميع أنواع الكفر وبعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٢٤١.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٣١٦-٣١٧، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٤٦.

﴿اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

فقد أخبر تعالى أن الطائفة الممتنعة إذا لم تنته عن الربا فقد حاربت الله ورسوله، والربا آخر ما حرم الله في القرآن فما حرمه قبله أوكد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا أَوْ يُصَلَّبُوٓا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله، ومن عمل في الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله فقد سعى في الأرض فسادًا؛ ولهذا تأول السلف هذه الآية على الكفار وعلى أهل القبلة؛ حتى أدخل عامة الأئمة فيها قطاع الطريق الذين يشهرون السلاح لمجرد أخذ الأموال، وجعلوهم بأخذ أموال الناس بالقتال محاربين لله ورسوله ساعين في الأرض فسادًا، وإن كانوا يعتقدون تحريم ما فعلوه ويقرون بالإيمان بالله ورسوله. فالذي يعتقد حل دماء المسلمين وأموالهم ويستحل قتالهم، أولى بأن يكون محاربًا لله ورسوله، ساعيًا في الأرض فسادًا من هؤلاء. كما أن الكافر الحربي الذي يستحل دماء المسلمين وأموالهم ويرى جواز قتالهم، أولى بالمحاربة من الفاسق الذي يعتقد تحريم ذلك

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فكل من خرج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه. ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة.

وبذلك جاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين؛ ففي «الصحيحين»[(١)]: عن أبي هريرة قال: **(لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١٣/ ٢٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله..رقم ٢٠، ١/ ٥١-٥٢.

الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم أموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)؟ فقال أبو بكر: ألم يقل إلا بحقها؟ فإن الزكاة من حقها، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. فقال عمر: فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق). فاتفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال أقوام يصلون ويصومون إذا امتنعوا عن بعض ما أوجبه الله عليهم من زكاة أموالهم.

وهذا الاستنباط من صديق الأمة قد جاء مصرحًا به. ففي «الصحيحين»[(١)]: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها).

فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتالهم حتى يؤدوا هذه الواجبات. وهذا مطابق لكتاب الله. وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، وأخرج منها أصحاب الصحيح عشرة أوجه ذكرها مسلم في «صحيحه» وأخرج منها البخاري غير وجهٍ، وقال الإمام أحمد رحمه الله صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه»[(٢)].

خامسًا: الطائفة المعتدية على الأخرى من المؤمنين:

أقام الإسلام العلاقة بين المؤمنين على أساس العقيدة والإيمان والأخوة الإسلامية التي ينتفي معها القتال بين المؤمنين، لأن العصمة وحرمة الدم والمال والعرض ثابتة لكل منهم بإيمانه وإسلامه، فلا يجوز أن يكون القتال بين فئتين مسلمتين، أو بين دولتين مسلمتين -عندما توزعت الأمة الواحدة إلى دول- إلا أن الإسلام يعالج كل الاحتمالات والوقائع التي قد تطرأ فتحمل بعض الناس من المؤمنين على بغي أو عدوان على آخرين منهم، وهنا يجب المبادرة إلى الإصلاح ورفع العدوان والبغي الواقع من إحدى الطائفتين على الأخرى[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة، ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٤٦٩-٤٧٣.

(٣) انظر: المشروعية في النظام الإسلامي د.مصطفى كمال وصفي، ص٥٥، منهج الإسلام في الحرب والسلام عثمان ضميرية، ص١٤٦، الجهاد في سبيل الله عزة دروزة، ص١٧٤.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وقد تضمنت الآيات تعليمًا رائع المدى بشأن ما قد يقوم من قتال بين فريقين من المؤمنين. والتعليم هنا موجه إلى فريق ثالث ليس طرفًا في القتال، يجب عليه ألا يقف موقف المتفرج، بل عليه أن يسارع إلى فض القتال والإصلاح بين المتقاتلين المسلمين الذين هم إخوة لا يجوز أن يقع بينهم قتال ولا نزال ولا بغي على أحد، ويعمل على إحقاق الحق لأهله بدون محاباة، ونصرة المظلوم ولو بالسلاح، إذا لم يرتدع الظالم ويقف عند الحق والعدل وحدود الله.

وقد روى المفسرون أن الآيتين نزلتا في مناسبة نزاع بين أسرتين أو عشيرتين أدى إلى قتال بينهما[1]، ولكن الحكم يبقى أوسع مدى من الواقعة التي نزلت الآيات بسببها؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول علماؤنا رحمهم الله تعالى.

وهذا يسوغ القول بأن الآيات الكريمة استهدفت تقريرا قاعدة عامة أوسع شمولًا، وينطوي في حكمها أن يكون القتال بين حكومتين إسلاميتين، أو فتنة قتالية بين حكومة إسلامية ورعيتها مع وجود حكومة أو حكومات إسلامية أخرى ليست طرفًا في النزاع والقتال، وأن التوجيه الذي احتوته الآيات هو وجوب تدخل هذه الحكومة أو الحكومات بين المتقاتلين لإصلاح الأمر وحل النزاع ووقف القتال على أساس الحق والعدل، ووجوب نصر من وقع عليه البغي -إذا أبى الباغي الإذعان لحكم الله- إلى أن يذعن له[2].

والمعنى الإجمالي العام للآيات الكريمة: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا فأصلحوا -أيها المؤمنون- بينهما بدعوتهما إلى الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والرضا بحكمهما، فإن اعتدت إحدى الطائفتين وأبت الإجابة إلى ذلك، فقاتلوها حتى ترجع إلى حكم الله ورسوله، فإن رجعت فأصلحوا بينهما بالإنصاف، واعدلوا في حكمكم بأن لا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله وحكم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٦/ ١٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ١٤٨، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥٦٠-٥٦١، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٦٩٩٩.

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٧٤-١٧٥.

رسوله، إن الله يحب العادلين في أحكامهم القاضين بين خلقه بالقسط، فإنما المؤمنون إخوة في الدين، فأصلحوا بين أخويكم إذا اقتتلا وخافوا الله في جميع أموركم؛ رجاء أن ترحموا[١].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: وإن طائفتان من أهل الإيمان اقتتلوا، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل، فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له، وعليه وتعدت ما جعل الله عدلًا بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما، فقاتلوا التي تعتدي، وتأبى الإجابة إلى حكم الله حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه؛ فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه، فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها بالعدل يعني: بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه[٢].

سادسًا: البغاة:

قد ترى جماعة من المسلمين في المجتمع المسلم رأيًا فتتمسك به وتدافع عنه، أو تتأول حكمًا تنفرد به وتتعصب له، وتدافع عنه بعنف حتى تبغي على غيرها، ويترابط أفرادها بعضهم مع بعضٍ حتى يخشى بأسهم، أو يصبحوا على حالة تؤدي إلى تفرق الكلمة، وتجزئة الصف، بل ربما تطمع تلك الحالة العدو بالمسلمين بعد إظهار خلع طاعة الإمام الحاكم، وهؤلاء هم البغاة الذين بغوا على أهل العدل، فسوغ ذلك قتالهم، فيما أسماه علماؤنا بـ «حروب المصالح»[٣].

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

البغي في اللغة العربية: هو طلب الشيء، يقال: بغيت كذا إذا طلبته. ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤].

ثم اشتهر البغي عرفًا في التعدي وطلب ما لا يحل من الجور والظلم، وإن كانت اللغة لا تمنع أن يكون البغي بحق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ

(١) التفسير الميسر ص٥١٦.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٢.
(٣) عقد الماوردي الباب الثالث من الأحكام السلطانية للولاية على حروب المصالح، وهي الردة والبغي والحرابة.
وانظر: الجهاد في سبيل الله، محمود شاكر، ص٢٣١-٢٣٣، الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٧٤.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:٣٣][1].

ويختلف الفقهاء في تعريف البغي اصطلاحًا لاختلافهم في الشروط التي يجب توافرها في البغاة، ولمحاولة الفقهاء في أكثر من مذهب أن يجمعوا في التعريف بين أركان البغي وشروطه ورغبتهم أن يكون التعريف جامعًا مانعًا، ونستطيع أن نعرف البغي تعريفًا مشتركًا فيه كل المذاهب إذا اكتفينا بإبراز الأركان الأساسية في التعريف فنقول: إن البغي هو الخروج على الإمام مغالبةً[2].

ومن تعريف البغي يؤخذ تعريف البغاة، وهي جمع لكلمة الباغي، وهو في الشرع: الخارج على الإمام العدل. فالبغاة هم طائفة من الناس جمعت بين ثلاثة أمور:

- الخروج على الإمام العدل. والمقصود هو مخالفة الإمام والعمل لخلعة، أو الامتناع عما وجب على الخارجين من حقوق، وأن يكون الخروج مغالبة.
- الخروج على الإمام مغالبة. أي أن يكون الخروج مصحوبًا باستعمال القوة، فإذا كان الخروج غير مصحوب باستعمال القوة فلا يعتبر بغيًا، كرفض مبايعة الإمام بعد أن بايعت له الأغلبية، ولو نادى الخارجون بعزل الإمام أو بعصيانه وعدم طاعته أو بالامتناع عن أداء ما عليهم من واجبات تقوم الدولة على استيفائها.
- القصد الجنائي في الخروج (قصد البغي)، فيشترط لوجود البغي أن يتوفر لدى الخارج القصد الجنائي العام؛ أي قصد الخروج على الإمام مغالبة، فإذا كان الخارج لم يقصد من فعله الخروج على الإمام أو لم يقصد المغالبة فهو ليس باغيًا[3].

فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل، ونصبوا إمامًا: فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة، وأصروا على بغيهم، قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته.

ثم الحكم في قتالهم: أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم، ولا يجهز على جريحهم، فقد نادى منادي علي رضي الله عنه يوم الجمل: ألا لا يتبع مدبر ولا يذفف على جريح[4].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٨١، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٥ ، المصباح المنير، الفيومي ص٥٦-٥٧.
(٢) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ٦٧١-٦٧٢.
(٣) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي ٢/ ٦٧١.
(٤) أخرجه البيهقي موقوفًا ٨/ ١٨١، وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/ ١٥٥ ولم يتعقبه

وما أتلفت إحدى الطائفتين على الأخرى في حال القتال من نفس أو مال فلا ضمان عليه. قال ابن شهاب الزهري: كانت في تلك الفتنة دماء يعرف في بعضها القاتل والمقتول، وأتلف فيها أموال كثيرة، ثم صار الناس إلى أن سكنت الحرب بينهم، وجرى الحكم عليهم، فما علمته اقتص من أحد ولا أغرم مالًا أتلفه.

أما من لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم، أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إمامًا فلا يتعرض لهم إن لم ينصبوا قتالًا ولم يتعرضوا للمسلمين، فإن فعلوا فهم كقطاع الطريق[1].

روي أن عليًا رضي الله عنه سمع رجلًا يقول في ناحية المسجد: «لا حكم إلا لله تعالى»، فقال عليٌّ: كلمة حق أريد بها باطل، لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال[2].

قال العلامة أبو بكر الجصاص رحمه الله: «قد اقتضى ظاهر الآية الأمر بقتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، وهو عموم في سائر ضروب القتال، فإن فاءت إلى الحق بالقتال بالعصي والنعال لم يتجاوز به إلى غيره، وإن لم تفئ بذلك قوتلت بالسيف على ما تضمنه ظاهر الآية. وغير جائزٍ لأحد الاقتصار على القتال بالعصي دون السلاح مع الإقامة على البغي وترك الرجوع إلى الحق، وذلك أحد ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذاك أضعف الإيمان)**[3].

فأمر بإزالة المنكر باليد، ولم يفرق بين السلاح وما دونه، فظاهره يقتضي وجوب إزالته بأي شيء أمكن.

وذهب قوم إلى أن قتال أهل البغي إنما يكون بالعصي والنعال وما دون السلاح وأنهم لا يقاتلون بالسيف، واحتجوا بما روينا من سبب نزول الآية وقتال القوم الذين تقاتلوا بالعصي والنعال. وهذا لا دلالة فيه على ما ذكروا؛ لأن القوم تقاتلوا بما دون السلاح، فأمر الله تعالى بقتال الباغي منهما ولم يخصص قتالنا إياه بما دون السلاح وكذلك نقول متى ظهر لنا قتال من فئة على وجه البغي قابلناه بالسلاح وبما دونه حتى

الذهبي.
انظر: نصب الراية، الزيلعي ٣/ ٤٦٣، التلخيص الحبير، ابن حجر ٤/ ٤٣، إرواء الغليل، الألباني ٨/ ١١٣.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٣٤٢.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم ٧٨، ١/ ٦٩.



ترجع إلى الحق، وليس في نزول الآية على حال قتال الباغي لنا بغير سلاح ما يوجب أن يكون الأمر بقتالنا إياهم مقصورًا على ما دون السلاح مع اقتضاء عموم اللفظ للقتال بسلاح وغيره. ألا ترى أنه لو قال: «من قاتلكم بالعصي فقاتلوه بالسلاح» لم يتناقض القول به؟ فكذلك أمره إيانا بقتالهم؛ إذ كان عمومه يقتضي القتال بسلاح وغيره، وجب أن يجرى على عمومه وأيضا قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الفئة الباغية بالسيف»[1].

ثم أبان عن واجب الإمام في التعامل مع أهل البغي وما يبدؤهم به فقال[2]: «أمر الله عند ظهور القتال منهم بالإصلاح بينهما، وهو أن يدعوا إلى الصلاح والحق وما يوجبه الكتاب والسنة والرجوع عن البغي، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ﴾ يعني -والله أعلم -: إن رجعت إحداهما إلى الحق وأرادت الصلاح وأقامت الأخرى على بغيها وامتنعت من الرجوع فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله. فأمر تعالى بالدعاء إلى الحق قبل القتال، ثم إن أبت الرجوع قوتلت. وكذا فعل علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- بدأ بدعاء الفئة الباغية إلى الحق واحتج عليهم، فلما أبوا القبول قاتلهم.

وفي هذه الآية دلالة على أن اعتقاد مذاهب أهل البغي لا يوجب قتالهم ما لم يقاتلوا؛ لأنه قال: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾، فإنما أمر بقتالهم إذا بغوا على غيرهم بالقتال، وكذلك فعل علي بن أبي طالب مع الخوارج؛ وذلك لأنهم حين اعتزلوا عسكره بعث إليهم عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- فدعاهم، فلما أبوا الرجوع ذهب إليهم فحاجهم فرجعت منهم طائفة وأقامت طائفة على أمرها، فلما دخلوا الكوفة خطب فحكمت الخوارج من نواحي المسجد وقالت: «لا حكم إلا لله» فقال علي رضي الله عنه: «كلمة حق يراد بها باطل، أما إن لهم ثلاثًا: أن لا نمنعهم مساجد الله أن يذكروا فيها اسمه، وأن لا نمنعهم حقهم من الفيء ما دامت أيديهم مع أيدينا، وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا»[3].

(١) أحكام القرآن ٣/ ٥٣٢-٥٣٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تقدم تخريجه قريبًا.

أحكام القتال

تنزلت الآيات الكريمة، وتواردت الأحاديث النبوية الشريفة وتواترت الوقائع العملية في السيرة النبوية في بيان أحكام القتال، والشروط الواجب توفرها فيمن يجب عليه القتال و الجهاد.

ثم رسمت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية صورة مزرية للمتقاعسين والمتخلفين عن القتال بدون عذر، أو المتلمسين للأعذار الكاذبة. واستتبع ذلك بيان الآثار المترتبة على القتال في الأنفس والأموال، فقد أبانت الآيات عن حكم الفيء والغنائم والجزية التي تؤخذ من الكفار، وحكم الأسرى الذين يقعون في أيدي المقاتلين المسلمين.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: حكم القتال وشروطه:

١ . حكم القتال.

الأصل العام والقاعدة المقررة أن قتال الكفار -أو الجهاد بمعناه الخاص- واجب على المسلمين إلا أنهم في سعة من ذلك حتى يحتاج إليهم. ويدل على أصل الوجوب أو الفرضية آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية كثيرة.

فمن الآيات الكريمة؛ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال عليه الصلاة والسلام: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام

وحسابهم على الله)[1].

والأمر المطلق في هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة يقتضي اللزوم. فاقتضى هذا أن القتال والجهاد فريضة محكمة يكفر جاحدها، وقد ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنةوالإجماع[2].

وقد أجمع علماء المسلمين وفقهاء الأمة الإسلامية -منذ العصور الأولى: على هذه الفرضية. ولكن وقع الخلاف بينهم -بعد ذلك- في نوع هذا الفرض وكيفيته، هل هو فرض عين أو فرض كفاية؟

والأمر فيه لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون النفير عامًا [3]، وإما أن لا يكون، لأن الكفار مستقرون ببلادهم لم يبدؤونا بالقتال، ولذلك نبحث حكم القتال في هاتين الحالتين:

١. إذا لم يكن النفير عامًا.

ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الجهاد فرض كفاية إن لم يكن النفير عامًا، إذا قام به بعض المكلفين ممن يتأدى بهم الفرض، وتحصل بهم الكفاية، سقط الوجوب عن الباقين وكانوا في سعة من تركه، لأن المطلوب حصوله في نفسه من مجموع المكلفين. وإن لم يقم به أحد من المكلفين بقي الخطاب موجهًا إلى الجميع للقيام به، وعندئذ يأثم كل قادرٍ إن لم يجاهد. فالخطاب بالفرضية في ابتدائه موجه إلى الجميع من القادرين على القيام به كفرض العين، أو إلى مجموعهم ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض العين لا يسقط عن أحد بفعل غيره.

والدليل على أنه فرض كفاية: من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ومن المعقول أيضًا.

فمن القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَٰعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَٰهِدِينَ عَلَى الْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

فلو كان الجهاد فرضًا على كل أحد في نفسه لما كان القاعدون موعودين بالحسنى، بل كانوا يكونون مذمومين مستحقين للعقاب بتركه، لأن القعود عن القيام بالفرض يكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، ١/ ٥٣.

(٢) انظر: شرح السير الكبير، الشيباني ١/ ١٨٨، المبسوط، السرخسي ١٠/ ٣، أحكام القرآن الجصاص ٣/ ١١٤ - ١١٥.

(٣) معنى النفير أن يخبر أهل مدينة أن العدو قد جاء يريد أنفسكم أو ذراريكم أو أموالكم. فهو التحريض على الجهاد.والنفير العام: أن يحتاج إلى جميع المسلمين، فلا يحصل المقصود - وهو إعزاز الدين - إلا بالجميع. انظر: شرح السير الكبير ١/ ١١٢.

حرامًا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فالآية تدل على أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية، إذ لو نفر الكل لضاع من وراءهم من العيال، فليخرج فريق منهم للجهاد، وليقم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلموه من أحكام الشرع وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ومن السنة النبوية: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثًا إلى بني لحيان من هذيل، فقال: (لينبعث من كل رجلين أحدهما، والأجر بينهما)[3]. ولو كان الجهاد فرض عين في هذه الحال لكان لا يتوهم منه صلى الله عليه وسلم القعود عنه بحال، ولا أذن لغيره بالتخلف عنه بحال[4].

ومن المعقول: أن المراد من الجهاد والمقصود به هو دفع شر الكفار وكسر شوكتهم، وإعلاء كلمة الدين وإعزاز الإسلام والمسلمين، وأن يأمن المسلمون ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم، فهو مقصود في نفسه لا باعتبار الفاعل، فلو جعل فرضًا في كل وقت على كل واحدٍ عاد على موضوعه ومقصوده بالنقض والإبطال، إذ لو اشتغل الكل بالجهاد لم يتفرغوا للقيام بمصالح دينهم ودنياهم، وانقطعت مادة الجهاد ووسيلته من الكراع والسلاح والأقوات والتجارة، فيؤدي ذلك إلى تعطيل الجهاد وتركه للعجز عن القيام به، ولهذا ينبغي أن يتولى البعض الجهاد، والبعض التجارة والزراعة والصناعة التي تقوم بها المصالح، فكان فرض كفاية[5].

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن الإمام مالكًا رحمه الله يقول: الجهاد فرض بالأموال والأنفس، فإن منعهم الضرر، أو عاهة بأنفسهم، لم يسقط عنهم الفرض بأموالهم[6].

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١١٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤١- ٣٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٧٣- ١٧٥، روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٢١- ١٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٣٩.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١١١، أسباب النزول الواحدي، ص ٣٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، ٣/ ١٥٠٧.

(٤) انظر: بدائع الصنائع، الصاغاني ٩/ ٤٣٠٠.

(٥) انظر: المبسوط السرخسي ١٠/ ٣، الكافي، ابن عبد البر ١/ ٣٩٨، روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢٠٨، المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٦) مختصر اختلاف الفقهاء، الجصاص ٣/ ٥٠٩، التهذيب، ابن عبد البر ١٨/ ٣٠٣.

وفي هذا كله يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «فإذا كان فرض الجهاد على من فرض عليه محتملًا لأن يكون كفرض الصلاة وغيرها عامًا عينيًا.

ومحتملًا لأن يكون على غير العموم؛ فدل كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن فرض الجهاد إنما هو على أن يقوم به من فيه كفاية للقيام به حتى يجتمع أمران؛ أحدهما: أن يكون بإزاء العدو المخوف على المسلمين من يمنعه، والآخر: أن يجاهد من المسلمين من في جهاده كفاية، فإذا قام بهذا من المسلمين من فيه الكفاية به خرج المتخلف منهم من المأثم في ترك الجهاد، وكان الفضل للذين ولوا الجهاد على المتخلفين عنه.

قال الله عز وجل: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: ٩٥].

وبيِّنٌ إذ وعد الله عز وجل القاعدين غير أولي الضرر الحسنى أنهم لا يأثمون بالتخلف، ويوعدون الحسنى بالتخلف، بل وعدهم -لما وسع عليهم من التخلف- الحسنى إن كانوا مؤمنين لم يتخلفوا شكًّا ولا سوء نية وإن تركوا الفضل في الغزو.

وأبان الله عز وجل في قوله في النفير حين أمرنا بالنفير: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

وقال عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فأعلمهم أن فرض الجهاد على الكفاية من المجاهدين.

ولم يغز رسول الله صلى الله عليه وسلم غزاةً علمتها إلا تخلف عنه فيها بشرٌ؛ فغزا بدرًا وتخلف عنه رجال معروفون. وكذلك تخلف عنه عام الفتح، وغيره من غزواته صلى الله عليه وسلم، وقال في غزوة تبوك، وفي تجهيزه للجمع للروم: (ليخرج من كل رجلين رجل فيخلف الباقي الغازي في أهله وماله)[1].

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيوشًا وسرايا تخلف عنها بنفسه مع حرصه على الجهاد على ما ذكرت. وأبان أن لو تخلفوا معًا أثموا معًا بالتخلف بقوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، رقم ٥٠١٦ عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني لحيان ليخرج من كل رجلين رجل.ثم قال للقاعد: أيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج.

﴿أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩].

يعني -والله تعالى أعلم- إلا إن تركتم النفير كلكم عذبتكم. ففرض الجهاد -على ما وصفت- يخرج المتخلفين من المأثم القائم بالكفاية فيه، ويأثمون معًا إذا تخلفوا معًا»[(١)].

وذهب سعيد بن المسيب رحمه الله إلى أن الجهاد فرض عين مطلقًا على كل مسلم، لقوله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق)[(٢)].

كما استدل بجميع أدلة الجمهور التي استدلوا بها على الكفاية، وحملها على الدلالة على فرض العين، وقال: إن القاعدين الموعودين بالحسنى ـ في آية سورة النساء السابقة ـ كانوا حراسًا في سبيل الله، فهم يقومون بفريضة الجهاد أيضًا.

وقال الداوودي: هو فرض عين على من يلي الكفار[(٣)].

وحكي عن ابن عمر وسفيان الثوري وابن شبرمة وعطاء وعبدالله بن حي: أن الجهاد تطوع وليس فرضًا، وأن القائمين به من المسلمين أنصار الله. وقال سحنون -من علماء المالكية-: صار الجهاد تطوعًا بعد فتح مكة.

واستدل بعضهم على هذا بأن قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ إنما هو على الندب لا الوجوب، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

فهي للندب. وبأن الآيات التي تدل على الوجوب مخصوصة، حيث خص النبي صلى الله عليه وسلم فئات لا يجوز قتلها كالنساء والصبيان، وعلى هذا فالآيات بعد التخصيص لا تدل على الفرضية.

٢. أن يكون النفير عامًا.

وفي هذه الحالة اتفق جمهور العلماء على أن القتال أو الجهاد فرض عين على كل قادر مستطيع من المكلفين بالجهاد، لأن المقصود من الجهاد -وهو دفع الكفار- لا يحصل إلا بهم جميعًا، فالقادر على

(١) الأم، الشافعي ٤/ ٩٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز، رقم ٥٠٤٠.
(٣) انظر: القوانين الفقهية، ابن جزي ص ١٥١، المبدع، ابن مفلح ٣/ ٣٠٧، نهاية المحتاج، الشربيني ٨/ ٤٥ - ٤٦.

الجهاد يباشر الجهاد بنفسه، وغير القادر من المكلفين يخرج مع المجاهدين لتكثير سوادهم وإرهاب العدو. وعندئذ يخرج الابن بغير إذن والديه، والمرأة بغير إذن زوجها، لأن الخروج في مثل هذه الحال فرض عين على كل أحد.

وما يفوته بترك هذه الفريضة لا يمكنه استدراكه، أما ما قد يفوته بالخروج لها بغير إذن الوالدين -مثلًا- فيمكن استدراكه بعد هذا، فيشتغل بما هو الأهم. ولأن الضرر في تركه الخروج للجهاد أعم، فإن ذلك يتعدى إليه وإلى والديه وإلى غيرهم من المسلمين. ولأنه لا يحل لوالديه أن ينهياه عن هذا الخروج، فيكون له أن يخرج ليسقط به الإثم عنه وعنهما، ولا طاعة لهما عليه فيما كانا عاصيين فيه.

ويدل على ذلك كثير من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٢. شروط القتال.

وأما شروط القتال التي يجب أن تتحقق حتى يكون واجبًا على المكلفين المخاطبين بهذه الأحكام فهي شروط التكليف بعامة، ويختص القتال ببعض الشروط. وهي بجملتها: الإسلام والبلوغ والحرية والذكورة والقدرة البدنية والمالية للنفقة أو انتفاء العذر. وفيما يأتي إيجاز سريع لها استنباطًا من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية وقواعد الأصول[1].

١. الإسلام.

فإن الخطاب القرآني الكريم توجه للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتباعه من المؤمنين المسلمين. فقال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: من الآية٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٢. البلوغ والعقل.

وهما من شروط التكليف والمخاطبة بالأحكام الشرعية، فإن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الرجال، و المجنون الذي اختل

(١) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٥/ ٤٤٢، الأم، الشافعي ٤/ ١٦٣، المغني، ابن قدامة ١٠/ ٣٦٥.

عقله، كلاهما غير مخاطب لأنه فاقد الأهلية للخطاب، والمجنون كذلك لا يتأتى منه الجهاد. فقد قال عليه الصلاة والسلام: (رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم)[(١)].

٣. الحرية.

لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبايع الأحرار على الإسلام والجهاد، ويبايع العبيد على الإسلام دون الجهاد[(٢)].

والعبد لا يملك المال و النفقة للجهاد، وهو مشغول بأمر سيده المالك له، فلا يجب عليه القتال. ويلاحظ أن الرق في عصرنا هذا انتهى وجوده -بعامة- فالبحث في هذا بحث تاريخي فقط.

٤. الذكورة.

فلا يجب القتال إلا على الرجال، ولا يلزم النساء، إلا أن يتطوعن فيه للحاجة، أو عندما يكون فرض عين لا فرض كفاية. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: (استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، فقال: (جهادكن الحج)[(٣)].

٥. القدرة وسلامة البدن.

فلا يجب القتال على من فقد القدرة بسبب المرض أو العمى أو غير ذلك مما يتعذر معه القتال، أو يعجز صاحبه عنه كالعاجز و الشيخ الكبير في السن، وضعيف البنية، والمقعد والأعرج.

والله تعالى يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التوبة: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

٦. وجود النفقة.

فلا يجب القتال على من تعوزه النفقة

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ٩٤٠، وأبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب المجنون يسرق أو يصيب حدًا، رقم ٤٤٠٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٥٩، رقم ٣٥١٢.

(٢) قال ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ٣٩: هذا الحديث صحيح لا يحضرني من خرجه من هذا الوجه، ويغني عنه في الدلالة ما في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله قال: جاء عبدٌ فبايع النبي صلى الله عليه وسلم على الهجرة ولم يشعر أنه عبد، فجاء سيده يريده فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: بعنيه، فاشتراه بعبدين أسودين، ثم لم يبايع أحدًا بعد حتى يسأله أعبدٌ هو ؟.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب جهاد النساء، رقم ٢٨٧٥، ٢٨٧٦. قال الحافظ ابن حجر تعليقًا عليه: لهن أن يتطوعن بالجهاد، ولم يكن واجبًا عليهن، لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة الرجال. فتح الباري ٦/ ٧٦.

للجهاد[1]، فلا يجدها ولا يقدر عليها، وقد كان المجاهدون يخرجون للجهاد وينفقون على انفسهم ويشترون أدوات القتال والسلاح. وأما عندما تتكفل الدولة بالنفقات والأدوات و الأسلحة فإن فقد هذا الشرط لا يؤثر في الحكم.

وإلى هذا الشرط الإشارة في الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة: ٩١-٩٣].

ثانيًا: حكم الاعتذار والتخلف عن القتال:

ألمحت فيما سبق إلى بعض الآيات الكريمة التي تعلي من مكانة الجهاد، فهو ذروة سنام الإسلام، وأحد مبانيه العظام، وهو طريق العزة و الكرامة. وفي هذا المطلب إشارات إلى ما يقابل ذلك، حيث تنزلت آيات كثيرة فيها تحذير من التخلف عن القتال أو الاعتذار عنه مالم يكن للمرء عذر، وتنوعت أساليب القرآن الكريم في ذلك. وفيما يأتي طائفة منها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٨].

فهؤلاء المتخلفون عن القتال والجهاد بالنفس لم يحملهم على التخلف والتقاعس إلا النفاق والكذب والمراوغة، فإذا دعاهم الرسول والمؤمنون للجهاد والقتال، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا ودافعوا عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة، فأبوا ذلك واعتذروا بأن قالوا: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، فقد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحدٍ أن هؤلاء المشركين، قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم

(١) أعوز الرجل إعوازًا: افتقر. وأعوزه الدهر: أفقره. انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٣٧.

قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم، فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصًا وقد خرج المسلمون من المدينة وبرزوا لهم، هذا من المستحيل.

ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر، يروج على المؤمنين، فقال تعالى عنهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم[(1)].

وهذه نماذج أخرى غنية عن التعليق في بيان حكم المتخلفين والمعتذرين والآثار المترتبة على ذلك من وعيد وتهديد وذلة في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب في الآخرة[(2)].

قال الله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨١-٨٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ٩-١٥].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٦.
(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص٣٨-٥٠ و١١٤-١٢٧.

قَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء: ٧٧].

ثالثًا: حكم الفيء والغنيمة والأسر والجزية:

إذا قام القتال ونشبت الحرب وظهر المسلمون على أعدائهم، فإن هذا يرتب آثارًا في أموال الحربيين وأشخاصهم، فيتملك المسلمون الأموال والبلاد المفتوحة، وهذه هي الغنائم، وقد يأخذون أموالًا منهم بالصلح كالجزية، أو بدون حرب وهو الفيء، ويكون الأشخاص أسرى وسبايا إذا وقعوا في يد المسلمين بالقتال(١).

وفي هذا يقول العلامة علاء الدين الكاساني: «إذا ظهر الإمام على بلاد أهل الحرب، فالمستولى عليه لا يخلو من أحد أنواع ثلاثة: المتاع، والأراضي، والرقاب»(٢).

ويقول ابن رشد الحفيد: «وأما ما يجوز من النكاية في العدو؛ فإن النكاية لا تخلو أن تكون في الأموال، أو في النفوس، أو في الرقاب، أعني: الاستعباد والتملك»(٣).

هذه كلها آثار تترتب على قيام الحرب، ولذلك نتناولها في الفقرات الآتية:

(١) انظر: أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان ضميرية ٢/ ١١٨٥-١٣٠٤.

(٢) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٩/ ٤٣٤٧.

(٣) انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن رشد: ٢/ ٣٨٢.

١. الفيء.

الفيء في اللغة هو الرجوع. وفي الاصطلاح الفقهي: هو ما أخذ من أموال أهل الحرب صلحًا من غير قتال، أو بعد أن تضع الحرب أوزارها، كالخراج والجزية ونحو ذلك. وقد سمي هذا المال فيئًا؛ لأن الله أفاء به على المسلمين، ففاء إليهم -أي رجع- بلا قتال(٤).

وقد تنزلت الآيات الكريمة في بيان أحكام الفيء، فقال الله تعالى في بيان مشروعيتها وحكمتها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٦-٨].

قال المفسرون: طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخمس أموال بني النضير لما أجلوا، فنزلت هذه الآية

(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٤٥، ٥٨٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٦٨، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية، نزيه حماد، ص٣٥٦.

تبين أنها فيءٌ لم تحصل لهم بمحاربتهم، وإنما هو بتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو له خاصة، يفعل فيه ما يشاء. فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منه شيئًا، إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة[(١)].

وذلك أن بني النضير لما تركوا رباعهم وضياعهم طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسمها بينهم، كما فعل بغنائم خيبر، فبين الله تعالى في هذه الآية أنها فيءٌ لم يوجف المسلمون عليها خيلًا ولا ركابًا، ولم يقطعوا إليها شقة ولا نالوا مشقة، ولم يلقوا حربًا، فجعل أموال بني النضير لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئًا إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة.

وروى البخاري عن مالك بن أوس بن الحدثان النضري، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه إذ جاءه حاجبه يرفأ فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن والزبير وسعد يستأذنون؟ قال: نعم، فأدخلهم، فلبث يرفأ قليلًا ثم جاء فقال: هل لك في عباس وعلي يستأذنان؟ قال: نعم، فلما دخلا قال عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا -وهما يختصمان في الذي أفاء الله على رسوله من بني النضير- فقال الرهط: يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر، قال: اتئدوا أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا نورث ما تركنا صدقة) يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه؟

قالوا: قد قال ذلك، فأقبل عمر على علي وعباس، فقال: أنشدكما بالله هل تعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك؟ قالا: نعم. قال: فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله كان خص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرٞ﴾.

وكانت هذه خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما احتازها دونكم ولا استأثرها عليكم، لقد أعطاكموها وبثها فيكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته، ثم توفي النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر: أنا ولي

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥٧.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٧٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٨٦.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبضها أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعمل بها بما عمل به فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنتم حينئذ جميع.

وأقبل على علي وعباس فقال: تذكران أن أبا بكر فعل فيه كما تقولان، والله يعلم إنه فيها صادق بار راشد تابع للحق، ثم توفى الله أبا بكر، فقلت: أنا ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر والله يعلم إني فيه صادق بارٌ راشد تابع للحق، ثم جئتماني كلاكما وكلمتكما واحدة، وأمركما جميع فقلت لكما: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا نورث ما تركنا صدقة).

فلما بدا لي أن أدفعه إليكما قلت: إن شئتما دفعته إليكما على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وبما عملت به فيها منذ وليتها وإلا فلا تكلماني فيها، فقلتما: ادفعها إلينا بذلك فدفعتها إليكما؟ أفتلتمسان مني قضاء غير ذلك؟ فو الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض لا أقضي فيها قضاءً غير ذلك حتى تقوم الساعة، فإن عجزتما عنها فادفعاها إلي فإني أكفيكما[1].

وقوله عز وجل ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ يعني: من أموال كفار أهل القرى، قال ابن عباس: هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

ومال الفيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته يضعه حيث يشاء وكان ينفق منه على أهله نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله[2].

وأما مصرف الفيء الذي أشارت إليه الآيات الكريمة، فقد اختلف فيه العلماء.

قال محيي السنة البغوي رحمه الله: واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: قوم هو للأئمة بعده. وللشافعي فيه قولان: أحدهما: هو للمقاتلة، والثاني: لمصالح المسلمين، ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح[3].

وأما مقدار ما يعطى وهل يخمس أم لا؟ فيقول فيه البغوي أيضًا[4]: واختلفوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا نورث ما تركناه صدقة)، ١٢/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب حكم الفيء، رقم ١٧٥٧، ٣/ ١٣٧٧ - ١٣٧٩.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي ص١٦٦: ذكره الثعلبي بغير سند.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٣.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٥، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٧، أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٢١٣-٢١٥.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٣.

في تخميس مال الفيء؛ فذهب بعضهم إلى أنه يخمس، فخمسه لأهل الغنيمة، وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح، وذهب الأكثرون إلى أنه لا يخمس بل مصرف جميعه واحد، ولجميع المسلمين فيه حق، قرأ عمر بن الخطاب: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامة، وقال: ما على وجه الأرض مسلم إلا له في هذا الفيء حق إلا ما ملكت أيمانكم[(١)].

وقوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ قرأ العامة بالياء، «دولة» نصب أي: لكيلا يكون الفيء دولة، وقرأ أبو جعفر: «تكون» بالتاء «دولة» بالرفع على اسم كان، أي: كيلا يكون الأمر إلى دولة، وجعل الكينونة بمعنى الوقوع وحينئذ لا خبر له. «والدولة» اسم للشيء الذي يتداوله القوم بينهم ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يعني: بين الرؤساء والأقوياء، فيغلبوا عليه الفقراء والضعفاء، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا اغتنموا غنيمة أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع، ثم يصطفي منها بعد المرباع ما شاء، فجعله الله لرسوله صلى الله عليه وسلم يقسمه فيما أمر به، ثم قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ أعطاكم من الفيء والغنيمة ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ الغلول وغيره ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾. وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ونهى عنه[(٢)].

٢ . الغنيمة.

أصل الغنيمة في اللغة: الربح والفضل.

وفي الاصطلاح الفقهي: هي ما أخذ من أموال أهل الحرب عنوة، والحرب قائمة. وتجمع على غنائم[(٣)].

وقد تناولت الآيات الكريمة أحكام الغنائم وتوزيعها على الغانمين، وربطت ذلك بالإيمان بالله تعالى والخضوع لأحكامه، وأبانت أن الغنائم ليست هي الهدف أو الغاية الأصلية من القتال، ولكن الله تعالى أحلها لهم. فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

أي: ما أخذتم من مال الكفار قهرًا بحقٍ،

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإمارة، باب في تدوين العطاء، ٤/ ٢١٤.
قال المنذري: وهذا منقطع، الزهري لم يسمع من عمر.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٧٤.

(٣) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٤٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٥٤٢، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية، نزيه حماد ص٣٤٨.

قليلًا كان أو كثيرًا ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي: وباقيه لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها. فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله. فإذا لم يعين الله له مصرفًا، دل على أن مصرفه للمصالح العامة. والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب. وأضافه الله إلى القرابة دليلًا على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم. والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم. والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث. والخمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده.

وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك تبع للمصلحة وهذا هو الأولى[(١)].

قال الفقهاء: إن أموال الحربيين الذين لم يسلموا، إذا ظهر المسلمون عليهم في الحرب فغنموا أموالهم، فيجب على إمام المسلمين أن يقسم الغنيمة ويخرج خمسها للأصناف الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ويقسم الأربعة الأخماس على الغانمين ولا خيار للإمام فيه، للنصوص الواردة في ذلك، وعليه انعقد الإجماع[(٢)].

ولذلك لا يجوز للإمام أن يمن على هؤلاء بأموالهم المنقولة المجردة فيردها عليهم، لأنه لم يرد به الشرع في هذا المال، ولأنه لا يدوم بل ينقطع، والجواز باعتبار الدوام نظرًا لهم ولمن يجيء بعدهم. ولهذا لا يجوز أيضًا المن بالرقاب وحدها بدون الأرض، لأنه ينقطع بالموت والإسلام، وإنما يجوز تبعًا للأراضي ـ كما سبق ـ كيلا يشتغلوا بالزراعة عن الجهاد، ثم إذا من عليهم بالأراضي والرقاب فإنه يدفع إليهم من المنقول قدر ما يتهيأ لهم به العمل، لأن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٢١-٣٢٢.

(٢) انظر: السير الكبير، الشيباني ٣/ ١٠٠٤، فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٣٠٥.

عمر رضي الله عنه ترك لهم ذلك، وهو القدوة في هذا الباب، ولأن منفعة الأرض بالزراعة، وهم لا يقدرون على الزراعة إلا بآلتها، فيكره له أن يكلفهم بها بدون الآلة[1].

وهو ما ذهب إليه جماهير العلماء واتفقوا عليه، فقد قال الإمام أبو جعفر الطبري: «أجمع الكل من الحجة لا خلاف بينها أن أربعة أخماس الغنيمة للمقاتلة»[2].

وكذلك نقل ابن حزم وابن هبيرة الاتفاق على أن أموال أهل الحرب كلها -عدا الأرض- تخمس، وتدفع الأربعة الأخماس للغانمين، فقال ابن حزم: «اتفقوا أن الخمس يخرج مما غنم عسكر المسلمين، أو عشرة من المسلمين الأحرار البالغين العقلاء الرجال، من الحيوان -غير بني آدم- ومما غنم من الأثاث والسلاح والمتاع كله الذي ملكه أهل الحرب، بعد أن يخرج منه سلب المقتولين، وما أكل المسلمون من الطعام أو احتملوه»[3].

وبعد هذا الإيجاز لحكم المسألة وأقوال العلماء فيما تدل عليه الآيتان الكريمتان؛ فإن الموقف لا يسمح بتفسير كل الآيات المتعلقة بذلك، فحسبنا أن نعرض بعضها لما فيها من توجيهات، كقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

وهذه الآية الكريمة افتتحها الله تعالى بحرف الفاء وهي تؤذن بتفريع هذا الكلام على ما قبله. وفي هذا التفريع وجهان:

أحدهما: الذي جرى عليه كلام المفسرين أنه تفريع على قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨].

أي: لولا ما سبق من حل الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحل فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء. وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧].

أمسكوا عن الانتفاع بمال الفداء، فنزل قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وعلى هذا الوجه قد سمي مال الفداء غنيمة، تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي؛ لأن الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم.

والوجه الثاني: يظهر أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل، وأن المعنى: فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض. وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي. ولما تضمن قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ

(١) انظر: المصادر السابقة.
(٢) اختلاف الفقهاء، الطبري، ص ٦٨.
(٣) انظر: مراتب الإجماع، ابن حزم، ص ١١٤، الإفصاح، ابن هبيرة ٢/ ٢٧٦.

﴿أَللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: ٦٨].

امتنانًا عليهم بأنه صرف عنهم بأس العدو، فرع على الامتنان الإذن لهم بأن ينتفعوا بمال الفداء في مصالحهم، ويتوسعوا به في نفقاتهم، دون نكد ولا غصة، فإنهم استغنوا به مع الأمن من ضر العدو بفضل الله. فتلك نعمة لم يشبها أذى. وعبر عن الانتفاع الهنيء بالأكل؛ لأن الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء، فإن الآكل ينعم بلذاذة المأكول ويدفع ألم الجوع عن نفسه- ودفع الألم لذاذة- ويكسبه الأكل قوة وصحة- والصحة مع القوة لذاذة أيضًا[١].

وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

أي: سيقول المخلفون، إذا انطلقت -أيها النبي- أنت وأصحابك إلى غنائم «خيبر» التي وعدكم الله بها: اتركونا نذهب معكم إلى «خيبر»، يريدون أن يغيروا بذلك وعد الله لكم. قل لهم: لن تخرجوا معنا إلى «خيبر»؛ لأن الله تعالى قال لنا من قبل رجوعنا إلى «المدينة»: إن غنائم «خيبر» هي لمن شهد «الحديبية» معنا، فسيقولون: ليس الأمر كما تقولون، إن الله لم يأمركم بهذا، إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسدًا منكم؛ لئلا نصيب معكم الغنيمة، وليس الأمر كما زعموا، بل كانوا لا يفقهون عن الله ما لهم وما عليهم من أمر الدين إلا يسيرًا[٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح: ٢٠ - ٢١].

والمعنى الإجمالي للآيات: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها في أوقاتها التي قدرها الله لكم فعجل لكم غنائم «خيبر»، وكف أيدي الناس عنكم، فلم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في «المدينة»، ولتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها، وتستدلون على أن الله حافظكم وناصركم، ويرشدكم طريقا مستقيما لا اعوجاج فيه. وقد وعدكم الله غنيمة أخرى لم تقدروا عليها، الله سبحانه وتعالى قادر عليها، وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، ولا بد من وقوع ما وعد به. وكان الله على كل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٧٨-٧٩.

(٢) التفسير الميسر ص٥١٢.

شيء قديرًا لا يعجزه شيء. ولو قاتلكم كفار قريش بـ «مكة» لانهزموا عنكم وولوكم ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال، ثم لا يجدون لهم من دون الله وليًا يواليهم على حربكم، ولا نصيرًا يعينهم على قتالكم[1].

ويجدر أن أختم هذه الفقرة عن الغنائم في العصر الحاضر بالقول: إن بعض العلماء المعاصرين يرى أن القرآن الكريم لم ينص على وجوب توزيع الغنائم الحربية -حتى المنقولة منها- بين المجاهدين الفاتحين، وإنما نصت آية الأنفال على مصارف معينة لخمس الغنائم، وأن توزيع الأخماس الأربعة على الغانمين إنما جاءت به السنة، وهو من السياسة الشرعية والتدابير المصلحية التي يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام بصفة ولايته العامة في الحكم والإدارة، فلا تفيد حقًا تشريعيًا ثابتًا لا يتبدل.

بل إن كل من يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الولاية العامة أن يلجأ إلى تدبير آخر عند الحاجة، كما كان ذلك ممكنًا للنبي نفسه صلى الله عليه وسلم. فإذا تبدلت الظروف واقتضت الحاجة نظامًا آخر للجندية تقوم فيه حقوق الجيش المجاهد لا على اقتسام الغنيمة، بل على أساس إعاشةٍ ووظائف ماليةٍ مرتبة للجند، وتكون الغنائم الحربية كلها للدولة ولا حق فيها للمقاتلين، كما في زماننا وأنظمتنا اليوم، فذلك سائغ شرعًا، وهو من قبيل الاستصلاح في شؤون الإدارة العامة.

غير أن نظام توزيع الغنائم كان في صدر الإسلام هو التدبير الممكن من الوجهة المالية، وهو الأصلح أيضًا لسياسة الجهاد بالنسبة إلى العرب في ذلك الزمن من الوجهة العرفية[2].

٣. الجزية.

الجزية في اللغة: مشتقة من الجزاء -وهو المكافأة على الشيء- يقال: جزاه به وعليه جزاءً، وجازاه مجازاةً وجزاء. وهي على وزن فعلة لأنها تدل على الهيئة - أي هيئة أخذ المال- والجمع جزىً وجزيٌ وجزىً وجزاء[3].

وفي الاصطلاح الفقهي: هي المال الذي يؤخذ من الكفار بعقد الذمة مقابل حمايتهم وعصمة دمائهم بخضوعهم لنظام الإسلام، وإقامتهم في دار الإسلام. سميت بذلك؛ لأنها تجزئ الذمي عن القتل، فإنه إذا قبلها سقط عنه القتل؛ لأن الله تعالى جعل إعطاءها -عند عدم الإسلام- سببًا لمنع

(١) المصدر السابق، ص ٥١٣.

(٢) المدخل الفقهي العام، مصطفى الزرقا ١/ ١٨٢-١٨٣.
وانظر: آثار الحرب في الفقه الإسلامي د.وهبة الزحيلي، ص٦٣٥.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٠٢-٢٣٠٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٠٠.

القتل[1].

وكان وضع الجزية على الشعوب المغلوبة عادة مألوفة منذ عهد طويل قبل الإسلام، وقد سلك المسلمون سبيل من سبقهم في هذه الوسائل المالية بعد أن صبغها الإسلام بصبغة خاصة، وجعلها عنوانًا على الخضوع العام للنظام الإسلامي، وكان هذا يغلب على الجانب المالي، فكان المسلمون يصالحون الذميين على الجزية، ويعفون فريقًا منهم منها فيأخذونها باسم الصدقة -كبني تغلب- وقد يسقطونها عنهم لأسباب ومسوغات.

وفي مشروعية الجزية التي تترتب على عقد الذمة للكفار الذين يرتضون بها، يقول الله تعالى:﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأجمع العلماء على أن الجزية تؤخذ من الرجل البالغ العاقل الصحيح البدن الموسر إذا كان حرًّا. واختلفوا بعد ذلك في بعض الجزئيات والصور. وتسقط الجزية بعد وجوبها بأسباب أربعة: الإسلام و الموت؛ وحدوث آفة على الذمي تمنع وجوب الجزية، كأن صار أعمى أو فقيرًا لا يقدر على شيء، و إذا اجتمعت جزية سنين، فتسقط عنه[2].

والذي يذكر هنا أن الجزية على الذميين، ونظام الذمة الذي بحثه الفقهاء، انتهى العمل به في الواقع منذ نشأة الدولة القومية المعاصرة، وعدم قيامها على أساس الدين والعقيدة الدينية، وظهور الدولة المدنية ونظام المواطنة والجنسية المعاصرة، منذ أواخر عهد الدولة العثمانية.

٤ . الأسرى.

الأسر في اللغة العربية هو الحبس والإمساك. أو هو الشد بالقيد، مأخوذ من قولهم: أسرت القتب، بمعنى شددته. ومنه سمي الأسير؛ لأنهم كانوا يشدونه بالقد وهو الإسار. ثم كثر استعماله حتى سمي كل من يؤخذ قهرًا: أسيرًا، وإن لم يشد أو يقيد[3].

ويعرف الفقهاء الأسرى بأنهم الرجال المقاتلون من الكفار الذين ظفر بهم المسلمون في الحرب. كما يطلق الأسير على الحربي الذي دخل دار الإسلام دون عهد أو أمان فوقع في يد المسلمين قبل أن

(١) انظر: فتح القدير، ابن الهمام ٤/ ٣٦٧، الشرح الكبير، الدردير ٢/ ٢٠١، مغني المحتاج، الشربيني ٤/ ٢٤٢، كشاف القناع، البهوتي ٣/ ١٠٨.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٢/ ٥٧٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٠٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ١٩ - ٢٠.

يسلم. ويقسم الفقهاء الأسرى إلى أقسام، ولكل منهم أحكام تخصه[1].

وحسبنا هنا الإشارة إلى الآيات الكريمة في الأسر وأحكام الأسرى ومعاملتهم، مع إضاءات سريعة حول ذلك من أقوال المفسرين وأهل العلم.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩].

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، فكانت بيانًا لما هو الأجدر والأولى فيما ينبغي في شأن الأسرى وتقرير مصيرهم.

قال الإمام محيي السنة البغوي رحمه الله[2]: روى الأعمش عن عمر بن مرة، عن أبي عبيد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تقولون في هؤلاء؟) فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك فاستبقهم، واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية، تكون لنا قوة على الكفار.

وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، تدمهم نضرب أعناقهم، مكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، ومكني من فلان -نسيب لعمر- فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر.

وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا. فقال له العباس: قطعت رحمك. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبهم، ثم دخل.

فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إن الله تعالى ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، ويشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

---

(١) انظر: شرح السير الكبير ٥/ ٢١٩٥ - ٢١٩٦، المبسوط، السرخسي ١٠/ ٦٤، الأحكام السلطانية، الماوردي، ص ١٣١، روضة الطالبين، النووي ١٠/ ٢٥٠.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٣٧٥-٣٧٦.

وإن مثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ومثل موسى قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨].

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنتم اليوم عالة، فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق).

قال عبد الله بن مسعود: إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إلا سهيل بن بيضاء)[1].

قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى هذه الآيات[2].

وأخبرهم أنه لأجل ما علم في قلوبهم من الخير غفر لهم فلم يعذبهم بتسرعهم إلى إسار من لم يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمهم فأحسن إليهم فأحل لكم الغنائم ولما ساق سبحانه وتعالى هذه البشارة في النذارة، سبب عنها قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي: من الفدية وغيرها حال كونه ﴿حَلَٰلًا﴾ أي: لا درك ولا تبعة فيه من جهتي ﴿طَيِّبًا﴾ أي: شهيًّا لكم ملائمًا لطباعكم.

وهذا إذا كان مع الشروط التي أقمتها لكم من عدم الغلول والخيانة بوجه من الوجوه والاستئثار وشدة الرغبة السائقة إلى ما لا يليق من التنازع وغيره، ذلك فيما تقدمت فيه إليكم ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي له جميع صفات الكمال في جميع ذلك، فلا تغلوا ولا تنازعوا ولا تقدموا إلا على ما يبيحه لكم الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: المتصف بالجلال والإكرام ﴿غَفُورٌ﴾ أي: لمن يعلم من قبله أنه من أهل التقوى ﴿رَّحِيمٌ﴾ له؛ لأنه أهل للرحمة، فلأجل

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، تفسير سورة الأنفال، ٨/ ٤٧٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٢٤.

ما علم في قلوبكم من الخير غفر لكم فلم يعذبكم بتسرعكم إلى إسار من لم يأمركم به الرسول صلى الله عليه وسلم للمفاداة دون توقف على إذنه، ورحمكم فأحسن إليكم فأحل لكم الغنائم[(١)].

وبعد هذا البيان والعتاب ثم الإقرار للتصرف و العفو عنهم فيما كان منهم خلاف الأولى و الأجدر، بعد هذا كله يلمس القرآن الكريم قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء، وتطلق فيها الأمل، وتشيع فيها النور، وتعلقها بمستقبل خير من الماضي، وبحياة أكرم مما كانوا فيه، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار. وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وهذه الآية نزلت أيضًا في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى هذه الآية جبرًا لخاطره، ومن كان على مثل حاله، وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له -بعد ذلك- من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله[(٢)].

وهذا الخير كله -وقد وعدهم الله به- معلق بأن تصلح قلوبهم، فتتفتح لنور الإيمان، فيعلم الله أن فيها خيرًا، والخير هو الإيمان حتى ما يحتاج إلى ذكر وتنصيص، الخير محض الخير، ولا يسمى الشيء ما خيرًا إلا أن يستمد منه وينبثق منه ويقوم عليه.

إن الإسلام إنما يستبقي الأسرى لديه، ليلمس في قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح، وليوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للهدى. لا ليستذلهم انتقامًا، ولا ليسخرهم استغلالًا كما كانت تتجه فتوحات الرومان، وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام! عن الزهري عن جماعة سماهم قال: بعثت قريش في فداء أسراهم، ففدى كل قوم

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٣١-٣٣٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٢٧.
قال أبو حيان في البحر المحيط: ٥/ ٣٥٥: نزلت هذه الآية عقيب بدر في أسرى بدر أعلموا أن لهم ميلا إلى الإسلام وأنهم يؤملونه إن فدوا ورجعوا إلى قومهم، وقيل: في عباس وأصحابه قالوا للرسول: آمنا بما جئت ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا.

أسيرهم بما رضوا[1].

وقال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: (يا رسول الله قد كنت مسلمًا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرك فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث ابن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر): قال: ما ذاك عندي يا رسول الله!

قال: (فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل، قلت لها: إن أصبت في سفري هذا فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم؟). قال: (والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله. إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك). ففدى نفسه وبني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل الآية. قال العباس رضي الله عنه: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبدًا كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل)[2].

وبعد نزول هذه الآيات الكريمة، نزلت في سورة محمد (وهي أيضًا سورة القتال) في إجراءات القتال وتحديد مصير الأسرى بعد انتهاء القتال.

فقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى المسلمين كما هو المتبادر. وقد تضمنت أمرًا لهم بأن عليهم إذا لقوا الكافرين في الحرب أن يصدقوا في قتالهم، حتى إذا أكثروا فيهم القتل وقهروهم وضمنوا لأنفسهم الغلبة عليهم جنحوا إلى أسر ما بقي منهم، ويظل أمرهم معهم على هذا المنوال حتى تنتهي حالة الحرب، ويتخلص الناس من أعبائها. كما تضمنت تشريعا في حق الأسرى، فالمسلمون مخيرون فيهم بعد ذلك: فإما أن يمنوا ويتفضلوا عليهم فيطلقوهم بدون فداء وإما أن يطلقوهم بفداء[3].

قال البغوي رحمه الله: واختلف العلماء

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٣.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٧٨.

(٣) انظر: الجهاد في سبيل الله، محمد عزة دروزة، ص١٣٨-١٣٩.

في حكم هذه الآية:

فقال قوم: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٧]. وبقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥].

وإلى هذا القول ذهب قتادة والضحاك والسدي وابن جريج، وهو قول الأوزاعي وأصحاب الرأي، قالوا: لا يجوز المن على من وقع في الأسر من الكفار ولا الفداء.

وذهب آخرون إلى أن الآية محكمة، والإمام بالخيار في الرجال العاقلين من الكفار إذا وقعوا في الأسر بين أن يقتلهم، أو يسترقهم، أو يمن عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين، وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن، وعطاء، وأكثر الصحابة والعلماء، وهو قول الثوري، والشافعي، وأحمد وإسحاق.

قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[1].

وهذا الذي قاله ابن عباس وأكثر الصحابة والعلماء هو الأصح والاختيار؛ لأنه عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده[2].

وبعد هذه الإشارات إلى تقرير مصير الأسرى، تأتي آيات كريمة في الدعوة إلى معاملة الأسير معاملة تشي بالأخلاق الإسلامية العالية والعدالة التي تسع الجميع، وبالإحسان بكل مظاهره، وبخاصة في الأمور المادية والمعيشية، وقرن الله تعالى فيها الإحسان إلى الأسير -ولو كان غير مسلم- بالإحسان إلى المسكين واليتيم، وكلاهما يستحق الرعاية والإحسان بمقتضى العقيدة والإيمان بالله تعالى[3].

وهذا كله في سياق صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة، مع رحمة ندية بعباده الضعاف، وإيثار على النفس، وتحرج وخشية لله، ورغبة في رضاه، وإشفاق من عذابه، تبعثه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل.

يقول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٨-١٠].

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٠٨ لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٧٨.

(٣) قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب ٣٠/ ٧٤٦: اعلم أن مجامع الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: (يوفون بالنذر)، والشفقة على خلق الله، وإليه الإشارة بقوله: (ويطعمون الطعام).

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلًا في إطعام الطعام، مع حبه بسبب الحاجة إليه[1].

فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحتاجين على اختلاف أنواعهم، إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام، ولكنها تؤثر به المحتاجين بأريحية نفس، ورحمة قلب، وخلوص نية، واتجاه إلى الله بالعمل، يحكيه السياق من حالهم، ومن منطوق قلوبهم فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة، تتجه إلى الله تطلب رضاه، ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكرًا، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء، كما تتقي بها يومًا عبوسًا شديد العبوس، تتوقعه وتخشاه، وتتقيه بهذا الوقاء[2].

أما الأسير فقد اختلفوا فيه على أقوال[3]:

والذي يناسب السياق هو ما قاله ابن عباسٍ، والحسن، وقتادة: إنه الأسير من المشركين، فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يبعث الأسارى من المشركين ليحفظوا وليقام بحقهم، وذلك لأنه يجب إطعامهم إلى أن يرى الإمام رأيه فيهم من قتل أو فداء أو استرقاق، القتل في حال لا يمنع من الإطعام في حال أخرى، ولا يجب إذا عوقب بوجه أن يعاقب بوجه آخر، ولذلك لا يحسن فيمن يلزمه القصاص أن يفعل به ما هو دون القتل.

ثم هذا الإطعام على من يجب؟ فنقول: الإمام يطعمه، فإن لم يفعله الإمام وجب على المسلمين[4].

قال البقاعي رحمه الله: وقد نقل في غزوة بدر أن بعض الصحابة رضي الله عنهم كان يؤثر أسيره على نفسه بالخبز، وكان الخبز إذ ذاك عزيزًا، حتى كان ذلك الأسير يعجب من مكارمهم حتى كان ذلك مما دعاه إلى الإسلام، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما دفعهم إليهم قال: «استوصوا بهم خيرًا» ومن حكم الأسير الحقيقي كل مضرور، يفعلون ذلك

(١) أحدها: على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم، والثاني: على حب الله عز وجل. والثالث: على قلته، قاله قطرب. والرابع: قال الفضيل بن عياض: على حب إطعام الطعام. انظر هذه الأقوال وأصحابها في: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٦-٩٧، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٢٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٨١-٣٧٨٢.

(٣) قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء: هو المسجون من أهل القبلة. وقال قتادة: أمر الله بالأسراء أن يحسن إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك. وقيل: الأسير المملوك. وقيل: المرأة، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان». انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٩٧-٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٩٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٧٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٤٧.

والحال أنهم يقولون بلسان الحال أو القال -إن احتيج إليه- إزاحة لتوهم المن أو توقع المكافأة، مؤكدين إشارة إلى أن الإخلاص أمر عزيز لا يكاد أحد يصدق أنه يتأتى لأحد: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ أيها المحتاجون ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ أي: لذات الملك الذي استجمع الجلال والإكرام؛ لكونه أمرنا بذلك(١).

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢١/ ١٣٩.
وانظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، ص ١٩٣- ١٩٥.

نتائج القتال وعواقبه

للقتال والجهاد نتائج، ويعقبهما ثمرات في الفرد نفسه وفي الأمة، فهو يربي النفس على البذل والتضحية، ويشعر المسلم بالعزة الحقيقية الكاملة، ويدفع خطر الأعداء ويكسر شوكتهم، كما يدفع الفتنة وينشر الأمن في المجتمع، وفيه شفاء لصدور المؤمنين وإغاظة للكافرين والظالمين المعتدين.

وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: تربية النفس على البذل والتضحية:

في الجهاد والقتال يبذل المسلم المجاهد غاية الجهد والوسع، فهو يبذل نفسه وماله ووقته في سبيل الله تعالى لا يبتغي مكافأة من الناس ولا شكرًا منهم وحمدًا، ولا يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، فيرتفع إلى آفاق عالية من البذل والعطاء لخير البشرية وهدايتها وصيانتها من العدوان والظلم، لتشعر بحريتها الحقيقية في عبوديتها لله واستسلامها لشرعه وخضوعها له. وبذلك تتحقق الخيرية التي وصف الله تعالى بها هذه الأمة في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسيرها:



«كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة، يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق. والخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون. وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من معنى كون محمدٍ صلى الله عليه وسلم ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فهو رحمة في حق كل أحدٍ بحسبه، حتى المكذبين له هو في حقهم رحمةٌ أعظم مما كان غيره رحمة للناس(١).

وهذه بعض الآيات الكريمة التي تربي نفس المؤمن على البذل والتضحية و العطاء، قد تذكر نتيجة واحدة أو نوعًا واحدًا من هذه التربية، وقد تجمعها كلها في سياق واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآية الكريمة:

فقال بعضهم: هذا في البخل وترك الإنفاق. أي: لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى الهلاك بترك الإنفاق في سبيل الله. وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء.

وقال ابن عباس في هذه الآية: أنفق في سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص(٢)، ولا يقولن أحدكم: إني لا أجد شيئًا. وقال: السدي: أنفق في سبيل الله ولو عقالًا، ولا تقل: ليس عندي شيء. وقال: سعيد بن المسيب ومقاتل بن حيان: لما أمر الله تعالى بالإنفاق قال رجل: أمرنا بالنفقة في سبيل الله، ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء، فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد: لا يمنعنكم من نفقة في حقٍّ خيفة العيلة. قال أبو عبيدة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(**من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمائة، ومن أنفق نفقة على أهله فالحسنة بعشر أمثالها**)(٣).

وقيل: أنزلت الآية في ترك الجهاد، قال أبو أيوب الأنصاري: نزلت فينا معشر الأنصار؛ وذلك أن الله تعالى لما أعز دينه ونصر رسوله قلنا فيما بيننا: إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيه، فلو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى هذه

(١) انظر: فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٨، و١٠/ ٥٩.

(٢) المشقص: سهم عريض له نصلٌ.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله: ٥/ ٢٥٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٣/ ١٤٤.

الآية. فـ«التهلكة» الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفي هناك ودفن في أصل سور القسطنطينية، وهم يستسقون به[1].

وهذان القولان متلازمان وهما غير متناقضين، فإنَّ ترك الجهاد فيه إلقاء بالنفس إلى الهلاك، وترك النفقة هو ترك للجهاد بالمال، وانشغال بالزرع والمادة والمال عن الجهاد. وهذا من اختلاف التنوع في التفسير، وليس من اختلاف التضاد[2].

ثم تأتي آيات أخرى في سورة البقرة توجيهًا للمنفقين في سبيل الله، وهم الذين جادوا بالمال ابتغاء وجه الله، فكأن الجهاد في سبيل الله والقتال لإعلاء كلمة الله يعود المقاتل على البذل والإنفاق، فالنفس والمال شقيقان، ومن يجود بنفسه لن يبخل بماله.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٣].

وهاتان آيتان من سورة البقرة في سياق البناء الاقتصادي والتكافل الاجتماعي، وقد تكررت الدعوة إلى الإنفاق في هذه السورة، والآن يرسم السياق دستور الصدقة في تفصيل وإسهاب، مظللًا بظلال حبيبة أليفة، ويبين آدابها النفسية والاجتماعية؛ الآداب التي تحول الصدقة عملًا تهذيبيًّا لنفس معطيها وعملًا نافعًا مربحًا لآخذيها، وتحول المجتمع عن طريقها إلى أسرة يسودها التعاون والتكافل، والتواد والتراحم، وترفع البشرية إلى مستوى كريم: المعطي فيه والآخذ على السواء.

ومع أن التوجيهات التي وردت في هذا الدرس تعد دستورًا دائمًا غير مقيد بزمن ولا بملابسات معينة، إلا أنه لا يفوتنا أن نلمح من ورائه أنه جاء تلبية لحالات واقعة، كانت النصوص تواجهها في الجماعة المسلمة يومذاك- كما أنها يمكن أن تواجهها في أي مجتمع مسلم فيما بعد- وأنه كانت هناك نفوس شحيحة ضنينة بالمال تحتاج إلى

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢١٦.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وغالب ما يصح عن السلف في التفسير من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وذلك صنفان: أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر. و الصنف الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣/ ٣٣٣.

هذه الإيقاعات القوية، والإيحاءات المؤثرة كما تحتاج إلى ضرب الأمثال، وتصوير الحقائق في مشاهد ناطقة كيما تبلغ إلى الأعماق! كان هناك من يضن بالمال. فلا يعطيه إلا بالربا. وكان هناك من ينفقه كارهًا أو مرائيًا. وكان هناك من يتبع النفقة بالمن والأذى. وكان هناك من يقدم الرديء من ماله ويحتجز الجيد، وكل هؤلاء إلى جانب المنفقين في سبيل الله مخلصين له، الذين يجودون بخير أموالهم، وينفقون سرًّا في موضع السر، وعلانية في موضع العلانية في تجرد وإخلاص ونقاء[1].

ونقل الإمام البغوي عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهما- جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقةً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كانت عندي ثمانية آلاف، فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف درهم، وأربعة آلاف أقرضتها ربي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بارك الله فيما أمسكت لك وفيما أعطيت)، وأما عثمان فجهز جيش المسلمين في غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها[2]، فنزلت فيهما هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول: (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم)[3] فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في طاعة الله ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول: أعطيتك كذا، ويعد نعمه عليه فيكدرها ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أن يعيره فيقول: إلى كم تسأل؟ وكم تؤذيني؟ وقيل: من الأذى أن يذكر إنفاقه عليه عند من لا يحب وقوفه عليه[4].

ولذلك جاء التحذير من البخل بالنفقة في سبيل الله، فإن المؤمن لا يكون بخيلًا بماله وهو يجود بنفسه.

قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٠٣.

(٢) الأقتاب: جمع قتب، وهو الإكاف على قدر سنام البعير ليركب أو يحمل عليه. والأحلاس: جمع حلس، وهو كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله. وهو أيضًا: بساط يبسط في البيت.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٤٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، ١٠/ ١٩٣.
قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٤) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٢٥-٣٢٦.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٠٦-٣٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٣/ ٤١-٤٢.

﴿يَبۡخَلۡۖ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: ٣٨].

أي: ها أنتم -أيها المؤمنون- تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه، فمنكم من يبخل بالنفقة في سبيل الله، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله تعالى هو الغني عنكم وأنتم الفقراء إليه، وإن تتولوا عن الإيمان بالله وامتثال أمره يهلكم، ويأت بقوم آخرين، ثم لا يكونوا أمثالكم في التولي عن أمر الله، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم[(١)].

ثم جاءت التوجيهات الربانية في ظل الوقائع والأحداث التاريخية في حياة الأنبياء السابقين-على نبينا وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- تتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم الله تعالى فيها على القتال، وعلى الإنفاق في سبيل الله، واهب الحياة وواهب المال، والقادر على قبض الحياة وقبض المال، فهي تضحية بالنفس وبالمال.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

فإن القوم لما سألوا الله تعالى الصبر، وأخذوا بأسباب النصر، ثم برزوا لجالوت وجنوده استجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم بإذن الله، وقتل داود عليه السلام جالوت، أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره، عندئذ من الله عليه بتملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان مَنْ قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك[(٢)].

وفي آيات أخرى، في سور متعددة، تأتي الإشارة إلى أثر القتال في البذل والتضحية معًا، فتجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال. وهذا أثر من آثار عقيدة الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، كقوله سبحانه:

---

(١) التفسير الميسر ص ٥١٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢١].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

ثانيًا: العزة والتمكين للمجتمع الاسلامي:

من نتائج القتال وثمراته أن يحافظ المسلمون على عزتهم وكرامتهم التي يستمدونها من عزة الله تعالى القوي العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

وهذه الآية الكريمة جاءت في سياق آيات بين الله تعالى فيها برهان الإيمان ودلائله من مشاهد الحياة النابضة في الموات، ثم انتقلت إلى معنى نفسي ومطلب شعوري، إلى معنى العزة والرفعة والمنعة والاستعلاء. وربطت هذا المعنى بالقول الطيب الذي يصعد إلى الله، والعمل الصالح الذي يرفعه الله، إشارة إلى ما كان يمنع الكفار منه، وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث إنهم ما كانوا في طاعة أحد، ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم، فكانوا ينحتون الأصنام، وكانوا يقولون: إن هذه آلهتنا، ثم إنهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم، وأية عزة فوق المعية مع المعبود! فهم كانوا يطلبون العزة -وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له- فقال تعالى: إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة، فهي كلها لله، ومن يتذلل له فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل. إن العزة كلها لله، وليس شيء منها عند أحد سواه. فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره. ليطلبها عند الله، فهو واجدها هناك وليس بواجدها عند أحد، ولا في أي كنف، ولا بأي سبب ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

وهذه حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية، وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل النهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب؛ لتقف به أمام الدنيا

كلها عزيزًا كريمًا ثابتًا في وقفته غير مزعزع، عارفًا طريقه إلى العزة، طريقه الذي ليس هنالك سواه! إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر، ولا لعاصفة طاغية، ولا لحدث جلل، ولا لوضع ولا لحكم، ولا لدولة ولا لمصلحة، ولا لقوة من قوى الأرض جميعًا. وعلام؟ والعزة لله جميعًا، وليس لأحد منها شيء إلا برضاه[1].

وجاءت الآيات الكريمة في مواضع أخرى تؤكد هذا المعنى، وهو أن العزة الحقيقية هي لله تعالى حقيقة وبالذات، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

فلله العزة في الحقيقة وبالذات، وهي لرسوله بواسطة القرب من العزيز وهو الله، وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول، وذلك لأن عزة المؤمنين بواسطة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

وقد جعل الله تعالى القتال في سبيله والجهاد لإعلاء كلمته سبيلًا لهذه العزة، وطريقًا للتمكين لهذا الدين والاستعلاء به، ولهذه الأمة المستعلية بإيمانها وبربها فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فالجهاد من الإسلام ذروة سنامه، وهو واحدٌ من طرق العزة والكرامة، كان ولا يزال السبيل الذي تسلكه الأمم للحفاظ على كيانها، ورد عادية من يعتدي عليها، ما تركه قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما تمسك به قوم إلا أعزهم الله ونصرهم.

ولنا من تاريخ أمتنا أصدق شاهد وأقوى دليل على ذلك. فهي لما كانت متمسكة بالجهاد، تقاتل في سبيل الله من كفر بالله، يحج الفرد فيها عامًا ويغزو عامًا -كما نجد في تراجم كثير من العلماء والقادة في تاريخ الإسلام- كانت أمة قوية عزيزة مرهوبة الجانب، تجبى إليها الثمرات من كل مكان، ويخاطب الخليفة فيها السحابة قائلًا: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك!!

ولما تقاعست عنه، وبدأت تتلمس المعاذير للتقاعس، وتدعو إلى السلم

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٥-٢٢٦، في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٢٩-٢٥٣٠.

الرخيصة الذليلة، عند ذلك بدأ خط سيرها في التاريخ يرجع القهقرى، وأصبحت الأمم تتناوشها من كل جانب، فتضعف مكانتها وتزول هيبتها، وتخور عزيمتها، وبدأت تنسى رسالتها، ويتحقق فيها قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**)، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (**حب الدنيا، وكراهية الموت**)[١].

وليس هذا فحسب، بل راح بعضهم يحرف الكلم عن مواضعه، فيفسر الآيات على غير وجهها ويبترها عن سياقها، وأسباب نزولها لمواجهة الواقع، ويحرف الوقائع التاريخية، ويحملها ما لا تحتمل، كل هذا تسويغًا للقعود، وإمعانًا في التضليل والتحريف، ثم يدعي الحكمة ويتبجح بالتعقل لمواجهة الواقع، بحجة أننا في مرحلة ضعف لا نستطيع الجهاد والقتال. وبدلًا من إزالة أسباب الضعف الذي يدعيه، وبدلًا من الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة، بدلا من هذا كله يدعو إلى ترك الجهاد[٢].

ثالثًا: كسر شوكة الأعداء وشفاء صدور المؤمنين:

بعث الله تعالى رسله، وأنزل كتبه وشرائعه، ليقوم الناس بالقسط والعدل، وختم هذه الشرائع برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي اختصها الله تعالى باسم «الإسلام»، فكانت هي الدين الكامل، والنعمة التامة، وجعلها مهيمنةً على سائر الأديان، موجهة للناس كافة. وقد وسعت البشرية كلها بدعوتها إلى التوحيد، وحملت مشعل النور إلى العالمين، وأعادت للإنسان حريته وكرامته، وأرست دعائم الحضارة الإنسانية التي تقوم على الإيمان والأخلاق، والعلم والعمل، والحق والعدل.

ولكن القوم الكافرين- من وثنيين وكتابيين وغيرهم - وقفوا من هذه الدعوة ومن نبيها وأتباعه موقف العداء والصدود والتآمر، منذ فجر هذه الدعوة. وقد حكى الله تعالى في كتابه الكريم موقف القوم وعداءهم للإسلام والمسلمين وتحالفهم جميعًا لتحقيق مآربهم ومخططاتهم، ثم

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧/ ٨٢، رقم ٢٢٣٩٧، وأبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم، ٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٥٩، رقم ٨١٨٣.

(٢) منهج الإسلام في الحرب والسلام عثمان ضميرية، ص ١١٥-١١٦.

جاء الواقع التاريخي العملي - في القديم والحديث - يؤكد ذلك ويصدقه. وما خبر الحروب الصليبية عنا ببعيد! وفي العصر الحاضر: العدوان الهمجي على المسلمين في البوسنة والهرسك، وفي الشيشان، وفي الفلبين، وفي تايلند، وفي الهند، وفي كشمير، وفي الصومال، وفي أفغانستان، وفي العراق. وقبل ذلك: حرب الإبادة الجماعية في الاتحاد السوفيتي، وفي الهند، وفي كشمير أيضًا، وفي يوغوسلافيا، وفي الحبشة وغيرها من الأصقاع التي يسيطر فيها غير المسلمين، أو يتغلبون فيها عليهم، سواء أ كانوا أقلية أو أغلبية أو أكثرية. وفي العصور السالفة: محاكم التفتيش في إسبانيا بعد سقوط دولة المسلمين في الأندلس، وحرب التتار وهجومهم على دار الإسلام والخلافة الإسلامية، وتآمر النصارى الصليبيين والمغول(١).

وفي العصر الحديث: يتعاون أهل الكتاب مع الملحدين أيضًا في المعسكر الشيوعي، ليواجهوا الإسلام، وليضربوا كل حركة إسلامية صادقة؛ فهم يتناسون كل خلاف يمكن أن يقوم بينهم إذا ما واجهوا الإسلام والمسلمين، فهم دائمًا متعاونون ضدنا، ومع ذلك يحاولون الخداع بالشعارات الزائفة والدعاوى العريضة الكاذبة(٢).

وهذا الصراع بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، سنة قديمة وواقع غير منكور، وعندما يكون الأعداء غالبين فإنهم يستعبدون الناس ويفسدون في الأرض، فكان من الخير للبشرية كسر شوكتهم وقوتهم، وما يكون ذلك إلا بقتالهم لخضد هذه الشوكة والقوة الغاشمة، وفيها شفاء صدور قوم مؤمنين.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ

(١) يقول المستشرق الأمريكي جون.ل.لامونت: فرحت أوربا، وهللت لانتصارات المغول، ولما كان المغول - بصورة عامة - مسالمين للنصارى، ولما كان بينهم عدد كبير من النساطرة...فقد اعتبر البابا وحكام أوربا الغربية المغول حلفاء لهم في صراعهم المشترك ضد الإسلام، وكان البابا يحلم طوال سنوات عديدة بإنشاء حلف عظيم بين المغول و أوربا يسحق الدولة الإسلامية سحقًا.
انظر بحث الكاتب المذكور عن الحروب الصليبية والجهاد في: كتاب دراسات إسلامية بقلم مجموعة من المستشرقين، ترجمة د.أنيس فريحة وزملائه من أساتذة الجامعة الأمريكية في بيروت، ص ١٣٥.

(٢) قال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون حين عاد من جولة قام بها في أفغانستان لدراسة الأحوال هناك، فسأله الصحفيون: ماذا وجدت هناك؟ فقال: وجدت أن الخطر هو الإسلام! ويجب أن نصفي خلافاتنا مع روسيا في أقرب وقت، فروسيا -على أي حال- بلد أوروبي، والخلاف بيننا وبينها قابل للتسوية، أما الخلاف الذي لا يقبل التسوية فهو الخلاف بيننا وبين الإسلام. انظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص ١٦١.

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٣-١٥].

وهذه الآيات الكريمة في سياق التحضيض على قتال الكفار وأئمة الكفر، وفيها بيان ثلاثة بواعث تبعث على قتالهم.

أولها: نكثهم لأيمان عهدهم الذي كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في صلح الحديبية، عندما عاونوا حلفاءهم بني بكر على خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم.

وثانيها: تآمرهم وهمهم بإخراج النبي والمؤمنين من مكة؛ لئلا يبلغ دعوة ربه تبارك وتعالى.

وثالثها: بدؤهم بالفتنة، والفتنة أشد من القتل، وبدؤهم بالقتال، إذ هاجموكم في بدر من غير ضرورة تلجئهم، ولا حاجة تدفعهم إلا أن تكون كراهة لدينكم[(١)].

وفيها أمر قطعي بقتال الكفار مع وعد صادق بإظهار المؤمنين عليهم أكمل الظهور وأتمه، وهذا الوعد من أخبار الغيب التفصيلية في حال معينة، فهو ليس كالوعد العام المجمل في نصر الله لرسله وللمؤمنين الذي يراد به أن العاقبة تكون لهم، ولا يمنع أن تكون الحرب قبلها سجالًا لتربية المؤمنين، وقد صدق وعده تعالى مجملًا ومفصلًا. فقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ معناه: باشروا قتالهم كما أمرتم فإنكم إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم بتمكينها من رقابهم قتلًا، ومن صدورهم ونحورهم طعنًا، يعقبهم في قلوبهم يأسًا، لا يدع في أنفسهم قوة ولا بأسًا[(٢)].

قال البقاعي رحمه الله: قاتلوهم لله لا لغرض غيره، يعذبهم الله -الذي أنتم مؤمنون بأنه المتفرد- بأيديكم، بأن تقتلوهم وتأسروهم وتهزموهم، ويخزهم بالذل في الدنيا والفضيحة والعذاب في الأخرى. ولما كان ذلك قولًا لا يقتضي النصر الذي هو علو العاقبة، قال تعالى: ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فترضوا ربكم بذلك لإذلاله من يعاديه بكم[(٣)].

وبعد هذا تجدر الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى بين ثمرات القتال، وذكرت الآيات منها:

١. **كسر شوكة الأعداء بما يحل فيهم من عذاب الدنيا بالقتل.**

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٤-١٧٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٠، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٤٦.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٧٧.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٩٦-٣٩٧.

وفيه أيضًا رد عاديتهم عن المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وذلك بالإثخان فيهم. وصرح بقوله ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾، أي: إنها عذاب لهم تتولونه أنتم، فقوله ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ يراد بأنفسكم، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية، وعبر بالأيدي؛ لأنها هي التي بها البطش، وهي التي تحمل السيوف والرماح والنبال.

وكان العذاب في الدنيا بأيدي أهل الحق لردع أهل الباطل، وكسر شوكته، ولكيلا يستشري الشر، وتستعلى الرذائل وتنخفض الفضائل، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج: ٤٠].

لهذا كان لا بد من عذاب الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

٢. الخزيُ لهم والإذلال لكبريائهم.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾ أي: يخزهم بالأسر والاسترقاق، والتتبع في الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ربقتهم، وذهاب سلطانهم المادي والأدبي بالأسر، فيجتمع في حقهم العذاب الحسي والمعنوي.

وفيه أيضًا نصر للمؤمنين: ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، فإن النصر بيد الله، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[الحج: ٤٠].

ونصرة العبد لله بإطاعة أوامره، ومنها الأمر بالقتال، وجعل كلمة الله هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، ولا يكون النصر من الله إلا إذا اتُّخِذَت أسبابه من العبد واحتسب النية.

٣. شفاء صدور قوم مؤمنين وإذهاب غيظ قلوبهم.

فترتاح النفوس وتسكن وتغمرها الثقة والطمأنينة: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. ذلك أن قلوب المؤمنين إذا رأت الكفر ناتئ الرأس، ولم يكن من يقمعه، ويرد كيده في نحره عراها الشك أو التردد، أو محاولة تعرف الحكمة في إهمال الكفر، وتركه في عنفوانه وإيذائه، فإذا نصر الله المؤمنين شفيت صدور قوم مؤمنين، وخرج ذلك التردد، وذهبت عنها تلك الحيرة، فالله -بقتال المؤمنين لأهل الكفر- يشفي تلك الصدور المؤمنة من تلك الحيرة الممضة التي قد تثير الريب، ومن ذلك الحزن والموجدة، وفيه إشارة إلى الوعد بالفتح[1].

(١) والقوم المؤمنون هنا هم: خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن قريشًا نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعونتهم بكرًا على خزاعة.قاله مجاهد، والسدي.وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين قاضى المشركين يوم الحديبية، أدخل بني كعب بن خزاعة معه في القضية، وأدخل المشركون بني بكر

﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ والضمير في قوله تعالى ﴿غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ يعود إلى الذين تحتاج صدورهم إلى شفاء بنصر مؤزر يدفع الباطل ويزهقه، ويرفع الحق ويعليه. والغيظ انفعال النفس بالألم من رؤية الباطل عاليًا والحق مستكينًا أو مستخذيًا، فإذا انتصر الحق وعلا، ذهب ذلك الغيظ، واستقامت النفس على سواء الصراط، وارتاحت الضمائر المؤمنة.

وعبر الله في الغيظ بقوله تعالى: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لأن الغيظ ليس داءً، ولكنه حال عارضة من أمر قابل للزوال، والنصر يزيله. وفيه إشارة إلى حصول الوعد وتحققه. أما التردد والحيرة، وبوادر الشك، فأمراض تلازم النفوس المريضة، فعبر عن زوالها بالشفاء؛ لأنها أمراض الإيمان، والله هو الذي يشفيها، ويودعها الاطمئنان.

وإن الحرب التي تختبر فيها النفوس، ويذهب فيها غرور الذين يغترون بأصنامهم، ويحسبون أنها تنصرهم في الشدة وتغيثهم في الكريهة، من شأنها أن تجعل النفوس تفكر فيما هي عليه، وفيما عليه الذين يحاربونها، فيعرفون الغث من السمين، والحق من الباطل، ويتعرفون ما عليه آلهتهم التي يزعمونها، وما نصر به الإله الحق أولياءه المؤمنين، فيهتدون بعد ضلالة، ولذا قال الله إن من آثار الحرب التي يدك فيها الشر أن يتوب الله على من يشاء من عباده، فقال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام، كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو. أي: أنهم يحسون بقوة الحق، وضعف ما هم عليه من كفر، وضلال في الأوثان فيتوبون أي يرجعون إلى الله بعد أن بعدوا عن الإيمان. والآية تشير إلى أن هذه التوبة فيضٌ من الله عليهم وصلوا إليها بعد أن ذهب غرورهم بما هم عليه من عبادة الأصنام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم النفوس وما يهديها، وما يوجهها إلى الحق، حكيم يضع الأمور في مواضعها، ويدبرها بحكمته، وهو العزيز الحكيم[(١)].

بن كنانة معهم في القضية، ثم إن المشركين أغاروا مع بني بكر بن كنانة على بني كعب، قبل انقضاء مدة العهد، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم لذلك فقال: والله لأنتصرن لهم، فنصره الله عليهم يوم الفتح، وشفى صدور بني كعب.

انظر: الهداية إلى بلوغ الغاية، مكي ابن أبي طالب ٤/ ٢٩٤٤.

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٤٤٧.

رابعًا: دفع الفتنة وانتشار الأمن في المجتمع:

ومن ثمرات القتال والجهاد دفع الفتنة ومنع الفساد في الأرض، وهذا يقتضي انتشار الأمن والطمأنينة والاستقرار النفسي والمادي في المجتمع.

والفتنة في أصلها اللغوي تدل على ابتلاء واختبار. وأصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣].

وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه، نحو قوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وتارة في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنىً وأكثر استعمالًا(١).

وما ورد في القرآن الكريم من تفصيل عن معنى الفتنة يمكن إجماله فيما يلي:

فقد جاءت الفتنة بمعنى ظلم الضعفاء وسلب حقوقهم المشروعة، وسلب بيوتهم، وإيذاؤهم. كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وجاءت أيضًا بمعنى الاستعلاء بالقهر والاستبداد، ومنع الناس من قبول الحق، والصد عن دين الله تعالى، كما في قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس: ٨٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ثم جاء البيان بعدها بأن هذا فتنة يجب منعها ومجاهدة الكفار الذين يفتنون المؤمنين: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

كما جاءت الفتنة بمعنى محاولة إضلال الناس، واستخدام الخداع والغش والطمع والإكراه ضد الحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا

---

(١) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٦٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٧٢-٤٧٣، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٦٢٣.

إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٣].

وقوله: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وجاءت أيضًا بمعنى غلبة الباطل وأهله على أتباع الحق، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وتلك المعاني للفتنة يندرج فيها الفساد والإفساد في الأرض، والصد عن دين الله الذي أنزله؛ ليكون منهجًا لتحرير الإنسان من العبودية للإنسان والهوى والشيطان؛ ليكون عبدًا لله تعالى وحده. ولذلك أمر الله تعالى بالقتال والجهاد لإزالة هذه الفتن والفساد واستئصالهما بالقوة، لإقامة دين الله تعالى وشرعه في هذه الأرض، وعندئذ تنعم البشرية بالخير والسعادة والاطمئنان والاستقرار، وتصان الحقوق والحريات بأدق المعايير الربانية[(١)].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

قال الإمام شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: وقاتلوا المشركين الذين يقاتلونكم حتى لا تكون فتنة = يعني: حتى لا يكون شركٌ بالله، وحتى لا يعبد دونه أحدٌ، وتضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطاعة لله وحده دون غيره من الأصنام والأوثان، كما قال قتادة ومجاهد والسدي وابن عباس والحسن وابن زيد وأما «الدين» الذي ذكره الله في هذا الموضع فهو العبادة والطاعة لله في أمره ونهيه[(٢)].

وهو الذي ذهب إليه الإمام البغوي، وزاده بيانًا فقال في تفسير هذه الآية: وقاتلوا المشركين حتى لا يكون شرك. يعني قاتلوهم حتى يسلموا، فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام، فإن أبى قتل، ويكون الدين: أي: الطاعة والعبادة لله وحده فلا يعبد شيء دونه.

قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر -رضي الله عنهما- في فتنة ابن الزبير فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله تعالى قد حرم دم أخي. قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩]؟ قال يا ابن أخي: لأن أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل فيها: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣].

(١) انظر: شريعة الإسلام في الجهاد والعلاقات الدولية، أبو الأعلى المودودي، ص٧٦-٨٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٧٠-٥٧١.

قال: ألم يقل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلًا، وكان الرجل يفتن في دينه؛ إما يقتلونه أو يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عمر: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: هل تدري ما الفتنة؟ كان محمد صلى الله عليه وسلم يقاتل المشركين، وكان الدخول عليهم فتنة وليس بقتالكم على الملك.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ أي: فلا سبيل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قاله ابن عباس. يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ﴾ [القصص: ٢٨].

وقال أهل المعاني: العدوان الظلم، أي: فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين بقوا على الشرك. وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلمًا، وسماه عدوانا على طريق المجازاة والمقابلة، كما قال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وكقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وسمي الكافر ظالمًا؛ لأنه يضع العبادة في غير موضعها[1].

ثم جاء هذا المعنى نفسه في سورة الأنفال، فقال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وهذا أمرٌ من الله عز وجل فرض به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار لمنع الفتنة. قال ابن عباس وغيره: معناها الشرك -كما تقدم آنفًا-. وقال ابن إسحاق: معناها حتى لا يفتن أحد عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كبلال وغيره. وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك ابن مروان حين سأله عن خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرًا. وأما قوله ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: لا يشرك معه صنمٌ ولا وثن، ولا يعبد غيره. وقال قتادة: حتى تستوسق كلمة الإخلاص لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد بن عطية[2]: «وهذه المعاني تتلازم كلها».

وقال الحسن: حتى لا يكون بلاء، وهذا يلزم عليه القتال في فتن المسلمين الفئة الباغية، على سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جاء

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣١٤-٣١٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٢٨.

قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأما أنت وأصحابك فتريدون أن نقاتل حتى تكون فتنة!.

قال القاضي أبو محمد[1]: فمذهب ابن عمر أن «الفتنة» هي الشرك في هذه الآية. وهو الظاهر، وفسر هذه الآية قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[2].

[انظر: الجهاد: مقاصد الجهاد]

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الحرب، الدفع، السلم، القتل

(١) المصدر السابق.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة: ١/ ٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ١/ ٥٣.



عناصر الموضوع

مفهوم القتل

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قتل) تدل على إذلالٍ وإماتةٍ. وهما معنيان متقاربان[1].

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل القتل إزالة الروح عن الجسد كالموت، لكن إن اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال: قتلٌ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موتٌ»[2].

يقال: قتله يقتله قتلًا وتقتالًا، ورجلٌ قتيل: مقتول، وامرأة قتيل: مقتولة، وقتل فلان فلانًا أي: أماته[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف القتل بتعريفات عدة منها ما ذكره السيوطي أنه «فعل في محل يتعقبه زهوق روح المقتول به»[4].

وعرفه المناوي بقوله: «القتل: أصله إزالة الروح كالموت، لكن إذا اعتبر بفعل المتولي له، يقال قتل، وإذا اعتبر بفوات الحياة يقال موت»[5].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٥٦.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٩٣.
(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٣٣٢، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٥٤٧.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص٨٥.
(٥) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٦٨، الكليات، الكفوي ص٧٢٩.

القتل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قتل) في القرآن الكريم (١٧٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٩٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٦	﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]
الفعل المضارع	٤١	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢]
فعل الأمر	١٠	﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩]
المصدر	١٠	﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء:٣٣]
مصدر(قتل)	١	﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب:٦١]
اسم المفعول	١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة:١٧٨]

وجاء القتل في القرآن الكريم على وجهين[٢]:

الأول: الفعل المميت للنفس: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]. يعني: الفعل المؤدي إلى الموت.

الثاني: اللعن: ومنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]. يعني: لعنوا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٥٣٣-٥٣٦.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٩٥-٤٩٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الموت:

الموت لغة:

الميم والواو والتاء أصل صحيح، يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت: خلاف الحياة[(١)].

الموت اصطلاحًا:

للموت تعريفات عدة تدور كلها حول معنى زوال الحياة، فهو صفة وجودية خلقت ضدًا للحياة.

وقيل الموت: انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار[(٢)].

وقيل الموت: مفارقة الروح للجسد[(٣)].

الصلة بين القتل والموت:

الموت ينفي الحياة مع سلامة البنية، ولا بد في القتل من انتقاض البنية، ويقال لمن حبس الإنسان حتى يموت أنه قتله ولم يكن بقاتل في الحقيقة لأنه لم ينقض البنية[(٤)].

٢ الوفاة:

الوفاة لغة:

جاء في كتب اللغة أن التوفي: الوفاة والمنية والموت، وتوفي فلانًا، وتوفاه الله، إذا قبض نفسه، أو قبض روحه[(٥)].

الوفاة اصطلاحًا:

الوفاة معناها: الموت، وأن أصله من توفية الشيء إذا أخذه كله[(٦)]. فالتوفي: الإماتة

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٨٣.
(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ١/ ١١٢.
(٣) انظر: المجموع، النووي ٥/ ١٠٥.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٤.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٥٢٦، لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٤٠٠، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٢٠.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، ص٣٣٩.



وقبض الروح[1].

الصلة بين الوفاة والقتل:

الوفاة لا تستعمل إلا في الإنسان فقط،أما القتل فيستعمل في الإنسان وفي غيره من الكائنات الحية.

والقتل ينسب للقاتل، والوفاة لا تنسب إلا إلى الله تعالى، فيقال: «فلان قتل فلانًا»، ولا يقال: «فلان توفى فلانًا».

٣ الذبح:

الذبح لغة:

الذبح لغة قطع الحلقوم من باطنٍ عند النصيل وهو موضع الذبح من الحلق، والذبح مصدر ذبحت الشاة يقال: ذبحه يذبحه ذبحًا فهو مذبوح وذبيح،والذباح القتل أيًا كان[2].

الذبح اصطلاحًا:

هو أحد أنواع الذكاة، وعرف بأنه«قطع جميع الحلقوم والودجين بآلة» [3] والمراد بالودجين العرقين(الشريانيين) اللذين يوصلان الدم لمخ الحيوان.

الصلة بين الذبح والقتل:

أن الذبح عمل معلوم، والقتل ضروب مختلفة ولهذا منع الفقهاء عن الإجارة على قتل رجل قصاصًا ولم يمنعوا من الإجارة على ذبح شاة؛ لأن القتل منه لا يدري أيقتله بضربة أو بضربتين أو أكثر؛ وليس كذلك الذبح[4].

(١) الكليات، الكفوي ص٣١٣.
(٢) انظر: لسان العرب ٢/ ٤٣٦.
(٣) انظر: مواهب الجليل، الحطاب ٣/ ٢٠٧، المجموع، النووي ٩/ ٩٠، الفروع، المرداوي ١٠/ ٣٩٣.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص١٠٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص٤٠٢.

القتل والقضاء والقدر

الأصل في كل ما يصيب المرء أنه من قضاء الله تعالى وقدره، استنادًا إلى العديد من النصوص القرآنية، منها قول الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩] ونحوهما من الآيات التي تثبت أن كل ما يصيب المرء إنما هو بقدر الله تعالى.

وفي معرض القتل خاصة جاءت آية من كتاب الله تعالى لتفصل في قضية تخلف المتقاعسين عن الجهاد بحجة الخوف من القتل، وتبين خطأهم وفساد عقيدتهم في هذا الجانب.

قال الله تعالى ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال النيسابوري: «لما أخبر عن هذه الطائفة بأنهم يظنون ظن الجاهلية، فسر ذلك الظن بأنهم يقولون هل لنا من الأمر من شيء؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا عمن كان ظانًا بل شاكا في حقية هذا الدين، وفي المبدأ والمعاد وفي القضاء والقدر، فأزال ذلك الظن بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ بيده الإماتة والإحياء والفقر والإغناء والسراء والضراء. ثم لما كان سؤالهم ذلك مظنة أن يكون سؤال المؤمنين المسترشدين لا المعاندين المنكرين، أراد أن يكشف عن حالهم ويبين مقالهم كيلا يغتر به المؤمنون فقال: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَ﴾ أي: ذلك القول إنما صدر عنهم في هذه الحالة»[١].

وذكر بعض المفسرين المتأخرين أن ظن القائلين بذلك هو ظنٌ باطلٌ، ومن التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعا لهم، ويسمعون منهم، لما أصابهم القتل، ويكون النصر والظفر لهم. فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل، الذي هو ظن أهل الجاهلية، الذين يزعمون، بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري ٢/ ٢٨٦-٢٨٧.

من نفاذه، أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فلا يكون إلا ما سبق قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وأن ما جرى عليهم من الهزيمة والقتل، فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لهم من الأمر شيء أو لم يكن، وأنهم لو كانوا في بيوتهم، وقد كتب القتل على بعضهم، لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد(١).

ومسألة كون المقتول ميتًا بأجله أم أن القاتل قد قطع أجله من مسائل العقيدة التي تناولها المحققون من علماء الأمة وفصلوا القول فيها على نحو ما هو معروف في موضعه عند الكلام عن القضاء والقدر، وخلاصة ما عليه جمهور السلف أن المقتول ميت بأجله الذي قدره الله تعالى له، خلافـًا للمعتزلة ومن وافقهم الذين يقولون إن القاتل قد استعجل أجل المقتول.

قال صاحب الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية:

ومن يمت بقتله من البشر
أو غيره فبالقضاء والقدر
ولم يفت من رزقه ولا الأجل
شيء فدع أهل الضلال والخطل

قال السفاريني شارحًا قوله: (ومن يمت بقتله): «إن المراد أن المقتول ميت بأجله، أي: الوقت المقدر لموته، لا كما يزعم بعض المعتزلة من أن الله تعالى قد قطع عليه الأجل، والحق عند أهل الحق أن المقتول ميت في الوقت الذي قدره الله تعالى له وعلم أنه يموت فيه، لا كما زعمت المعتزلة أنه قد قطع عليه الأجل، يعني لم يوصله إليه، وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أمد هو أجله الذي علم الله تعالى موته فيه لولا القتل، فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل»(٢).

واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨] ففي الآية دليل على أن المقتول يموت بأجله خلافًا لمن يزعم أن القتل قطع على المقتول أجله(٣).

والقتل ليس شرًا محضًا، وإن كان الظاهر في القتل أنه شر للمقتول، ولكنه باعتبار علم الله تعالى، وقضائه وقدره، قد يشتمل على خير، والقتل في ذلك داخل في عموم كل ما يحصل للمرء، وينطبق عليه قول الله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٤٣٩.

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني ١/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٣) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، العجيلي ١/ ١٣٦.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: «القتل هو استعمال الآلة القطاعة في تفريق اتصال البدن؛ فقوة الإنسان على استعمال الآلة خير وكون الآلة قابلة للتأثير خير وكون المحل قابلا لذلك خير، وإنما الشر نسبي إضافي؛ وهو وضع هذا التأثير في غير موضعه والعدول به عن المحل المؤدي إلى غيره وهذا بالنسبة إلى الفاعل؛ وأما بالنسبة إلى المفعول فهو شر إضافي أيضا وهو ما حصل له من التألم وفاته من الحياة؛ وقد يكون ذلك خيرا له من جهة أخرى وخير لغيره»(١).

أنواع القتل

ينقسم القتل باعتبارين أولهما: باعتبار موجبه إلى قتل بحق وقتل بغير حق، وثانيهما: باعتبار صفته إلى قتل عمدٍ وقتل خطأ، وقتل شبه خطأ على نحو ما هو معروف لدى العلماء بغض النظر عما في النوع الثالث من خلاف بينهم في إثباته أو نفيه، والذي يعنينا هنا هو تقسيم القتل إلى قتل بحق وقتل بغير حق، على هذا النحو:

أولًا: القتل بحق:

القتل بحق هو القتل المشروع، الذي جاءت نصوص القرآن الكريم مبيحة له على سبيل الوجوب؛ ويشمل أنواعًا متعددة تندرج تحت ثلاث حالات:

الحالة الأولى: القتل قصاصًا:

والكلام فيه مبسوط في عقوبة القتل، وعمدته من كتاب الله تعالى قوله جل شأنه ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

قال ابن تيمية: «فبين سبحانه وتعالى أنه سوى بين نفوسهم، ولم يفضل منهم نفسًا

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم ص١٨٢.

على أخرى، كما كانوا يفعلونه»[1]، وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

ولا أتوسع في الكلام عن القصاص هنا حيث الكلام مستفاض عنه في عقوبة القتل، وفي حكمة تشريع القصاص في مبحثين آتيين.

الحالة الثانية: القتل حدًّا:

شرع الإسلام القتل في أربعة جرائم من جرائم الحدود، وهي: الحرابة والردة وزنا المحصن، وفي جرائم أخرى كالسحر والزندقة، وذلك من أجل الحفاظ على بعض الكليات الشرعية كالدين والنفس والعرض والمال.

وبعض هذه المشروعية جاء في القرآن الكريم، وبعضها جاء في السنة النبوية، فمما جاء في القرآن الكريم حد الحرابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قطاع الطريق: «إذا قتلوا وأخذوا المال؛ قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال؛ قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا؛ قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا هربوا؛ طلبوا حتى يوجدوا، فتقام عليهم الحدود، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالًا؛ نفوا من الأرض»[2].

قال الشافعي رحمه الله: «وبهذا نقول، وهو موافق معنى كتاب الله تبارك وتعالى، وذلك أن الحدود إنما نزلت فيمن أسلم، فأما أهل الشرك فلا حدود فيهم إلا القتل، أو السباء، أو الجزية، واختلاف حدودهم باختلاف أفعالهم، على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما»[3].

وروي عن قتادة أنه كان يقول في قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ حدودٌ أربعة أنزلها الله؛ فأما من أصاب الدم والمال جميعًا، صلب، وأما من أصاب الدم وكف عن المال، قتل، ومن أصاب المال وكف عن الدم، قطع، ومن لم يصب شيئًا من هذا،

(١) السياسة الشرعية، ابن تيمية ص١١٧.

(٢) أخرجه الشافعي بسنده في تفسيره ٢/ ٧٣٣، عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس.
وروي نحوه عن الحسن وقتادة والسدي، كما في النكت والعيون ٢/ ٣٣.

(٣) انظر: تفسير الإمام الشافعي ٢/ ٧٣٣.

نفي»[1].

ومما ذكر في القرآن الكريم كذلك حد الرجم، حيث نسخت تلاوته وبقي حكمه، وهذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين[2].

ويؤيده ما أخرجه البخاري بسنده عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمانٌ، حتى يقول قائلٌ: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، ألا وإن الرجم حقٌّ على من زنى وقد أحصن، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف - قال سفيان: كذا حفظت - ألا وقد (رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده)[3].

قال القرافي: «وهو قول منتشر في الصحابة من غير مخالف فكان إجماعًا، وفعله عمر بجارية»[4].

وقال ابن قدامة: «وجوب الرجم على الزاني المحصن، رجلا كان أو امرأة، وهذا قول عامة أهل العلم من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من علماء الأمصار في جميع الأعصار، ولا نعلم فيه مخالفا إلا الخوارج ثم قال: «وقد ثبت الرجم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وفعله، في أخبار تشبه المتواتر، وأجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أنزله الله تعالى في كتابه، وإنما نسخ رسمه دون حكمه»[5].

وأما ما ذكر في السنة كقتل الساحر والزنديق فلا يتسع المقام لذكره في هذا البحث التفسيري، ويمكن الإشارة إلى حديث جندبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حد الساحر ضربةٌ بالسيف)[6].

الحالة الثالثة: القتل جهادًا في سبيل الله:

شرع الله تعالى القتال جهادًا في سبيله وإعلاء لكلمته، ونشرًا لدينه،ودفاعًا عن كليات الشرع من الدين والنفس والمال والعرض والعقل، وتواترت نصوص القرآن الكريم الدالة على مشروعية ذلك.

مثل قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

فهذه الآية دالة على فرضية الجهاد كما ذكره غير واحد من أهل التفسير والفقه على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٥٩.
(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٢٩٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٨٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٨٥، السراج المنير، الشربيني ١/ ٢٨٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم ٦٨٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، رقم ١٦٩١.
(٤) الذخيرة، القرافي ١٢/ ٦٠.
(٥) المغني، ابن قدامة ٩/ ٣٥ بتصرف.
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الحدود، باب ما جاء في حد الساحر، رقم ١٤٦٠. وصحح وقفه على جندب.

خلاف بينهم في كونها منسوخة بسورة براءة أو غير منسوخة[1].

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:٣٦].

ثانيًا: القتل بغير حق:

القتل بغير حق هو القتل الذي نهت عنه نصوص القرآن الكريم، وكذا السنة المطهرة، وهو ما لا تبيحه شريعة من الشرائع، ويترتب على ارتكابه عقوبة دنيوية، أو عذابًا في الآخرة.

وقد تضافرت الملل السماوية على ضرورة حفظ النفس، لأنها إحدى الكليات الخمس التي جاءت الشرائع بحفظها،وعلى حرمة إقدام المرء على قتل نفسه بأية وسيلة من الوسائل.

قال أبو حيان: «وتضافرت على تحريم قتل النفس الملل»[2].

وقال الشيخ محمد عليش: «حفظ النفس مجمع عليه، بل هو من الخمس المجمع عليها في كل ملة، ثم حكى عن ابن عرفة نقل الأصوليين إجماع الملل على وجوب حفظ الأديان والنفوس والعقول والأعراض والأموال»[3].

وقد ورد في الكتاب العزيز آيات صريحة تنهى عن القتل بغير حق، وتشير إلى صفات عباد الرحمن الذين لا يقتلون النفس بغير حق، وتحكي عما أخذ على بني إسرائيل من العهود بعدم قتلهم النفس بغير حق، ومن ذلك:

قول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام:١٥١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفس مؤمن أو معاهد وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، يعني بما أباح قتلها به: من أن تقتل نفسًا فتقتل قودًا بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. فذلك«الحق» الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني: هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربنا أن لا نأتيها وأن لا ندعها، هي الأمور التي وصانا والكافرين بها أن نعمل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٥١.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٥٧.
(٣) شرح منح الجليل، محمد عليش ٩/ ٣.

جميعًا بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يقول: وصاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم»[1].

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾[الإسراء:٣٣].

وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[الفرقان:٦٨].

وأكثر المفسرين على أن المقصود بالآية حرمة قتل النفس على جهة العموم نفس المؤمن والمعاهد إلا بالحق، وأن الحق المستباح به قتلها نحو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة)[2][3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:٨٤].

وفي معناها يقول الطبري: «نهوا عن أن يقتل بعضهم بعضًا، فكان في قتل الرجل منهم الرجل قتل نفسه، إذ كانت ملتهما واحدة، فهما بمنزلة رجل واحد»، وذكر معنى آخر فقال: أي لا يقتل الرجل منكم الرجل منكم، فيقاد به قصاصًا، فيكون بذلك قاتلًا نفسه؛ لأنه كان الذي سبب لنفسه ما استحقت به القتل، فأضيف بذلك إليه، قتل ولي المقتول إياه قصاصًا بوليه، كما يقال للرجل يركب فعلا من الأفعال يستحق به العقوبة، فيعاقب العقوبة: «أنت جنيت هذا على نفسك»[4].

وصور القتل بغير حق التي نهت عنها آيات القرآن كثيرة، أبرزها حرمة قتل أي نفس على جهة العموم على سبيل الاعتداء، كما هو مستفاد من الآيات السابق ذكرها، وهناك حالات أخرى منصوص عليها بعينها منها:

١. قتل الأنبياء والرسل.

ذم الله تعالى اليهود بسبب ارتكابهم جرائم عدة منها قتل الأنبياء والرسل، وألبسهم سبحانه وتعالى ثوب الذلة والصغار لهذه الأفعال، وقد جاء هذا الذم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢١-٢٢٢ بتصرف.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢٠، معاني القرآن، النحاس ٤/ ١٤٨، تفسير السمرقندي ١/ ٥١١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٥٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٨٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٠٠.

﴿مِنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[آل عمران:١١٢].

قال الرازي: «الله تعالى ألصق باليهود ثلاثة أنواع من المكروهات أولها: جعل الذلة لازمة لهم، وثانيًا: جعل غضب الله لازمًا لهم، وثالثها: جعل المسكنة لازمة لهم، ثم بين في هذه الآية أن العلة لإلصاق هذه الأشياء المكروهة بهم هي: أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق»(١).

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء:١٥٥].

وقوله جل شأنه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[آل عمران:١٨١].

ومن اللطائف التي يشير إليها البيضاوي في تقييد القتل بغير حق قوله: «والتقييد بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقا بحسب اعتقادهم أيضا»(٢).

وقال الألوسي: «قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إيذانًا بأنهما في العظم إخوان؛ وتنبيها على أنه ليس بأول جريمة ارتكبوها ومعصية استباحوها، وأن من أجترأ على قتل الأنبياء بغير حق في اعتقاده أيضا كما هو في نفس الأمر لم يستبعد منه أمثال هذا القول، ونسبة القتل إلى هؤلاء القائلين باعتبار الرضا بفعل القاتلين من أسلافهم»(٣).

٢. الانتحار.

والانتحار: «قيام الإنسان بقتل نفسه بوعيه أو بدون وعي، أو هو الفعل المقصود لقتل النفس أو زهق الروح عن سابق تصميم»(٤).

والانتحار محرم في الشريعة الإسلامية على جهة العموم، حيث لا يحل للمرء أن يقتل نفسه بأي حال من الأحوال، إذ هو قتل للنفس بغير حق، والدليل على ذلك ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الإسراء:٣٣].

حيث دلت الآية على حرمة قتل النفس على جهة العموم إلا بالحق، فيشمل ذلك قتل المرء نفسه وقتله غيره.

وقوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩].

فهذه نصوص صريحة تحرم قتل النفس

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٣٠٨.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٧٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٤١.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد ٣/ ٢١٧٦.

أو التسبب في إهلاكها، على تفصيل معروف لدى المفسرين.

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تردى من جبلٍ فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسى سمًا فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدةٍ، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا)[1].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه (الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به، رقم ٥٧٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قاتل النفس، رقم ١٣٦٥.

دوافع القتل

أولًا: اختلاف الدين:

من دوافع القتل اختلاف الدين، فالمسلم شرع له قتل غير المسلم دفاعا عن دين الله عز وجل بعد أن يقيم عليه الحجة بالدعوة إلى الإسلام ثم الجزية، وقد نصت آيات القرآن الكريم على ذلك، على هذا النحو:

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩].

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وللمفسرين في معنى ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ أقوال: أحدها: أنهم الروم قاله ابن عمر، الثاني: أنهم الديلم، قاله الحسن. الثالث: أنهم العرب، قاله ابن زيد. الرابع: أنه على العموم في قتال الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى، قاله قتادة، الخامس: أن المقصود قتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها[3].

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤١٥-

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١].

وقد ذكر الطبري اختلاف المفسرين فيها على قولين:

القول الأول: أن هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك. وقالوا: أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين، والكف عمن كف عنهم، ثم نسخت بـ«براءة»، وهذا قول الربيع، وابن زيد.

القول الثاني: أن ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار، لم ينسخ. وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه، هو نهيه عن قتل النساء والذراري. قالوا: والنهي عن قتلهم ثابتٌ حكمه اليوم. قالوا: فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية، وهذا قول ابن عباس وعمر بن عبد العزيز، ورجح الطبري أنها ليست منسوخة[1].

ولا ينبغي أن يفهم من هذه الآية أن اختلاف الدين يبيح للمسلم قتل غير المسلم هكذا بإطلاق بل الأمر له أحكامه وضوابطه المعروفة في بابها من كتاب الجنايات والجهاد.

ثانيًا: خوف الفقر:

اعتادت بعض قبائل العرب قتل أولادهم خشية الإملاق أي: الفقر، وجاءت آيات القرآن الكريم تنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر، أو قتلهم بسبب الفقر، ومن ذلك ما يلي:

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قال ابن كثير: «والمراد النهي عن قتلهم بسبب حصول الفقر، قال ابن عباس، وقتادة، والسدي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة «سبحان» -أي الإسراء-: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ [الإسراء: ٣١].

أي: خشية حصول فقر، في الآجل؛ ولهذا قال هناك: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلا قال: ﴿نَّحۡنُ

٤١٦، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١١٣.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٦٢-٥٦٣.

﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هاهنا»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾[الإسراء:٣١].

قال الجصاص: «هو كلام يتضمن ذكر السبب الخارج عليه، وذلك لأن من العرب من كان يقتل بناته خشية الفقر؛ لئلا يحتاج إلى النفقة عليهن وليوفر ما يريد إنفاقه عليهن على نفسه وعلى بيته، وكان ذلك مستفيضا شائعا فيهم»[2].

ثالثًا: خوف العار:

انتشر في العرب قبل الإسلام قتل البنات، أو وأدهن أحياء خشية الوقوع في السبي، مما يلحق العار بالآباء، ولما كان ذلك مرضًا عضالًا منتشرًا لديهم فقد جاء القرآن الكريم بتحريمه في آيات عدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل:٥٨-٥٩].

فقد ورد في تفسيرها: «إن مضر وخزاعة وتميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء، والسبب في ذلك إما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة أو الحمية فيخافون عليهن من الأسر ونحوه، أو طمع غير الأكفاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية، إذا ولدت له بنت أراد أن يستحييها تركها حتى إذا كبرت ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء، فإذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها: انظري إلى هذه البئر فإذا نظرت إليها دفعها من خلفها في تلك البئر، ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم الفرزدق إذا أحس بشيء من ذلك وجه بإبل إلى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك:

وعمي الذي منع الوائدات
فأحيا الوئيد فلم يوأد»[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير:٨-٩].

قال الماوردي: «قال عز وجل توبيخًا لقاتلها وزجرًا لمن قتل مثلها ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ واختلف هل هي السائلة أو المسئولة، على قولين: أحدهما:وهو قول الأكثرين أنها هي المسئولة: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ فتقول: لا ذنب لي، فيكون ذلك أبلغ في توبيخ قاتلها وزجره، الثاني: أنها هي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٦٢.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢٣.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٣٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٨٣، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٩٧.

السائلة لقاتلها لم قتلت»[1].

والمعنى على الثاني: سألت الموؤودة الوائدين: بأي ذنب قتلوها. وهو مروي عن ابن عباس ومسلم بن صبيح[2].

رابعًا: الطغيان والفساد:

الطغيان والفساد دافعان من دوافع القتل على مر العصور، فالذي يقتل امرأ بدون وجه حق، يعتبر متعديًا عليه، ومفسدًا في الأرض، وبالتالي يستحق العقوبة الرادعة وهي القصاص، وهذا الذي ورد في كتاب الله تعالى عقيب قصة قابيل وهابيل في قوله جل شأنه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

فأبانت الآية أن الفساد في الأرض وقتل النفس البريئة سببان موجبان للقتل، وما سوى ذلك لا يجيز قتل المرء، فقاتل النفس يستحق القصاص، والمفسد في الأرض يستحق العقوبة التي شرعت في الحرابة في الآية التي تلي هذه الآية، وكلاهما -أي: قاتل النفس والمحارب- مفسدان في الأرض، الأول إفساده خاص بمن قتله تعديًا، والثاني إفساده عام يشمل المال والعرض والنفس.

قال القرطبي: «حرم الله القتل في جميع الشرائع إلا بثلاث خصال:كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس ظلما وتعديا»[3].

وقال ابن كثير في معناها: «من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعا؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾»[4].

خامسًا: مقاومة الاعتداء:

قد يضطر الإنسان إلى قتل غيره مقاومة لعدوانه، ودفاعًا عن نفسه أو عرضه أو ماله، وهذا نوع من القتل المشروع عند الضرورة، فإذا تعرض إنسان لاعتداء وجب دفعه، ولكن مع مراعاة أن لا يلجأ إلى الأشد إلا بعد استنفاذ ما هو دونه من وسائل الدفاع، وهذا مستفاد من نصوص قرآنية وأخرى نبوية.

فمن نصوص القرآن الكريم قوله تعالى:

---

(١) النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٣٦، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢١٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٤٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٣.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والآية وإن كانت واردة في القتال في سبيل الله، إلا أن عموم لفظها يجيز مقاومة الاعتداء.

ومن النصوص النبوية ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي؟ قال: (فلا تعطه مالك) قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: (قاتله) قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: (فأنت شهيدٌ)، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال:(هو في النار)(١).

ومن نصوص السنة كذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيدٌ)(٢).

قال ابن بطال شارحًا له: «إنما أدخل هذا الحديث فى هذه الأبواب ليريك أن للإنسان أن يدفع عن نفسه وماله، فإذا كان شهيدا إذا قتل فى ذلك، كان إذا قتل من أراده فى مدافعته له عن نفسه لا دية عليه فيه، ولا قود. قال المهلب: وكذلك كل من قاتل على ما يحل له القتال عليه من أهل أو دين فهو كمن قاتل دون نفسه وماله فلا دية عليه ولا تبعة، ومن أخذ فى ذلك بالرخصة وأسلم المال أو الأهل أو النفس فأمره إلى الله، والله يعذره ويأجره، ومن أخذ فى ذلك بالشدة وقتل كانت له الشهادة بهذا الحديث»(٣).

و«لا خلاف بين الفقهاء في مشروعية الدفاع عن كل ما ذكرنا، ولكن هل يجب على الإنسان هذا الدفاع بحيث يكون آثما إذا تركه؛ لأن هذا الدفاع أمر يمليه الشرع ويفرضه، أم أنه يجوز له ولا يجب عليه، فيكون من حقه المدافعة، إن شاء قام بها وإن شاء تركها؛ لأنه حق من حقوق العبد، ومن خصائص حق العبد حريته في الانتفاع به واختياره، أو بعبارة أخرى: هل مدافعة المعتدين هي من قبيل الواجبات أم قبيل الحقوق، أو من قبيل حق الله أو من قبيل حق العبد؟»(٤).

وللفقهاء خلاف في حكم الدفاع عن النفس ضد الصائل عليها مداره على ثلاثة آراء:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حقٍ، كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيدٌ، رقم ٢٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب من قاتل دون ماله، رقم ٢٤٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره، رقم ١٤١.

(٣) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٦/ ٦٠٧.

(٤) الجنايات في الفقه الإسلامي، الشاذلي ص٢٥٨ بتصرف يسير.

الرأي الأول: أن دفع الصائل عن النفس واجب،وهو ظاهر مذهب الحنفية، ومشهور المالكية والشافعية[١].

الرأي الثاني: أن دفع الصائل عن النفس جائز وليس واجبًا، وهو الرأي المرجوح في مذهبي مالك والشافعي، والراجح عند الحنابلة.

الرأي الثالث: التفرقة بين حالة الفتنة وغيرها، فيكون الدفاع جائزًا مطلقًا في حالة الفتنة، أما في غير حالة الفتنة فهو واجب مطلقًا، وهو رأي بعض الشافعية والمالكية، وبعض الحنابلة[٢].

ولكل رأي من هذه الآراء حجته ودليله، مما لا يتسع المقام لذكره هنا.

وللدفاع عن النفس مراتب، نص عليها بعض الفقهاء في القواعد الفقهية، حيث لا يلجأ للدفع الأقوى إلا بعد العجز عما هو دونه.

قال أبو المظفر الكرابيسي: «إذا خاف على نفسه من الجوع، ومع رفيقه طعام، فأبى أن يعطيه لا يحل له قتاله بالسلاح، ويقاتله بغير سلاح، وإن كان في البئر ماء، وهو محتاج إليه يخاف على نفسه، فمنعه صاحب البئر عن البئر جاز له أن يقاتله بالسلاح، والفرق أن الطعام ملك له، وله أن يدفع عن ملكه ويقاتل، ولو قتل كان شهيدا، بدليل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من قتل دون ماله فهو شهيد)[٣].

وإذا كان هو شهيدا كان ذاك ظالما له، فكره له أن يقاتله بالسلاح، وقد اضطر في إحياء نفسه إلى ماله، فكان له أن يقاتله بغير السلاح، وأما الماء فليس بمملوك له، فإذا منعه كان متعديا في المنع، فكان له أن يقاتله بالسلاح، لأن هذا حقه، فإذا منع عن حقه كان له أن يقاتله بالسلاح، كما لو قاتله على مال»[٤].

وتفريعًا على قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) يجوز للمضطر أن يأكل من مال الغير ما يدفع به الهلاك عن نفسه جوعًا، ويدفع الصائل بما أمكن ولو بالقتل، ويضمن في المحلين، وإن كان مضطرًا، فإن الاضطرار يظهر في حل الإقدام، لا في رفع الضمان وإبطال حق الغير، ولو لم يضمن لكان من قبيل إزالة الضرر بالضرر، وهذا منافٍ وغير جائز، ويتعارض مع قاعدة «الضرر لا يزال بمثله»[٥].

(١) انظر: حاشية ابن عابدين ٥/ ٤٨١، تحفة المحتاج، ابن حجر الهيتمي ٤/ ١٢٤، مواهب الجليل، الحطاب ٦/ ٣٢٣.
(٢) حاشية الرملي على نهاية المحتاج ٤/ ١٦٨، أسنى المطالب، زكريا الأنصاري ٤/ ١٦٨، الروض المربع، البهوتي ٢/ ٢٥٣.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الفروق، الكرابيسي ٢/ ٢٨٣-٢٨٤.
(٥) انظر: القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة، محمد الزحيلي ص٢٨٦.

سادسًا: الحسد:

قد يلجأ المرء إلى قتل غيره ظلمًا وعدوانًا بسبب الحسد له على نعمة أوتيها، أو منزلة بلغها، أو فضل تحصل عليه، وهذا من قبح الصنيع وسوء الطوية، ولقد كانت أول جريمة قتل باء بها أحد من بني آدم على ظهر الأرض بسبب الحسد، ألا وهي جريمة قتل قابيل لهابيل التي وردت في القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾

[المائدة: ٢٧ - ٣٢].

وخلاصة القصة ما نصت عليه آيات القرآن الكريم، أن ابني آدم قدم كل واحد منهما قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فحسد المرفوض قربانه أخاه المقبول فقتله[(١)].

ولذلك فإن فرط الحسد قد يدفع بالحاسد إلى إيقاع الشر بالمحسود فإنه يتبع المساوىء ويطلب العثرات، وقد قيل إن الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء والأرض فحسد إبليس آدم حتى أخرجه من الجنة، وأما في الأرض فحسد قابيل بن آدم لأخيه هابيل حتى قتله»[(٢)].

وبناء عليه فهذه كانت أول جريمة سفك دم على ظهر الأرض، ولهذا يتحمل القاتل جزءًا من كل جريمة قتل تقع على الأرض بعد ذلك، ويصدق هذا حديث عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تقتل نفسٌ إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ منها)[(٣)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٠٢-٢٠٤، تفسير السرقندي ١/ ٣٨٣-٣٨٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٤٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٨-٢٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٨.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٢٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، رقم ٦٨٦٧.

سابعًا: السفه والطيش:

ذم القرآن الكريم العرب في قتلهم أولادهم تحت دوافع واهية وحجج لا اعتبار لها.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وهذه الآية نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر سفهًا بغير علم لخفة أحلامهم، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم، لا هم[1].

أخرج البخاري عن سعيد بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائةٍ في سورة الأنعام، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]»[2].

قال ابن العربي معلقًا عليه: «وهذا الذي قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهة بغير معرفة ولا عدل، والذي تصرفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظم جهلا وأكبر جرما، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظم من الاعتداء على المخلوقات. والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبين وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام»[3].

وقال القسطلاني: «﴿قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ أي بناتهم مخافة الفقر ﴿سَفَهًا﴾ نصب على الحال أي ذوي سفه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأن الفقر وإن كان ضررًا إلا أن القتل أعظم منه، وأيضًا فالقتل ناجز وذلك الفقر موهوم فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذرًا من ضرر موهوم لا ريب أنه سفاهة وهذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم بأن الله رازق أولادهم، ولا شك أن الجهل من أعظم المنكرات والقبائح إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن الحق ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

والفائدة في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بعد قوله: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ الإشارة إلى أن الإنسان قد يضل عن الحق ويعود إلى الاهتداء، فبين أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط، وهذا نهاية المبالغة في الذم»[4].

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢٧٢، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٣٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب جهل العرب، رقم ٣٥٢٤.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٢٧٦.

(٤) إرشاد الساري، القسطلاني ٦/ ١٨.

آثار القتل

لما كان القتل على نوعين: قتلٌ بحقٍ وقتلٌ بغير حقٍ على نحو ما تقدم ذكره، فإنه تترتب بعض الآثار على كل نوع منهما بيانها على النحو الآتي:

أولًا: آثار القتل بحق:

تقدم ذكر صور القتل بحق، وأشير هنا إلى أبرز الآثار الدنيوية والأخروية التي تترتب عليه:

الأول: يترتب على القتل قصاصًا حفظ النفس، وهو أحد مقاصد الشريعة، مما يؤدي إلى تحقيق العدالة في المجتمع، وإحياء النفوس عن الإهدار، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

وفي المقصود بكلمة ﴿حَيَاةٌ﴾ في الآية معان وعبر ذكرها المفسرون:

منها: أن معناه بقاء يحجز بعضكم عن بعض ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يعني: من كان له لب أو عقل فذكر القصاص فيحجزه الخوف عن القتل ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يعني: لكي تتقوا الدماء مخافة القصاص[١].

ومنها: أن معناه في إيجاب القصاص حياة؛ لأن من هم بالقتل فذكر القصاص ارتدع فكان ذلك سببًا للحياة. روي عن مجاهد وقتادة وأكثر أهل العلم.

ومنها: أن معناه جعل الله هذا القصاص حياة وعبرة لكم،كم من رجل قد هم بداهية فمنعه مخافة القصاص أن يقع بها! وإن الله قد حجز عباده بعضهم عن بعض بالقصاص. قاله الربيع بن خيثم[٢].

الثاني: يترتب على القتل في حد الردة الحفاظ على الدين، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

ومن هنا فإن السنة النبوية قد نصت على أن عقوبة المرتد هي القتل ففي الصحيح عن عكرمة قال أتى عليٌّ رضي الله عنه بزنادقةٍ فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباسٍ فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقتلتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه)[٣].

الثالث: يترتب على قتل الساحر الحفاظ على الدين والعقل والنفس والعرض والمال، نظرًا لتأثير السحر على كل ذلك، وهذا الحكم مستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية.

فمما استنبطه بعض المفسرين من

(١) تفسير مقاتل ١/ ١٥٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ٣٨٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين، باب حكم المرتد والمرتدة، رقم ٦٩٢٢.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

حيث قال: «وهذا يدل على قتل الساحر إذا سحر وظفر به من غير استتابة، لأنه شيء يخفيه فلا يعلم بصحة توبته منه لو تاب»[١].

وفي السنة النبوية عن الحسن عن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حد الساحر ضربة بالسيف)[٢].

وأخرج مالك عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة انه بلغه:أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها وقد كانت دبرتها فأمرت بها فقتلت. قال مالك: الساحر الذي يعمل السحر ولم يعمل ذلك له غيره هو مثل الذي قال الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢].

فأرى أن يقتل ذلك إذا عمل ذلك هو نفسه[٣].

وقتل الساحر مروي عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وهو مذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة[٤].

ثانيًا: آثار القتل بغير حق:

يترتب على القتل بغير حق آثار في الدنيا وآثار في الآخرة، بيانها على النحو الآتي:

الأول: القتل بغير حق يترتب عليه القصاص، على نحو ما هو مبسوط في موضعه من مبحث عقوبة القتل.

الثاني: يترتب على القتل بغير حق (القتل العمد) خمس عقوبات أخروية وردت في آية واحدة من كتاب الله تعالى وهي قوله جل شأنه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

وهذه الآية الكريمة اختلف المفسرون من السلف بشأنها هل هي محكمة أم منسوخة، وذهب الصحابيان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما إلى القول بأنها

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٣٧٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الحدود، باب حد الساحر، رقم ١٤٦٠.
وصحح الترمذي وقفه على جندب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر، رقم ١٥٦٢.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٧.

محكمة، وأن القاتل العمد لا توبة له، وبنحو قولهم قال ابن عمر، والضحاك وآخرون[1].

وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير، قال: «آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: «نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:٩٣]. هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء»[2].

وروي عن سالم بن أبي الجعد قال: «سأل رجلٌ ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن رجلٍ قتل مؤمنًا متعمدًا ثم تاب، وآمن، وعمل صالحًا، ثم اهتدى، قال: وأنى له الهدى؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يجيء المقتول يوم القيامة متعلقًا بالقاتل، تشخب أوداجه دمًا، فيقول: يا رب، سل هذا لم قتلني؟)»[3].

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «إنها لمحكمة، وما تزداد إلا شدة»[4].

ويرى بعض المفسرين أن رأي ابن عباس رضي الله عنهما هذا إنما هو في مستحل القتل العمد لا مجرد فاعله.

قال ابن عطية: «إن الأصح في تأويل قوله تعالى: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ ما قال ابن عباس:إنه أراد مستحلا، وإذا استحل أحد ما حرم الله عليه فقد كفر، ويدل على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنا نجد الله تعالى في أمر القتل إذا ذكر القصاص لم يذكر الوعيد، وإذا ذكر الوعيد بالنار لم يذكر القصاص، فيظهر أن القصاص للقاتل المؤمن العاصي، والوعيد للمستحل الذي في حكم الكافر، ومنها من جهة أخرى أن الخلود إذا لم يقرن بقوله: «أبدا» فجائز أن يراد به الزمن المتطاول، إذ ذلك معهود في كلام العرب، ألا ترى أنهم يحيون الملوك بخلد الله ملكك.

ومن ذلك قول امرئ القيس[5]:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد
قليل الهموم ما يبيت بأوجال[6]

والكلام حول هذه الآية مما يطول المقام فيه، ويتشعب إلى مسائل عقدية، وفقهية واسعة.

الثالث: يترتب على القتل بغير حق الإفساد في الأرض لقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٦٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٣٢، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل٦/ ٥٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم)، رقم ٤٥٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠٢٣.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢١٤٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٣٣، رقم ٨٠٣١.

(٤) جامع البيان، الطبري ٩/ ٦٨.

(٥) البيت في ديوان امرئ القيس ص١٣٥.

(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦٥.

﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وفي المقصود بقتل الجميع وإحيائهم هنا أقوال:

القول الأول: ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة وعطية: «من قتل نبيًا وإمامًا عادلًا فكأنما قتل الناس جميعًا ومن عمل على عضد نبي أو إمام عادل فكأنما أحيا الناس جميعًا».

القول الثاني: ما قاله مجاهد: «من قتل نفسًا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها لو قتل الناس جميعا، ومن أحياها من سلم من قتلها فقد سلم من الناس جميعا».

القول الثالث: ما قاله السدي: «من قتل فكأنما قتل الناس جميعًا عند المقتول في الإثم ومن أحياها واستنقذها من هلكة من غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك فكأنما أحيا الناس جميعًا عند المستنقذ».

القول الرابع: ما قاله الحسن وابن زيد: «﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ يعني: إنه يجب عليه من القصاص بقتلها مثل الذي نوى بقلبه لو كان قتل الناس جميعا ومن أحياها من عفا عمن وجب له القصاص منه فلم يقتله فكأنما أحيا الناس جميعًا».

القول الخامس: ما قاله قتادة والضحاك: «عظم الله قتلها أو عظم وزرها فمعناها من استحل قتل مسلم بغير حقه فكأنما قتل الناس جميعًا لأنهم لا يسلمون منه، ومن أحياها فحرمها وتورع من قتلها فكأنما أحيا الناس جميعًا لسلامتهم منه»[(١)].

الرابع: يترتب على القتل بغير حق قطع الأرحام بين الناس، قال الله تعالى﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد: ٢٢].

حيث فسر قتادة الفساد في الأرض هنا بسفك الدماء الذي ينشأ عنه قطع الأرحام، سواء كانت رحم النسب والقرابة أو رحم الجوار[(٢)]، وفسر الزجاج قطع الرحم هنا بوأد البنات الذي كان شائعًا في الجاهلية لكونه قتلا بغير حق[(٣)].

هذا وجرى خلاف بين المفسرين في المقصود بقوله: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ هنا على أربعة أقوال مؤداها جميعًا إلى الفساد وقطع الأرحام[(٤)].

الخامس: يترتب على القتل بغير حق الحرمان من الميراث، وهذا لم يرد ذكره

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٣٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٥٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٧-١٧٨.
(٣) معاني القرآن، الزجاج ٥/ ١٣ بتصرف.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠١.

في القرآن الكريم صريحًا، وانما استنبطه المفسرون من آيات الفرائض، ولكن ورد ذكره في السنة النبوية.

ففي قول الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

يقول الرازي: «اعلم أن عموم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ زعموا أنه مخصوص في صور أربعة:

أحدها: أن الحر والعبد لا يتوارثان.

وثانيها: أن القاتل على سبيل العمد لا يرث.

وثالثها: أنه لا يتوارث أهل ملتين، وهذا خبر تلقته الأمة بالقبول وبلغ حد المستفيض.

ورابعها: من تخصيصات هذه الآية ما هو مذهب أكثر المجتهدين أن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون، والشيعة خالفوا فيه»[(١)].

وقال القرطبي مستنبطًا من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]: «ولا خلاف بين العلماء أنه لا يرث قاتل العمد من الدية ولا من المال، إلا فرقة شذت عن الجمهور كلهم أهل بدع»[(٢)].

ومن لطائف الآية ما ذكره أحد المفسرين المعاصرين حول استنباط حكم ميراث القاتل قوله: «إن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل،والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات، فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١].

وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦].

مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه»[(٣)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥١٣ بتصرف.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٥٦.
(٣) تيسير الكريم المنان، السعدي ص١١٦٨.

عقوبة القتل بين القرآن والقوانين

لما كان القتل جريمة تهدم كيان الإنسان، الذي هو بنيان الله تعالى، فقد حرمته جميع الشرائع السماوية، وشرعت له العقوبة المناسبة بناء على تقسيمه إلى عمد وخطأ، وهو التقسيم الأساسي للقتل، وجعل بعض هذه العقوبات عقوبات أصلية وبعضها عقوبات تبعية، وجرمته القوانين الوضعية أيضا، وهذا ما سأبحثه فيما يأتي.

أولًا: عقوبة القتل العمد:

١. عقوبة القتل العمد في القرآن الكريم.

حرمت نصوص الشريعة الإسلامية القتل العمد، ورتبت عليه العقوبة الدنيوية والأخروية، ويؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

وتواترت الأحاديث في هذا الشأن، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم (أول ما يقضى بين الناس بالدماء)[١].

ففيه دليل على عظم شأن دم الإنسان فإنه لا يقدم في القضاء إلا الأهم[٢].

ومنها حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم (لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة)[٣].

والعقوبة الأصلية للقتل العمد في الدنيا هي القصاص الوارد في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨].

والقصاص في القتل العمد له شروط لاستيفائه (شروط في القتل وشروط في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم ١٦٧٨ من حديث ابن مسعود.

(٢) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٣/ ٢٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله تعالى: (أن النفس بالنفس)، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، رقم ١٦٧٦.

المقتول وشروط في القاتل)[1]، وهو - أي القصاص- حق لأولياء المقتول، إن شاءوا أخذوا به، وإن شاءوا اصطلحوا على قبول الدية المغلظة (تغليظا بالصفة وبالحلول دون التأجيل) من القاتل، وإن شاءوا عفوا عن القاتل على نحو ما هو معروف في مواضعه من كتب الفقه.

قال البغوي: «العمد المحض هو: أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالبا فقتله ففيه القصاص عند وجود التكافؤ، أو دية مغلظة في مال القاتل حالة»[2].

والأصل في القتل العمد القصاص، ثم يليه عند تعذر استيفائه - لسبب من الأسباب- عقوبة الدية، مضافًا إليها التعزير إذا رأت الهيئة الشرعية ذلك، فإذا امتنعت عقوبة الدية أو تعذر استيفاؤها كانت العقوبة هي التعزير، وهنا يلاحظ أن عقوبة التعزير تكون أحيانا بدلا عن القصاص، وأحيانا أخرى بدلا عن بدل القصاص، وهو الدية.

ولا يجوز الجمع بين العقوبة الأصلية وبدلها، ولكن يجوز الجمع بين بدلين، كما يجوز الجمع بين عقوبتين أصليتين، فمثلًا يجوز الجمع بين الدية والتعزير وكلاهما بدل من عقوبة القصاص، ويجوز الجمع بين القصاص والكفارة وكلاهما عقوبة أصلية، ولا جدال في أنه يجوز الجمع بين العقوبات الأصلية والعقوبات التبعية حيث لا يوجد ما يمنع من ذلك عقلًا وشرعًا.

ويترتب على أن القصاص أصل والدية والتعزير بدل أنه لا يجوز للقاضي أن يحكم بالعقوبة البدلية إلا إذا امتنع الحكم بالعقوبة الأصلية ولسبب من الأسباب الشرعية التي تمنع القصاص، فإذا لم يكن هناك مانع وجب الحكم بالعقوبة الأصلية والتعزير والكفارة على رأي، ويلي التعزير الصيام، كعقوبة بدلية، أما العقوبات التبعية فهي الحرمان من الميراث والوصية[3].

ويلاحظ أن القصاص والدية والكفارة، عقوبات واردة في القرآن الكريم، أما التعزير والحرمان من الميراث والوصية فهي واردة في السنة النبوية على نحو ما هو معروف.

أما العقوبة الأخروية للقتل العمد فهي الواردة في قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

على تفصيل كبير للمفسرين والفقهاء

(١) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٧/ ٢٣٢، التلقين، القاضي عبد الوهاب ٢/ ١٨٣، بداية المجتهد، ابن رشد ٢/ ٣٩٦، المجموع، النووي ١٨/ ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٦١، ٣٦٢، الإنصاف، المرداوي ٩/ ٣٤١.

(٢) معالم التنزيل ٢/ ٢٦٤.

(٣) انظر: التشريع الجنائي، عودة ٢/ ١١٣- ١١٤، ٢/ ١٧٦، ٢/ ١٨٥.

وغيرهم في توبة القاتل وأثرها في ذلك.

٢. عقوبة القتل العمد في القوانين الوضعية.

راعت القوانين الوضعية على مر العصور إيجاد عقوبات للقتل اختلفت من أمة لأخرى ومن عصر لآخر، ولو ذهبنا نتتبع عقوبة القتل في القوانين المختلفة قديما وحديثًا لخرجنا عن المطلوب، ولكن يمكن الإشارة إلى ذلك الأمر بنوع من الاختصار فأقول:إن معظم القوانين الوضعية الحديثة تعترف بعقوبة القصاص؛ ولكنها تطبقها على جريمة القتل فقط، فتعاقب بالإعدام على القتل ولكنها لا تعاقب بالقصاص على الجراح، وتكتفي في عقاب الجارح بالغرامة والحبس أو بأحدهما.

ومن ناحية أخرى فإن بعض القوانين الوضعية لا تحكم بالقصاص على القاتل مباشرة، بل تتفاوت العقوبة ما بين القصاص أو الأشغال الشاقة المؤبدة طبقا لظروف وملابسات الجريمة.

وعلى سبيل المثال فإن قانون العقوبات المصري قد جعل عقوبة القتل العمد هي الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة حيث جاء في المادة ٢٣٤/ ١ع«وإذا اقترن القتل العمد بظروف مشددة كانت عقوبته الإعدام، والظروف المشددة التي أخذ بها المشرع المصري ستة: سبق الإصرار والترصد، والقتل بالسم، واقتران القتل بجناية، وارتباطه بجنحة، ووقوع القتل أثناء الحرب على الجرحى حتى من الأعداء[(١)].

ومن هنا يفترق الفقه الإسلامي عن القانون، فالقانون يرى في هذه الحالة أن العقوبة هي الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة، بينما يرى الفقه الإسلامي أن عقوبته هي القصاص الذي يكون لصاحبه الحق في العفو عنه.

وبنظرة تحليلية لهذا القانون يرى بعض أساتذة الشريعة والقانون أن رأي الفقه الإسلامي أنجع في علاج الجرائم من علاج القانون؛ وذلك لأن السجن عقوبة لا تلائم نوع الجناية التي ارتكبت، فإن الجناية أفظع وأشد، إنها قتل نفس بغير حق، فإذا أوجبنا فيها هذه العقوبة ما كان ذلك محققا لعدالة العقاب؛ وبالتالي لا يشفى غليل أهل المجني عليه، ومن هنا يتكاثر ارتكاب الجرائم ويتفشى[(٢)].

وهذا ما عالجته الشريعة الإسلامية، فمن حيث عدالة العقاب أوجبت القصاص حتى يذوق الجاني نفس الكأس الذي أذاقه لغيره، ويتجرع المرارة التي جرعها لغيره، ولا شك

(١) انظر: قانون العقوبات المصري، باب القتل والضرب والجرح، والجنايات في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون، د حسن الشاذلي ص٣٤٧.

(٢) المصدر السابق.

أن هذا المسلك في العقوبة أكثر ردعا وزجرا؛ إذ به تتحقق الحياة لنفوس كثيرة قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ثانيًا: عقوبة القتل الخطأ:

١. عقوبة القتل الخطأ في القرآن الكريم.

عقوبات القتل الخطأ منها ما عقوبات أصلية كالدية والكفارة، ومنها هو ما بدل وهو التعزير والصيام، ومنها عقوبات تبعية مثل الحرمان من الميراث والحرمان من الوصية، وجاءت مشروعية الدية في موضعين من القرآن.

الموضع الأول يتضمن مشروعية الدية والكفارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

ودلالتها صريحة في مشروعية الدية والكفارة في القتل الخطأ، سواء كان المقتول مسلمًا، أو معاهدًا.

قال القرطبي عن ابن المنذر: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ فحكم الله جل ثناؤه في المؤمن يقتل خطأ بالدية، وثبتت السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وأجمع أهل العلم على القول به[(١)].

واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وكان أخا أبي جهل لأمه قتل الحارث بن زيد من بني عامر بن لؤي، لأنه كان يعذب عياشًا مع أبي جهل واختلف أين قتله، فقال عكرمة ومجاهد: قتله بالحرة بعد هجرته إلى المدينة وهو لا يعلم بإسلامه، وقال السدي: قتله يوم الفتح وقد خرج من مكة وهو لا يعلم بإسلامه.

والقول الثاني: أنها نزلت في أبي الدرداء حين قتل رجلًا بالشعب فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلا الله، فبدر فضربه ثم وجد في نفسه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا شققت عن قلبه)[(٢)]

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣١٤.
(٢) رواه الطبراني في جامع البيان عن ابن زيد ٩/ ٣٣.

وهذا قول ابن زيد؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾[1].

والموضع الثاني يتضمن مشروعية الدية فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:١٧٨].

ووجه الدلالة منها- كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: أن يقبل في العمد الدية[2]، ولم يرد ذكر للكفارة في هذا الموضع.

٢. عقوبة القتل الخطأ في القوانين الوضعية.

ينص قانون العقوبات المصري في المادة (٢٣٨) على أن: «من تسبب خطأ في موت شخص بأن كان ذلك ناشئا عن إهماله، أو رعونته، أو عدم احتراسه، أو عدم مراعاته القوانين والمقررات واللوائح والأنظمة يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر وغرامة لا تقل عن عشرين جنيها ولا تتجاوز مائتي جنيه أو بإحدى هاتين العقوبتين، وتكون عقوبة الحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد عن ست سنين، وغرامة لا تقل عن خمسين جنيها ولا تجاوز أربعمائة جنيه، أو بإحدى هاتين العقوبتين إذا وقعت الجريمة نتيجة إخلال الجاني بما تفرضه عليه أصول مهنته أو حرفته، أو كان عند ارتكابه الخطأ الذي نجم عنه الحادث متعاطيا عقاقير مخدرة أيا كان نوعها، أو كان في حالة سكر بين، أو لم يقدم المساعدة وقت الحادث لمن وقعت عليه الجريمة، أو لم يطلب هذه المساعدة مع تمكنه من ذلك، وتكون العقوبة الأشغال الشاقة لمدة لا تزيد على خمس سنين إذا نشأ عن الخطأ وفاة أكثر من خمسة أشخاص، فإذا توافر ظرف آخر من الظروف المشددة الواردة في الفقرة الثانية تكون العقوبة بالأشغال الشاقة المؤقتة»[3].

ومن هذا النص يتضح أن قانون العقوبات جعل عقوبة القتل خطأ عقوبة تعزيرية، سواء تمت بالحبس أو بالأشغال الشاقة أو بالغرامة، وهذا النوع من العقوبة سبق أن بينا أنه نوع من العقوبات التعزيرية في الفقه الإسلامي الذي يترك أمر تقديرها لاجتهاد الحاكم أو من يقوم مقامه[4].

ويلحظ أن الشريعة الإسلامية تميزت تميزًا واضحًا عن غيرها من الشرائع في عقوبة القتل بكل أنواعه، وبخاصة القتل الخطأ، حيث تجد أن الدية ليست بمثابة الثمن أو التعويض عن فقد المرء حياته، ولكنها نوع من المواساة، وجبر النقص الذي حصل لأهله وذويه بفقده، وفي

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١٧-٥١٨.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٢٥.

(٣) انظر: قانون العقوبات المصري، باب القتل والضرب والجرح.
(٤) انظر: الجنايات في الفقه الإسلامي، حسن الشاذلي ص٤٦٠.

تشريع الكفارة زجر للقاتل، وفي الحرمان من الميراث والوصية معاقبة للقاتل بنقيض قصده، وتشديدًا عليه كي يلحقه الندم على فعله.

ثالثًا: عقوبة القتل شبه العمد:

١ . عقوبة القتل شبه العمد في الشريعة الإسلامية.

العقوبات المترتبة على القتل شبه العمد منها عقوبات أصلية، وهي الدية والكفارة، كما هو الحال في القتل العمد، ومنها عقوبات بدلية، وهي: التعزير والصيام، ومنها عقوبات تبعية، وهي: الحرمان من الميراث والوصية[1]. وأدلة هذه العقوبات التبعية والبدلية وردت في السنة النبوية المطهرة.

٢ . عقوبة القتل شبه العمد في القانون.

ينص القانون الوضعي المصري على أن عقوبة الضرب المفضي إلى الموت في القانون هي: «الأشغال الشاقة أو السجن من ثلاث سنوات إلى سبع، هذا إذا لم يصاحب هذه الجناية ظرف سبق الإصرار أو الترصد، فإن صاحبها هذا الظرف كانت العقوبة الأشغال المؤقتة أو السجن؛ أي: من ثلاث سنوات إلى خمس عشرة سنة.

ويذكر بعض شراح القانون أن جريمة الضرب المفضي إلى الموت تتطلب توافر ركنين:

أحدهما: مادي، وهو يقوم على ثلاثة عناصر:

١ . فعل الضرب أو الجرح أو إعطاء مواد ضارة.

٢ . ثم موت المجني عليه.

٣ . وقيام رابطة السببية بين الفعل والنتيجة «الموت».

وثانيهما: معنوي، وهو يقوم على أمرين: أحدهما إيجابي، والآخر سلبي:

أما الأول: فهو أن يكون لدى الجاني قصد ارتكاب الضرب.

وأما الثاني: فهو ألا يكون الجاني قد قصد ارتكاب القتل.

وبالنظر إلى العقوبتين نجد جعل عقوبة القتل شبه العمد مادية بصورها المتقدمة، ثم إن هذا الفقه لا يأبى إيقاع عقوبة التعزير على القاتل في هذه الجناية إذا رأى الإمام مصلحة في ذلك.

وهذا المنهج في العقوبة أعدل من منهج القانون من وجوه:

الأول: نترك العقوبة البدنية التي نص عليها القانون، فإنه يمكن إدخالها في عقوبة التعزير في الفقه الإسلامي بصورتها العادية أو المشددة، فلا مجال حينئذ للكلام في هذه الناحية سوى أنه يجب أن يراعى في تقديرها تحقيق مصلحة المجتمع.

(١) التشريع الجنائي، عودة ١/ ١٨٩.

الثاني: العقوبة المادية، وهي تتمثل في الفقه الإسلامي في: الدية والكفارة والحرمان من الميراث.

ويمكن أن نقول: إن هذا النوع من العقوبة -وخاصة الدية- يقابلها في القانون التعويض المدني -مع بعض التجاوز في تكييف كل من العقوبتين- إلا أن الفقه الإسلامي في هذا المجال -كما في غيره- يعلو على كل علاج لسد باب الجريمة وردع الجناة وزجر الآخرين[1].

و«فرق القرآن بين العامد والمخطئ في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وكرر الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المعنى في قوله: (إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[2]، والمقصود من عدم الجناح ومن رفع الخطأ هو تخفيف مسئولية المخطئ وعدم تسويته بالعامد، ولا يقصد من هذين التعبيرين محو المسئولية الجنائية كلية، وليس أدل على ذلك من أن الله جل شأنه جعل عقوبة القتل العمد القصاص، وجعل عقوبة القتل الخطأ الدية والكفارة، فغلظ مسئولية العامد وخفف مسئولية المخطئ ولم يمحها كلية، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

وهكذا تتنوع المسئولية الجنائية وتتعدد درجاتها بحسب تنوع العصيان وتعدد درجاته، فإذا أردنا أن نعرف مدى تنوع المسئولية وتعدد درجاتها فعلينا أن نعرف مدى تنوع العصيان وتعدد درجاته[3].

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد اعترفت بحق المجني عليه في أن يعفو عن عقوبة بعض الجرائم، فإن القوانين الوضعية تعترف بنفس هذا المبدأ وإن كانت لا تطبقه على نفس الجرائم التي ينطبق عليها في الشريعة[4].

(١) الجنايات في الفقه الإسلامي، حسن الشاذلي ص ٣٧٠ و٣٧١ بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره، رقم ٢٠٤٣، وابن حبان في صحيحه، باب ذكر الإخبار عما وضع الله بفضله عن هذه الأمة، رقم ١٤٩٨، والحاكم في المستدرك، كتاب الطلاق ٢/ ٢١٦. وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) التشريع الجنائي، عودة ١/ ٤٤٥.

(٤) التشريع الجنائي، عودة ١/ ٦٦٦- ٦٦٧.

الإعجاز التشريعي في القصاص

شرع الله عز وجل القصاص فيما يقع بين الناس من جنايات على النفس وعلى ما دون النفس، بنصوص صريحة في كتاب الله عز وجل، ورد فيها لفظ القصاص أربع مرات، مرتين منهما بصيغة التعريف «القصاص»، ومرتين بصيغة التنكير «قصاص» والآيات التي تتناول القصاص في النفس وفيما دون النفس على هذا النحو:

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [البقرة:١٧٨].

وقال تعالى ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

قال ابن العربي: «معنى (كتب) فرض وألزم، وكيف يكون هذا والقصاص غير واجب! وإنما هو لخيرة الولي؛ ومعنى ذلك كتب وفرض إذا أردتم استيفاء القصاص فقد كتب عليكم»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

وهذه الآية من أبلغ آيات القرآن الكريم -والقرآن كله بليغ- حيث دلت على المقصود بأقل الألفاظ، وأغنت عما ذهب إليه الحكماء والبلغاء من نحو قولهم: «قتل البعض إحياء الجميع»، وقولهم: «القتل أقل للقتل»، و«القتل أنفى للقتل»، و«أكثروا القتل ليقل القتل» ونحو ذلك من الألفاظ الموجزة.

ولو تدبرنا قول الله تعالى ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ وما قاله حكماء العرب من عبارات في هذا الشأن نحو: (القتل أنفى للقتل)، و(القتل أمنع للقتل)[2] لوجدنا أن ما في القرآن أكثر فائدة وأوجز في العبارة وخال من التكلف بتكرار الجملة.

وكما قال الإمام الجصاص: «إذا مثلت بين الآية وبين الأقوال المذكورة لوجدت بينهما تفاوتا بعيدا من جهة البلاغة وصحة المعنى، من وجوه عدة، منها:أن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ هو نظير قولهم: «قتل البعض إحياء للجميع» و«القتل أقل للقتل» وهو مع قلة عدد حروفه ونقصانها

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٦١.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٢٩، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٢٢٩.

عما حكي عن الحكماء قد أفاد من المعنى الذي يحتاج إليه ولا يستغني عنه الكلام ما ليس في قولهم لأنه ذكر القتل على وجه العدل لذكره القصاص وانتظم مع ذلك الغرض الذي إليه أجرى بإيجابه القصاص وهو الحياة وقولهم: (القتل أقل للقتل)، و(قتل البعض إحياء الجميع)، و(القتل أنفى للقتل) إن حمل على حقيقته لم يصح معناه؛ لأنه ليس كل قتل هذه صفته بل ما كان منه على وجه الظلم والفساد فليست هذه منزلته ولا حكمه فحقيقة هذا الكلام غير مستعملة ومجازه يحتاج إلى قرينة وبيان في أن أي قتل هو إحياء للجميع فهذا كلام ناقص البيان مختل المعنى غير مكتف بنفسه في إفادة حكمه وما ذكره الله تعالى من قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ مكتف بنفسه مفيد لحكمه على حقيقته من مقتضى لفظه مع قلة حروفه»[1].

ولو ذهبنا نتتبع حكم تشريع القصاص لطال بنا الكلام، ولكن أشير إلى طرف من ذلك على هذا النحو:

١. القصاص نظام من أنظمة العقوبات في الشريعة الإسلامية؛ وإن بدا في ظاهره الصرامة والشدة إلا أنه بعيد كل البعد عن أن يكون تعذيبًا للجاني أو تنكيلًا به، فالقصاص من أنجع وسائل الردع العام وهو رحمة حازمة تحافظ على كيان المجتمع وتماسكه[2].

٢. من بعض حكمة الله سبحانه وتعالى أن شرع العقوبات في الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض، في النفوس والأبدان والأعراض والأموال، كالقتل والجراح والقذف والسرقة، فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الإحكام، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر، مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجاني من الردع[3].

٣. في تطبيق القصاص حياة للمجتمع وصيانة له، كما حكاه الطبري عن قتادة في هذه الآية يقصد قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]: «جعل الله هذا القصاص حياة ونكالًا وعظة لأهل السفه والجهل من الناس، وكم من رجل قد هم بداهية لولا مخافة القصاص، لوقع بها، ولكن الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض، وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح الدنيا والآخرة، ولا نهى الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله

(١) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٩٧ بتصرف.

(٢) القصاص دراسة في الفقه الجنائي المقارن، هاني السباعي ص٨.

(٣) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٣٩٣ بتصرف يسير.

أعلم بالذي يصلح خلقه»[1].

٤. القصاص جزاء وفاق للجريمة؛ فالجريمة اعتداء متعمد على النفس، والعدالة أن يؤخذ الجاني بمثل فعله إذ لا يعقل أن يفقد والد ولده، ويرى قاتله يروح ويغدو بين الناس، وقد حرم هو من رؤية ولده.

٥. تشريع القصاص بالقتل غير ممحض في الانتقام بل فيه ملاك التربية العامة وسد باب الفساد[2].

٦. ليس في العالم كله قديمه وحديثه عقوبة تفضل عقوبة القصاص، فهي أعدل العقوبات، إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل فعله، وهي أفضل العقوبات للأمن والنظام؛ لأن المجرم حينما يعلم أنه سيجزى بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالبًا، والذي يدفع المجرم بصفة عامة للقتل والجرح هو تنازع البقاء وحب التغلب والاستعلاء، فإذا علم المجرم أنه لن يبقى بعد فريسته أبقى على نفسه بإبقائه على فريسته، وإذا علم أنه إذا تغلب على المجني عليه اليوم فهو متغلب عليه غدًا لم يتطلع إلى التغلب عليه عن طريق الجريمة[3].

موضوعات ذات صلة:

الثبات، الجهاد، الحياة، القدر، الموت

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ١١٤.
(٢) القصاص، هاني السباعي ص٤٧.
(٣) التشريع الجنائي، عودة ١/ ٦٦٤.







عناصر الموضوع

مفهوم القدر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (قدر) تدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها[(١)].

و«القدر والتقدير: تبيين كمية الشيء، يقال: قدرته وقدرته، وقدره بالتشديد: أعطاه القدرة، يقال: قدرني الله على كذا وقواني عليه، فتقدير الله الأشياء على وجهين:

أحدهما: بإعطاء القدرة.

والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص، حسبما اقتضت الحكمة»[(٢)].

«والقدير: هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه، ولا ناقصًا عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى»[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف ابن الأثير القدر بأنه: «عبارةٌ عما قضاه الله وحكم به من الأمور»[(٤)].

وقيل: «هو: تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه -سبحانه- أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته لها، ووقوعها على حسب ما قدرها جل وعلا وخلقه لها»[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٦٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٤/ ٢٢.
(٥) الإيمان بالقدر. الصلابي ص ١٣.



القدر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قدر) في القرآن الكريم (١٣١) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٠٧) مرات[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات:٢٣]
الفعل المضارع	١	﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل:٢٠]
فعل الأمر	١	﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ:١١]
المصدر	٢٣	﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب:٣٨]
اسم الفاعل	١٨	﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام:٣٧]
اسم المفعول	١	﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب:٣٨]
الصفة المشبهة	٤٥	﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾ [البقرة:٢٠]

وجاء القدر في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[2]:

الأول: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١]. أي: ليلة العظمة.

الثاني: التصوير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات:٢٣]. أي: صورنا فنعم المصورون.

الثالث: الجعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس:٥]. أي: جعل له منازل.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٥٣٦-٥٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٨٣-٣٨٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٣٩٨-٣٩٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ القضاء:

القضاء لغة:

«أصل كل قضاء أمرٍ: الإحكام، والفراغ منه، ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس: القاضي بينهم، لفصله القضاء بين الخصوم، وقطعه الحكم بينهم وفراغه منه به»[(١)].

القضاء اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين القدر القضاء:

قال الخطابي رحمه الله: «إنهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس والآخر بمنزلة البناء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»[(٢)].

٢ المشيئة:

المشيئة لغة:

المشيئة مهموزة: الإرادة، وقد شئت الشيء أشاؤه[(٣)].

المشيئة اصطلاحًا:

هي إرادة الله وأمره.

الصلة بين القدر والمشيئة:

القدر أعم من المشيئة، فالمشيئة جزء من القدر، وما قدره الله فقد شاءه.

٣ الإرادة:

الإرادة لغة:

وهي: نقيض الكراهة، أو هي: المشيئة، والمشهور ترادفهما[(٤)].

الإرادة اصطلاحًا:

إرادة الله النافذة.

(١) جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٤٢ باختصار.
(٢) معالم السنن، الخطابي ٤/ ٣٢٣.
(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/ ٥١٧.
(٤) التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص ٦٢.



الصلة بين القدر والإرادة لغة:

القدر أعم من الإرادة، فالإرادة جزء من القدر، وما قدره الله فقد أراده.

٤ الحكم:

الحكم لغة:

أصله في اللغة: المنع للإصلاح، والحكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا، أو ليس بكذا[١].

الحكم اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي.

الصلة بين القدر والحكم:

الحكم أصله: المنع بهدف الإصلاح، أما القدر: فهو تقدير الله تعالى الأشياء في الأزل.

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٤٨.

الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر شأنه عظيم، ومنزلته علية في الدين، وهو ليس على مرتبة واحدة؛ بل له مراتب، وللإيمان به فضائل وثمرات، نحاول في مطالب هذا المبحث أن نفصل - بما يقتضي المقام - هذه المسائل:

أولًا: منزلة الإيمان بالقدر:

قال الله تعالى مادحًا عباده المتقين بأول صفة من صفاتهم في أول سورة بعد الفاتحة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:٣].

ومن أعظم الغيب الذي أخفاه الله عن الخلق هو: القدر سر الله المكتوم، فالإيمان بالقدر منزلته عظيمة من دين الإسلام؛ فهو ركن من أركان الإيمان التي يقوم عليها، ولا يصح إيمان أحدٍ لم يؤمن بالقدر خيره وشره، وأنه كله من عند الله تعالى، يبين هذا بوضوح حديث جبريل الطويل، الذي رواه لنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه: (قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: صدقت)[١].

ومما يشهد لذلك: كثرة ورود (القدر) في الآيات القرآنية كما مر في مبحث (الاستعمالات القرآنية للفظ القدر)، وفيها ترسيخ لمعانيه في قلوب المؤمنين به سبحانه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر فإن تكذيبه بالقدر نقض للتوحيد»[٢].

فلا ينتظم أمر الدين ويستقيم إلا لمن آمن بالقدر وامتثل الشرع، كما قرر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة) قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا، وندع العمل؟ قال: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:٥-١٠].

ثانيًا: مراتب القدر:

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة مراتب، من أقر بها جميعها فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملًا، ومن انتقص واحدًا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بالقدر:

(١) المفردات، الراغب ص ٨٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم ٨.

المرتبة الأولى: العلم.

علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، وقد اتفق عليها الرسل من أولهم إلى خاتمهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من الأمة، وخالفهم مجوس الأمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة:٣٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ٣٤﴾ [لقمان:٣٤].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].

«قال أبو إسحاق: (أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه)، وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين فالمعنى: أضله الله عالما به وبأقواله، وما يناسبه ويليق به، ولا يصلح له غيره؛ قبل خلقه وبعده، وأنه أهلٌ للضلال وليس أهلًا أن يهدى، وأنه لو هدي لكان قد وضع الهدى في غير محله وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها؛ فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة التي لأجلها قدر عليه الضلال»[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام:٥٣].

«أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلى الرؤساء والسادة بالأتباع والموالي والضعفاء، فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف أنفة، وأنف أن يسلم وقال: هذا يمن الله عليه بالهدى والسعادة دوني!! قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾؟! وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم تعرفون قدر نعمتي وتشكروني عليها، وتذكروني بها وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم؛ لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لمنني ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها»[2].

المرتبة الثانية: الكتابة.

إن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

(١) انظر: السنة، عبد الله بن الأمام أحمد ٢/ ٤٢٢.
(٢) شفاء العليل، ابن القيم ص ٣٠.

﴿الصَّالِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦].

«فـ﴿الزَّبُورِ﴾ هنا: جميع الكتب المنزلة من السماء لا تختص بزبور داود، و﴿الذِّكْرِ﴾ أم الكتاب الذي عند الله، و﴿الْأَرْضَ﴾ الدنيا، وعباده الصالحون[(١)]: أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ فإنه أخبر بذلك بمكة وأهل الأرض كلهم كفار أعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومساكنهم، وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس:١٢].

فجمع بين الكتابين الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها على ذلك فقال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم، وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر الذي كتب فيه كل شيء، وكتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه»[(٢)].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

«أي: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحدًا من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان بريًا أو بحريًا، كما قال: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود:٦]أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها»[(٣)].

وخير مفسر لكتاب الله تعالى هو كلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فلنتأمل في هذا الحديث بيان رسول الله لمعنى مرتبة الكتابة؛ عن عبادة بن الوليد بن عبادة، قال: حدثني أبي قال: (دخلت على عبادة بن

(١) المصدر السابق ص ٣١.

(٢) قال التستري: «أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح، معناه: لا يصلح إلا ما كان خالصًا لي، لا يكون لغيري فيه أثر» تفسير التستري ص ١٠٥.

(٣) شفاء العليل. ابن القيم ص ٣٩-٤٠ باختصار.

الصامت وهو مريض يتخيل فيه الموت -أو يتبين- فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني، إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حق حقيقة العلم حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أعلم ما خير القدر من شره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أول ما خلق الله عز وجل القلم قال: اكتب؛ فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار)[1].

المرتبة الثالثة: المشيئة.

إن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان:٣٠]أي: لا يقدر أحدٌ أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥].

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩].

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود:١١٨].

وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢].

وقال: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

وهذه الآيات ونحوها تتضمن الرد على طائفتي الضلال: نفاة المشيئة بالكلية، ونفاة مشيئة أفعال العباد وحركاتهم وهداهم وضلالهم، وهو سبحانه تارة يخبر أن كل ما في الكون بمشيئته، وتارة أن ما لم يشأ لم يكن، وتارة أنه لو شاء لكان خلاف الواقع، وأنه لو شاء لكان خلاف القدر الذي قدره وكتبه، وأنه لو شاء ما عصي، وأنه لو شاء لجمع خلقه على الهدى، وجعلهم أمة واحدة؛ فتضمن ذلك أن الواقع بمشيئته،

(١) تفسير القرآن العظيم. ابن كثير ٣/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٧٠٠، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن رقم ٣٣١٩ مختصرًا.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وصححه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ١/ ١٧٣.

وأن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنى كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عباده، فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت ولا حياة، ولا إضلال ولا هدى، ولا سعادة ولا شقاوة؛ إلا بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مدبر سواه، ولا رب غيره، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

قال الشافعي في رواية الربيع عنه: «المشيئة إرادة الله، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠] فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله»[(١)].

بقي أن ننبه هنا في آخر هذه المرتبة إلى أن «لفظ الإرادة ينقسم إلى: إرادة كونية؛ فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية؛ فتكون هي المحبة، إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧].

وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره؛ فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق، ونظير هذا لفظ: (الأمر) فإنه نوعان: أمر تكوين، وأمر تشريع، والثاني قد يعصي ويخالف، بخلاف الأول، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] لا يناقض قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف:٢٨] ولا حاجة إلى تكلف تقدير: أمرنا مترفيها فيها بالطاعة فعصونا وفسقوا فيها، بل الأمر ههنا أمر تكوين وتقدير لا أمر تشريع»[(٢)].

المرتبة الرابعة: الخلق.

فكل ما سوى الله تعالى فهو مخلوق له سبحانه، خلقه بعد أن علمه وكتبه وشاءه.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام:١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [فاطر:٣].

«الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ إنكاري فهو مضمن معنى النفي، والمعنى: لا خالق إلا الله وحده، والخالق هو المستحق للعبادة وحده»[(٣)].

«قال ابن الجوزي في (المقتبس): سمعت الوزير يقول في قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩٥.

(٢) شفاء العليل، ابن القيم ص ٤٤-٤٥ باختصار.

(٣) المصدر السابق ص ٤٨.

﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ قال: فطلبت الفكر في المناسبة بين ذكر النعمة وبين قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾؛ فرأيت أن كل نعمة ينالها العبد فالله خالقها، فقد أنعم بخلقه لتلك النعمة، وبسوقها إلى المنعم عليه»[1].

«فلا خالق إلا الله، وأعمال عباد الله مخلوقة لله مقدورة له كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٦].

والعباد لا يقدرون أن يخلقوا شيئًا وهم يخلقون، كما قال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣].

وكما قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان:٣].

وكما قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧].

وكما قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور:٣٥]وهذا في كتاب الله كثير»[2].

قال ابن القيم: «وبالجملة فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه التوحيد»[3].

«ولهذا كان من تمام الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله تعالى خالقٌ لأفعال العباد كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٦].

ووجه ذلك: أن فعل العبد من صفاته، والعبد مخلوق لله، وخالق الشيء خالق لصفاته، ووجهٌ آخر: أن فعل العبد حاصل بإرادة جازمة وقدرة تامة، والإرادة والقدرة كلتاهما مخلوقتان لله عز وجل، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

فإن قيل: كيف نجمع بين إفراد الله عز وجل بالخلق مع أن الخلق قد يثبت لغير الله، كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]؟

فالجواب على ذلك: أن غير الله تعالى لا يخلق كخلق الله، فلا يمكنه إيجاد معدوم، ولا إحياء ميت، وإنما خلق غير الله تعالى يكون بالتغيير وتحويل الشيء من صفة إلى صفة أخرى، وهو مخلوق لله عز وجل، فالمصور مثلا إذا صور صورة فإنه لم يحدث شيئًا! غاية ما هنالك أنه حول شيئا إلى شيء، كما يحول الطين إلى صورة طير أو صورة جمل، وكما يحول بالتلوين الرقعة البيضاء إلى صورة ملونة، فالمداد من خلق الله عز وجل، والورقة البيضاء من خلق الله عز وجل، هذا هو الفرق بين إثبات الخلق بالنسبة إلى الله عز وجل، وإثبات الخلق

(١) أضواء البيان،الشنقيطي ٦/ ٢٧٨.
(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٩٥.
(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٦/ ٦٥٦.

بالنسبة إلى المخلوق، وعلى هذا يكون الله سبحانه وتعالى منفردًا بالخلق الذي يختص به»[1].

ثالثًا: الاحتجاج بالقدر:

يجب على كل مؤمن بالله تعالى أن يوقن أنه سبحانه له الحكمة البالغة في كل خلقه، وأنه سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣].

فهو عز وجل: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

و﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

و﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٤٧].

و﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦٩].

و﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧].

إذا عرف هذا فنقول:

إنه يحرم الاحتجاج على الله تعالى بالقدر؛ كأن يقول الزاني مثلًا: ما زنيت من تلقاء نفسي! وإنما قدر الله علي الزنا! أو يقول المريض مثلًا: لماذا يا رب قدرت علي هذا المرض! فإن الله سبحانه لم ولن يكلف أحدًا من خلقه ما لا طاقة له به، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

فقد أرشدنا القرآن إلى أن المؤمن إن أصابه بلاء أو مصيبة صبر وقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

وإن وقع في معصية لله تعالى قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦].

وأما الاحتجاج على الله تعالى بالقدر فإنما هو من سنن إبليس اللعين، حيث قال لله جل وعلا: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف:١٦].

مع أنه هو الذي أبى أن يسجد لآدم - مختارًا - كما أمره الله! وهذا الاحتجاج بالقدر هو أيضًا من سنن المشركين الذين حكى الله نبأهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾ [الأنعام:١٤٨].

وهذه شبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما

(١) شفاء العليل، ابن القيم ص ٦٥.

حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، أو يحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف:٢٠].

وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال[1] عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام، ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: الوهم والخيال، والمراد بالظن هاهنا: الاعتقاد الفاسد ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي: تكذبون على الله فيما ادعيتموه[2].

لقد قال الله سبحانه عن أمثال هذا الصنف: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام:٢٥].

فبين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الكفار أكنة -وهو ما يستر الشيء ويغطيه ويكنه- لئلا يفقهوا القرآن، أو كراهة أن يفقهوه، لحيلولة تلك الأكنة بين قلوبهم وبين فقه القرآن؛ أي: فهم معانيه فهمًا ينتفع به صاحبه، وأنه جعل في آذانهم وقرًا؛ أي صممًا وثقلًا لئلا يسمعوه سماع قبول وانتفاع.

وحتى لا يكون لهؤلاء الضلال حجة على الله في إضلالهم؛ بين سبحانه في مواضع أخر سبب الحيلولة بين القلوب وبين الانتفاع به، وأنه هو كفرهم، فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر، وإزاغة القلوب، والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥].

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠].

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٥].

إلى غير ذلك من الآيات[3].

إن الاحتجاج بالقدر يتضمن تنزيه

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ١/ ١٨.
(٢) أدال الشيء: جعله مداولة، أي: تارة لهؤلاء وتارة للآخرين.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٥٧.

الجاني نفسه، وتنزيه ساحته، وهو الظالم الجاهل! ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها، وأنها أولى بكل ذم وظلم، وأنها مأوى كل سوء، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات:٦].

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: كفور جحود لنعم الله. وقال الحسن: هو الذي يعد المصائب، وينسى النعم.

فهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليه أضر منه، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه.

يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه، أو نهاه عن شيء فارتكبه، وقال: القدر ساقني إلى ذلك؛ لما قبل منه هذه الحجة، ولبادر إلى عقوبته.

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك؛ فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك؟! بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جانٍ، واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة، ثم تحتج على ربك به، وتراه عذرا لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟!»[(١)].

وبعد: فإن «الله خلق الإنسان من نطفة ثم جعل له سمعًا وبصرًا، ونصب الأدلة على وجوده وقدرته على بعث الموتى، ومن ثم مجازاتهم على أعمالهم، وأرسل إليه رسله، وهداه النجدين، ثم هو بعد ذلك إما شاكرٌ وإما كفورٌ، ولو احتج إنسانٌ في الدنيا بالقدر لقيل له: هل عندك علم بما سبق في علم الله عليك؟»[(٢)].

فإن قال: نعم! فقد كذب، وإن قال: لا، قيل له: إذن فابذل الأسباب التي تجعلك من الفائزين بالجنة الناجين من النار.

ولا يعني ما سبق أن الاحتجاج بالقدر محرمٌ مطلقًا؛ بل المحرم ما كان فيه اعتراض على قدر الله تعالى، أو فيه دعوة للعاصي ليستمر في معصيته، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمرٍ قدر علي قبل أن أخلق)! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فحج آدم موسى) مرتين**[(٣)].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «لهذا فإن

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٦٠.

(٢) المصدر السابق ٨/ ١٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى، وذكره بعد رقم ٣٤٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم ٢٦٥٢.

الاحتجاج بالقدر على المصائب لا بأس به، أرأيت لو أنك سافرت سفرًا وحصل لك حادث، وقال لك إنسان: لماذا تسافر؟! لو أنك بقيت في بيتك ما حصل لك شيء!

فستجيبه: إن هذا قضاء الله وقدره، أنا ما خرجت لأجل أن أصاب بالحادث، وإنما خرجت لمصلحة، فأصبت بالحادث»[1].

رابعًا: ثمرات الإيمان بالقدر:

من تأمل في عقيدة القدر التي جاء بها الإسلام وجد لها ثمارًا كبيرة طيبة، كانت ولازالت سببًا في صلاح الفرد والأمة، وسأحاول أن أذكر هنا بعض ثماره التي ظهرت خلال آيات القرآن الكريم:

١. تجنب الأسى والفرح المذمومين.

فالإيمان بالقدر يري الإنسان أن كل شيء في الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع، وإذا حالفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح فرحًا يوصله للبطر والفخر.

وهذا هو معنى قول الله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمرٌ عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير.

وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويحزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوفوا إليه، لعلمهم أن ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله ومنه، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: متكبر فظٍ غليظٍ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر:٤٩]»[2].

وهذا لا يعني أن الفرح بالنعم والحزن على المصائب محرم بإطلاق! بل يفرح بنعم الله فرحًا يقوده لشكر ربه، ويحزن على

(١) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢/ ١٠٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٢.

المصائب حزنًا لا يخرجه إلى الاعتراض على القدر أو سب الدهر.

٢. طمأنينة القلب.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١].

قال ابن جني: قرأ عكرمة وعمرو بن دينار: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ مهموزًا[١] عن علقمة في هذه الآية قال: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[٢].

«وقوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: للتسليم لأمر الله، ونظيره قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

قال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء»[٣].

وفي ضوء هذه الآية يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره»[٤].

٣. طريقٌ لشكر الله تعالى.

فحينما يعلم المسلم أن النعم التي يتقلب فيها هي من فضل الله تعالى قدرها وبسطها له؛ يدعوه ذلك لشكر ربه على تلك النعم، كما حكى الله تعالى عن عبده الملك الصالح ذي القرنين بعد أن وفقه الله لبناية سد عظيم على يأجوج ومأجوج فقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف:٩٨].

«فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل؛ أضاف النعمة إلى موليها وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض؛ فإن النعم الكبار تزيدهم أشرًا وبطرًا.

كما قال قارون -لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة- قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]»[٥].

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، ابن جني ٢/ ٣٢٣.
(٢) انظر: جامع البيان، .الطبري ٢٣/ ٤٢١، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ١٨٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٥٥.
(٤) الإيمان، ابن تيمية ص ١٨٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.

وشكرهم هذا لله تعالى إنما هو نابع عن إيمانهم الراسخ بأن الله تعالى هو الذي قدر لهم تلك النعم وأقدرهم عليها، ومعلوم أن الشكر هو طريق المزيد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

٤. معرفة سعة علم الله تعالى وعظيم قدرته.

فإن الله تعالى كثيرًا ما يختم آيات الخلق والقدر والمشيئة باسميه: العليم والقدير، من ذلك على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

«والذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان، وهي قريبة من نفس الإنسان، والنفس شديدة الحساسية بها، فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق.

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام، وكذلك ذكر: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فهي توكيد للإحياء النفسي المطلوب في هذا الموضع. ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ وهم كانوا يكرهون الإناث، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾، ويهب لمن يشاء أزواجا من هؤلاء وهؤلاء، ويحرم من يشاء فيجعله عقيما -والعقم يكرهه كل الناس-، وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله، لا يتدخل فيها أحد سواه، وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾»[1].

وقوله سبحانه: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٦].

قال الرازي: «والعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه، ومعناه أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيئاتها المحدودة، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وعلم نافذ»[2].

وقوله جل وعلا: ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سعة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٦٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٧٩.

علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، ابتدأ خلق الآدميين من ضعف؛ وهو الأطوار الأول من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة، إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه»[1].

٥. مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت[2].

يبين هذه الثمرة بجلاء: ما حكى الله تعالى من حال المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم كانوا يفرحون بما يصيبه من بلاء، ويحزنون لما يصيبه من نصر وخير، فقال سبحانه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة: ٥٠].

وهنا يدل الله تعالى نبيه -وهو تعليم لجميع أمته- للتصرف الأمثل مع هؤلاء وأمثالهم فيقول سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥١].

«أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ»[3].

قال ابن الجوزي في (المقتبس): سمعت الوزير يقول في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، قال: إنما لم يقل: «ما كتب علينا» لأنه أمرٌ يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيءٌ إلا وهو له، إن كان خيرًا، فهو له في العاجل، وإن كان شرا فهو ثواب في الآجل[4].

ويشير سيد قطب رحمه الله للفتة أخرى فيقول في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾: والله قد كتب للمؤمنين النصر، ووعدهم به في النهاية، فمهما يصبهم من شدة، ومهما يلاقوا من ابتلاء؛ فهو إعداد للنصر الموعود، لينالهُ المؤمنون عن بينة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤٤.
(٢) القضاء والقدر، الأشقر ص ١١٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٩.
(٤) انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٥٢٥.

ويعد تمحيص، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله، نصرًا عزيزًا لا رخيصًا، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء، صابرة على كل تضحية»[(١)].

فانظر كيف علمهم الله أن يواجهوا الأزمات والمحن والصعاب بذلك الإيمان الراسخ العظيم بقدر الله تعالى وقضائه، وهكذا فليكن أهل الإيمان في كل زمان ومكان.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٦٦٤.

الخلق والقدر

الخلق هو المرتبة الرابعة من مراتب القدر، والخلق صفة من صفات الله تعالى الفعلية، فهو سبحانه يقول للشيء: (كن) فيكون كما يريده الله سبحانه، وفي الزمن الذي يريده، وبالكيفية التي يريدها، لا يتخلف عن قدرته سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء.

أولًا: القدر سرٌ من أسرار الله تعالى:

قضية القدر من أخطر القضايا وأغمضها، قال الله سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣].

قال الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرًا كتيمًا»[(٢)] أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرًا مكتومًا، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وصح عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم قوله: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)[(٣)].

(٢) العقيدة الطحاوية، الطحاوي ص ٥٣.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٠/ ١٩٨، رقم ١٠٤٤٨.
وحسن إسناده العراقي في المغني عن حمل الأسفار. العراقي ص ٣٩.

قال طاووس رحمه الله لرجل: «القدر سر الله تعالى، فلا تدخلن فيه»[1].

ولكن على المسلم النظر فيما بينه الله تعالى في كتابه ورسوله عليه الصلاة والسلام في سنته في شأن القدر، ولا يسترسل مع عقله في هذا الباب العظيم، ولا يطلق لنفسه العنان بالقراءة في كتب أهل الكلام أو غيرهم ممن لم يلتزموا الوحي في حديثهم عن القدر.

قال الطحاوي رحمه الله: «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه[2]، ونهاهم عن مرامه[3]، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء:٢٣].

فمن سأل - سؤال تكذيب وتعنت -: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين»[4]، أما من سأل سؤال راغبٍ في المعرفة طالبٍ للحق فنعم ما صنع؛ فقد أمر الله سبحانه بسؤال أهل العلم.

(١) الشريعة، الآجري ٢/ ٩٤٠.
(٢) خَلْقه.
(٣) طَلَبه.
(٤) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص ٢٤٩.

ثانيًا: شمولية القدر لجميع المخلوقات:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣].

«وهذا نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء -أيًا كان هو- قدرًا لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص، ولفظ (شيء) أعم العمومات.

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة:

فمن الآيات العامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر:٤٩]».

وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال بعدها: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر:٥٠]»[5].

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

«قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٢٨.

مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير.

وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه، لما يدعو إلى الدهشة حقًا، وينفي فكرة المصادفة نفيًا باتًا.

ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره، في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير.

وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته؛ اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

يقول (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه بعنوان: «الإنسان لا يقوم وحده»[(1)]، «ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغًا هذه الدقة الفائقة، لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات، ولو كان الهواء أرفع كثيرًا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية! وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة!

أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيلٍ يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربًا من مجرد حرارة مروره!»[(2)].

ومن التقدير الخاص قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٣٨-٤٠].

إنها قدرة باهرة وحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وسلطة غالبة، قدرة من أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وقد قال علماء الهيئة: أن حساب مسير هذه الأفلاك في منازلها أدق ما يكون من مئات أجزاء الثانية، ولو اختلف جزءٌ من الثانية لاختل نظام العالم، ولما صلحت على وجه الأرض حياة! ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانهما وزيادتهما وفصول السنة كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ [المزمل:٢٠]وهو سبحانه وتعالى يحصيه.

(١) ترجمه محمود صالح الفلكي بعنوان: «العلم يدعو إلى الإيمان».

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٤٨.

وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده، قال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ [عبس:١٨-١٩].

أي: قدر خلقه وصورته ونوعه كما بين ذلك بقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

وقد جمع العام والخاص قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر:٢١][1].

ثالثًا: وقوع الأمر المقدر لا محالة:

الله سبحانه وتعالى غالب على أمره، فما شاء كان في الوقت والمكان وعلى الصفة التي شاءها سبحانه، وما لم يشأ لم يكن ولو اجتمع له من في السماوات والأرض من دونه سبحانه، قال الله تعالى حاكيًا قول جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾ [مريم:٢١]أي: «وكان خلقه منك أمرًا قد قضاه الله، ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائنٌ منك»[2].

وفي هذا المعنى يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨]«أي: وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»[3].

ويقول جل وعلا: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾ [البقرة:١١٧]قال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه لا يتعاصى على قدرته شيء، وإذ يقول للشيء: «كن»؛ فيكون بلا تأخير، وذلك أن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، ورد الله عليهم كذبهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل:٣٨] بين أنه قادر على كل شيء، وأنه كلما قال لشيء: «كن»؛ كان.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله في الرد على من قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢].

وبين أنه لا يحتاج أن يكرر قوله: «كن»، بل إذا قال للشيء: «كن» مرة واحدة، كان في أسرع من لمح البصر، في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر:٥٠].

ونظيره قوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢١٣ بتصرف.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٢١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٧.

﴿شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل:٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران:٥٩].

وقال: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨].

إلى غير ذلك من الآيات»[1].

رابعًا: كل شيء بأجل معلوم:

قال الله سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام:١-٢].

قال الطبري بعد أن استعرض الأقوال في معنى هذه الآية: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: ثم قضى أجل هذه الحياة الدنيا، ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢].

وهو أجل البعث عنده، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب: لأنه تعالى نبه خلقه على موضع حجته عليهم من أنفسهم، فقال لهم: أيها الناس! إن الذي يعدل به كفاركم الآلهة والأنداد هو الذي خلقكم! فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صورًا أجسامًا أحياء بعد إذ كنتم طينًا جمادا، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم ترابًا وطينا كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم، ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام:٢] لإعادتكم أحياء وأجسامًا كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة:٢٨]»[2].

وقال عن اليوم المشهود: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ۝١٠٤﴾ [هود:١٠٣-١٠٤].

أي: «وما نؤخر يوم القيامة عجزا عن ذلك، لكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر»[3].

وقال سبحانه عن الشمس والقمر: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد:٢].

«والأجل: هو المدة التي قدرها الله لدوام سيرها، وهي مدة بقاء النظام الشمسي الذي إذا اختل انتثرت العوالم وقامت القيامة.

والمسمى: أصله المعروف باسمه، وهو هنا كناية عن المعين المحدد، إذ التسمية تستلزم التعيين والتمييز عن الاختلاط»[4].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ١٥٤.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٠٦.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٨١.

وهذا الأجل الذي جعله الله تعالى لكل شيء؛ قد جعله الله تعالى في كتاب عنده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]«وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائنٌ منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة»[1].

التعامل مع القدر

القدر لأنه ركن من أركان الإيمان بالله تعالى؛ فقد علمنا الله تعالى في كتابه الكريم كيف نتعامل معه، وسنلخص -بعون الله- في هذا المبحث طرق التعامل مع القدر التي دلنا القرآن الكريم عليها، من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الرضا بالقدر.

قال الله تعالى في أربعة مواضع يصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

قال ابن عطية: «قيل ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار، قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله رضاهم بما يرد من أحكامه، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضى عنه»[2].

الرضا بالقدر واجب؛ لأنه من تمام الرضا بربوبية الله، فيجب على كل مؤمن أن يرضى بقضاء الله، ولكن المقضي فيه تفصيل؛ فالمقضي غير القضاء: لأن القضاء فعل الله، والمقضي مفعول الله، فالقضاء الذي هو فعل الله يجب أن نرضى به، ولا يجوز أبدا أن نسخطه بأي حال من الأحوال.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١٦.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٥٠٩.



وأما المقضي فعلى أقسام:

القسم الأول: ما يجب الرضا به.

القسم الثاني: ما يحرم الرضا به.

القسم الثالث: ما يستحب الرضا به.

فمثلا المعاصي من مقضيات الله، ويحرم الرضا بالمعاصي، وإن كانت واقعة بقضاء الله، فمن نظر إلى المعاصي من حيث القضاء الذي هو فعل الله يجب أن يرضى، وأن يقول: إن الله تعالى حكيم، ولولا أن حكمته اقتضت هذا ما وقع، وأما من حيث المقضي وهو معصية الله فيجب ألا ترضى به، والواجب أن تسعى لإزالة هذه المعصية منك أو من غيرك، قال نبي الله موسى عليه السلام بعد أن قتل ذلك الرجل خطأ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦].

وقسم من المقضي يجب الرضا به: مثل الواجب شرعًا، لأن الله حكم به كونا، وحكم به شرعًا، فيجب الرضا به من حيث القضاء ومن حيث المقضي، كالصلاة والزكاة والحج.

وقسم ثالث: يستحب الرضا به، ويجب الصبر عليه، وهو ما يقع من المصائب، فما يقع من المصائب يستحب الرضا به عند أكثر أهل العلم ولا يجب، لكن يجب الصبر عليه، والفرق بين الصبر والرضا: أن الصبر يكون الإنسان فيه كارها للواقع، لكنه لا يأتي بما يخالف الشرع وينافي الصبر.

والرضا: لا يكون كارها للواقع، فيكون ما وقع وما لم يقع عنده سواء، فهذا هو الفرق بين الرضا والصبر؛ ولهذا قال الجمهور: إن الصبر واجب، والرضا مستحب[1]، قال الله تعالى عن المؤمنين الذين تحزبت عليهم قوى الكفر، حتى بلغت منهم القلوب الحناجر: ﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب:٢٢]فرضوا وسلموا أمرهم لله تعالى، وزاد يقينهم بموعود الله ورسوله، بخلاف المنافقين الذين فروا وهربوا من الموت يستأذنون رسول الله في الرجوع لديارهم بعد أن عاهدوا الله لا يولون الأدبار!

ثانيًا: الصبر:

ومما يميز المؤمن عن غيره في موضوع القدر هو: الصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة للعبد.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل العثيمين ٢/ ٩٢.

﴿الْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

«قال سعيد بن جبير: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء قبلها: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]. ولو أعطيته الأنبياء لأعطيها يعقوب، إذ قال: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]»[١].

وقال سبحانه آمرًا عباده ومشوقًا لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]ومن كان الله معه فقد زال عنه كل خوف، وزال عنه كل هم، وتأمل أخي المسلم كيف صدر الله هذه الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فكأنه سبحانه يستحث عباده الذين آمنوا به ربًا وآمنوا بالقدر خيره وشره أن يستعينوا بهاتين الطاعتين العظيمتين على كل ما يعانونه من أمورهم، أو يلاقونه من صعوبات ومحن في هذه الدنيا.

قال الرازي: «وإنما خصهما بذلك -الصبر والصلاة- لما فيهما من المعونة على العبادات، أما الصبر فهو قهر النفس على احتمال المكاره في ذات الله تعالى وتوطينها على تحمل المشاق وتجنب الجزع، ومن حمل نفسه وقلبه على هذا التذليل سهل عليه فعل الطاعات وتحمل مشاق العبادات، وتجنب المحظورات والاستعانة بالصلاة لأنه يجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له، ويجب أن يوفر همه وقلبه عليها وعلى ما يأتي فيها من قراءة، فيتدبر الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ومن سلك هذه الطريقة في الصلاة فقد ذلل نفسه لاحتمال المشقة فيما عداها من العبادات، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني في النصر لهم، كما قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]فكأنه تعالى ضمن لهم إذا هم استعانوا على طاعاته بالصبر والصلاة أن يزيدهم توفيقًا وتسديدًا وألطافًا، كما قال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦]»[٢].

وعن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]: «لا والله ما هُناكم مكيال ولا ميزان»[٣].

وقد عد الصبر من خصائص المؤمن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام فقال كما في حديث صهيب رضي الله عنه: (عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[٤]، فليس هذا الفضل إذن إلا لأهل

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٢٦٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٤/ ١٢٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٧٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٢٩٩٩.

الإيمان الذين من أعظم صفاتهم: أنهم يؤمنون بالقدر خيره وشره.

ثالثًا: التفكر والاعتبار:

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل:٢٠].

«أي: يقدر ساعاتهما وأوقاتهما»(١)، و«يأخذ هذا من هذا، أو هذا من هذا»(٢).

وقال تعالى عن القمر: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس:٥].

أي: جعل له منازل.

وقال عن الأرض: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت:١٠].

وقال عن كل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

هذه الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على هذا الكون الواسع، وعلى عظيم تصرفه فيه وتقديره له؛ تحث كل عاقل على التأمل والتفكر في هذه القدرة الهائلة، والتقدير المذهل الدقيق المتقن لهذا الكون الفسيح على اختلاف المخلوقات فيه.

لهذا قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٨٩-١٩١].

فانظر كيف ختم الآية الأولى بقدرته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، والآية الثانية بالعقول المتفكرة في عظيم صنعته وبديع قدرته وتقديره ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

قال ابن كثير: «﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته، وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة، أو لي فيه عبرة». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «التفكر والاعتبار»(٣)، «وقال أبو الدرداء: تفكر ساعة خيرٌ من قيام ليلة»(٤).

وروى ابن عباس رضي الله عنهما في هذا مثلًا تطبيقيًا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ

(١) إعراب القرآن، النحاس ٥/ ٤٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٤.
(٤) الزهد، أحمد بن حنبل ص ١١٤.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

رابعًا: الأخذ بالأسباب:

ومن التعامل الذي حث القرآن المؤمن أن يتعامل به مع القدر: أن يبذل الأسباب المشروعة في دفع الأقدار المؤلمة عنه قبل أن تقع، أو رفعها بعد وقوعها، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما عاتبه أبو عبيدة رضي الله عنه على فراره من الطاعون: «نفر من قدر الله إلى قدر الله»[2].

قال الله تعالى عن نبيه المبتلى أيوب عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص:٤١-٤٢].

فكان الله تعالى قادرًا أن يشفي نبيه أيوب بأن يقول لمرضه: «كن» فيكون؛ لكنه سبحانه يعلم عباده بذل السبب لدفع القدر فقال له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾.

وقال ربنا تعالى عن مريم عليها السلام لما جاء بها المخاض إلى جذع النخلة: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم:٢٥]«قال القفال: الجذع من النخلة هو الأسفل»[3]، فقد «استدل بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]على التسبب في الرزق، وتكلف الكسب، وإليه أشار القائل[4]:

ألم تر أن الله قال لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه
إليها، ولكن كل شيء، له سبب

ولأجل هذا المعنى قال الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام عندما خرج مع قومه فارًا من فرعون وقومه، حتى أصبح البحر أمامهم، وفرعون وقومه خلفهم فقال له ربه: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣]مع قدرته سبحانه على فلق البحر بدون ضربه بالعصا؛ لكنه بذل السبب الذي يربينا عليه القرآن.

خامسًا: اختيار الحق:

يجب على المسلم أن يختار الحق، ويجتنب الباطل، ولا يحتج بالقدر في ترك الحق -كما مر سابقًا-؛ فإن الله تعالى قد بين له الطريقين -الخير والشر- فأمره باجتناب الشر واتباع الخير، وأنزل له من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾، رقم ٤٥٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم ٥٧٢٩، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم ٢٢١٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٢٨.

(٤) انظر: محاسن التأويل ٧/ ٩٤.



أجل ذلك الكتب، وأرسل الرسل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣].

وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد:١٠].

وجعل له مشيئة وإرادة فقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

ثم خلق له عقلًا يستطيع به أن يميز بين الحق والباطل، قال الله سبحانه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٧﴾ [الحديد:١٧].

حتى أن كلمة: (العقل) بتصريفاتها وردت في القرآن الكريم في تسعة وأربعين موضعًا.

ولم يتوقف إعذار الله تعالى لعباده عند هذا الحد؛ بل بث الله تعالى في هذا الكون الأدلة والآيات الباهرة التي تدل الإنسان على الخير والحق وعلى أن الله تعالى هو المعبود الذي لا شريك له، وبعدما بث الله الآيات في الكون حث العباد على النظر والتأمل والتفكر فيها لتدلهم على الهدى المستقيم والحق المبين؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:٢٥٩].

فانظر كيف كرر الله هنا على عبده هذا الأمر بالنظر ثلاث مرات في آية واحدة!

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق:٦-٨].

وبعد هذا من طلب الحق بصدق؛ وفقه الله تعالى له وهداه، كما قال الحق سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

«قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال ابن عطية: فهي قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»[1]، ومن أعظم الجهاد: البحث عن الحق وطلبه من الله تعالى بالدعاء، مع التأمل والتفكر في آيات الله الكونية والشرعية، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧].

وقال: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٢٦.

فهؤلاء الذين يبذلون ما أعطاهم الله من العقل والبصيرة والعلم في طلب الحق والهدى واختياره؛ هم أهل هداية الله تعالى وتوفيقه وإرشاده.

كل هذه الأمور تدعو المسلم لأن يكون من تعامله مع القدر: اختيار الحق والسعي في طلبه، واجتناب الباطل والسعي في تركه.

موضوعات ذات صلة

الإيمان، التوكل، الرزق، الرضا، السعي، الصبر، الكتابة، الموت





عناصر الموضوع

مفهوم القدوة

أولًا: المعنى اللغوي:

القدو: «أصل البناء الذي ينشعب منه تصريف الاقتداء»[(١)].

والقدوة، بضم القاف وكسرها: بمعنى الأسوة[(٢)]، وفي المصباح المنير: «الضم أكثر من الكسر»[(٣)]، وهي اسمٌ من: اقتدى به إذا فعل مثل فعله تأسيًا، وفلانٌ قدوةٌ، أي: يقتدى به، وتقدت به دابته: لزمت سنن الطريق[(٤)].

والقدوة أيضا: التقدم. ويقال: فلان لا يقاديه أحدٌ ولا يماديه ولا يباريه ولا يجاريه، وذلك إذا برز في الخلال كلها[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

القدوة: بالكسر والضم: «الاقتداء بالغير ومتابعته والتأسي به»[(٦)].

وعرفها الأصفهاني بأنها: «الحالة التي يكون الإنسان عليها في اتباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا»[(٧)].

وذكر الشنقيطي في أضواء البيان أن الأسوة والقدوة سواء، والمراد بهما: اتباع الغير على الحالة التي يكون عليها حسنة أو قبيحة[(٨)].

---

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٩١.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٧٦.
(٣) المصباح المنير ٢/ ٤٩٤.
(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٥٣٤، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٩٤.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٩٢.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٦٩.
(٧) المفردات، الأصفهاني ص ٧٦.
(٨) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥.

القدوة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قدو) في القرآن في موضعين[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الأمر	١	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]
اسم الفاعل	١	﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣]

وجاءت القدوة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: الأسوة الذي يُقتدى به ويُتَّبَعُ ويُتَّخَذُ مثالًا يُسار على طريقته[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥١٨-٥١٩، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الفاء ص٨٧٦-٨٧٧.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ١٧١-١٧٢، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٦٦-٦٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأسوة:

الأسوة في اللغة:

الأُسوة والإِسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة [١]. وهي اسم من (أسا) أو (ائتسى)، بمعنى اقتدى واتبع [٢].

قال الأزهري نقلًا عن الليث: «فلان يتأسى بفلانٍ، أي: يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدى به، وكان في مثل حاله» [٣].

الأسوة في الاصطلاح:

هي: «الاتباع للفعل والاقتداء بالفاعل، وهذا الشيء أسوة هذا الشيء، أي: هو تبع له ومحكوم إلى حكمه» [٤].

الصلة بين القدوة والأسوة:

القدوة والأسوة بمعنى واحد، فهي مرادفة لها [٥].

٢ الاتباع:

الاتباع في اللغة:

أصل مادة (تبع) تدل على التُّلُوِّ والقُفُوِّ. يقال: تبعت فلانًا إذا تلوته واتبعته. وأتبعته إذا لحقته. والأصل واحدٌ [٦].

الاتباع في الاصطلاح:

قال الراغب: «تبعه واتبعه: قفا أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والائتمار» [٧].

الصلة بين القدوة والاتباع:

بينهما تلازم، فمن يقتدي بشخص فإنه يتبعه، فإن لم يتبعه فهو غير مقتدٍ به.

(١) انظر: مجمع بحار الأنوار، الكجراتي ١/ ٥٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٦٣٥، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨.
(٢) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، ابن المطرز ص ٢٦، و مجمع بحار الأنوار، الكجراتي ١/ ٥٩.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ٩٥.
(٤) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي ص ٤٣.
(٥) الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ١/ ٤١.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٦٢.
(٧) المفردات، الأصفهاني ص ١٦٢.



أنواع القدوة

إن الإنسان في طبيعة خلقه مجبول على موازنة نفسه وأحواله بغيره من الناس، وبما جرت عليه أحوالهم، فإذا هو استثمر طبيعة نفسه هذه في النظر إلى من فُضِّلَ عليه في المال أو في الخلق عاد عليه بالضرر وكفران ما هو فيه من نعم الله، وربما حسد من رآه أفضل منه وحقد عليه، إلى آخر ما هنالك من مرذول الأخلاق![1]، وربما سره أن يكون مثله فسار على دربه وحذا حذوه للوصول إلى ما وصل إليه، مسيئًا كان المتأسى به أو محسنًا، ومن هنا كانت القدوة منقسمة إلى قسمين: إحداهما حسنة، وأخرى سيئة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: القدوة الحسنة:

يمكن القول: إن القدوة الحسنة هي اتباع الإنسان غيره في الخير، ومحاسن الأخلاق في الأقوال والأفعال، فبالقدوة الحسنة يكون المؤمن أسوة لأتباعه يقودهم بالفعل والقول، ويتأثرون بعمله الجميل ولفظه الحسن فيحذون حذوه، فإن كان الصدق مطلوبًا من كل إنسان فإنه في القدوة أكثر طلبًا، وإن كان الجد مطلوبًا من كل مسلم فإنه في القدوة أكثر حاجة؛ لأن الناس

(١) انظر: الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، الرحيلي ص ٥٣.

مجبولون على عدم الانتفاع بمن خالف قوله فعله، وأول علامة النجاح في القدوة أن يقوم بما يأمر به، وينتهي عما ينهى عنه[2].

وإذا تأملنا قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وجدنا أن الإنسان لا يكون مؤثرا في غيره إن هو لم يلتزم ما يأمر به غيره.

قال الشاعر[3]:

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلّا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تُعذر إن وَعظت ويُقتدى
بالقول منك ويُقبل التعليم
لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وتتجلى القدوة الحسنة في القرآن الكريم فيما يأتي:

١ . الرسل والأنبياء.

الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق ودعاة الحق، وقد حث الله تعالى على الاقتداء بهم

(٢) انظر: موسوعة الأخلاق، الخراز ص ٤٢٤.
(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ٣٤، ولطائف المعارف، ابن رجب ص ١٨، ولم يعزواه لأحد.

والسير على نهجهم وتتبع سننهم، والتأسي بأخلاقهم وأفعالهم.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

فلا يجوز لمسلم أن يحيد عن درب النبي عليه الصلاة السلام، وكل من خالف ما صح عنه عليه السلام فيما أمر به فقد خالف أمر ربه وباء بذنبه وفقد القدوة والهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

لقد سطر الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- صورًا رائعة في القدوة والأسوة، ولا ينحصر الاقتداء به على جانب دون آخر، بل هي في كل جوانب حياته عليه الصلاة والسلام؛ لأنه يقول ويفعل بأمر ربه لا بهوى نفسه.

وكما أن النبي الكريم أسوة لنا، كذلك هم الأنبياء السابقون قدوة حسنة ومثل أعلى لأقوامهم، وأسوة لنا في كل ما صح عنهم من الأقوال والأفعال: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وفي سورة الأنعام بعد أن ذكر الله -عز وجل- نحو ثمانية عشر نبيا ورسولًا، أمر الله تعالى رسوله الكريم باقتفاء هديهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ومما يدل على أهمية القدوة الحسنة، وأنها ركيزة أساسية في اقتناع الأقوام بدعوة أنبيائهم، ما قاله شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

[انظر: الاتباع: اتباع الوحي والأنبياء عليهم السلام]

٢ . الصحابة والتابعون.

ممن وصفهم القرآن الكريم بأنهم أهل للقدوة الحسنة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن تتبع سيرتهم وجدها زاخرة بالخيرات ومملوءة بالبركات، وجديرة بالاقتداء في جليل الأعمال، وعظيم الأخلاق، خاصة سيرة المقربين من الرسول الأمين، وآل بيته الطيبين، والعشرة المبشرين، وعموم الأنصار والمهاجرين، ومن لحق بهم واستن بهديهم من التابعين.

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

لقد دفعت القدوة الحسنة كثيرًا من الناس للإقبال سريعا على هذا الدين العظيم، فرب صفة واحدة مما يأمر به الدين تترجم حية على يد مسلم صالح يكون لها أثر لا يمكن مقارنته بنتائج الوعظ المباشرة؛ لأن النفوس قد تنفر من الكلام الذي تتصور أن للناطق به مصلحة، وأحسن من تلك الصفات التمسك بالأخلاق الحميدة التي هي أول ما يرى من الإنسان المسلم، ومن خلالها يحكم له أو عليه.

لقد دخل في هذا الدين الحنيف شعوب بكاملها لما رأوا القدوة الحسنة مرتسمة خلقًا حميدًا في أشخاص مسلمين صالحين، مارسوا سلوكهم الرشيد فكانوا كحامل مصباح يبدد ظلمة الظلم بنور الهداية[1]

لقد كان الصحابة والتابعون حملة لكتاب الله حفظًا وفهمًا وتطبيقًا.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

«قال ابن كيسان: يعني المهاجرين والأنصار، وهو قول ابن عباس في رواية عطاء»[2].

٣. العلماء.

العلماء هم خير من يتأسى بالرسل الكرام؛ لأنهم فقهوا عنهم دينهم وترجموه في حياتهم العملية.

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

أي: وشهد أولو العلم بأنه لا إله إلا هو قائمًا بالقسط، أي: بالعدل، واختلفوا في أولي العلم فقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى، وقيل: هم علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، وقيل: هم علماء مؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، وقيل: هم علماء جميع المؤمنين[3]، وهذا القول أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي الذي ذكر أنهم العلماء من الناس[4].

وما دامت الآية عامة فهي تشمل العلماء جميعا، فصفة العلم تشمل كل من ذكر.

قال ابن جرير: «المراد من الكلام، الخبر عن شهادة من ارتضاهم من خلقه فقدسوه: من ملائكته وعلماء عباده»[5].

وقال الرازي: «المراد من أولي العلم في

(١) انظر: موسوعة الأخلاق، للخراز ص ٤٢-٤٣.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ١١٢.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٣٤.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦١٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ٦/ ٢٧٢.

هذه الآية الذين عرفوا وحدانيته بالدلائل القاطعة؛ لأن الشهادة إنما تكون مقبولة، إذا كان الإخبار مقرونا بالعلم»[(١)].

وفي الآية الكريمة دلالة واضحة صريحة على المكانة العالية الرفيعة التي أولاها الله تعالى للعلماء.

ومن الأحاديث التي تبين أن العلماء صورة في القدوة والأسوة عن الأنبياء، قوله صلى الله عليه وسلم: (**إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا، ولا درهمًا إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافرٍ**)[(٢)].

ومن الآيات التي تبين شرف العلماء وأنهم أكمل الناس في الأخذ عن ربهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

إن التزام العلماء بهذا الدين العظيم يرسخ في نفوس الذين يأخذون عنهم الأسوة الحسنة، ذلك أن إيصال الخير إلى الناس بالقول والعمل أبلغ من إيصاله إليهم بالقول دون العمل؛ لأن الحالة الأولى فيها إشغال لحاستين عند الأتباع هما السمع والبصر، والعبرة بالبصر ربما كانت أبلغ من العبرة بالسمع وحده، فالناس يتأثرون بالأفعال أكثر من تأثرهم بالأقوال، ولا خير في عالم لا يعمل بعلمه.

٤ . الصالحون.

أهل الصلاح لايهدون الناس إلا إلى الخير والفلاح، كيف لا وهم الذين جعلوا هدي الأنبياء في قلوبهم، وخضعت جوارحهم وقلوبهم لعلام الغيوب!

ومن هؤلاء الصالحين ما أخبرنا به القرآن الكريم عن ذلك الرجل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٩.

(٢) أورده البخاري في ترجمة باب العلم قبل القول والعمل، من كتاب العلم، صحيح البخاري ١/ ٢٤، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤١، ٣/ ٣١٧، وابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١/ ٨١.
وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٢١٢، ١/ ٧٤.

يلاحظ في الآيتين السابقتين أن الرجل المذكور فيهما جاء داعيا للخير حريصا عليه، يفهم هذا من قوله تعالى في وصف حاله بـ﴿يَسْعَىٰ﴾، ولم يقل: يمشي، وفيه زيادة حرص، فمعنى يسعى: أي يسرع ويجد في مشيه[1].

وأكثر المفسرين على أن الرجل المذكور في آية القصص هو مؤمن آل فرعون كما ذكر الرازي[2]، وإن كان هذا القول لا يقطع به، فتبقى العبرة في أن الرجل جاء إلى موسى عليه السلام على وجه الإشفاق وأسرع إليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه، ونصحه بالخروج.

أما الرجل المذكور في آية سورة يس، فإن القوم جحدوا الرسل الذين أرسلوا إليهم وكذبوهم واجتمعت آراء أهل هذه المدينة على قتلهم، فجاء ذلك الرجل يسعى إليهم، وكان منزله أقصى المدينة، وكان مؤمنا[3].

لقد جاء ذلك الرجل من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين. وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها؛ إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة وهو لا يطلب أجرًا ولا يبتغي مغنمًا إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفا من الله؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم، وهو لا يجني من ذلك كسبا، ولا يطلب منهم أجرًا؟[4].

إن الصالحين هم خير من يسرع إلى الخير ويبينوه للناس متى لزم الأمر، فهم قدوة الناس إلى الخير والصلاح، وفي هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما حث الناس على الصدقة لما رأى فاقة في بعض أصحابه **(فجاء رجلٌ من الأنصار بصرةٍ كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعامٍ وثيابٍ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل، كأنه مذهبةٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سن في الإسلام سنةً حسنةً، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ)**[5].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٦١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٨٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٤٥.
(٤) في ظلال القرآن، قطب ٥/ ٢٩٦٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرةٍ، أو كلمةٍ طيبةٍ وأنها حجابٌ من النار، رقم ١٠١٧،

والسنة الحسنة في الحديث هي القدوة الحسنة؛ لأن الناس تابعته في التصدق، وفعلت مثل فعله.

٥ . الآباء الصالحون.

الآباء هم قدوة الأبناء، حتى إن هذا الأمر قد درج في الأمثال نحو قولهم: من شابه أباه فما ظلم[(١)]، وقد نظموا هذا في الشعر، قال رؤبة بن العجاج[(٢)]:

بأبه اقتدى عدي في الكرم
ومن يشابه أبه فما ظلم

يصف الشاعر في هذا البيت عدي بن حاتم، بأنه اقتدى بأبيه، وسلك طريقه في الجود والكرم، فجاء على مثال أبيه.

فالقدوة بالآباء أعظم أساليب التربية في نظر الإسلام الذي يقيم منهجه التربوي على هذا الأساس، فلا بد للطفل من قدوة في والديه وأسرته لتنطبع في نفسه المبادئ والقيم الإسلامية، فإذا وجد الطفل القدوة الحسنة في والديه حذا حذوهم، وأصبح من الميسور تربيته طبقا لشريعة الإسلام.[(٣)]

إن الأب هو المعلم الأول، والأم هي المدرسة الأولى منهما ينهل الأبناء وعلى خطاهما يسيرون، فإن أحسنوا تربيتهم على الإيمان جمعهم الله بهم في الجنان.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

أي: أن الأبناء إذا تبعوا آباءهم على الإيمان، وكانت مرتبتهم أدنى من آبائهم، فإنهم يلحقون بالآباء إذا كانت مراتب الآباء في الجنة أعلى من مراتبهم، ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئًا[(٤)].

وقال تعالى عن اقتداء يوسف عليه السلام بآبائه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[يوسف: ٣٨].

والآباء الذين أشار إليهم يوسف عليه السلام هم أنبياء الله الذين دعوا إلى توحيده الخالص، وبين أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى بقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة

٢/ ٧٠٥.

(١) انظر: الأمثال، القاسم بن سلام ص ١٤٥، الأمثال، الهاشمي ١/ ٢٤٠، المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري ٢/ ٣٥٢، وقال: هو من قول كعب بن زهير.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١/ ٥٠، شرح الأشموني لألفية ابن مالك ١/ ٥٠، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك ١/ ١٠٥.

(٣) انظر: التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، السيد ص ٥٤.

(٤) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٢٠/ ٤٩٠.

وتلقينا فكانت يقينا له ولهم ووجدانا.[1]

واتباع يوسف لآبائه من القدوة الحسنة، قال القرطبي: «فلما كان آباؤه عليه وعليهم السلام أنبياء متبعين للوحي، وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله، كان اتباعه آباءه من صفات المدح».[2]

وبصلاح الآباء يحفظ الأبناء، فقد حكت لنا سورة الكهف قصة يتيمين حفظ الله تعالى لهما كنزهما بصلاح أبيهما.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[الكهف: ٨٢].

أراد الله تعالى إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما، ورعاية لحق صلاح أبيهما، فأمر الخضر عليه السلام بإقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح، وأضاف الخضر هذه الرعاية لأمر اليتيمين إلى الله تعالى، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى.[3]

٦. الصحبة الصالحة.

الصحبة هي: «الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمان ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهي كمال الصحبة».[4]

والصحبة لها أثرها في المصاحب، فالصاحب الصالح عون لأخيه على فعل الخيرات والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨].

وعندما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة أمره ربه أن يتخذ أبا بكر صاحبًا.

قال تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

قال الواحدي: «قال المفسرون: وهذه الصحبة كانت بأمر الله؛ لأن جبريل لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج قال: ومن يخرج معي؟».[5]

قال ابن عادل: «وتخصيص الله إياه بهذا التشريف يدل على علو منصبه في الدين».[6]

وعلى هذا فإنه يستفاد من ذلك أن المسلم إذا أراد أن يتخذ صاحبا فعليه بصاحب الدين، فإنه أنفع له في دنياه، وأنصح له في دينه.

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ٢٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٩٢-٤٩٣.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٥٨٧.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ١٠/ ٤٣٩، وانظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٦/ ١٧٩٩.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٩٦

قال ابن حبان: «والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله، فإذا لم يجد المرء بدا من صحبة الناس تحرى صحبة من زانه إذا صحبه ولم يشنه إذا عرف به، وإن رأى منه حسنة عدها، وإن رأى منه سيئة سترها، وإن سكت عنه ابتدأه، وإن سأله أعطاه»[1].

ثانيًا: القدوة السيئة:

لما كانت القدوة الحسنة هي اتباع الإنسان غيره في الخير، فإن القدوة السيئة هي: اقتداء الإنسان بغيره في الشر والباطل وفعل المنكرات.

ولا يقف الحد عند الاتباع فحسب بل يتعدى ذلك إلى الدفاع عن أهل الباطل وتبرير أفعالهم، والتسويق لكفرهم أو فسقهم وفجورهم، ومن أنواع القدوة السيئة التي ذكرها القرآن الكريم ما يأتي:

١ . الشيطان وحزبه.

من أسوء أنواع القدوة أن يتبع الإنسان سبيل الشيطان وحزبه، وأن يحذو حذوهم متناسيا أمر خالقه سبحانه في وجوب اتخاذه عدوًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

«أي: عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصي»[2] فإن مصير أتباعه أن يكونوا من أصحاب السعير.

إن الاقتداء بإبليس لا يجدي نفعا، ولا يكشف ضرا، بل يجلب الحسرة والخزي والندامة حين إن إبليس يتبرأ من متبعيه يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

يصدر هذا الاعتراف الصريح من إبليس يوم القيامة فيعترف أن الوعد الحق هو وعد الله على ألسنة رسله، وأنه وعد أتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًّا، وخبرا صدقًا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، واعتذر إبليس لنفسه قائلًا: وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، غير أنكم استجبتم لي بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، فلا

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان ص ١١٠

(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٥٣.

تلوموني اليوم، ولوموا أنفسكم، فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل[1].

«فيا للشيطان! ويا لهم من وليهم الذي هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه!»[2].

[انظر الاتباع: اتباع الشيطان]

٢. الكبراء والرؤساء.

إن نظرة كثير من الناس قاصرة، فهم ينظرون إلى عاجل أمرهم دن آجله، ولأجل ذلك ربما قدموا طاعة القادة والزعماء على طاعة الخالق سبحانه، وهذه الطاعة للقادة إما أن تكون خوفا من بطشهم وعقابهم، وإما أن تكون طمعا فيما بين أيديهم من الجاه والمال، وفي المقابل فإن خنوعهم وخضوعهم وتذللهم هذا يزيد القادة بطشا واستكبارا وغرورا، فيتمادوا في الباطل وينساق الاتباع خلفهم، وهذا ماحدث لفرعون حين استخف قومه ونصب من نفسه إلها من دون الله، واتبعه قومه على باطله، فكان بئس القدوة لمن اقتدى به.

قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٧ - ٩٨].

أي: يقودهم، فيمضي بهم إلى النار، حتى يوردهموها، ويصليهم سعيرها، وبئس الورد الذي يردونه[3].

وهذا مصير أي ولاء يكون لغير الله، فإن القادة سيتخلون عن أتباعهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

والضعفاء هم الضعفاء. هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعًا للمستكبرين والطغاة. ودانوا لغير الله من عبيده واختاروها على الدينونة لله. والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله. وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعًا عن نصيبه في الحريه -التي هي ميزته ومناط تكريمه- أو أن ينزل كارهًا. والقوة المادية -كائنة ما كانت- لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية. فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٩.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٦٦.

الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير. أما الروح. أما العقل. فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال! من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة، وفي التفكير، وفي السلوك؟

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالًا أو منصبًا أو مقامًا إنما هم ضعفاء؛ لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم

فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان! إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء[(١)].

وفي صورة أخرى من صور مخاصمة الأتباع لقادتهم يوم القيامة يوم الخزي والندامة للتابع والمتبوع على طريق الضلال. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ – ٤٨].

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار، وتخاصمهم، فيقول الأتباع للقادة والسادة والكبراء: (إنا كنا لكم تبعا) أي: أطعناكم فيما دعوتمونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال، فهل تتحملونه عنا قسطا من العذاب؟. فكان الجواب من السادة: لا نتحمل عنكم شيئا، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال[(٢)].

٣. الآباء الكافرون.

القدوة السيئة بالآباء أخطر ما يهدد إيمان الأسرة وأمنها، فإذا رأى الولد في صغره سلوك أبيه قلده دون أن يدري ماذا يفعل، ويتحمل الأب هنا وزر القدوة السيئة، غير أن الإنسان لا عذر له بالاقتداء بالآباء بعد أن يصبح ناضجا، فعليه أن يعمل عقله، لا أن يلغي تفكيره ويتبع الآباء على ضلالاتهم ويصبح كالأنعام، ينساق خلف قائد القطيع بلا عقل ولا روية، وهذا ما نعاه الله تعالى على المشركين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

والملاحظ في هذه الآية أنها جاءت في سياق آيات من سورة البقرة تحذر من القدوة

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٩.

السيئة ومن تبعية السوء، فقبلها بخمس آيات كان الكلام عن اتخاذ الأنداد: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

فهؤلاء الناس قدموا محبة الأنداد وطاعتهم على طاعة الله، ثم تلتها براءة التابع والمتبوع من بعضهما ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

وبعدها جاء الكلام عن الشيطان وسبل إغوائه للإنسان ليصرفه عن القدوة الصالحة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٦٨-١٦٩].

قال البيضاوي: «﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرموا الحلال وتحللوا الحرام»[1].

ثم عاد الكلام ليصرح بتبعية فاسدة أخرى هي تبعية الأبناء للآباء الضالين، واقتدائهم بهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[البقرة: ١٧٠].

وذكر الشيطان في وسط الآيات التي تتكلم عن التبعية والولاء والبراء فيه إشارة إلى أن هذه القدوات الباطلة ما هي إلا اتباع لوساوس الشيطان، وأنها سوء وفحشاء، وأن الاقتداء بالضالين والمفسدين من الآباء وغيرهم فيه تعطيل للعقل والحواس، واقتداء بالشيطان الرجيم.

وجاء اقتران مقولة هؤلاء الكفرة في الاقتداء بالآباء مع ذكر الشيطان في آية أخرى.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

وهذا يدل على أن الشيطان الرجيم يقف خلف تزيين القدوة السيئة للناس.

ومن الآيات التي نهت عن الاقتداء بالآباء في العبادات وسيء العادات:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[المائدة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[هود: ١٠٩].

«ومما يروى من نوادر العامة أن رجلا كان له ابن، ولما أسن وعجز عن العمل أخذه ابنه ذاك وذهب به إلى فلاة من الأرض، فطرحه تحت شجرة وتركه هناك حتى هلك. فلما كبر هذا الابن وبلغ مبلغ أبيه كان له ابن له

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١١٨.

وهو لا يعلم بالقصة، فأخذه أيضًا وذهب به إلى الفلاة وطرحه تحت شجرة كما فعل هو بأبيه. فلما تولى عنه التفت إليه فرآه يبتسم. فتعجب من ذلك ورجع إليه وقال له: مم تضحك، وقد أيقنت بالهلاك؟ فقال له أبوه: والله ما ضحكت إلا إنني تذكرت ما فعلت بأبي، وقص عليه القصة. فقال الولد حينئذ: لئن أنا تركته حتى مات ليفعلن بي عقبي مثل هذا. فأخذه ورده إلى بيته»[1].

[انظر: الاتباع: الآباء الكافرون]

٤ . الصحبة السيئة.

مضى المثل بقولهم: الصاحب ساحب، وهو كذلك فهو إما أن يسحب صاحبه إلى الجنة وإما أن يسحب صاحبه إلى النار، وعندها تقع الحسرة والندامة للتفريط في الصحبة الصالحة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[الفرقان: ٢٧ -٢٨].

فالواضح من الآية الكريمة أن الصاحب الفاسد هو سبب هلاكه ودخوله النار. وقد يكون الصاحب من غير أهل الإسلام! والنهي في حق هذا أشد، وفيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٨].

أي: بطانة من غيركم من أهل الأديان الأخرى، وبطانة الرجل هم خاصة صحبه الذين يطلعون على داخل أمره[2].

وحتى يتجنب المرء الصحبة الفاسدة عليه أن يتحرى في صاحبه صفات الصاحب الصالح إذ ينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلا، حسن الخلق، غير فاسق، ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا.

أما العقل فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت قال علي رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهلٍ أردى حليمًا حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللشيء على الشيء مقاييسٌ وأشباه

وأما الفاسق المصر على الفسق فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة؛ ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

---

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي ١/ ٢٤٤.

(٢) التيسير في أحاديث التفسير، الناصري ١/ ٢٥٨.

وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

وفي مفهوم ذلك زجر عن الفاسق، وأما المبتدع، ففي صحبته خطر سراية البدعة وتعدي شؤمها إليه، فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته، ومما قاله عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق: واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين من القوم، ولا أمين إلا من خشي الله، فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى[١].

كما أن مشاهدة الفسق والفساق تهون أمر المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها، وأما الحريص على الدنيا فصحبته سم قاتل؛ لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء؛ بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه، فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا، فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة[٢].

ولما أن كان للصحبة أثر كبير في اقتداء كل منهما بصاحبه تعددت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوب اختيار الرفيق الصالح، والابتعاد عن رفيق السوء، ومن ذلك: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)**[٣].

إن الصحبة السيئة تجلب لصاحبها الشقاء السرمدي، فربما كان الإنسان مستقيمًا فيتعثر بصاحب السوء فيقلب له حياته رأسا على عقب، وتنقلب الطاعة إلى معصية، فلا يجد عند صاحب السوء إلا نار الدنيا قبل نار الآخرة، وما أجمل تشبيه النبي عليه الصلاة والسلام لصاحب السوء بكير الحداد الذي هو نار وحر ودخان في الدنيا ووباله في الآخرة كذلك، فعن أبي موسى، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثةً)**[٤].

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٢/ ١٧١-١٧٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٧٣.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٤/ ١٤٢. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٤، رقم ٣٥٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، بابٌ في العطار وبيع المسك رقم ٢١٠١، ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/ ٢٠٢٦.

أهمية القدوة وآثارها

أولًا: أهمية القدوة:

مما لا شك فيه أن القدوة لها تأثير كبير في المقتدي، والمقتدى به، فالأول متابع للثاني إن أحسن أحسن متبعوه، وإن أساء أساء متبعوه، فهم على دربه سائرون، أما المقتدى به فهو أحد اثنين، إما أن يبهره جاهه بعد أن أصبح مطاعا متبعا مشهورا يحاكى من الآخرين فينتظرون قوله ويترقبون فعله، فإنه وقت إذ ربما يفتن عن دينه وينحرف في أخلاقه، وقد تزهو نفسه فينالها العجب بدلا من التواضع، ويصبح همه الظهور والقشور، وإما أن يزداد تواضعا وخوفا من الله وخشية، ويزيد في شكر الله عز وجل على ما سخر له من أمور الدنيا وقلوب العباد.

للقدوة الحسنة أهمية بالغة، فهي دعوة الصالحين الدائمة في كل صلاة يتوجهون فيها إلى الله عند قراءة أم الكتاب، وذلك حين يردد المؤمن طالبا الهداية من رب العالمين بقوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

إنه يريد طريق الهداية متأسيا ومقتديا فيمن هداهم الله الصراط المستقيم: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

كلمات تغرس في قلب المؤمن وجوب القدوة الحسنة، مع كل صلاة بل مع كل ركعة يستفتح فيها بفاتحة الكتاب، وهو إذ يطلب من الله تعالى أن يرشده القدوة الحسنة يستعيذ به سبحانه من القدوة السيئة.

١ . أهمية القدوة الحسنة[(١)].

إن حاجة الناس إلى القدوة نابعة من غريزة كامنة في النفوس هي التقليد والمحاكاة. فقد فطر الناس على افتقاد القدوة والبحث عن الأسوة، ليكون لهم نبراسا يضيء سبيل الحق، ومثالا حيا يبين لهم كيف يطبقون شريعة الله، لذلك لم يكن لرسالات الله من وسيلة لتحقيقها على الأرض إلا إرسال الرسل، يبينون للناس ما أنزل الله من شريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

تعد القدوة الحسنة أفضل أساليب التربية وأقربها إلى النجاح، فالإنسان في طبعه يميل إلى التقليد والمحاكاة، فإذا كان المحاكي قدوة تأصلت في المقتدي الخلال الطيبة والخصال الكريمة والقيم الرفيعة.

---

(١) انظر: التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها، عاطف السيد ص ٥٣-٥٤. أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي ص ٢٠٥-٢٠٨.

إن صاحب القدوة يحقق بأسلوبه وسلوكه كل الأسس والأساليب والأهداف التي يرجى أن يقوم عليها نموذج المجتمع القدوة، لذلك بعث الله النبي محمدا صلى الله عليه وسلم؛ ليكون قدوة حسنة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

فكان الرسول الكريم هاديا ومربيا بسلوكه الشخصي بالإضافة إلى الذكر الحكيم والسنة، وكان النبي ترجمة عملية حية لتعاليم وآداب القرآن، كما أن سيرة الصحابة والتابعين تعد نموذجا لتجسيد القدوة الحسنة للمجتمع المسلم.

ولا بد للناس من قدوة في مجتمعهم تجسد لهم شريعة الإسلام السمحة وتقاليده السامية؛ ليحملوا بصدق أمانة تربية الأجيال، ولا بد للمجتمع من قدوة فيمن يتولى أمره تتجسد فيه المبادئ الإسلامية فيتطلع المجتمع إليه ويسير على نهجه.

القدوة الحسنة في الإسلام هي لمن التزم بالمنهج الرباني، فنجاح الأثر التربوي للرسول عليه السلام يتوقف على الإيمان بأنه مؤيد بالوحي والإلهام من عند الله، فلا يقره الله على خطأ في التشريع، وأنه أمين قد بلغ رسالات ربه، فإذا تم هذا الإيمان شعر الإنسان بسعادة عظيمة كلما اقتدى بأمر من أوامر الرسول، أو أسلوب من أساليبه التربوية في الحياة، أما الفلاسفة والزعماء وعلماء التربية، فإنما يتبعون الظن، ويضعون النظريات[1]، لذلك كان الأنبياء والرسل في كل عصر قدوة للناس.

أهم ميادين القدوة: الأسرة والمدرسة، لذلك كانت الأسرة محط نظر الإسلام كونها اللبنة الأولى لبناء المجتمع، فلا بد للطفل من قدوة في والديه وأسرته لتنطبع في نفسه المبادئ والقيم الإسلامية. ومما لا شك فيه أنه إذا وجد الطفل القدوة الحسنة في والديه وفي معلمه حذا حذوهم، وأصبح من الميسور تربيته طبقا لشريعة الإسلام، لقد ذكر لنا القرآن الكريم حرص الأبناء البررة على اتباع الآباء المخلصين، قال يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وفي المقابل ذكر القرآن الكريم حرص الآباء المخلصين على هداية أبنائهم وإرشادهم كما جاء في بعض وصايا لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

إن أهم الأسس النفسية لاتخاذ القدوة هو دافع التقليد: والتقليد أمر غريزي يتجلى في الرغبة الملحة التي تدفع الضعيف،

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، النحلاوي ص ٨١.

والمرؤوس إلى محاكاة سلوك القوي والرئيس، كما تدفع غريزة الانقياد في القطيع جميع أفراده إلى اتباع قائده، واقتفاء أثره، ويرتقي التقليد بارتقاء المجتمع، حتى يبلغ في التربية الإسلامية ذروته من الوعي، والسمو والهدف النبيل، والتقليد يرتكز على ثلاثة عناصر:

أولها: الرغبة في المحاكاة والاقتداء، فالشخص المقلد مدفوع برغبة خفية لا يشعر بها، نحو محاكاة من يعجب به في لهجة الحديث، وأسلوب الحركة والمعاملة والكتابة، ومعظم عادات السلوك، دون أن يقصد، وهذا التقليد غير المقصود لا يقتصر على حسنات السلوك، بل قد يتعداها إلى غيرها، فالشخص المتأثر يتقمص، عن طريق لا شعوري، شخصية المؤثر كلها أو جلها، ولذلك كان من الخطورة بمكان ظهور المساوئ في سلوك القدوة؛ لأنه بذلك يحمل وزر من يقلده فيها. لذلك نبه القرآن الآباء إلى أن الاستمتاع بالأطفال، والحنان والعطف عليهم، يجب ألا يشغلهم عن أن يكونوا قدوة صالحة لهم، فقال في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

فوصف عباد الرحمن بأنهم يرغبون في أن تقر أعينهم بالزواج والولد، كما يرغبون في أن يكونوا قدوة وإماما، كما نبه رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم البشرية عمومًا إلى ما يتحمله كل من يؤثر في سلوك الآخرين، من النتائج حين يقلدونه بخير أو شر، قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو عمر، وجرير بن عبد الله: (**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**). وقد كان سبب ورود الحديث أنه جاء قوم مجتابي النمار يبدو عليهم الفقر، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة ليتصدقوا فلم يتقدم أحد، فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة، حتى قال صحابي: فجاء بوسق من تمر، ثم قلده الصحابة، فتتابعوا يجلبون مما عندهم فذكر الحديث.

الثاني: الاستعداد للتقليد: في كل مرحلة من العمر استعدادات، وطاقات محدودة لذلك لم يأمر الإسلام الأطفال بالصلاة قبل سبع سنين، ولا يمنع ذلك من ترك الطفل يقلد أبويه بحركات الصلاة قبل أن يبلغ سبع سنين، ولكن لا يؤمر بكل أذكارها. وعلى العموم يجب أن نحسب حسابا لاستعداد الطفل، وطاقاته عندما نطلب منه تقليد

أحد أو الاقتداء به. ومن الظروف التي تهب الناس عموما استعدادا للتقليد، والأزمات والآلام الاجتماعية والكوارث، هناك يخرج المجتمع مهيض الجناح، فيفتقد القائد القدوة ليجد فيه أبا عطوفا، وبطلا منقذا يحاكيه الناس في كل سلوك من حياته النفسية والاجتماعية، وفي آرائه وأفكاره ومن تلك الأسباب: الشعور بالضعف أمام القوة، فالمغلوب يقلد غالبه بعد أن يستكين ويخضع لحكمه، والمرؤوس يقلد رئيسه والطفل يقلد أباه، وقد نبه ابن خلدون على هذا المبدأ في مقدمته، وذكر أدلة ووقائع تاريخية على ذلك، بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من مغبة هذا التقليد إذا كان بغير هدف، وكأنه انكشف له حجب الغيب، فتوقع الضعف الذي سينزل بهذه الأمة، فقال: (لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع).

الثالث: الهدف. لكل تقليد هدف قد يكون معروفا لدى المقلد وقد لا يكون، والهدف الحيوي «الغامض» الأول من غريزة التقليد، والانقياد لدى الأطفال، والجماعات هو غرض دفاعي، إنه الدفاع عن الكيان الفردي وكأنه انضواء في ظل الشخص القوي المرموق، يقلده شخص أضعف منه، لعله يستمد من هذا التقليد قوة وبأسا، من جنس قوة الشخص الذي حاز إعجابه فراح يحاكيه في كل شيء. فإذا ارتقى الوعي عند المقلد، عرف الهدف من التقليد، فأصبح هذا التقليد عملية فكرية، يمزج فيها بين الوعي والانتماء، والمحاكاة والاعتزاز، ويصبح لهذا بصيرة أي: معرفة بالغاية والأسلوب، وفي هذا المعنى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن غياب القدوة الحسنة مدعاة لظهور الفساد والانحلال والبعد عن المنهج الحق. إن القدوة ترجمة عملية واقعية للمبادئ والأفكار تستطيع أن تجمع الناس حول المثل الأعلى، ولذا حين تفتقد المثل الأعلى، ويصبح الناس فرقا وجماعات ومذاهب، فيفقدون إرادة الفعل ويغرقون في التناطح، ويتترسون خلف متاريس الفكر، كل يحاول الانتصار لفكرته بالكلام والتراشق بالاتهامات، والتعصب الأعمى القائم على التقليد الأعمى[(١)].

إن مجتمعاتنا تشكو من فقر خلقي وعلمي وحضاري، وما ذلك إلا نتيجة لافتقادها للقدوة الصالحة ولو صحت عزائم الناس والعلماء منهم خاصة لأصبح كل واحد منهم قدوة حسنة في مجاله- فهو يملك مقوماتها- ولتحولت الأفكار

(١) نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ١/ ١٤٩.

والمبادئ إلى فعاليات سلوكية صحيحة، وهذا ما نحتاجه فعلا، ولكن - وللأسف - ما زلنا نعيش مرحلة اجترار المبادئ والأفكار بدون فعالية، فنحن في أمس الحاجة إلى القدوة الصالحة بكافة أشكالها وبشروطها السابقة، ويوم أن توجد تلك القدوة نستطيع أن نمتلك الفعالية، وننتج الحضارة، ويكون لنا مكاننا العالمي عطاء وإبداعا(١).

فنحن في هذا الزمان بحاجة ماسة إلى دعاة مخلصين صادقين يغلبون هم الدين على المصالح الشخصية والأهواء. فأمثال هؤلاء الذين يوافق قولهم فعلهم طريقهم سهلة إلى قلوب الناس، وهم على اقتدار أن يحدثوا فيها التغير.

٢. مقومات القدوة الحسنة المؤثرة.

وهي تشمل:

- الأخلاق الحسنة، وهي تشمل كل أخلاق القرآن الكريم تأسيا برسول الله عليه الصلاة والسلام الذي كان خلقه القرآن، ولا يقتصر على خلق دون خلق.
- أن تكون هذه الأخلاق الحسنة مستمدة من الشرع، فربما كانت أخلاق مستحسنة عند أقوام وفيها مخالفة للشرع.
- الموافقة التامة بين الأقوال والأفعال، وإتباع القول العمل.
- التضحية وحب الآخرين.
- الإخلاص في الأقوال والأفعال.

الآثار التربوية للقدوة الصالحة على الفرد والمجتمع:

وتتمثل أهم آثار القدوة الصالحة على الفرد في الآتي(٢):

١. إن القدوة الصالحة تجعل المسلم على اتصال دائم بالخالق عز وجل؛ لأنه يذكره بالطاعة والإخلاص في النية والعمل، وإذا تمكن الإخلاص من القلب أصبح الإنسان يبتغي مرضاة الله ورضوانه في كل عمل يقوم به، ويجعل الله رقيبًا عليه في حركاته وسكناته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق:١٦].

٢. القدوة الصالحة تربي الشخصية المسلمة القوية ذات الشكيمة والإرادة الحديدية؛ لأنها تنشئ في روح الفرد العزة والكرامة ورفض الظلم والاحتلال، فلا تلين له قناة أمام الطغاة والمتجبرين؛ لأنه يعتز بقدوته التي جاءت بكل ما تملك من أجل تحقيق معاني الخير للمجتمع، فقدمت النفس

(١) المصدر السابق ١/ ١٤٩.

(٢) انظر: القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، عصام العبد زهد، ص ١١-١٢.

والمال والنفيس في سبيل الله.

٣. تنمي القدوة الحسنة الفضائل والأخلاق الحميدة في نفوس الأفراد، ويتضح ذلك من خلال حديثنا عن صفات القدوة الحسنة حيث وجدناها تتصف بصفات أخلاقية وقيم عليا إذا تحققت في الفرد المسلم أصبح في قمة سامقة ينظر نظرة إنسانية إلى جميع القضايا التي تواجه الناس جميعًا.

٤. القدوة الحسنة تشحن الأفراد بالتقوى ومعرفة الله وتعزز في نفوسهم الثقة والأمل بالمستقل المستمد من نصر الله وثوابه للمؤمنين، فينطلق المؤمن بشحنات إيمانية مستمدة من قادته وقدواته يدفعه إلى فعل الخير والبر والإحسان وبالمقابل محاربة الفساد والمنكر وكل ضارٍّ في المجتمع.

٥. التربية بالقدوة تعمل عملها في تكوين الإنسان الصالح الذي يظهر عليه ملامح التقوى والخشوع والحياء، وهو المؤمن القوي الذي لا يدخل الوهن إلى قلبه، الإنسان الذي يحب لأخيه كما يحب لنفسه الحب الخالص الذي لا ينتظر جزاءً ولا شكورًا ولا يهدف إلا لكسب الحب في الله سبحانه[1].

٦. الاقتداء بالقدوة الصالحة ينشئ التوازن والاعتدال في سلوك الأفراد وشعوره؛ لأن طاقته في ظل المنهج الرباني كلها تعمل وتأخذ نصيبها من الحياة بحيث يصبح قوة فاعلة في المجتمع، فهو إيجابي واجتماعي حريص على مصلحة مجتمعه[2].

٧. ومن آثار القدوة الصالحة أنه يبصرك بعيوبك ويرشدك إلى الأسلوب الأمثل في التخلص منها، من خلال مقارنة أعمالك وسلوكك بما عليه قدوتك الصالح فتتأسى به وتصلح تلك العيوب.

٨. ومنها أن القدوة الصالح يعلم الإنسان ويرشده إلى فعل الخيرات، فيدلك على أمور واجبة كنت غافلًا عنها أو متكاسلًا عن أدائها، ويشجعك على المشاركة في مشروعات الخير والبر والإحسان.

٩. إن القدوة الصالحة سببٌ في دخول الإنسان ضمن الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون يوم القيامة، وهي ضمانٌ لاستمرار الصحبة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ

---

(١) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب ١/ ٢٢٨.

(٢) القدوة الصالحة وأثرها على الفرد والمجتمع، عصام العبد ص١٢.

﴿الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٧-٦٨].

وإذا كانت التربية بالقدوة لها الدور الكبير في إعداد الفرد الصالح، فإن ذلك يؤدي إلى النجاح في تكوين المجتمع الصالح؛ لأن الفرد نواة الأسرة، والأسرة هي نواة المجتمع، وبذلك نستطيع حصر هذه الآثار في الآتي(١):

- إن القدوة الحسنة لا يعيش مشغولًا بذاته بل يمد يديه بالخير والعون ويعطي إلى المجتمع ما يزيده أمنًا وسلامًا؛ لأنه يعرف معنى الإنسانية ويدرك مسئوليات الأخوة في المجتمع، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].
- التربية بالقدوة تعمل على توحيد المجتمع الإسلامي بحيث يعمل أعضاؤه في بوتقة واحدة متضامنة في مواجهة الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا مطلب تربوي. إحياء المنهج الإسلامي من خلال جعل المسلمين جسمًا واحدًا يشعر الجميع بشعور واحد، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].
- إن التربية بالقدوة تغرس الروح الجماعية في قلب الفرد المسلم من خلال أن الجميع يقتدون بقدوتهم الذي هو المثال الحي في البذل والعطاء والتضحية والفداء، وعندما أحب الناس القدوة الأول محمد صلى الله عليه وسلم قام المجتمع الإسلامي الفريد، مجتمع البذل والعطاء، مجتمع كل فرد فيه يشكل أمة؛ لأنه تربى على الينبوع الأساسي القرآن الكريم وأخذ منه توجيهاته الربانية.
- التربية بالقدوة تعمل على تربية الناس خلقيًا وروحيًا وتربطهم بالله رب العالمين، كما أنها تقوي المجتمع من الناحية الإرادية؛ لأن الجميع تربى على الصبر والمصابرة وتحمل الصعاب من أجل المبدأ والفكر الذي آمن به.

وعند النظر في واقع أمتنا، وفي الآيات التي تحدثت عن الاتباع والقدوة بشقيها، نجد أن أهم عوامل غياب القدوة الحسنة يتجلى في الآتي:

١. قلة وجود القدوة الحقيقية الصالحة القادرة على كسب قلوب الناس في المجتمع بشكل عام.
٢. الانشغال بلذات الدنيا، ومتاعها الزائل.
٣. طول الأمل وعدم التفكير بالموت

(١) المصدر السابق ص ١٣-١٤.

وسنن الحياة في مداولة الأيام بين الناس، وأن الدوام لله وحده.

٤. الغفلة عن نعيم الجنة لمن اقتدى بهدي الأنبياء.

٥. الغفلة عن عذاب النار لمن اقتدى بأئمة الكفر والضلال.

٦. غياب الجانب التوعوي في أهمية القدوة الحسنة على الفرد والمجتمع في الدنيا.

٧. عدم إدراك مخاطر القدوة السيئة على الفرد والمجتمع.

٨. غياب الشعور برقابة الله الدائمة على أعمال الإنسان.

٩. غياب الإعلام الإسلامي الهادف الذي يؤسس للقدوة الحسنة.

١٠. متابعة الفضائيات والمسلسلات التي تبث القيم الهابطة.

١١. تعلق الناس كثيرا بالمظاهر والنفاق الاجتماعي.

١٢. ضعف القدوة في مجالات الحياة المختلفة، الأب على أبنائه، المعلم على طلابه، البائع في تجارته، المدير في دائرته.

١٣. انشغال المرء بنفسه، وعدم تنبيه وتبصير الآخرين بعيوبهم.

١٤. غياب فكرة وحدة الأمة والجسد الواحد في التآخي والتناصح.

١٥. الانبهار بالحضارة الغربية والشعور بالدونية، مما يجعل الاقتداء بالغرب أكثر من التفتيش عن القدوة في مجتمعاتنا.

١٦. تولي الرويبضة -الذي ربض عن المعالي وقعد عن طلبها- في قيادة المسلمين وتولي أمورهم في كثير من شؤون حياتهم.

١٧. عدم الإلمام بسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، حتى إنني أسأل طلابي في مدرجات يزيد عدد طلابها عن المائة والخمسين عن أسرة النبي عليه السلام عن أبنائه وبناته فلا يكاد يجيب إلا القليل.

١٨. تشويه صورة التاريخ الإسلامي، وصورة الخلفاء وقادة الحروب.

نماذج من القدوة في القرآن

إن النماذج التي عرضها القرآن للقدوة الحسنة وللقدوة السيئة كثيرة، وكان عرض الصور الحسنة منها للحث على الاقتداء بها، وفي المقابل كان عرض الصور السيئة للتحذير من الاقتداء بها والسير على طريقها، وسيتم عرض الموضوع في النقاط الآتية:

أولًا: نماذج من القدوة الحسنة في القرآن الكريم ومعالم الاقتداء بهم:

١ . إبراهيم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

ومعنى «كان أمة»، أي: إمامًا في الخير يقتدى به، ويتبع عليه[(١)].

قال ابن قتيبة: «أي: إماما يقتدي به الناس، لأنه ومن اتبعه أمة، فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع.

وقد يجوز أن يكون سمي أمة: لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال: فلان أمة وحده، أي: هو يقوم مقام أمة»[(٢)].

والأمة من (أم)، أصلها في جميع تصريفاتها من القصد، يقال: أممت الشيء إذا قصدته، فمعنى الأمة في القرن من الناس: الذين يقصدهم مقصدًا واحدًا، ومعنى الأمة في الدين: إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه؛ ولذلك سميت النعمة أمة، ومعنى الأمة في الرجل: الذي لا نظير له: أن قصده منفرد من قصد سائر الناس[(٣)].

وهو متميز ومنفرد عن غيره، وقد جاز تسمية الواحد باسم الجماعة لاجتماع أخلاق الخير الذي يكون في الجماعة المفرقة فيمن سماه بـ «الأمة»، كما يقال: «فلان أمة وحده»، أي: أنه بمفرده يقوم مقام الأمة[(٤)].

وقد أمر رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بإبراهيم واتباع ملته.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

بل إن الدعوة للاقتداء بإبراهيم عليه السلام لم تكن لمحمد عليه السلام وحده بل كانت للناس جميعا بما فيهم عبدة الأوثان من العرب، قال الرازي عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٦.
(٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٤٩ .
(٣) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٧٧ .

«فكأنه تعالى قال للعرب إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرا هو إبراهيم عليه السلام فقلدوه في ترك عبادة الأوثان وإن كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان وبالجملة فاتبعوا إبراهيم إما تقليدا وإما استدلالا»(١).

ومجالات القدوة بإبراهيم عليه السلام كثيرة جدا قال الفيروزآبادي: «وقد ذكر الله سبحانه إبراهيم بالتعريض والتصريح في كتابه بخمسين اسمًا»(٢).

ومن الأسماء التي أوردها مع دليلها من القرآن الكريم:

- المبتلى بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾[البقرة: ١٢٤].
- والإمام بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[البقرة: ١٢٤].
- والمطهر بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[الحج: ٢٦].
- والحنيف والمسلم بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[آل عمران: ٦٧].
- والصالح بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠].
- والحليم، والأواه، والمنيب بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥].

وكثير مما ذكره الفيروزآبادي يصلح للاقتداء بإبراهيم عليه السلام، أذكر منه أنه عليه الصلاة والسلام كان:

١. قانتا لله.

وهي الصفة الأولى التي تلت وصفه بأنه كان أمة، قال تعالى: ﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

وقانتًا تعني أنه عليه السلام كان مطيعا لله، أوهو القائم بأوامر الله(٣).

٢. حنيفًا.

أي: «مائلًا إلى ملة الإسلام ميلًا لا يزول عنه، وقيل حنيفًا: مستقيمًا على دين الإسلام. وقيل: مخلصًا»(٤).

٣. شاكرًا لأنعم الله.

قال الله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾

يعني: أنه كان شاكرا لله على نعمه العظيمة التي أنعم بها عليه، فقد اجتباه ربه، أي: اختاره لنبوته واصطفاه لخلته وهداه إلى دين الإسلام؛ لأنه الصراط المستقيم والدين القويم(٥).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٢.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٦/ ٣٣.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦١١.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ١٨٣.
(٥) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٥.

٤. أوَّاهًا.

تعددت أقوال المفسرين في معنى الأواه: فعن ابن مسعودٍ، أن: الأواه: الرحيم، وعن ابن عباسٍ، ومجاهدٍ، أنه الموقن[(١)].

وأخرج الطبري عن جماعة أن الأواه هو كثير الدعاء[(٢)] وأخرج عن ابن عباس قوله: «إن إبراهيم لأواه»، يعني: المؤمن التواب[(٣)]. وذكر الرازي أنه الخاشع المتضرع، وقال: «واعلم أن اشتقاق الأواه من قول الرجل عند شدة حزنه أوه، والسبب فيه أن عند الحزن يختنق الروح القلبي في داخل القلب ويشتد حرقه، فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق من القلب ليخفف بعض ما به هذا هو الأصل في اشتقاق هذا اللفظ»[(٤)].

ولخص ابن عاشور المعنى بقوله: إن الآية ثناء على إبراهيم. ولأواه يرجع إلى الشفقة إما على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار، وإما على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم[(٥)].

٥. حليمًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

«والحليم: صاحب الحلم. والحلم- بكسر الحاء-: صفة في النفس وهي رجاحة العقل وثباتة ورصانة وتباعد عن العدوان. فهو صفة تقتضي هذه الأمور، ويجمعها عدم القسوة. ولا تنافي الانتصار للحق لكن بدون تجاوز للقدر المشروع في الشرائع أو عند ذوي العقول»[(٦)].

ومن أوائل من اقتدى بحلمه ابنه إسماعيل عليه السلام، وأي حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ثم استسلم لذلك، فتبين أن ولده موصوف بالحلم، وأنه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة[(٧)].

وقد ذكر أهل التفسير في إتباع (لأواه) بوصف (حليم) والعكس، أي التقديم والتأخير بين اللفظين

أنه لموافقة الفواصل، أو للروي في السورتين[(٨)].

---

(١) انظر: تفسير عبد الرزاق ٢/ ١٦٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٢٩.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢٦.
(٣) المصدر السابق.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٥٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٤٦.
(٦) المصدر السابق.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٥.
(٨) انظر: أسرار التكرار في القرآن، الكرماني ص ١٤٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ٢٥١.

٦. كريمًا.

قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[الذاريات: ٢٤].

جمعت هذه الآيات آداب وكرم الضيافة التي هي من أعظم وأشرف الآداب، وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في الكلام على آداب الضيافة لإبراهيم في هذه الآيات، فذكر لإبراهيم خمس عشرة منقبة في كرم الضيافة، وتابعه ابن كثير في إيراد معظمها، وهي تدل على آداب الضيافة؛ فإنه عليه السلام جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتي سمين مشوي، فقربه إليهم، ولم يقربهم إليه، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: (ألا تأكلون) على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل[(١)].

٧. صابرًا.

لقد ابتلي إبراهيم عليه السلام ابتلاءات عظيمة فصبر وشكر.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال ابن جرير: «وكان اختبار الله تعالى ذكره إبراهيم، اختبارا بفرائض فرضها عليه، وأمر أمره به. وذلك هو«الكلمات» التي أوحاهن إليه، وكلفه العمل بهن، امتحانا منه له واختبارا»[(٢)].

وقال الحسن: «ابتلاه بذبح ولده، وبالنار، والكواكب، والشمس والقمر»[(٣)].

وقد كان إبراهيم عليه السلام معلما للصابرين ومنارا للمقتدين، ولأجل ذلك أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بالاقتداء به في مجال الصبر،قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥].

٨. متلطفا وبارا بوالده المشرك.

قص القرآن الكريم تلطف إبراهيم مع أبيه المشرك ومحاولاته المتكررة لهدايته إلى سواء السبيل رغم قسوة قلب أبيه وغلظته، وكان يخاطبه بأسلوب فيه تحبب وشفقة ومحبة: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

ومع إظهار إبراهيم الخوف على أبيه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢١، جلاء الأفهام، ابن القيم ص ٢٧٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢/ ٧.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٨٩.

من النار إلا أنه لم يجد من أبيه إلا القسوة والغلظة، فكان جواب والده له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٦ -٤٧].

وكان إبراهيم عليه السلام يستغفر له ما دام أبوه حيًا، وكان يرجو أن يهديه الله عز وجل، فلما مات كافرًا، ترك الاستغفار له[1].

وكذا شأن المؤمن فعليه أن يقتدي بإبراهيم عليه السلام في الحرص على دعوة أهل بيته وعشيرته الأقربين، فهم أولى الناس بدعوته.

٩. سليم القلب.

إن صفاء القلب وسلامة السريرة من أهم المعالم في الاقتداء، وكذا كان إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات: ٨٣ - ٨٤].

الشيعة من معنى المشايعة، يعنى: وإن ممن شايع نوحا على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لإبراهيم[2].

وقوله بقلب سليم: أي خالص من الشرك والمعاصي، وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين[3].

١٠. محاورًا ومربيًا لأبنائه.

ساق القرآن الكريم حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل في أحلك الظروف، إنه يعرض عليه همه بذبحه بأسلوب فيه تلطف: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أراد إبراهيم أن يشرك ولده معه في تنفيذ أمر الله تعالى، قائلا له: (فانظر ماذا ترى) «لم يشاوره ليرجع إلى رأيه وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله تعالى وليعلم صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته ويثبت قدمه ويصبره إن جزع ويراجع نفسه ويوطنها ويلقى البلاء وهو كالمستأنس به ويكتسب المثوبة بالانقياد لأمر الله تعالى قبل نزوله»[4].

وحري بالآباء أن يقتدوا بإبراهيم في محاورة أبنائهم في شؤون حياتهم، وأن تكون العلاقة بينهم وبين أبنائهم قائمة على الحوار البناء.

قال ثم إن إبراهيم عليه السلام دائم الدعاء لربه أن يحفظ له ذريته من الغواية والضلال.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٧٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٣٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٣.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢٣.

[البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧].

ليقيموا الصلاة يعني: وفقهم ليتموا الصلاة، وإنما ذكر الصلاة خاصة؛ لأن الصلاة أولى العبادات وأفضلها(١).

وقال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وعلى الآباء في هذا المقام أن يتعلموا من إبراهيم دوام الدعاء لأبنائهم في كل فرصة وخلوة.

١١. محاورًا في دعوة الكفار إلى الإله الحق.

ذكر القرآن الكريم نماذج من حوار إبراهيم عليه السلام مع المشركين من قومه، وفيها دروس وعبر لمن أراد أن يسلك طريق الدعاة في كل عصر وزمان، ومن ذلك: حواره مع قومه بشأن الإله الحق.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾[البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٨٠].

وحواره معهم بشأن تحطيم الأصنام، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣].

١٢. شجاعًا ومفاصلًا في العقيدة.

لم يكن إبراهيم عليه السلام جبانا ولا خوافا بل اتصف بالشجاعة رغم انعدام النصير من الناس، فقد خذله في دعوته أقرب المقربين إليه، وكان يتحدى بمفرده ويعلن البراء من الشرك وعبادة الأوثان، ويعلنه لقومه بكل صراحة ووضوح: ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

وأعلن البراء من الأوثان: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦].

وتجاوز القول إلى الفعل فكان فردا عن أمة يتهدد ويتوعد أصنامهم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾ [الأنبياء: ٥٧].

إنها دروس في الشجاعة وقول الحق بلا خوف ولا وجل.

ومعالم الاقتداء بإبراهيم عليه السلام كثيرة جدا، وهي تتجلى بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أمر بالاقتداء بأبيه

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٤٦.

إبراهيم، فكان نعم المقتدي لخير مقتدى، فحاز أخلاق القرآن كلها.

٢. ذو القرنين.

ورد في شأن ذي القرنين روايات إسرائيلية كثيرة، والأصح الذي عليه الأكثرون أنه كان ملكا قويا صالحا عادلا، وأن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب، وهذا هو القدر المعمور من الأرض[(١)].

قال مجاهد: «ملك الأرض أربعة: اثنان مؤمنان واثنان كافران. أما المؤمنان: فسليمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران: فالنمرود بن كنعان وبختنصر»[(٢)].

إن ذا القرنين مثال للشباب المثابر في الجد والاجتهاد، في الصبر والمصابرة، في الجلد والقوة، في العلم والحكمة، فقد ذكر بعض المفسرين أنه كان في حدود العشرين من عمره[(٣)].

مجالات الاقتداء بذي القرنين كثيرة، منها:

١. عدم الفتنة بالملك.

فقد أنعم الله تعالى على ذي القرنين بملك عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ۝٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ۝٨٦﴾ [الكهف: ٨٤ - ٨٦].

فظاهر الآية يشير إلى أن الله تعالى مكن له في الأرض، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح. وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة[(٤)]. وهو مع ذلك لم يفتتن بملكه ولم يصب بالبطر والغرور وسائر أمراض القلوب، بل ظل متذكرا للآخرة راجيا رحمة ربه.

٢. إقامة العدل بين الناس.

كان عادلًا بين الناس بما يحقق لهم الأمن والاستقرار.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ۝٨٨﴾ [الكهف: ٨٧ - ٨٨].

لقد أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوي وعقابه، ثم ذكرهم بعذاب الله الذي لا نظير له فيما يعرفه البشر. أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير[(٥)].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٥.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٦٠.
(٣) تفسير القاسمي ٧/ ٦٨.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٠.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩١.

لقد كان ذو القرنين يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته فما حكي نهاية في العدل وغاية الإنصاف[1].

وهذا هو دستور الحكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم.

والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء، وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا ومكانًا كريمًا وعونًا وتيسيرًا، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة عندئذ يجد الناس أن عدل الحاكم يحفز الرعية إلى الصلاح والإنتاج. أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون.

فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد. ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد[2].

ولرفع الهمم يذكر ذو القرنين المحسنين بجزاءين: أخروي: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهو بذلك يربطهم بالعقيدة. ودنيوي: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ وهو بذلك يقيم فيهم الشريعة، وهذا تمام العدل.

وقد ذكر المفسرون أن الحسنى: الجنة، والقول اليسر أي: الخير، أو المعروف، أو القول الجميل[3].

٣. التواضع وعدم التكبر.

إن مجرد خطاب الناس له بـ ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ [الكهف: ٩٤].

يشير إلى تواضعه بين الناس، وأنه لا يفرض عليهم ألقابًا يحبها كل من ملك.

فذو القرنين يعد النموذج الطيب للحاكم الصالح الذي يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب فيجتاح الأرض شرقا وغربا ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ثم هو بعد ذلك يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله[4].

٤. الاستعفاف عما في أيدي الناس.

فعندما عرض القوم على ذي القرنين المال مقابل حمايتهم من بطش يأجوج ومأجوج لم يستغل ضعفهم وحاجتهم، بل استغنى بما آتاه الله.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي ٧/ ٦٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩١.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢/ ٦٠٠، التفسير البسيط، الواحدي ١٤/ ١٣٧.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾[الكهف: ٩٤ - ٩٥].

أي: ما قواني به ربي خير من جعلكم ﴿فَأَعِينُونِى﴾ يعني: لا أريد منكم المال، بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾أي: سدًّا[١].

قال السعدي: «فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح؛ فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره»[٢].

إن من يستغني عما في أيد الناس يحبه الناس، وحتما سيكونون له عونًا وسندًا.

٥. **إشراك الناس معه في القيام بالأعمال.**

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾[الكهف: ٩٥].

أي: ما قواني عليه ربي خير من جعلكم، فأعينوني بأبدانكم وقوتكم، أجعل بينكم وبينهم ردما، والقوة التي طلبها منهم: فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل[٣].

فلم يعمل ذو القرنين لهم ذلك الردم، ولكن علمهم كيف يصنعون الردم، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز[٤].

٦. **العلم، والقوة، والإصلاح، والإشراف على العمل بنفسه، وعدم الاتكال على الغير.**

تظهر قوته من تمكين الله له في الأرض، ويتجلى إصلاحه بين الناس في إقامة الحق، ومحاربة المفسدين، وبناء السد، وأما العلم فتجليه الآية الكريمة: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾[الكهف: ٩٦].

إن صناعة الفولاذ الذي أشارت إليه عمل فريد أشرف عليه ذو القرنين بنفسه فقد «قال للعملة: انفخوا بالكيران في زبر الحديد التي وضعت بين الصدفين ففعلوا، ومازالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجا، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض، وسد الفجوات التي بين الحديد وصار جبلا صلدًا»[٥].

«وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته. وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجله في كتابه الخالد سبقا للعلم البشري

(١) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١١٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٧.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣١١٨.
(٥) تفسير المراغي ١٦/ ١٩.

الحديث بقرون لا يعلم عددها إلا الله»[1].

وتظهر حكمة ذي القرنين في التعامل مع متطلبات المرحلة، فمن العجيب أن القرآن عندما يحكي أمرًا فهو لا يحكيه إلا لهدف، فهم طلبوا من ذي القرنين أن يبني سدًّا، لكنه اقترح أن يجعل لهم ردمًا، وثمة فرق بين الردم والسد، لقد تبين من العلم الحديث أن السد قد تحدث له هزة من أي جانب فينهدم كله، أما الردم فإن حدثت له هزة يزدد تماسكًا[2].

٧. الشكر لأنعم الله.

يعترف ذو القرنين بالفضل لله عز وجل قائلا: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

أي: هذا السد والاقتدار والتمكين من تسويته نعمة من الله ورحمة على عباده[3].

ويتعلم المرء من هذا الشكر لأنعم الله، فبالشكر تدوم النعم، وبالجحود والكفران تنزل النقم.

٣. امرأة فرعون.

ضرب الله تعالى بها مثلا للذين آمنوا، وما ضرب المثل بالصالحين في القرآن الكريم إلا لأخذ العبرة والعظة والتأسي والاقتداء الحسن ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

وامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم ذكرها الله في مجال القدوة والأسوة لغيرها: «قال يحيى بن سلام: قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران؛ ترغيبًا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين»[4].

ومن معالم الاقتداء بها:

١. الصبر على البلاء، والثبات على المنهج.

قال المفسرون: كانت تعذب في الله لأجل إيمانها[5].

٢. التضرع إلى الله وقت الشدائد.

فقد وصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وكان سؤالها لربها من أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن[6].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٩٣.
(٢) تفسير الشعراوي ٥/ ٣١١٨.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٣٢٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٠٢.
(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٩.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران)[1]. وقولها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾«قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار»[2].

٣. إنكار المنكر والتبرؤ من الكفر والضلال.

إن امرأة فرعون، لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون وحدها عن التبرؤ من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتا في الجنة. وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

قال ابن كثير: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾«أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله»[4].

٤. الترفع عن متاع الدنيا.

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره. فقد كان فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، وكانت امرأته في قصر هو أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان. ولم تعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شرا ودنسا وبلاء تستعيذ بالله منه، وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه[5].

٥. قوة شخصية المرأة.

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراته. ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي، وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهواتف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد. الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى[6].

٨٧٥.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون)، رقم ٣٤١١، ٤/ ١٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٢.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٢١.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٢.

(٥) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٢٢.

(٦) انظر: المصدر السابق ٦/ ٣٦٢٢.

٦. العطف والرحمة.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩].

عن قتادة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قال: ألقيت عليه رحمتها حين أبصرته[١].

٧. الإخلاص والتوقير للزوج.

ففي قولها لزوجها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فخاطبت المفرد بلفظ الجمع تعظيم لزوجها ولمقامه الملكي. ويستفاد إخلاص آسية بنت مزاحم لزوجها من قولها له: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فهي لم تنظر لمصلحتها فحسب في رعاية الطفل بل نظرت لمصلحة زوجها أيضا، وكان هذا قبل إيمانها وقبل أن تتبرأ من زوجها وعمله.

وذكر بعض المفسرين[٢] أن التي قالت: (لا تقتلوه) غير امرأة فرعون التي آمنت بموسى عليه السلام، غير أن الطبري أورد روايات متعددة أن التي أشارت إلى تبنيه هي آسية بنت مزاحم[٣].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٢٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٢٥.

ثانيًا: نماذج من القدوة السيئة في القرآن الكريم ومعالم الاقتداء بهم:

١. فرعون.

ورد ذكر فرعون في القرآن الكريم أربعا وسبعين مرة، ولم يكن ذكره لمجرد سرد القصص بل كان لأخذ العبرة والعظة والتحذير من السير على طريقه في الظلم والاستبداد والكبر والغرور، وللإشارة إلى أن السير في هذا الدرب مصيره الهلاك والخسران، حتى إن الله تعالى نجى بدنه بعد إهلاكه ليكون عبرة لكل من اقتدى به، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

يعني: عبرة وموعظة، فأظهره الله لهم حتى يشاهدوه وهو ميت فيعتبروا به؛ لأنه كان في غاية العظمة فصار إلى نهاية الخسة والذلة ملقى على الأرض لا يهابه أحد[٤].

وذكر بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة، وهم بنو إسرائيل، أو لمن يأتي بعدك من القرون، ومعنى كونه آية أن يظهر للناس عبوديته، وأن ما كان يدعيه من الربوبية محال، وأنه مع ما كان عليه من عظيم الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٦٣.

ربه، فما الظن بغيره؟!»[1].

قال أبو حيان: «وقرئ: لمن خلفك بفتح اللام أي: من الجبابرة والفراعنة ليتعظوا بذلك، ويحذروا أن يصيبهم ما أصابك إذا فعلوا فعلك»[2].

لقد حذر القرآن الكريم أشد تحذير من اتخاذ فرعون وأمثاله قدوة وأسوة، وبين أن الاقتداء بهم مصيره الوبال والخسران، وكان هذا التحذير صراحة في آيات مخصوصة تحذر من اتباعه، وجاء التحذير من السير وفق منهجه أيضا عقب ذكر قصته: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، وسيأتي عرض هذه الآيات بعد قليل في مجالات القدوة بفرعون.

ومن الآيات التي جاء التحذير فيها صراحة من الاقتداء بفرعون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود: ٩٦-٩٩].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى، عليه السلام، بآياته وبيناته، وحججه ودلائله الباهرة القاطعة إلى فرعون لعنه الله، وهو ملك ديار مصر على أمة القبط ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: مسلكه ومنهجه وطريقته في الغي والضلال ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾أي: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا، وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر»[3].

أما نماذج القدوة السيئة في شخصية فرعون فكثيرة جدا أذكر منها:

١. العلو.

العلو[4]: ضد السفل، والعلوي والسفلي المنسوب إليهما، والعلو: الارتفاع، وقد علا يعلو علوًا وهو عالٍ، و(علا) يقال في المحمود والمذموم، و (علي) لا يقال إلا في المحمود، والوارد بشأن فرعون هو من الأول، ومنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ

(١) انظر: البحر المحيط ٦/ ١٠٤، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٣٩-٤٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٤٨.
(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٥٨٢-٥٨٣.

﴿لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦].

أي: إن فرعون تجبر في أرض مصر وتكبر، وعلا أهلها وقهرهم، حتى أقروا له بالعبودية[(١)].

وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٧ - ٢٦].

لقد أعلن فرعون عن نفسه أنه إله من دون الله علوًا واستكبارًا في الأرض، فأهلكه الله (عبرةً لمن يخشى) أي: عظة لمن يريد أن يعتبر، ويسلم[(٢)].

وفيه تبصرة للمقتدين بأمثال فرعون والمتمسكين بعراهم أن هذه القدوة إلى بوار.

٢. الإسراف والغرور.

«السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر»[(٣)].

و«الغرور: هو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب»[(٤)].

قال تعالى: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣١].

أي: إن فرعون «مرتفعا على العالم، أو متكبرا مسرفا من المسرفين»[(٥)]، أي: من المتجاوزين الحق إلى الباطل، وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها[(٦)].

وذكر المفسرون: أنه كان مسرفا لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية[(٧)].

٣. الإفراط والطغيان.

والإفراط: أن يسرف في التقدم، ومنه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أي: إسرافًا وتضييعًا[(٨)].

طغوت وطغيت طغوانًا وطغيانًا، وأطغاه كذا: حمله على الطغيان، وذلك تجاوز الحد في العصيان[(٩)].

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٦.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٤٣، تفسير السمعاني ٦/ ١٥٠.
(٣) المفردات، الأصفهاني ص ٤٠٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص ٦٧٢.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٤٠٤.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٦٧.
(٧) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ١١/ ٢٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٨٩.
(٨) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٦٣١.
(٩) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٥٢٠، التعريفات، الجرجاني ص ١٤١، الكليات، الكفوي ص ٥٨٤.

وقال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١﴾ [الفجر: ١١].

وأما الإفراط: «فهو الإسراف والإشطاط والتعدي، يقال منه: أفرطت في قولك: إذا أسرف فيه وتعدى»[(١)].

ومعنى ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ هنا: «أن يبادر بعقوبتنا»[(٢)] أو «أن يطغى يتكبر ويستعصي علينا»[(٣)].

قال الرازي: «يفرط علينا بأن لا يسمع منا: أو أن يطغى بأن يقتلنا»[(٤)].

وقال سيد قطب: «والفرط هو التسرع بالأذى للوهلة الأولى، والطغيان أشمل من التسرع وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما أو كليهما»[(٥)].

٤. الاستكبار.

والتكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع وهو التزين بأكثر ما عنده، وإنما يستعمل الاستكبار حيث لا استخفاف، بخلاف التكبر فإنه قد يكون باستخفاف[(٦)].

والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب، فالكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة. والاستكبار المذموم، أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له،[(٧)] وبالنظر في أحوال فرعون فإننا نجده قد تمثل الأنواع الثلاثة.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[القصص:٣٩-٤١].

وكان استكبار فرعون وجنوده بامتناعهم عن قبول الإيمان ترفعًا وتكبرًا[(٨)].

وكان استكبارهم في أرض مصر بالباطل والظلم، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون إلى الله بالبعث للجزاء.

وقد جعلهم الله قدوة وأئمةً وقادة في الكفر يأتم بهم العتاة يدعون إلى النار، لأن من أطاعهم دخلها[(٩)].

إن الاستكبار بالحق لا يكون إلا لله

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣١٤.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤٠١.
(٣) الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٤٦.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ٥٤.
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٦.
(٦) الكليات، الكفوي ص ٢٨

(٧) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٦٩٧
(٨) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٢، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٧٠.
(٩) زاد المسير ٣/ ٣٨٥.

تعالى، وهو المتكبر في الحقيقة أي: المبالغ في كبرياء الشأن، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الله سبحانه: (الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، من نازعني واحدًا منهما، ألقيته في جهنم)[(٢)].

وفي هذا عظة وعبرة لكل مستكبر قال ابن جرير: «وجعلنا فرعون وقومه أئمة يأتم بهم أهل العتو على الله والكفر به، يدعون الناس إلى أعمال أهل النار»[(٣)].

وقال الرازي: «وإنما جعلهم الله تعالى أئمة في هذا الباب، لأنهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات، ومن كان كذلك استحق أن يكون إماما يقتدى به في ذلك الباب»[(٤)].

ومن الآيات الواردة في ذكر استكبار فرعون قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يونس: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥ - ٤٦].

٥. الظلم.

والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، وهو على ثلاثة أنواع:

الأول: ظلمٌ بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك.

والثاني: ظلمٌ بينه وبين الناس.

والثالث: ظلمٌ بينه وبين نفسه[(٥)].

والملاحظ أن فرعون حاز الأنواع الثلاثة بلا منازع.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠٠، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٤٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، رقم ٤١٧٤، ٢/ ١٣٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٩٥، رقم ٤٣١١.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٦٠١.

(٥) انظر: المفردات، الأصفهاني ص ٥٣٧-٥٣٨.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٣٩ - ٤٣].

لقد كان فرعون وجنوده قاهرين غيرهم بالظلم[١]، والاستبداد، فأهلكهم الله وجعلهم بصيرة للناس وعبرة[٢].

والمعنى: «فانظر أيها الإنسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر أن تفعل مثل فعله»[٣].

قال مقاتل: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ في هلاك الأمم الخالية، بصيرة لبني إسرائيل، وغيرهم، وعلى هذا التقدير: أهلكناهم بصائر للناس؛ ليتبصروا ويعتبروا بهلاكهم[٤].

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

أي: شركًا وتكبرًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى عليه السلام[٥].

٦. الإفساد.

الفساد: «خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة»[٦].

والفساد: أعم من الظلم، لأن الظلم النقص فإن من سرق مال الغير فقد نقص حق الغير، والفساد يقع على ذلك، وعلى الابتداع واللهو واللعب، والفاسد: مأخوذ من (فسد اللحم) إذا أنتن ويمكن الانتفاع به، والباطل: من (بطل اللحم)، إذا دود وسوس وصار بحيث لا يمكن الانتفاع به[٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

أي: إن القتل ظلمًا إنما هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب[٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يشير له قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم، وآتاه أعداءهم، فأغرقهم عن آخرهم، وبمرأى من موسى وقومه»[٩].

٢. ابني آدم.

يحدثنا القرآن الكريم عن قصة عظيمة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٧٢.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦١٠.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٤٤.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٣٤٦، التفسير البسيط، الواحدي ١٧/ ٤٠٤.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٣٩، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٩٢.
(٦) المفردات، الأصفهاني ص ٦٣٦.
(٧) الكليات، الكفوي ص ٦٩٢.
(٨) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦٢٨.
(٩) محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٦٢.

سطرها ابن آدم الأول بيديه، وقصها القرآن الكريم علينا لنأخذ منها العبرة والعظة، فنحذر من جانب الأسوة السيئة المتمثلة فيها، إنها قصة اقتتال ابني آدم، قال ابن حجر: «هو قابيل قاتل أخيه هابيل»[1]، وكذا توافقت معظم كتب التفسير على تسميتهم، وهي إسرائيليات، فلم أقف على رواية صحيحة مسندة، تدل على هذه التسمية، وذكر ابن حجر: «أن سبب قتل قابيل لأخيه هابيل أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن من ولده بأنثى الآخر، وأن أخت قابيل كانت أحسن من أخت هابيل، فأراد قابيل أن يستأثر بأخته فمنعه آدم، فلما ألح عليه أمرهما أن يقربا قربانا، فقرب قابيل حزمة من زرع، وكان صاحب زرع، وقرب هابيل جذعة سمينة، وكان صاحب مواش، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل دون قابيل، وكان ذلك سبب الشر بينهما، وهذا هو المشهور»[2].

وتبقى هذه الروايات لمجرد الاستئناس لأنها لم ترد بروايات مسندة صحيحة، وقد ذكرهما القرآن الكريم ولم يسمهما.

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

ومن جمال التناسب والتآخي بين هذه الآية وسابقاتها، أن هذه الآية تتكلم عن أخوين متناحرين، وسابقتها تتكلم عن أخوين تحابا في الله، وتوحدا على طاعته، وتواثقا على الدعوة إليه، إنهما موسى وهارون ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

تذكر لنا كتب التفسير أن هابيل وقابيل كانا غلامين، وتحدد بعض كتب التفسير سنهما، وفيها:

«وكان لهابيل يوم قتل عشرون سنة»[3]، وأضاف ابن حجر أن هابيل قتل وله عشرون سنة ولأخيه القاتل خمس وعشرون سنة[4]، ومستند هذه الأقوال روايات إسرائيليه، فلا يؤخذ بها، وعلى الروايات التي اعتمدتها كتب التفسير في سبب الخلاف بينهما أنه الرغبة في الزواج من أخت لهما، فهما بناء على ذلك في مرحلة الشباب، غير أن تقييد هذه المرحلة بسن معينة مسألة تحتاج إلى دليل، ولا يوجد.

لقد ذكر القرآن الكريم صورة مختصرة

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٢٩٦.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٦٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٠٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢.

(٣) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٥١، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٤١، وغرائب القرآن، النيسابوري ٢/ ٥٨٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤.
(٤) فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ١٩٣.

للحوار بين الأخوين قبل أن تقع الجريمة النكراء، وكان الكلام فيها لهابيل وهو يخاطب قابيل مذكرا له بالله وعقابه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة:٢٨-٣٠].

قال ابن عباس: «خسر دنياه وآخرته، أما دنياه فإسخاط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار إلى النار»[(١)].

وقد ترتب على هذه الجريمة أن يحمل القاتل الأول تبعات جريمته مع كل حالة اقتداء به، قال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها، لأنه أول من سن القتل)**[(٢)].

والكفل -بكسر الكاف-: الجزء والنصيب. وقيل: هو الضعف، وهذا الحديث من قواعد الإسلام، وهو أن كل من ابتدع شيئا من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة، ومثله من ابتدع شيئا من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة[(٣)].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: **أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي). قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي وبسط يده إليَّ ليقتلني؟ قال: (كن كابن آدم)**. وفي قوله عليه السلام: (كن كابن آدم)، وليس ابني آدم، إشارة لطيفة إلى أن هابيل المقتول المظلوم هو ابن آدم لا قابيل القاتل الظالم[(٤)]، كما قال تعالى في حق ولد نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦].

ومن الأحاديث التي تتوافق في معناها مع الحديث السابق في أجر القدوة الحسنة ووزر القدوة السيئة قوله صلى الله عليه وسلم: **(من سن في الإسلام سنةً حسنةً فله**

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم ٣٣٣٥، ٤/ ١٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب بيان إثم من سن القتل،رقم، ١٦٧٧، ٣/ ١٣٠٣.
(٣) انظر: شرح النووي على مسلم ١١/ ١٦٦.
(٤) انظر: عون المعبود وحاشية ابن القيم، العظيم آبادي ١١/ ٢٢٥.

أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سن في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ»[(١)].

وورد الحديث من غير لفظ: (في الإسلام)، ونصه: (من سن سنةً حسنةً فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها، لا ينقص من أجورهم شيئًا، ومن سن سنةً سيئةً فعمل بها كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئًا)[(٢)].

وفي الحديث دلالة واضحة على اجتناب البدع؛ لأن الذي يحدث البدعة ربما يتهاون بها ويستخف بأمرها في الأول ولا يشعر بما يترتب عليها من المفسدة، وهو أن يلحقه إثم من عمل بها من بعده، إذ كان هو الأصل في إحداثها[(٣)].

وذكر السمعاني عن السدى قال: «ما من كافر يدخل النار إلا وهو يلعن إبليس؛ لأنه أول من سن الكفر، وما من عاص يدخل النار إلا ويلعن قابيل؛ لأنه أول من سن المعصية»[(٤)].

يتضح مما سبق أن مجالات القدوة السيئة بابن آدم تتجلى في: المعصية، والظلم، والحسد، وقد توج هذا بالقتل.

٣. امرأة لوط وامرأة نوح.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾[التحريم: ١٠].

فالمعنى «ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط، إن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي: ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف، فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين»[(٥)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرةٍ، أو كلمةٍ طيبةٍ، وأنها حجابٌ من النار، رقم ١٠١٧، ٢/ ٧٠٥.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٩٢٠٠، ٣١/ ٥٣٦، وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم ٢٠٣، ١/ ٧٤.
(٣) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني ١٠/ ٣٢٩.
(٤) تفسير السمعاني ٥/ ٤٩.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٤

ويلاحظ في سورة التحريم أن ضرب المثل جاء بالنساء دون الرجال، فبعد ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط جاء الكلام عن امرأة فرعون، وبعده عن مريم ابنة عمران، وكأن الآيات تتكلم عن صنفين من النساء، فاسق خائن، ومؤمن صابر.

ولهذا المثل مناسبته وفائدته فهو مرتبط بأول سورة التحريم التي كان الكلام فيها عن أزواج النبي عليه الصلاة السلام، فهو تذكير لزوجات النبي عليه الصلاة السلام أن مجرد الاتصال بالنبي عليه الصلاة والسلام لا يجدي نفعًا إذا لم يقترن معه الإيمان والعمل الصالح، وفيه عبرة وعظة لجميع نساء المؤمنين.

يبين قتادة مناسبة وورود الآية: أنه تخويف لعائشة وحفصة بتظاهرهما على النبي صلى الله عليه وسلم فإنهما إن عصيا ربهما لم يغن محمد صلى الله عليه وسلم عنهما من الله شيئًا.

ثم قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يعني: المرأة المسلمة التي يتزوجها الكافر، فإن كفر زوجها لم يضرها مع إسلامها شيئا، يقول لعائشة وحفصة رضي الله عنهما: لا تكونا بمنزلة امرأة لوط في المعصية، وكونا بمنزلة امرأت فرعون ومريم في الطاعة[(١)].

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٣٧٩.

أما عن طبيعة الخيانة التي بدرت منهما فحاصل ما ذكره المفسرون في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أن خيانتهما لم تكن في الزنا، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يبتليهم الله في نسائهم بفساد، وإنما كانت الخيانة في الدين، ومما جاء في ذلك:

عن ابن عباس: «كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط إذا نزل به الضيف بالليل أوقدت النار حتى يعلم قومه أنه قد نزل به ضيف، وإذا نزل به بالنهار دخنت»[(٢)].

وروى الضحاك عنه قال: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين، وقال عكرمة: فخانتاهما في الدين[(٣)].

وروى أن ابن عباس سئل عن قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ليس بالزنا، ولكن كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل على الأضياف[(٤)].

وقد ذكرت امرأة لوط في آيات أخرى، منها:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا

(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩٨، التفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٩٧، والتفسير البسيط، الواحدي ٢٢/ ٢٨.

﴿امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٢-٨٣].

«من الغابرين أي: الباقين في عذاب الله، قال ابن عباس وقتادة. غبر الشيء إذا مضى، وغبر إذا بقي. وهو من الأضداد»[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥٧-٦٠].

استثنى الله تعالى من آل لوط امرأته وذلك لأنها كانت كافرة فكانت من الغابرين.

وقال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الشعراء: ١٧٠-١٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [النمل: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الصافات: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٧].

ويلاحظ هنا أن الله تعالى قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: فأخرجنا لوطا وأهل بيته قصدا للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط، والمؤمن: هو المصدق بما يجب التصديق به. والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان، ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين، فحصل في الكلام مع التفنن في الألفاظ الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما.

والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد لزوجها وتضمر الكفر وممالأة أهل القرية على فسادهم، فإن بيت لوط كان كله من المسلمين، ولم يكن كله من المؤمنين، فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معًا[2].

ومما يلاحظ أيضا في معظم القصص التي فيها ذكر للقوم الخاسرين أن خاتمة الآيات تتحدث عن وجوب أخذ العبرة والعظة وعدم الاقتداء بهم، فقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٨.

﴿...﴾ ﴿٣٧﴾ [الذاريات:٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف:٨٤].

فالقرية بقيت فيها معالم الخراب تحذيرا لمن خاف عقاب الله وعذابه.

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر:٧٤-٧٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الشعراء:١٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

أما قصة امرأة نوح فلم تذكر في القرآن في غير سورة التحريم، والذي يظهر أن نوحا لم يعلم بخونها؛ لأن الله سمى عملها خيانة(١).

وفي الختام: فإن الآيات واضحة في هلاك من اقتدى بهاتين المرأتين في الكفر، والخيانة، والفساد، والضلال، وأن الانحراف عن دعوة الأنبياء مصيره الخسران والبوار.

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، التربية، التقليد

(١) انظر: المصدر السابق ٢٨/ ٣٧٤.





عناصر الموضوع

المجلد السابع والعشرون

مفهوم القرآن

أولًا: المعنى اللغوي:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، ومن هذا المعنى تطلق كلمة قرءٍ على الحيض وعلى الطهر، فهي من الأضداد، يقال: قرأت المرأة حيضةً أو حيضتين.

والقُرْءُ انقضاء الحيض، على قول البعض، وقال بعضهم: ما بين الحيضتين، والقارئ: الوقت، تقول: أَقْرَأَتِ الرِّيحُ: إذا دخلت في وقتها.

واستقرأ الجمل الناقة: إذا تاركها؛ لينظر ألقحت أم لا، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

حاصل ما تم دراسته من تعريفات مصطلح القرآن الكريم هو أنه: كلام الله تعالى القديم، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية، وهو معجزٌ ببيانه، متعبدٌ بتلاوته، منقولٌ إلينا بالتواتر، مقروءٌ في المصاحف، مبدوء بسورة الفاتحة ومنتهٍ بسورة الناس[(٢)].

وهذا التعريف شرحه على النحو الآتي:

(كلام الله تعالى القديم): خرج منه أي كلام غير كلام الله تعالى من قول النبي صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك، وهو قديم؛ إذ إنه أصيل من عند الله تعالى لا يعتريه نقص ولا مشكلة.

(المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم): خرج منه أية شبهة تقول بأنه أنزل جملة واحدة، أو أنه مخلوق؛ لأنه نزل من الله تعالى إلى قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

(بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام): ووساطة سيدنا جبريل عليه السلام تعني أن الكلمات القرآنية نزلت بأمر الله تعالى على لسان سيدنا جبريل عليه السلام، كما علمه الله تعالى.

(وهو غير مخلوق؛ إذ أنه جزء من صفة الذات العلية): بيان سبب أنه غير مخلوق، وهو أن

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٧٥٠.
(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان ص٦٦، بحوث منهجية في علوم القرآن، موسى إبراهيم الإبراهيم ص١٤.



الكلام القرآني جزء من صفة الخالق، وليس منفكًا عنه، وبالتالي فإن ما كان جزءًا من الخالق ليس مخلوقًا.

(وهو معجز ببيانه، متحدىً به، متعبدٌ بتلاوته): خرج منه الحديث القدسي، أو أي قولٍ لله تعالى غير القرآن؛ لأن القرآن -وحده- هو المعجز والمتحدى به، وبالذات في وجهه الأصيل وهو البيان، والقرآن -وحده- دون غيره يتعبد به في التلاوة.

(منقول إلينا بالتواتر): إن القرآن -وحده- دون غيره، هو الذي لا يقبل منه أية كلمة منه إلا إذا سمعتها الأمة عبر تواتر أجيال السند؛ إذ لا يكفي خبر الآحاد في النقل، ولو بوجه من وجوه أحكامه.

(مقروء في المصاحف): من هذه الفقرة يتبين أن هناك فرقًا بين القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وبين المصحف الذي هو الأوراق المكتوب فيها كلام الله تعالى، أي: القرآن، وعلى هذا فإنه لا يجوز أن يجمع القرآن؛ لأنه واحد، وفي المقابل فإنه يجوز أن يجمع المصحف؛ لأنه أوراق بداخلها القرآن.

(مبدوءٌ بسورة الفاتحة، ومنتهٍ بسورة الناس): وفي هذا إشارة إلى أن القرآن الكريم يتكون من (١١٤) سورة، تبدأ من سورة الفاتحة، وتنتهي إلى سورة الناس، وترتيب السور القرآنية على الراجح توقيفي، أما ترتيب الآيات فإنه بالإجماع توقيفي.

ويظهر أن معنى الجمع والضم في اللغة يتناسب مع ما سمي به القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وهذه السور هي كلام الله عز وجل، بالتالي فالمعنى الاصطلاحي خص بأحد المعاني اللغوية للقرآن.

القرآن الكريم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قرأ) في القرآن الكريم (٨٨)مرة، يخص موضوع البحث منها (٦٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٦٨	﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]

وجاء القرآن في الاستعمال القرآني بمعنى: الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب القاف١، ص٩٣٧-٩٣٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٦٦٩.



الألفاظ ذات الصلة

١ الكتاب

الكتاب لغةً:

الحكم، ومنه قوله: كتاب الله، أي: حكم الله، وكتاب الله: القرآن[1].

الكتاب اصطلاحًا:

«الحجة الثابتة من جهة الله تعالى»[2]، وقد وردت في القرآن بمعنى التوراة واللوح المحفوظ، والقرآن.

الصلة بين الكتاب والقرآن:

الكتاب هو كلمة تشمل القرآن الكريم وغيره، أما القرآن فهو تلك المعجزة الخالدة، أما إذا عرف الكتاب بـ(الـ) التعريف، فإنها تكون معهودةً على القرآن الكريم.

٢ الكلام:

الكلام لغةً:

اسم جنسٍ يقع على القليل والكثير من الحديث[3].

الكلام اصطلاحًا:

«إظهار ما في الباطن على الظاهر لمن يشهد ذلك بنحو من أنحاء الإظهار»[4].

الصلة بين الكلام والقرآن:

الكلام الذي ورد في الاصطلاح لا ينطبق على القرآن؛ لأن القرآن ليس مخلوقًا مع أنه كلام؛ ولذلك فإن كلام الله تعالى ليس ككلام البشر، فهو جزء من صفة الذات العلية، كما أن القرآن الكريم هو محل التدبر والاتعاظ، ولا يكون هذا في كلام البشر.

٣ الذكر:

الذكر لغة:

مصدر ذكر الشيء يذكره ذِكرًا وذَكرًا، وأصل الذكر في اللغة التنبيه على الشيء، ومن

(١) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٣٣٥.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٧٩.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٢٧٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المنَاوي ص٢٨٣.

ذكرك شيئا فقد نبهك عليه، وإذا ذَكَّرته فقد نبهته عليه[1].

الذكر اصطلاحًا:

قال ابن علان: «أصل وضع الذكر هو ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه»[2].

الصلة بين الذكر والقرآن:

القرآن الكريم جزء من الذكر، وهو أشمل من الذكر في جزئية الإعجاز، والذكر أشمل من القرآن في جزئية أن كل ما تعبدنا الشارع بلفظه مما يتعلق بتعظيم الحق والثناء عليه، فيدخل فيه ما ورد في السنة المطهرة من النصوص الصحيحة الثابتة.

(١) تهذيب الأسماء واللغات، النووي ٣/ ١١١.

(٢) الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية ١/ ٣٩٦.



القرآن الكريم آية وهداية

اختصاص الله سبحانه وتعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم بآية من آياته كاف في الدلالة على نبوته قائم مقام معجزات من سواه من الأنبياء، جعله الله هداية لخلقه إلى كل خير، وهذا ما ستتناوله بالبيان فيما يأتي:

أولًا: القرآن الآية الشاهدة بالنبوة:

لما ابتعث الله رسله عليهم السلام إلى الناس يدعونهم إلى الحق ويهدونهم إليه أيدهم بآيات تدل على صدقهم كعصا موسى التي تنقلب حية، أو ناقة صالح التي أخرجت من الصخر[(١)]، غير أن هذه الآيات المصدقات كانت محدودة بالزمان والمكان، والسبب في ذلك أن رسالات هؤلاء الأنبياء كانت رسالات لقومهم خاصة، وأن الحجة تقوم عليهم بمعاينتها ثم بنقل خبرها إليهم نقلا لا يدع مجالا للشك فيها عمن عاينها، على قرب عهدهم بها. ثم إن هذه المعجزات تتناسب مع ما برع فيه كل قوم؛ لتكون الحجة أبين وأقوم.

قال الباقلاني: «جرت سنة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه؛ لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمور حسية تخالف السنن الكونية، وتشذ عن النواميس الطبيعية، وتكون من قبيل ما استحكم في زمانهم، وغلب على خاصتهم، وعظم في نفوس عامتهم؛ لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبطلة لأقوى الأشياء في حسبانهم؛ ولئلا يجد المبطلون متعلقا يتشبثون به، ولا سبيلا يتخذونه إلى اختداع الضعفاء؛ فقد أيد الله -جل جلاله- موسى -عليه السلام- وكان عصره عصر سحر، بفلق البحر، وانقلاب العصا حية تسعى، وانبجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرواء. وأيد عيسى -عليه السلام- وكان عهده عهد طب، بإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى بإذنه»[(٢)].

ولما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، جعله الدرة الأخيرة في عقد النبوة، واللبنة المتممة لبنيانها؛ فهو النبي الخاتم الذي لا نبي بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولذلك وجب حفظ كتاب نبوته من التبديل، وهو الرسول الذي تعم رسالته الناس جميعًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ولذلك وجب أن تظل معجزته الدالة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٢٥.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

على صدقه قائمة بينهم يعاينونها ويشهدونها فتقوم عليهم الحجة بها. وهذا الأمر نص عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[(١)].

فكانت معجزته صلى الله عليه وسلم عقلية لا حسية، ومستمرة لا آنية، ولذلك يبقى مفعولها دائمًا وتبقى الاستجابة لها مستمرة، قال السيوطي: «هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية؛ ليراها ذوو البصائر، كما أنه صلى الله عليه وسلم قال: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة).

قيل: إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه.

وقيل: المعنى أن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًا»[(٢)].

وتجدر الإشارة إلى أنه عليه -الصلاة والسلام- قد جرت على يديه معجزات وخوارق كثيرة، غير أن الآية الوحيدة التي جعلت شاهدًا على صدقه ودليلًا على نبوته هي القرآن الكريم، فإنه سبحانه «لما أرسل رسوله محمدًا، صلى الله عليه وسلم، إلى الناس أجمعين، وجعله خاتم النبيين أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه من المرسلين، وخصه بمعجزة عقلية خالدة، وهى إنزال القرآن الكريم، الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[(٣)].

وقد وقع التحدي بهذا القرآن للخلق جميعًا، وما زال قائمًا إلى يوم القيامة، لا يجد الناس له معارضًا، ولو بالجزء الأيسر منه «سورة لا تجاوز ثلاث آيات قصيرات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي إلى النبي صلى الله عليه، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ٥.

من مثل سورتي العصر والكوثر».

ولقد نصت الآيات نصًّا صريحًا على أن القرآن الكريم كاف في الدلالة وحده على صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

فقوله: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.. جواب لقولهم ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: أو لم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بأن يأتوا بمثله، أو بسورة منه فعجزوا، ولوا أتيتهم بآيات موسى وعيسى لقالوا: سحر، ونحن لا نعرف السحر[١]، وفي الآية إخبار: «بأن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات من سواه من الأنبياء»[٢].

ويلاحظ أن التحدي بالقرآن الكريم تدرج بصفة تنازلية على مستويات:

❁ فتحدوا أولًا أن يأتوا بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٥.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

[الطور: ٣٤]. «وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء وأمهلهم طول السنين فلم يقدروا»[٣].

❁ ثم تحدوا أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

❁ ثم تحدوا أن يأتوا بسورة من عند أُمّيٍّ مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

❁ ثم تحدوا أن يأتوا بسورة مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

قال الخازن: «أي: قل لهم يا محمد إن كان الأمر كما تقولون: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ يعني بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم، فأنتم عرب مثلي في الفصاحة والبلاغة.

فإن قلت: قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وقال سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فما فائدة ذلك وما الفرق بينهما؟

(٣) المصدر السابق ٤/ ٣.

قلت: لما كان محمد صلى الله عليه وسلم أميًا لم يقرأ ولم يكتب وأتى بهذا القرآن العظيم كان معجزًا في نفسه، فقيل لهم فأتوا بسورة من مثله يعني: مع إنسان أُمِّيٍّ مثل محمد صلى الله عليه وسلم يساويه في عدم الكتابة والقراءة[1].

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: فأتوا بسورة تساوي سور القرآن في الفصاحة والبلاغة، وهو المراد بقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعني: أن السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه، وهو المراد من قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: وادعوا للاستعانة على ذلك من استطعتم من خلقه ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وهذا التدرج في التحدي مبني على أن الآيات نزلت بهذا الترتيب، قال في الإتقان: «لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين، فلم يقدروا كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾

ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ ثم تحداهم بسورة في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ الآية ثم كرر في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، الآية، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. هذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها؛ قطعًا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا: (سحر) وتارة قالوا: (شعر) وتارة قالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ كل ذلك من التحير والانقطاع، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنف شيء وأشده حمية، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم

(١) قال ابن عاشور رحمه الله: «فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أمي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة».
انظر: التحرير والتنوير ١/ ٣٣٩.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٤٤٤.

لبادروا إليه؛ لأنه كان أهون عليهم»[(١)].

أما ابن عطية فعنده أن التحدي بالعشر مبني على التوسيع عليهم في كونها مفتريات؛ بمعنى المضاهاة في اللفظ من غير الالتفات إلى المعنى، وعليه فلا حاجة لكون التحدي بالعشر وقع قبل التحدي بالسورة.

قال: «ووقع التحدي في هذه الآية -آية سورة هود- ﴿بِعَشْرِ﴾؛ لأنه قيدها بالافتراء، فوسع عليهم في القدر؛ لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه الحجة، ونظمه ووعده ووعيده وعجزوا في هذه الآية، بل قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر؛ لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة، ولا تبالي عن تقديم نزول هذه على هذه، ويؤيد هذا النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فكلفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية يونس. وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول على تلك، ولا يصح أن يعجزوا في واحدة فيكلفوا عشرًا، والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفتراة، وآية سورة يونس في تكليف سورة متركبة على قولهم: افتراه، وكذلك آية البقرة وإنما ريبهم بأن القرآن مفترى.

قال: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة»[(٢)].

والحاصل أن القرآن الكريم قد أعلن أن معجزته الشاهدة بصدقه قائمة فيه، وقال للمعارضين: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وأعلن أن إعجازه للخلق جميعا سيظل قائمًا مستمرًّا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولا تعرف حجة أبلغ من هذه، ولا يعرف كتاب تحدى الناس على مر الزمن معلنًا عجزهم عن مضاهاته، بل مضاهاة الجزء اليسير منه.

ومن أعظم دلائل عظمته استغناؤه بذاته في الدلالة على صدقه من غير حاجة إلى شهادة غيره، ورغم أن التواتر حجة عقلية

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٣.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥٥.

قاطعة عند العقلاء، إلا أن القرآن الكريم غير محتاج إليها في إثبات صدقه، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

أولًا: هدايات القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الهادي إلى كل خير، وقد وصفته آياته بأن ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قال الرازي: «الهدى عبارة عن الدلالة، وقال صاحب الكشاف: الهدى هو الدلالة الموصلة إلى البغية، وقال آخرون: الهدى هو الاهتداء والعلم. والذي يدل على صحة القول الأول وفساد القول الثاني والثالث أنه لو كان كون الدلالة موصلة إلى البغية معتبرًا في مسمى الهدى لامتنع حصول الهدى عند عدم الاهتداء؛ لأن كون الدلالة موصلة إلى الاهتداء حال عدم الاهتداء محال، لكنه غير ممتنع بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

أثبت الهدى مع عدم الاهتداء؛ ولأنه يصح في لغة العرب أن يقال: هديته فلم يهتد، وذلك يدل على قولنا»[١].

وعليه فالهداية بيان طريق الهدى بقطع النظر عن سلوك المهدي له أم لا، وتضمن القرآن الكريم لهدى واتصافه به ثابت له بقطع النظر عن استجابة الناس لذلك أم لا.

وقد وقعت الهداية في القرآن الكريم بأربعة معان:

«الأول: الهداية التى عم الله بها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية، بل عم بها كل شيء حسب احتماله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

الثاني: الهداية التى جعلت للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

الثالث: التوفيق الذى يختص به من اهتدى، وهو المعني بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

الرابع: الهداية فى الآخرة إلى الجنة، وهو المعنى بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية، بل لا يصح تكليفه. ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة»[٢].

هذا والقرآن الكريم هاد: «أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وآله وسلم سبب اهتداء للبشرية قاطبة، يرشدها لأقوم الطرق،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٦٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي ٥/ ٣١٤.

وأصح المناهج، وأعدل المسالك، وهي توحيد الله والإيمان برسله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأفضل مناهج الحياة»[(١)].

وقد ورد ذلك صريحًا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠].

«والمعنى: إن هذا القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم -في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية- إلى الملة التي هي أقوم الملل وأعدلها، وهي ملة الإسلام. فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء»[(٢)].

وقد وقع المهدي إليه في الآية مضمرًا موصوفًا بأنه الأقوم من بين سائر ما يهدي إليه.

قال ابن عاشور: «و﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ صفة لمحذوف دل عليه ﴿يَهْدِى﴾ أي: للطريق التي هي أقوم؛ لأن الهداية من ملازمات السير والطريق، أو للملة الأقوم، وفي حذف الموصوف من الإيجاز من جهة ومن التفخيم من جهة أخرى ما رجح الحذف على الذكر.

والأقوم: تفضيل القويم. والمعنى: إنه يهدي للتي هي أقوم من هدي كتاب بني إسرائيل الذي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢].

ففيه إيماء إلى ضمان سلامة أمة القرآن من الحيدة عن الطريق الأقوم؛ لأن القرآن جاء بأسلوب من الإرشاد قويم ذي أفنان لا يحول دونه ودون الولوج إلى العقول حائل، ولا يغادر مسلكًا إلى ناحية من نواحي الأخلاق والطبائع إلا سلكه إليها تحريضًا أو تحذيرًا، بحيث لا يعدم المتدبر في معانيه اجتناء ثمار أفنانه، وبتلك الأساليب التي لم تبلغها الكتب السابقة كانت الطريقة التي يهدي إلى سلوكها أقوم من الطرائق الأخرى، وإن كانت الغاية المقصود الوصول إليها واحدة»[(٣)].

وهذا الإضمار -كما يشير إليه ابن عاشور- أبلغ من التصريح، وذلك أنه لو وقع التصريح به لكان قصرًا لهدايته على بعض معانيها دون البعض الآخر، وذلك أن «هذا وصف إجمالي لمعنى هدايته إلى التي هي أقوم لو أريد تفصيله لاقتضى أسفارًا، وحسبك مثالًا لذلك أساليب القرآن في سد مسالك الشرك، بحيث سلمت هذه الآية في

(١) التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٢٩.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٣٠٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٤٠.

جميع أطوارها من التخليط بين التقديس البشري وبين التمجيد الإلهي، فلم تنزل إلى حضيض الشرك بحال، فمحل التفضيل هو وسائل الوصول إلى الغاية من الحق والصدق، وليس محل التفضيل تلك الغاية حتى يقال: إن الحق لا يتفاوت»[1].

على أن صاحب التحرير يميل في كلامه هذا إلى أن السعة في أساليب الدلالة على الهداية لا في الغاية المهدي إليها، وهو ما قد لا نوافقه عليه؛ لأن التفضيل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ واقع على المهدي إليه لا على أساليب الهداية، والأقرب أن نقول -والله أعلم-: إن هذا القرآن يهدي للأقوم من الأقوال والأفعال والمعتقدات، والتصورات والنظم، والأحكام والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وطرق فض النزاعات وإيصال الحقوق إلى أهلها، وحماية الضعفاء والرحمة بالمستضعفين من اليتامى والنساء والولدان، وغير ذلك مما لا سبيل إلى حصره. ولذلك شواهد يمكن التمثيل بها من سورة الإسراء نفسها التي وردت فيها هذه الآية؛ فإن السورة قد تضمنت هداية للناس جماعة كما تضمنت هدايتهم لأقوم السبل أفرادًا، وشملت هداياتها العلاقة بالوالدين، كما شملت أصول الأخلاق، والسبيل الأفضل في التصرف في المال، وما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية، وأحكام الدماء رابطة لذلك كله بالحبل الأعظم: توحيد الله وقصد وجهه وطلب رضوانه، والحذر من عقابه:

فأما هداية الناس جماعة فشواهدها في السورة مخاطبة الجماعة في نحو: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾.

وأما هدايتهم أفرادًا فشواهدها خطاب الواحد خاصة في الأحكام المتعلقة بما يتفرع عن شيء في النفس كالكبر في نحو قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦-٣٧].

وأما الهداية لأقوم السبل في العلاقة بالوالدين فدل عليها قوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وفي الإحسان إلى الأقارب وأهل الحاجة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾. ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ

(١) المصدر السابق.

رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٨].

ولأصول الأخلاق دل عليها: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨].

وللسبيل الأفضل في التصرف في المال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولما يجب وما يجتنب في العلاقات الأسرية: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وأحكام الدماء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

ويرتبط كل ذلك من قبل ومن بعد برباط عظيم: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾، ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٩].

ومن الهداية بيان صفات الموفقين؛ ليقتدى بهم: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

ومن الهداية بيان سبيل الشر وعاقبة أهله؛ ليجتنب: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤].

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧].

وبالجملة فقد حاولنا التمثيل لسعة أبواب الهداية التي تضمنها القرآن الكريم من سورة الإسراء التي ورد النص فيها على أنه يهدي للتي هي أقوم؛ للدلالة على كثرتها وسعتها وتعذر إحصائها، وأنه تضمن الإرشاد لكل خير. وتجدر الإشارة في ختام هذا الموضع إلى أن أغلب ما ذكر من الهدايات استنادًا إلى نصوص القرآن الكريم السابقة مرتبط بأمور الدنيا، وذلك يدحض فكرة سائدة تجعل الدين قسيمًا للدنيا، ويرسخ حقيقة أن العبادة الصحيحة هي إقامة الحياة وتقويمها وفق منهج القرآن وفي ذلك السعادة في الدنيا والآخرة.

حفظ الله للقرآن

عهد الله بحفظ الكتب السابقة إلى البشر فحرفوا فيها وانحرفوا عن تعليماتها، وتكفل سبحانه وتعالى بحفظ القرآن من التبديل والتغيير فبقي كما أنزل من عنده، وسيبقى إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وسوف نتناول حفظ القرآن عن سائر الكتب فيما يأتي:

أولًا: صفة حفظ الكتب السابقة:

نص القرآن الكريم على أن الكتب السابقة، خلافًا له، قد عهد بحفظها إلى البشر، وهم عرضة للغلط والهوى والانحراف.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فنصت الآية على أن حفظ التوراة أوكل للربانيين والأحبار ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾، قال ابن عاشور: «والاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أمانة فهمه حق الفهم بما

دلت عليه آياته. استعير الاستحفاظ الذي هو طلب الحفظ لمعنى الأمر بإجادة الفهم والتبليغ للأمة على ما هو عليه. فالباء في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ للملابسة، أي: حكمًا ملابسًا للحق متصلًا به غير مبدل ولا مغير، ولا مؤوَّل تأويلًا لأجل الهوى»[١].

فالاستحفاظ -وفقًا لرأيه- هو في الأساس ائتمان على بيان المعاني الصحيحة، المرتبط والمتفرع عن كونهم متميزين عن عموم الناس بعلم الكتاب وتعليمه، ولكنه يعطف عليه أيضًا حفظ حرفه من التبديل فيقول: «ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه من التغيير والكتمان.

ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في (المدارك)[٢]، عن أبي الحسن بن المنتاب، قال: كنت عند إسماعيل يوما فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فوكل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فتعهد الله بحفظه، فلم يجز التبديل على أهل القرآن. قال: فذكرت ذلك للمحاملي، فقال: لا أحسن من هذا الكلام»[٣].

وعليه فالاستحفاظ كما كان على تبيين المعاني وترك تحريفها، كان على اللفظ وترك تبديله، والمستحفظون هم الربانيون والأحبار.

و«الربانيون: هم الذين يسوسون الناس بالعلم ويربونهم بصغاره قبل كباره، عن ابن عباس وغيره. وقال أبو رزين: الربانيون: العلماء الحكماء. وقال مجاهد: الربانيون: فوق العلماء. والألف واللام للمبالغة.

والأحبار: قال ابن عباس: هم الفقهاء: والحبر والحبر الرجل العالم، وهو مأخوذ من التحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم، أي: يبينونه ويزينونه، وهو محبر في صدورهم. قال الجوهري: والحبر والحبر واحد أحبار اليهود، وبالكسر أفصح: لأنه يجمع على أفعال دون الفعول، قال الفراء: هو حبر بالكسر، يقال ذلك للعالم. وقال الثوري: سألت الفراء لم سمي الحبر حبرًا؟ فقال: يقال للعالم حبر وحبر فالمعنى: مداد حبر ثم حذف كما قال: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

أي: أهل القرية. قال: فسألت الأصمعي فقال: ليس هذا بشيء، إنما سمي حبرًا؛ لتأثيره، يقال: على أسنانه حبر أي: صفرة أو سواد. وقال أبو العباس: سمي الحبر الذي

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٩.
(٢) انظر ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض ٤/ ٢٨٣
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٠٩.

يكتب به حبرًا؛ لأنه يحبر به، أي: يحقق به. وقال أبو عبيد: والذي عندي في واحد الأحبار: الحبر -بالفتح-، ومعناه: العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. قال: وهكذا يرويه المحدثون كلهم بالفتح»[1].

وكل من الأحبار والرهبان: «كانوا حفظة على كتاب الله وحراسا له من سوء الفهم وسوء التأويل، ويحملون أتباعه على حق فهمه وحق العمل به»[2]، ولكنهم بدلوه.

وأما دافع هذا التبديل فهو الخوف والطمع، وقد تضمنت الآية الإشارة إلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

قال ابن جرير في سياق بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لعلماء اليهود وأحبارهم: لا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي الذي حكمت به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرت، فإنهم لا يقدرون لكم على ضر ولا نفع إلا بإذني، ولا تكتموا الرجم الذي جعلته حكمًا في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دون كل أحدٍ من خلقي، فإن النفع والضر بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استحفظتم من كتابي»[3]. ثم روى بسنده عن السدي قال: «يقول: لا تخشوا الناس فتكتموا ما أنزلت»[4]. ولذلك عقب النص على استحفاظ الأحبار والرهبان على الكتاب (بجملة ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ المتفرعة بالفاء على قوله: ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾؛ إذ الحفيظ على الشيء الأمين حق الأمانة لا يخشى أحدًا في القيام بوجه أمانته ولكنه يخشى الذي استأمنه»[5].

قال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأحبار، عوضًا خسيسًا، وذلك هو (الثمن القليل)، وإنما أراد تعالى ذكره، نهيهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانيين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بدلوها طلبًا منهم للرشى، كما قال ابن زيد: لا تأكلوا السحت على كتابي، وقال مرة أخرى: لا تأخذوا به رشوة. وعن السدي: ولا تأخذوا طمعًا قليلًا على أن تكتموا ما أنزلت»[6].

والخطاب في الآية متردد بين أن يكون موجهًا لليهود الذين كانوا معاصرين للنبي

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٨٩ بتصرف يسير.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٤٤.
(٤) المصدر السابق.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٤٥.

صلى الله عليه وسلم أو الذين كانوا قبلهم، قال في التحرير: «فيجوز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ ليهود زمان نزول الآية، والفاء للتفريع عما حكي عن فعل سلف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قدوة لخلفهم من الفريقين، والجملة على هذا الوجه معترضة، ويجوز أن يكون الخطاب للنبيئين والربانيين والأحبار، فهي على تقدير القول، أي: قلنا لهم: فلا تخشوا الناس. والتفريع ناشيء عن مضمون قوله: بما استحفظوا من كتاب الله؛ لأن تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالناس رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على رضا الله تعالى»[1].

وفي كلتا الحالتين ففي الآية وصية للصالحين، وهي حجة على المحرفين، وفيها بيان للدوافع التي حملت من حرف منهم على الجرأة عليه.

هذا ومع تطاول العهد، فقد نشأت منهم فئة فاجرة اشترت بآيات الله ثمنا قليلا ووطأتها لكل ظالم خوفًا أو طمعًا، بل إنهم استطابوا ذلك واستمرؤوه بما خالج قلوبهم من القسوة: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

وأصبح كثير منهم طلاب دنيا؛ يصدون عن سبيل الله حفاظا على مناصبهم ومصالحهم وما ينالهم من أموال الجهلة والدهماء الذين اتخذوهم أربابا من دون الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة ٣٤-٣٥].

هذا وكانت حكمته سبحانه قد قضت أن يعهد إليهم بحفظ كتب علم أنهم مبدلوها، ابتلاء لهم وامتحانًا، وقد سبق في علمه جل وعلا أن رسلًا آخرين سيأتونهم من بعد ذلك بالوحي من عنده، ولما تختم رسالته بعد. وهناك أمور قد وطأت لهذا التحريف وسهلته.

ثانيًا: أسباب التحريف في الكتب السابقة:

تقدم أن الله سبحانه وتعالى قد أوكل حفظ الكتب السابقة إلى الأحبار والرهبان

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢١٠.

واستحفظهم عليها، على خلاف القرآن الذي تولى هو جل وعلا حفظه.

ويلاحظ من ناحية الأسباب فرق أساس ميز الكتب السابقة عن القرآن الكريم؛ ففي الوقت الذي نزل هو منجما نزلت هي جملة واحدة، وكان نزوله منجمًا على أمة أمية تعتمد على الحفظ سببًا في وجوده عند عمومهم وجميعهم كما يأتي، فلا قدرة لأحد منهم على أن يستأثر به من دونهم فيزيد فيه أو ينقص دون أن يتنبهوا لذلك ويعلموا به، وأن يكونوا حجة على تحريفه، بينما كان ذلك الاستئثار في مقدور الأحبار والرهبان الذين كان الكتاب موجودًا عندهم من دون سائر الناس.

ولئن لم ينص نصًّا صريحًا على أن الكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة، فقد وقع في نصوص القرآن ما يوحي بشيء من ذلك، كقوله تعالى في شأن ألواح موسى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والألواح: «التوراة. وروي في الخبر أنه قبض عليه جبريل -عليه السلام- بجناحه فمر به في العلا حتى أدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح. وقال مجاهد: كانت الألواح من زمردة خضراء. وابن جبير: من ياقوتة حمراء. وأبو العالية: من زبرجد. والحسن: من خشب، نزلت من السماء. وقيل: من صخرة صماء، لينها الله لموسى عليه السلام فقطعها بيده ثم شقها بأصابعه، فأطاعته كالحديد لداود»[(١)].

قال الرازي: «واعلم أنه ليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الألواح، وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوي، وجب القول به وإلا وجب السكوت عنه.

وأما قوله: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فلا شبهة فيه أنه ليس على العموم، بل المراد من كل ما يحتاج إليه موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام والمحاسن والمقابح»[(٢)].

ويهمنا في هذا المقام أن الآية دلت على أن التوراة نزلت جملة واحدة مكتوبة، ولازم ذلك أن النبي المنزلة عليه قارئ كاتب، وكذا من استحفظوا عليها من بعده.

وقد استنبط من قوله الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. أن الكتب السابقة نزلت جملة واحدة، قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾ يقول: هلا نزل على محمد صلى الله عليه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٦٠.

وسلم ﴿ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء؛ لنثبت به فؤادك نزلناه»[1].

ووجه استنباط ذلك أن المشركين كانوا في سؤالهم المبطن بالتعجب يقيسون على حالة سبق العلم بها عندهم، ثم إن القرآن الكريم أجابهم على خلاف أسئلتهم الأخرى ببيان وجه الحكمة لا بإخبارهم بأن هذا سنة الرسل من قبل.

قال القطان: «أما الكتب السماوية الأخرى -كالتوراة والإنجيل والزبور- فكان نزولها جملة، ولم تنزل مفرقة، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، فهذه الآية دليل على أن الكتب السماوية السابقة نزلت جملة، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرقًا لما كان هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب من نزول القرآن منجمًا، فمعنى قولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾: هلا أنزل عليه القرآن دفعة واحدة كسائر الكتب؟ وماله أنزل على التنجيم؟ ولم أنزل مفرقًا؟

ولم يرد الله عليهم بأن هذه سنته في إنزال الكتب السماوية كلها كما رد عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾، وكما رد عليهم في قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾، بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾.

بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجمًا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك أنزل مفرقًا لحكمة هي: تقوية قلب رسول الله ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: قدرناه آية بعد آية، بعضه إثر بعض، أو بيناه تبيينًا، فإن إنزاله مفرقًا حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم، وذلك من أعظم أسباب التثبيت»[2].

ولما نزلت هذه الكتب جملة واحدة على أنبياء يقرؤون ويكتبون، ثم كانت بيد الأحبار والرهبان من بعدهم مستأثرين بها من دون عامتهم، فقد كان بمقدورهم تحريفها إما خوفًا أو طمعًا، كما هو مدلول الوصية التي أنزلت إليهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٥.

(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص ١٠٦.

﴿وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد وقع منهم هذا التحريف حقًّا.

وإذا تأملنا نصوص القرآن الكريم وجدناها قد أشارت إلى ثلاث مستويات من هذا التحريف:

١. إظهار بعضه وكتمان بعضه.

وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

فنصت الآية على أنهم كانوا يفرقون الكتاب في صحف أو قراطيس، وقوله: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ صفة لقراطيس، أي: تبدون بعضها وتخفون كثيرًا منها، ففهم أن المعنى: تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. وهذه الصفة في محل الذم، فإن الله أنزل كتبه للهدى، والهدى بها متوقف على إظهارها وإعلانها، فمن فرقها؛ ليظهر بعضًا ويخفي بعضًا فقد خالف مراد الله منها»[(١)].

وجلي أن المقصود من ذلك: إظهار ما يوافق الهوى وكتمان ما يخالفه «أي: يجعلها حملتها قراطيس، أي: قطعًا يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون، ويقولون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٩].

أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله»[(٢)].

٢. كتابة ما ليس منه فيه ونسبته إلى الله.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

فـ: «توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركًا يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين: من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، وذلك أعظم ممن يأخذها غصبًا وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٦٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٠.

﴿مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد»[(1)].

وقوله: ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾: «تأكيد وهذا الموضع مما يحسن فيه التأكيد كما تقول لمن ينكر معرفة ما كتبه: يا هذا كتبته بيمينك. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فالمراد: أن من يكتب هذه الكتابة ويكسب هذا الكسب في غاية الرداءة؛ لأنهم ضلوا عن الدين وأضلوا، وباعوا آخرتهم بدنياهم، فذنبهم أعظم من ذنب غيرهم، فإن من المعلوم أن الكذب على الغير بما يضر يعظم إثمه، فكيف بمن يكذب على الله ويضم إلى الكذب الإضلال، ويضم إليهما حب الدنيا والاحتيال في تحصيلها، ويضم إليها أنه مهد طريقًا في الإضلال باقيًا على وجه الدهر؟! فلذلك عظم تعالى ما فعلوه. (وقد) حكى عنهم أمرين. أحدهما: كتبة الكتاب، والآخر: إسناده إلى الله تعالى على سبيل الكذب».

٣. تأوله على غير معناه.

وشاهده قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

وفي معنى الأماني ثلاثة أقوال ترجع في جملتها إلى تأول اللفظ على غير معناه:

«أحدها: أنها الأكاذيب. قال ابن عباس: إلا أماني: يريد إلا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا. وهذا قول مجاهد واختيار الفراء. وذكر الفراء أن بعض العرب قال لابن دأب وهو يحدث: أهذا شيء رويته، أم شيء تمنيته؟ يريد: افتعلته.

والثاني: أن الأماني: التلاوة، فمعناه: لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعونه يتلى عليهم.

قال الشاعر[(2)]:

تمنى كتاب الله أول ليلة
تمني داود الزبور على رسل

وهذا قول الكسائي والزجاج.

والثالث: أنها أمانيهم على الله، قاله قتادة»[(3)].

٤. كتمانه والتواصي بذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦ أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧].

ومعنى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ «يعني: منافقيهم. قالوا آمنا بأنكم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٩٤، ولم يعزه لأحد.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٨١.

على الحق، وإن رسولكم هو المبشر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا﴾ أي: الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا أعقابهم، إظهارًا للتصلب في اليهودية، ومنعًا لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين»[(١)].

وفي إنكار بعضهم على بعض هذا التحديث دليل على هذه الصورة من التواصي بالكتمان.

وقد تضافرت هذه الصور الأربعة على تحريف الكتاب وجعله في قراطيس يبدون بعضها ويكتمون بعضًا، وكتابتهم ما ليس من الوحي فيها، وتأولهم لصحيحها على غير مراد الله منه، أو كتمانهم للحق كتمانًا كاملًا والتواصي بذلك لا مجرد إظهار بعضه تضليلًا وكتمان بعض. ولقد سهل عليهم ذلك بسبب استئثارهم بها، أو استئثار فئة خاصة منهم بها من دون سائر الناس. فلما أنزل الله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته جعله محفوظًا في صدور صبيانهم قبل كتب علمائهم.

ثالثًا: أسباب حفظ القرآن الكريم:

على خلاف الكتب السابقة، نزل القرآن الكريم على أمة أمية تعتمد على الحفظ أكثر من الكتابة، ثم إن نزوله مفرقًا؛ ليقرأه النبي صلى الله عليه وسلم على الناس على مكث قد جعله محفوظًا عند عامتهم لا تستأثر به طائفة: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

أي: «قطعناه آيةً آية وسورةً سورة في عشرين سنة ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ تؤدة وترسلٍ؛ ليفهموه ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ نجومًا بعد نجوم وشيئًا بعد شيءٍ»[(٢)].

وبناء على ذلك فقد علم بالحجة العقلية القاطعة الحاصلة من التواتر الذي لا يختلف فيه العقلاء «أن القرآن، الذى هو متلو محفوظ مرسوم في المصاحف، هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذي تلاه على من في عصره ثلاثًا وعشرين سنة.

والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر، الذي يقع عنده العلم الضروري به. وذلك أنه قام به في المواقف، وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه، وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذي لا يشتبه على أحد، ولا يخيل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه، ويأخذه

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٨٩.

(٢) الوجيز، الواحدي ص ٦٥٠.

على غيره، ويأخذه غيره على الناس، حتى انتشر ذلك في أرض العرب كلها، وتعدى إلى الملوك المصاقبة لهم، كملك الروم والعجم والقبط والحبش، وغيرهم من ملوك الأطراف.

ولما ورد ذلك مضادًّا لأديان أهل ذلك العصر كلهم، ومخالفًا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة في الكفر وقف جميع أهل الخلاف على جملته، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته وتفاصيله، وتظاهر بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقلت به الرحال، وتعلمه الكبير والصغير؛ إذ كان عمدة دينهم، وعلمًا عليه، والمفروض تلاوته في صلواتهم، والواجب استعماله في أحكامهم. ثم تناقله خلف عن سلف هم مثلهم في كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا، على ما وصفناه من حاله. فلن يتشكك أحد، ولا يجوز أن يتشكك مع وجود هذه الأسباب، في أنه أتى بهذا القرآن من عند الله تعالى»[1].

ويؤيد ذلك أنه تحداهم به ولم يزل عجزهم عن معارضته قائمًا مع علمهم به واطلاعهم عليه، فلو جاز أن يكون القرآن الموجود بين أيدينا غير الذي تحدوا به؛ لنقل عنهم ذلك.

قال الباقلاني: «وإذا ثبت هذا الأصل وجودًا، فإنا نقول: إنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله، وقرعهم على ترك الإتيان به، طول السنين التي وصفناها، فلم يأتوا بذلك، فقد ثبت بما بيناه أنه تحداهم إليه، ولم يأتوا بمثله.

وفي هذا أمران:

أحدهما: التحدي إليه.

والآخر: أنهم لم يأتوا له بمثل.

والذي يدل على ذلك النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين»[2].

ويضيف الباقلاني أن العدد العظيم من الناس الذين أخذوا القرآن وتعلموه لدواع مختلفة ولو كانوا غير مسلمين، قد دل اتفاقهم على هذا القرآن أنه هو نفسه الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله، ولا يمكن أن يتشكك في ذلك عاقل، كيف والعقلاء لا يجيزون ذلك في مثل شعر امرئ القيس الذي لو زيد فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه؟!

قال: «وإن قال قائل: لعله لم يقرأ عليهم الآيات التي فيها ذكر التحدي، وإنما قرأ عليهم ما سوى ذلك من القرآن، كان ذلك قولًا باطلًا، يعلم بطلانه بمثل ما يعلم به بطلان قول من زعم أن القرآن أضعاف هذا!! وهو يبلغ حمل جمل! وأنه كتم، وسيظهره

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني ص ١٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٨.

المهدي! أو يدعي أن هذا القرآن ليس هو الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو شيء وضعه عمر أو عثمان، رضي الله عنهما، حيث وضع المصحف، أو يدعي فيه زيادة أو نقصانًا.

وقد ضمن الله حفظ كتابه أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ووعده الحق، وحكاية قول من قال ذلك يغني عن الرد عليه؛ لأن العدد الذين أخذوا القرآن في الأمصار وفي البوادي، وفي الأسفار والحضر، وضبطوه حفظًا، من بين صغير وكبير، وعرفوه حتى صار لا يشتبه على أحد منهم حرف لا يجوز عليهم السهو والنسيان، ولا التخليط فيه والكتمان، ولو زادوا أو نقصوا أو غيروا؛ لظهر، وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن، ولا أن يحفظ كحفظه، ولا أن يضبط كضبطه، ولا أن تمس الحاجة إليه إمساسها إلى القرآن لو زيد فيه بيت، أو نقص منه بيت، لا، بل لو غير فيه لفظ؛ لتبرأ منه أصحابه، وأنكره أربابه.

فإذا كان ذلك مما لا يمكن أن يكون في شعر امرئ القيس ونظرائه، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه في القرآن، مع شدة الحاجة إليه في الصلاة التي هي أصل الدين، ثم في الأحكام والشرائع، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه، فمنهم: من يضبطه؛ لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها، وصحة أدائها، ومنهم: من يحفظه؛ للشرائع والفقه، ومنهم: من يضبطه؛ ليعرف تفسيره ومعانيه، ومنهم: من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة، ومن الملحدين: من يحصله؛ لينظر في عجيب شأنه.

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة -على كثرة أعدادهم، واختلاف بلادهم، وتفاوت أغراضهم- أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان؟! ويبين ذلك: أنك إذا تأملت ما ذكر في أكثر السور مما بينا، ومن نظائره في رد قومه عليه ورد غيرهم، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وقول بعضهم: إن ذلك سحر، وقول بعضهم: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ إلى الوجوه التي يصرف إليها قولهم في الطعن عليه»[1].

فالحجة العقلية الحاصلة من التواتر تشهد بأن نصوص القرآن الكريم محفوظة من التبديل أو التزييف أو التحريف، ولقد هيئت له عناية إلهية خاصة منذ أزف نزوله واقترب، فإذا الجن تلحظ تغيرًا لم تألفه في السماء حين صارت تجد شهبًا قد ملئت بها جوانبها تترصدها كلما اقتربت على خلاف عهدها السابق: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا

(١) المصدر السابق.

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

ثم إنهم علموا أنهم قد عزلوا عن السماع لأجل أمر عظيم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء ٢١٠-٢١٢].

ولقد اختير لهذه المهمة العظيمة أمين كريم ذو قوة مكين ومطاع في أهل السماء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

وكما اختير أمين في السماء اختير أمين في الأرض، وتولى الله تنقية سريرته وتصفية أمانيه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

وأعلن في الناس أنه لو أراد أن يبدله أو يحرفه -وحاشاه أن يفعل- ما استطاع ذلك: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

كما وعد بجمعه في صدره ثم يقرأه على الناس فلا يخطئ منه حرفًا: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

وأعلن سبحانه في العالمين أنه هو من يتولى حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأن الباطل لا يقربه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وأن أحدًا لن يستطيع له تبديلًا: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

ولقد نزل منجمًا فحفظ ونقل تواترًا كما سلف، وهو الكتاب الأوحد الذي ما يزال دليل صدقه -إعجازه- قائمًا فيه.

القرآن حجة الله على الناس

بين الله في كتابه أن القرآن الكريم هو حجته الدامغة على الناس، وسوف نتناول بيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: القرآن منذر لمن بلغه:

لحكمةٍ ما شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة النبي عليه الصلاة والسلام وحيًا، وأن ينزل بلسان عربي، وأن يظل قائمًا ومحفوظًا، وأن يكون حجة على الناس جميعًا، وأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بسببه أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، كما في الحديث: (ما من الأنبياء نبيٌّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[1].

قال ابن حجر -وهو يستعرض الأقوال في معنى الحديث-: «وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وهذا أقوى المحتملات وتكميله في الذي بعده»[2] أي: قوله صلى الله عليه وسلم: (**فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**).

وهذا الذي ذكره ابن حجر يفيد بأن الله عز وجل قد أودع في هذا القرآن ما يجعله معجزة مستمرة يتساوى في إدراكها السابق واللاحق، وقد نصت آية سورة الأنعام على أن لمن بلغه القرآن الكريم حكم من رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قيام الحجة عليه بالبلاغ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ عقابه، وأنذر به من بلغه من سائر الناس غيركم، إن لم ينته إلى العمل بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه نزول نقمة الله به»[3].

ثم ذكر عن حسن بن صالح قال: «سألت ليثًا: هل بقي أحدٌ لم تبلغه الدعوة؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ١٨٢.

(٢) فتح الباري، ابن حجر ٩/ ٧.

(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٩٠.

كان مجاهد يقول: حيثما يأتي القرآن فهو داعٍ، وهو نذير. ثم قرأ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾[1].

وقال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم وسمع منه. وفي الخبر أيضًا: من بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله أخذ به أو تركه. وقال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له»[2].

وهذا المعنى مستفاد من قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: فأما قوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ فالمراد: أنه تعالى أوحى إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، وهو خطاب لأهل مكة، وقوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾: عطف على المخاطبين من أهل مكة، أي: لأنذركم به، وأنذر كل من بلغه القرآن، من العرب والعجم، وقيل من الثقلين، وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة.

وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن، فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا التفسير فيحصل في الآية حذف، والتقدير: وأوحي إلي هذا القرآن؛ لأنذركم به، ومن بلغه هذا القرآن، إلا أن هذا العائد محذوف؛ لدلالة الكلام عليه، كما يقال الذي رأيت زيد، والذي ضربت عمرو»[3].

وحمل قوله: سبحانه ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على أن المراد منه: من بلغه القرآن هو الأشهر والأوفق للسياق، ولذلك اقتصر عليه كثير من المفسرين ولم ينصوا على أنه قد يراد من الآية معنى غيره، «وقيل: ومن بلغ الحلم. ودل بهذا على أن من لم يبلغ الحلم ليس بمخاطب ولا متعبد»[4]. قال الرازي: «وفي تفسير قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ قول آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ أي: ومن احتلم وبلغ حد التكليف، وعند هذا لا يحتاج إلى إضمار العائد، إلا أن الجمهور على القول الأول»[5].

هذا ويستفاد من معنى الآية أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قائمة مقامه من بعده في تبليغ القرآن الكريم وبه تقوم الحجة على من بلغه، قال القرطبي: «وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغهما، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار)[6].

كما ينبني على ذلك أيضًا أن رسالة محمد

(١) المصدر السابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩٩.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٩٩.

صلى الله عليه وسلم ممتدة زمانًا ومكانًا خلافًا لرسالات الرسل قبله، فهي تعم من بلغه القرآن الكريم في سائر البلاد ولو لم ير النبي صلى الله عليه وسلم في وقت كونه صلى الله عليه وسلم حيًّا كالنجاشي الذي آمن به ولم يره وتوفي مؤمنًا وصلى عليه عليه الصلاة والسلام صلاة الغائب، كما تعم «كل من يبلغه القرآن في جميع العصور»[(١)].

ومن ذلك ما ذكر ابن جرير في تفسيره: «قال ابن زيد، في قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ قال: النبي النذير. وقرأ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقرأ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ قال: رسل. قال: المنذرون: الرسل. قال: وكان نذيرًا واحدًا بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدين، وكان نذيرًا، ولم أسمع أحدًا يحق أنه كان نبيًّا. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ قال: من بلغه القرآن من الخلق، فرسول الله نذيره. وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال: لم يرسل الله رسولًا إلى الناس عامة إلا نوحًا، بدأ به الخلق، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد صلى الله عليه وسلم ختم به»[(٢)].

وعليه، فإن هذا القرآن حجة الله القائمة على خلقه إلى يوم القيامة، هو معجزة النبي -عليه الصلاة والسلام- شاء الله أن يظل قائمًا ومحفوظًا، ومن بلغه فكأنما رأى محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأمته أمينة على تبليغه من بعده قائمة مقام نبيها، ولأجل ذلك فالمسلمون أكثر أتباع الأنبياء يوم القيامة.

ثانيًا: سماع القرآن وأثره في قيام الحجة:

نصت سورة التوبة على أن سماع القرآن الكريم كاف في إقامة الحجة على المشركين ورفع العذر عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

قال ابن جرير في بيان معناها: «يقول تعالى ذكره لنبيه: وإن استأمنك، يا محمد، من المشركين، الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم، أحدٌ؛ ليسمع كلام الله منك -وهو القرآن الذي أنزله الله عليه- ﴿فَأَجِرْهُ﴾، يقول: فأمنه حتى يسمع كلام الله وتتلوه عليه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، يقول: ثم رده بعد سماعه كلام الله إن هو أبى أن يسلم، ولم يتعظ لما تلوته عليه من كلام الله فيؤمن إلى مأمنه، يقول: إلى حيث

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ١٦٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٦.

يأمن منك وممن في طاعتك، حتى يلحق بداره وقومه من المشركين ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾، يقول: تفعل ذلك بهم، من إعطائك إياهم الأمان؛ ليسمعوا القرآن، وردك إياهم إذا أبوا الإسلام إلى مأمنهم؛ من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون عن الله حجة، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان بالله لو آمنوا، وما عليهم من الوزر والإثم بتركهم الإيمان بالله»[1].

والمقصود بسماعه: «فهم المقصود من دلالته على النبوة، وفهم المقصود به من التكليف، ولم يكن يخفى على العرب وجه الإعجاز فيه، وطريق الدلالة على النبوة، لكونه خارجًا عن أساليب فصاحة العرب في النظم والنثر، والخطب والأراجيز، والسجع والأمثال، وأنواع فصل الخطاب؛ فإن خلق الله له العلم بذلك، والقبول له صار من جملة المسلمين، فإن صد بالطبع، ومنع بالختم، وحق عليه بالكفر القول رد إلى مأمنه»[2].

ولئن مال أكثر المفسرين إلى أن هذا متحقق في شأن مشركي العرب خاصة؛ لما تهيأ لهم من معرفة وجه الإعجاز فيه، فإن سورة المائدة قد وصفت طائفة من القسيسين والرهبان بأنهم إذا سمعوه سارعوا إلى الاستجابة له، كما قال: جل وعلا: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

فقد وصفت الآية هؤلاء الذين هم أقرب الناس مودة للذين آمنوا بجملة من الصفات:

«منها: ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أي: علماء متزهدين، وعبادًا في الصوامع متعبدين. والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة؛ فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتوٌّ عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي

(١) المصدر السابق ١٤/ ١٣٨.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٤٥٩.

تيقنوه، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب»[1].

ويهمنا في هذا المقام ما وصفتهم به الآية من أن أعينهم تفيض من الدمع الذي هو دليل معرفة وإذعان، «وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه، ثم سيلانه منها، كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه»[2].

وتكرر هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

فقد جعلت الآية من صفة هؤلاء الذين أوتوا العلم أنهم يخرون ساجدين وباكين حين تتلى عليهم آيات القرآن الكريم، وقد اشتملت الآية على وصفين ذكرا في الآية السابقة يتفرع أحدهما عن الآخر وينتج الثاني الأول، وهو حصول علم سابق يؤدي إلى البكاء والسجود، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾، وقال: ﴿مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾: «فقيض دموعهم، لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ»[3].

وقد تضمنت آية سورة الإسراء أثرًا آخر وهو السجود، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

ومعنى الآية: «فـ: ﴿قُلْ﴾ لمن كذب به وأعرض عنه: ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاريه شيئًا، وإنما ضرر ذلك عليكم، فإن لله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي: يتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عما لا يليق -بجلاله-، مما نسبه إليه المشركون.

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾، ﴿لَمَفْعُولًا﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال ﴿لَمَفْعُولًا﴾ لا خلف فيه ولا شك. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤١.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/٥٠٧.
(٣) المصدر السابق.

القرآن ﴿خُشُوعًا﴾»[1].

ويبدو أن سبب هذا السجود رغبة تلقائية تحصل في نفوسهم من استشعار عظمة منزل هذه الآيات. ومما يؤكد حصول هذه الرغبة التلقائية قصة سجود المشركين عند نزول آيات سورة النجم، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (أول سورةٍ أنزلت فيها سجدةٌ (والنجم)، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلًا رأيته أخذ كفًا من ترابٍ فسجد عليه! فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلفٍ)[2].

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (سجد النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[3].

فالمشركون أنفسهم على كونهم مجاهرين بالعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومكذبين بالوحي، لم يتمالكوا أنفسهم حين سمعوه -عليه الصلاة والسلام- يتلو سورة النجم، فلما بلغ موضع السجدة منها سجد فخروا معه ساجدين، وهذا يدل على أن استشعار روعة هذه الآيات يحرك في نفس سامعها رغبة خفية في أن يخر ساجدًا باكيًا بين يدي بارئه وفاطره.

وعليه، فإن لسماع القرآن سرًّا يجعل سامعه أو طائفة من سامعيه يستشعرون عظمة منزله ويسارعون إلى الإيمان به، وقد يحصل له تأثير حتى على قلوب المعاندين له، وإن كان كبرهم يغلب عليهم في النهاية فيصرون على الصد عنه.

أما الذين زين الله قلوبهم بالإيمان وحلاهم بكماله وأذاقهم حلاوته فإن سماع القرآن يؤثر فيهم تأثيرًا خاصًّا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

«أي: الله تعالى نزل بفضله ورحمته عليك -يا محمد- ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ أي: يشبه بعضه بعضًا في فصاحته وبلاغته، وفي نظمه وإعجازه، وفي صحة معانيه وأحكامه، وفي صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم.

﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تثنى وتكرر فيه القصص

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ٦/ ١٤٢، رقم ٤٨٦٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (فاسجدوا لله واعبدوا)، ٦/ ١٤٢، رقم ٤٨٦٢.

والمواعظ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد، كما تثنى وتكرر قراءته فلا تمل على كثرة الترداد، وإنما يزداد المؤمنون حبًّا وتعلقًا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة.

وسمى سبحانه كتابه حديثًا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه. فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم.

ولفظ: ﴿كِتَٰبًا﴾: بدل من قوله: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾. وقوله: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ صفتان للكتاب ووصف بهما وهو مفرد، وكلمة: ﴿مَّثَانِيَ﴾ جمع، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام.

أي: الله تعالى أنزل أحسن الحديث كتابًا مشتملًا على السور والآيات والمواعظ. التي يشبه بعضها في الإعجاز، والتي تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار.

وقوله: ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ من الاقشعرار، وهو الانقباض الشديد للبدن. يقال: اقشعر جسد فلان، إذا انقبض جلده واهتز، وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من الله تعالى.

أي: أن هذا الكتاب العظيم عند ما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر ونذر. ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرؤوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة والمغفرة»[1].

وبناء على ما سبق، فإن لسماع القرآن تأثيرًا خاصًّا يتفاوت باختلاف السامعين له، وأقل ذلك دلالته العقلية الظاهرة على الحق، وارتفاع الحجة عمن سمعه -والله أعلم-.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢١٥.

حديث القرآن عن مواقف الناس منه

تحدث القرآن عن مواقف الناس منه، وهذا ما سوف نوضحه فيما يأتي:

أولًا: المستجيبون له:

قد تقدم أن القرآن الكريم قد وصف الذين أوتوا العلم بالسجود والبكاء عند سماع آيات القرآن الكريم، وذلك منهم إقرار به وإذعان له.

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾

[الإسراء: ١٠٦-١٠٩].

«ففيض دموعهم؛ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ»[١]، وسجودهم إذعان منهم لمُنزله.

كما ورد هذا الوصف في حق طائفة من القسيسين والرهبان: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

قال مجاهد: «هم الوفد الذين جاؤوا مع جعفر وأصحابه من أرض الحبشة، وروي عن عطاء نحو ذلك»[٢].

وعن سعيد بن جبير قال: بعث النجاشي وفدًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا. قال: فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، إلى آخر الآية. قال: فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه، فأسلم النجاشي، فلم يزل مسلمًا حتى مات. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أخاكم النجاشي قد مات، فصلوا عليه! فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، والنجاشي ثم»[٣].

وقد روي أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٧.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١١٨٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٩٩.

﴿أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥]. نزل فيهم أيضًا.

واختار ابن جرير أن تكون الآية قد أخبرت بذلك عن قوم هذه صفتهم من غير تعيين ولا قصر على قوم مخصوصين أو في زمن مخصوص، قال: «والصواب في ذلك من القول عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورسوله، أن ذلك إنما كان منهم؛ لأن منهم أهل اجتهاد في العبادة، وترهب في الديارات والصوامع، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين؛ لتواضعهم للحق إذا عرفوه، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه؛ لأنهم أهل دين واجتهاد فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله، وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل، ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه»(١).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

وقال: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۩ ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

وقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]»(٢).

وزيادة على إيمانهم به فقد أخبر القرآن عنهم أنهم يفرحون به، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم مسلمو اليهود، قاله أبو صالح عن ابن عباس. وقال مقاتل: هم عبد

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٤٤.

الله بن سلام وأصحابه.

والثاني: أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله قتادة.

والثالث: مؤمنو أهل الكتابين من اليهود والنصارى، ذكره الماوردي: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ القرآن، فرح به المسلمون وصدقوه، وفرح به مؤمنو أهل الكتاب؛ لأنه صدق ما عندهم»[1].

وقد نص القرآن الكريم على أن الذين أوتوا العلم يرون نصوصه حقًّا وتنزيلًا من الله وهادية إلى صراطه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموفقين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه، فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيه ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عيانًا، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنهى عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر، من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علمًا وتصديقًا بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها»[2].

وقد دلت هذه الآيات على أن المتصفين بالعلم، الذين لم يعم الكبر والعناد قلوبهم، إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم شهدوا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٤٩٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٥.

بصدقها وأقبلوا عليها خاشعين مذعنين مطيعين مستجيبين.

ثانيًا: الصَّادُّونَ عنه:

قص القرآن الكريم عن المشركين أنهم في خضم معاندتهم للحق وصدهم عنه قالوا إن قلوبهم مغلفة فلا يصل الحق إليها، وفي آذانهم صمم فلا يسمعون ما يتلو النبي صلى الله عليه وسلم، ومن بينهم وبينه حجاب فلا يرونه.

قال تعالى: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥].

﴿وَقَالُواْ﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينون عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطية مغشاة ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ﴾ أي: صم فلا نسمع لك ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه، من كل وجه، وأظهروا بغضه، والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا»[١].

وكما أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يسمعون تيئيسًا للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد تواصوا بعدم السماع للقرآن الكريم وأمر بعضهم بعضًا بذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهي: عطف على جملة ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ عطف القصة على القصة، ومناسبة التخلص إليه أن هذا القول مما ينشأ عن تزيين قرنائهم من الإنس، أو هو عطف على جملة ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم﴾ وهذا حكاية لحال أخرى من أحوال إعراضهم عن الدعوة المحمدية بعد أن وصف إعراضهم في أنفسهم انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض، فالذين كفروا هنا هم أئمة الكفر يقولون لعامتهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾[٢].

وعلى هذا فإنهم مع زعمهم أن القرآن الكريم لن يؤثر فيهم؛ لأنهم لا يسمعونه وقلوبهم مغلفة عن أن يصل إليها، فإنهم لم يستطيعوا الصبر عليه بحيث تواصوا باللغو

(١) المصدر السابق ص ٧٤٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٧٧.

فيه وتناهوا عن سماعه، وما ذلك منهم إلا مخافة لتأثيره في بعضهم: «فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام، شريف معاني وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ، وأيقنوا أن كل من يسمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه وسمو أغراضه قضى له فهمه أنه حق اتباعه، وقد أدركوا ذلك بأنفسهم، ولكنهم غالبتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدبيرًا لمنع الناس من استماعه، وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماع القرآن فصرفوهم عن سماعه.

وهذا من شأن دعاة الضلال والباطل أن يكمموا أفواه الناطقين بالحق والحجة، بما يستطيعون من تخويف وتسويل، وترهيب وترغيب ولا يدعوا الناس يتجادلون بالحجة ويتراجعون بالأدلة؛ لأنهم يوقنون أن حجة خصومهم أنهض، فهم يستروها ويدافعونها لا بمثلها ولكن بأساليب من البهتان والتضليل، فإذا أعيتهم الحيل ورأوا بوارق الحق تخفق خشوا أن يعم نورها الناس الذين فيهم بقية من خير ورشد، عدلوا إلى لغو الكلام ونفخوا في أبواق اللغو والجعجعة لعلهم يغلبون بذلك على حجج الحق، ويغمرون الكلام القول الصالح باللغو، وكذلك شأن هؤلاء. فقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ تحذيرًا واستهزاء بالقرآن، فاسم الإشارة مستعمل في التحقير كما فيما حكي عنهم ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وتسميتهم إياه بالقرآن؛ حكاية لما يجري على ألسنة المسلمين من تسميته بذلك. وتعدية فعل ﴿تَسْمَعُوا﴾ باللام؛ لتضمينه معنى: تطمئنوا أو تركنوا.

واللغو: القول الذي لا فائدة فيه، ويسمى الكلام الذي لا جدوى له لغوًا، فمعنى ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾: قولوا أقوالًا لا معنى لها أو تكلموا كلامًا غير مراد منه إفادة»[1].

في غمرة هذا العناد لم يشعر هؤلاء المعاندون أنه قد طبع على قلوبهم حقًّا وجعلت عليها أكنة وأغلفة مانعة من وصول الحق إليها فلا يفقهون معانيها، وأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق، سماع من يستجيب له.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

(١) المصدر السابق.

[الإسراء: ٤٥-٤٦].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع (كنان)، الذي يغشى القلب ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به[(١)].

وهؤلاء يصل القرآن إلى آذانهم ولكنهم لا يسمعونه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ويصير القرآن الذي هو نور عمًى عليهم: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولأجل ذلك فهم لا ينتفعون بما فيه من تذكير ومواعظ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولا تنشرح صدورهم لآياته: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

ويغضبون إذا تليت عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

وهؤلاء الصادون قد جحدوا بآيات الله، وقد استيقنتها قلوبهم بما خالطها من مرض وكبر وعناد، فهم يجادلون بكل باطل؛ ليدحضوا به الحق، فإذا تقطعت بهم السبل وأعيتهم الحجة انقلب كبرهم غضبًا وبطشًا، بل إن مجرد سماع آيات الله تتلى يستفز هذا الغضب في نفوسهم، فإذا هم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٢.

الأدب مع القرآن

بين القرآن بيانًا شافيًا أدب الناس مع القرآن.

أولًا: أدبهم مع صحفه:

وصف الحق سبحانه وتعالى كتابه بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦].

قال ابن عطية: «وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء المنزلة، وقيل: مصاحف المسلمين، واختلف الناس في (السفرة)، فقال ابن عباس: هم الملائكة؛ لأنهم كتبة يقال: سَفَرْتُ أي: كتبت، ومنه السِّفْرُ، وقال ابن عباس أيضًا: الملائكة سفرة؛ لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القراء، وواحد السفرة سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة؛ لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخبر والتعلم، والقول الأول أرجح»[1].

وأما قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

فهو محتمل لكونه خبرًا أو أمرًا، قال ابن العربي: «فقيل: لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي، وقيل: هو نفي. وكان ابن مسعود يقرؤها: (ما يمسه إلا المطهرون)؛ لتحقيق النفي»[2].

وتفريعًا على ما سبق، فقد اختلف في المراد بالمس: أهو المس بالجارحة أم لا؟ وفي المراد بالمطهرين: هل هم المطهرون من الحدث أم من شيء آخر؟ قال القرطبي: «اختلف في معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف في ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم، فجبريل النازل به مطهر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مطهرون.

الكلبي: هم السفرة الكرام البررة، وقيل: معنى ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لا ينزل به ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون. وقيل: إن إسرافيل

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٣٨.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٤.

هو الموكل بذلك، حكاه القشيري»[١].

ويرى ابن العربي أن الملائكة لا تصل إلى اللوح المحفوظ، قال: «أما قول من قال: إن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فهو باطل؛ لأن الملائكة لا تناله في وقت، ولا تصل إليه بحال؛ فلو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه محل.

وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة من الصحف فإنه قول محتمل؛ وهو الذي اختاره مالك قال: أحسن ما سمعت في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أنها بمنزلة الآية التي في (عبس وتولى): ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ يريد: أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة (عبس)[٢].

وقيل: إن المراد المصحف الذي بأيدينا، قال الجصاص: «روي عن سلمان أنه قال: لا يمس القرآن إلا المطهرون فقرأ القرآن ولم يمس المصحف حين لم يكن على وضوء، وعن أنس بن مالك في حديث إسلام عمر قال: فقال لأخته: أعطوني الكتاب الذي كنتم تقرؤون، فقالت: إنك رجس وإنه لا يمسه إلا المطهرون! فقم فاغتسل أو توضأ، فتوضأ ثم أخذ الكتاب فقرأه -وذكر الحديث-، وعن سعد أنه أمر ابنه بالوضوء لمس المصحف، وعن ابن عمر مثله، وكره الحسن والنخعي مس المصحف على غير وضوء»[٣].

واختاره القرطبي، قال: «وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته: من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال، والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان: أما بعد؛ وكان في كتابه: ألَّا يمس القرآن إلا طاهر. وقال ابن عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر).

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فقام واغتسل وأسلم، وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس»[٤].

ويلاحظ من الاستظهار على تقرير النهي عن مس المصحف بالأخبار السالفة أن دلالة الآية عليه محتملة وغير صريحة، قال الجصاص: «إنْ حُمل اللفظ على حقيقة

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٦.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٥.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣٠٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٢٦، وانظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٧٥.

الخبر فالأولى أن يكون المراد القرآن الذي عند الله والمطهرون الملائكة، وإنْ حُمل على النهي وإن كان في صورة الخبر كان عمومًا فينا، وهذا أولى؛ لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في أخبار متظاهرة أنه كتب في كتابه لعمرو بن حزم: ولا يمس القرآن إلا طاهر، فوجب أن يكون نهيه ذلك بالآية؛ إذ فيها احتمال له»، واقتصر الكيا هراسي على النص على أنها تدل على وجوب الوضوء لمس المصحف من غير تفصيل للمسألة فقال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ يدل على منع مس المصحف من غير وضوء»[1].

ويرى السايس أن منع المحدث من مس المصحف مستفاد من السنة، وذلك يغني عن تكلف إيجاد الدلالة عليه في الآية، قال: «من المفسرين من يريد إرجاع الضمير في: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ إلى القرآن الكريم، وأن من الآراء في ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ رأيًا يقول: هم المطهرون من الناس، وأن طهارتهم هي الطهارة الشرعية من الحدثين. على هذين الاعتبارين يقوم استدلال بعض الفقهاء بالآية على عدم مس المحدثين للمصحف، وعدم مس المحدث للمصحف أمر يكاد يجمع عليه، ومن أجازه من الفقهاء أجازه لضرورة التعلم، أو التعبد عند بعضهم، وقد يكون الحكم مُسلَّمًا لا اعتراض عليه، إنما الذي لا يسلم هو أن يكون الحكم مأخوذًا من هذه الآية، فإنك لمست ما فيها من احتمالات كثيرة، بل ويرجح بعض العلماء أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وأن الضمير في ﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ راجع إليه، وأنه حتى على فرض أن الكتاب القرآن، فليس هو المصحف، بل هو المصحف الذي بأيدي الملائكة، ولئن كان هو المصحف فالمطهرون يحتمل أن يراد منهم المؤمنون، ويراد من المس الإدراك، ويكون المعنى لا تفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلوب الملوثة أن تجد نور الإيمان. قال البخاري في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به»[2].

ثم يقول: «إذا كان المفسرون تبعا للفقهاء يستدلون بالآية من وجهها الذي استدل بها منه ابن تيمية على الحكم كان حسنًا، حيث قال: إن الآية تدل على الحكم من باب الإشارة والتنبيه؛ لأنه ما دامت صحف القرآن في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا الطاهر»[3].

وبناء على ما سبق، يمكن أن نقول: إن

(١) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٩٩.

(٢) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢١.

(٣) المصدر السابق.

الطهارة عند لمس المصحف أدب يتأدب به المؤمن مشابهة للملائكة المطهرين، وهو يلقي في نفسه شعورًا بعظمة هذا الكتاب وجلال منزله والحفاوة التي صاحبت نزوله وتلاوته في الملأ الأعلى، فضلًا عن كونه واجبًا شرعيًا عند أكثر الفقهاء، قال القرطبي: «الجمهور على المنع من مسه (لغير المتوضئ)؛ لحديث عمرو بن حزم.

وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد ابن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي عنه أنه يمسه المحدث، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما.

وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل.

وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهرًا أو محدثًا، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه.

وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما: المنع اعتبارًا بالبالغ. والثاني: الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثًا»[(١)].

ثانيًا: أدبهم عند سماعه:

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يستمعوا وينصتوا إذا قرئ القرآن فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

«وقد وردت الآية هكذا عامة في وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل الأحوال، وعلى جميع الأوضاع خارج الصلاة وداخلها، كل ذلك يجب فيه الاستماع والإنصات للقرآن الكريم إذا قرئ»[(٢)].

قال السعدي: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،

(١) تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٧٢١.
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠.

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[1].

لكن حمل الآية على ظاهرها بهذه الصورة المطلقة لم يجر على ألسنة المفسرين، وأغلبهم لا يناقش حتى هذا المفهوم المتبادر؛ فعقد ابن العربي مثلا للحديث عنها ثلاث مسائل تناول في أولها: سبب نزولها -وكأنه رآه مخصصًا ومبينًا لما يفهم من عمومها-، ثم تحدث في الثانية والثالثة عن حكم القراءة خلف الإمام[2].

وأما أبو بكر الجصاص فقد اقتصر في الحديث في أحكامه تحت الآية على مسألة القراءة خلف الإمام فقط[3]، وكذلك فعل الكيا هراسي الشافعي[4].

وقال الماوردي: «قوله عز وجل ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ أي: لقراءته. ﴿وَأَنصِتُوا﴾ أي: لا تقابلوه بكلام ولا إعراض ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

واختلفوا في موضع هذا الإنصات على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها نزلت في المأموم خلف الإمام ينصت ولا يقرأ، قاله مجاهد.

والثاني: أنها نزلت في خطبة الجمعة ينصت الحاضر لاستماعها ولا يتكلم، قالته عائشة، وعطاء.

والثالث: ما قاله ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة: سلام على فلان، سلام على فلان، فجاء القرآن من ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾»[5].

وأما القرطبي فرغم تمسكه بالعموم في الرد على كل من زعم قصر الآية على موضع مخصوص فقال: «قال بعضهم في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾: كان هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصًّا ليعيه عنه أصحابه. قلت: هذا فيه بعد، والصحيح: القول بالعموم؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والتخصيص يحتاج إلى دليل»[6].

وقال أيضًا: «وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أيضًا أن هذا في الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام فهو عام. وهو الصحيح؛ لأنه يجمع جميع ما أوجبته هذه الآية وغيرها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٢) انظر أحكام القرآن، ابن العربي ٢/ ٣٦٤.
(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٤/ ٢١٥.
(٤) أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٣/ ١٤٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٩٠.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٥٤.

من السنة في الإنصات. قال النقاش: أجمع أهل التفسير أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة»[(١)].

بل وذكر أنه يفيد (في اللغة) ما هو أعم من ذلك، فنقل عن النحاس: أنه «في اللغة يجب أن يكون في كل شيء، إلا أن يدل دليل على اختصاص شيء»[(٢)]، إلا أنه لم يصرح -بل ولم يناقش ولم يطرح مطلقًا- مسألة وجوب الإنصات خارج الصلاة.

وقد ذكر الخازن في تفسيره أن الحسن والظاهرية أجروا الأمر على ظاهره، فقال: «وظاهر الأمر للوجوب فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين وللعلماء في ذلك أقوال:

القول الأول: وهو قول الحسن وأهل الظاهر أن تجري هذه الآيات على العموم، ففي أي وقت وأي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت.

والقول الثاني: إنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة.

القول الثالث: إنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام»[(٣)].

قال ابن عاشور: «هذه الآية مجملة في معنى الاستماع والإنصات، وفي مقتضى الأمر من قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾، يبين بعض إجمالها سياق الكلام والحمل على ما يفسر سببها من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، ويحال بيان مجملها فيما زاد على ذلك على أدلة أخرى.

وقد اتفق علماء الأمة على أن ظاهر الآية بمجرده في صور كثيرة مؤول، فلا يقول أحد منهم بأنه يجب على كل مسلم إذا سمع أحدًا يقرأ القرآن أن يشتغل بالاستماع وينصت، إذ قد يكون القارئ يقرأ بمحضر صانع في صنعته، فلو وجب عليه الاستماع لأمر بترك عمله، ولكنهم اختلفوا في محمل تأويلها:

فمنهم من خصها بسبب رأوا أنه سبب نزولها، فنزلت هذه الآية في أمر الناس بالاستماع لقراءة الإمام. وهؤلاء قصروا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه، عند من يخصصه به، وهذا تأويل ضعيف؛ لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح، ولا هو مما يساعد عليه نظم الآية التي معها، وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل، وليس فيه شيء مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنهم من أبقى أمر الاستماع على إطلاقه القريب من العموم، ولكنهم تأولوه على أمر الندب، وهذا الذي يؤخذ من كلام فقهاء المالكية، ولو قالوا: المراد من قوله:

(١) المصدر السابق ٧/ ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق ٧/ ٣٥٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.

﴿قُرِئَ﴾ قراءة خاصة، وهي أن يقرأه الرسول -عليه الصلاة والسلام- على الناس لعلم ما فيه والعمل به للكافر والمسلم، لكان أحسن تأويلًا»[1]. لكن هذا الذي يستحسنه قد اعترض عليه القرطبي -أيضًا- بعموم اللفظ كما تقدم.

وبعيدًا عن الحكم الفقهي فإن الآية قد جاءت بأمر معلل تضمن أدبًا أُدب به المؤمنون:

فأما الأدب فهو الاستماع للقرآن الكريم إذا تلي والإنصات له: ﴿وَإِذَا قُرِئَ﴾ عليكم أيها المؤمنون ﴿ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ يعني: أصغوا إليه بأسماعكم؛ لتفهموا معانيه وتتدبروا مواعظه، ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ يعني: عند قراءته، والإنصات السكوت للاستماع. يقال: نَصَتَ وأَنْصَتَ وانْتَصَتَ بمعنى واحد[2].

وأما العلة: فهي رجاء المستمع المنصت أن تشمله رحمة منزله سبحانه وتعالى، وذلك حاصل من تدبر ما تضمنته آياته من معانٍ ودلائل ووصايا وأوامر ونواهٍ «فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين»[3].

فإذا استبعدنا التفكير الفقهي الذي يربط المسألة بالإيجاب أو الندب، فإن محل الاتفاق أن الإنصات إلى آيات الذكر إذا تليت ليس أقل من أن يكون أدبًا عظيمًا يتأدب به العبد الراجي؛ لأن يكون من المشمولين برحمة منزله الرحمن الرحيم.

ثالثًا: أدبهم مع دلالاته ومعانيه:

في سياق مدحه لأوليائه، وصف الرحمن عباده المنسوبين تشريفًا إلى جلاله بأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

عن قتادة قال: «لم يصموا عن الحق ولم يعموا عنه، هم قوم عقلوا عن الله فانتفعوا بما سمعوا من كتاب الله. وقال مجاهد: كم من قارىء يقرؤها بلسانه يخر عليها أصم

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٨٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣٩.

أعمى»[(١)].

والمعنى: أنهم استمعوا إلى ما فيها من المواعظ وانتفعوا بها، قال أبو السعود: «﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطوية على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: أكبوا عليها سامعين بآذانٍ واعيةٍ مجلين لها بعيون راعية، وإنما عبر عن ذلك بنفي الضد تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون»[(٢)].

ومقصد الآية أن تثبت لهم الاتعاظ والانتفاع بعد حسن الإنصات والاستماع، فلما نفت ضده عنهم أضافت إلى ذلك معنى زائدًا، صورته الموازنة بين حالهم وحال المخذولين على جهة الترغيب في هذا، ونصبه في مقام القدوة، والترهيب من ذاك وبيان قبحه وتصويره في صورة النقيصة، «وإذا كان الكلام مقيدًا بقيد كما هنا، فإن النفي ينصب على ذلك القيد في غالب الاستعمال العربي. ونظيره: ما رأيت زيدًا راكبًا، نفيًا للركوب لا للرؤية. ولا يلقاني مُسلِّمًا نفيًا للسلام لا للقاء. فلم ينف عنهم الخرور، وإنما نفى عنهم الصمم والعمى عند الخرور»[(٣)]. على أنه قد تقدم «وصفهم [هم أنفسهم]. فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، وبعدهم عنه. ثم وصفهم هنا بإقبالهم على الحق، وإكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين»[(٤)].

فأما (الخرور): فـ«هو السقوط كسقوط الساجد»[(٥)]، و «هاهنا أمران: ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه. وهل هو خرور القلب أو خرور البدن للسجود؟ وهل المعنى: لم يكن خرورهم عن صمم وعمه. فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا، أو بالبدن سجودًا أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود؟»[(٦)] كلٌّ محتمل. وبناء على اختيار أحد المعنيين يكون حمل الخرور على وقوع السجود منهم حقيقة، أو وقوع الهيبة والشعور بعظمة منزل هذه الآيات في القلب، ولا ريب أن الأمرين واقعان، يقع منهم هذا مرة، ويقع هذا منهم أخرى، وقد يجتمعان معا.

و«(الأصم): فاقد حاسة السمع، أو الذي لا يتدبر ما يسمع فلا ينتفع به، وهو المراد هنا.

و(الأعمى): فاقد حاسة البصر، أو الذي لا يعتبر فيما يبصر فلا ينتفع به، ويكون الأعمى بمعنى فاقد الإدراك القلبي، وهو عمى البصيرة، وما هنا يحتمل الوجهين الأخيرين.

وعبر بـ (إذا)؛ لأن التذكير مما هو واقع محقق، كالذي يسمع من القرآن في الصلاة

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٨٤.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٣١.
(٣) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤١٣.

ومن الخطب في الجمع. وبنى الفعل للنائب؛ لأن التذكير بالآيات يجب قبوله من أي مذكر كان»[1].

وعلى هذا فهؤلاء الموصوفون -على جهة المدح والتشريف- بأنهم عباد الرحمن من صفاتهم التي استحقوا بها المنزلة والثناء «أنهم إذا ذكرهم مذكر بآية ربهم التي أنزلها على نبيهم - صلى الله عليه وآله وسلم- بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعاماته، وأيامه في أوليائه وأعدائه، ووعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه- أقبلوا عليها، وأكبوا على سماعها، بآذان واعية، وأبصار راعية، وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة. لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها، ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون؛ لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون»[2].

وعليه يكون الاتعاظ والانتفاع، والمبادرة والاستجابة والإسراع، من بعد حسن الإنصات والاستماع من أوجب الآداب التي يتأدب بها الطامع في رحمة ربه الراجي لها.

هذا وقد ذكر كثير من المفسرين أن قوله جل وعلا في السورة نفسها: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٣٠].

شامل لتارك التدبر والنظر في آيات الله.

أي: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ مناديًا لربه وشاكيًا له إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفًا على ذلك منهم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ الذي أرسلتني لهدايتهم وتبليغهم، ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ أي: قد أعرضوا عنه وهجروه وتركوه مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، قال الله مسليًا لرسوله ومخبرًا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل[3].

وقد ذكر ابن كثير لهذا الهجر صورًا ومراتب فقال: «يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين- أنه قال: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضًا من هجرانه، وترك

(١) تفسير ابن باديس ص ٢٣٣.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٢.

الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره- من هجرانه، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب»[(١)].

وبناء على ما قال فلا يخرج العبد عن أن يعد في أهل هذه الشكوى حتى يكون تاليًا متفهمًا متدبرًا لآيات الكتاب مستأنسًا بها مؤثرًا لها على غيرها.

قال ابن باديس تحت عنوان (تحذير وتنبيه): «قد صورت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه؛ تقبيحًا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرًا منه، وتنبيهًا على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال؛ إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر»[(٢)].

وحينئذ فإن «الناس عند تلاوة آيات القرآن على قسمين: معرضين، ومقبلين.

فالمعرضون غير المؤمنين.

والمقبلون على قسمين: مقبلين بظاهرهم دون باطنهم، ومقبلين بظاهرهم وباطنهم.

فالمقبلون بظاهرهم دون باطنهم هم المنافقون.

والمقبلون بظاهرهم وباطنهم على قسمين: مستمعين، مستبصرين، حاضرين، متدبرين. وغافلين غير متدبرين غير سامعين ولا مبصرين.

والأقسام كلها مذمومة إلا قسم المقبلين بظواهرهم وبواطنهم، المستمعين المستبصرين. وهذا القسم هو الذي وصف به عباد الرحمن، فكانوا مباينين لأهل الإعراض من الكافرين والمنافقين، ولأهل الغفلة، وعدم التدبر من المؤمنين»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٨.

(٢) تفسير ابن باديس ص ٢٣٥.

(٣) المصدر السابق.

أثر القرآن على المكلفين والجمادات

قد ورد أنه لو قدر لكلام أن يخلع الجبال عن أماكنها، ويقطع الأرض، أو أن يكلم الموتى في قبورهم به لكان هذا القرآن، وأن لآياته عظمة حقيقة بأن تخشع لها الجبال وتتصدع.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

فلعظمة القرآن وإعجازه كاد يحدث هذا الأثر العجيب في ما هو شديد من المخلوقات كالجبال، ومع ذلك فقد كفر به خلق وصدوا عنه.

قال ابن كثير: «يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، ومفضلًا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له»[1].

فقد كادت آيات القرآن تخلع الجبال، وكذا فإنه لو أنزل عليها لتصدعت وخشعت مع أن قلوب البشر لا تفعل، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فتضمنت الآية تعظيمًا لأمره، وتبيينًا لعلو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟

ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، فمن تفكر علم أن في قلوب بعض الناس قسوة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٦٠.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٧٨.

تفوق قسوة الجبال.

وبناء على ما سبق، فإنه يفترض حصول الخشوع في قلوب الناس عند سماع القرآن الكريم، كما نصت على ذلك الآية التي اشتملت على أمر غير مباشر بتحقيق هذا الخشوع، فعن ابن عباس قال: يقول تعالى: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدع وخشع من ثقله، ومن خشية الله، فأمر الله -عز وجل- الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ونص على ذلك القرطبي أيضًا فقال: «قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ حث على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة، أي: متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق»[2].

وهذا الخشوع أولى بأن يكون أثرًا في قلب المؤمن، وقد وصف القرآن الكريم حالة تحصل في نفس المؤمن تصاحب الخشوع سماها: (شرح الصدر) في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

ودل سياق الآيات على أن حالة الانشراح هذه مصاحبة للخشوع: فقد قابلتها الآية بصورة القلب القاسي، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾»[3]، ثم أعقبت ذلك ببيان أثر القرآن على الجلود والقلوب.

ومعنى الآية: «أفمن فسح الله قلبه لمعرفته، والإقرار بوحدانيته، والإذعان لربوبيته، والخضوع لطاعته ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ يقول: فهو على بصيرة مما

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٠١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٤٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٣.

هو عليه ويقين، بتنوير الحق في قلبه، فهو لذلك لأمر الله متبع، وعما نهاه عنه منته فيما يرضيه، كمن أقسى الله قلبه، وأخلاه من ذكره، وضيقه عن استماع الحق، واتباع الهدى، والعمل بالصواب؟

وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه، وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان ذكر الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فويل للذين جفت قلوبهم ونأت عن ذكر الله وأعرضت، يعني عن القرآن الذي أنزله تعالى ذكره، مذكرًا به عباده، فلم يؤمن به، ولم يصدق بما فيه.

وقيل: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى: عن ذكر الله، فوضعت (من) مكان (عن)، كما يقال في الكلام: أُتخمت من طعام أكلته، وعن طعام أكلته بمعنى واحد، هؤلاء القاسية قلوبهم من ذكر الله في ضلال مبين، لمن تأمله وتدبره بفهم أنه في ضلال عن الحق جائر»[1].

ومقابلة صورتي (منشرح الصدر مقشعر الجلد) و (قاسي القلب) تدل على أن هذا الانشراح مرتبط بالخشوع.

وكما نصت الآية على انشراح الصدر نصت أيضًا على لين القلب: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. «واللين: ضد الخشونة، وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإشارة إلى إذعانهم للحق وقبولهم له بعد تأبيهم منه»[2].

وقد يكون هذا اللين هو المنصوص عليه في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]: أي: «تسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله»[3].

«و(طمأنينة القلوب) هي الاستكانة، والسرور بذكر الله، والسكون به كمالًا به. ورضى بالثواب عليه وجودة اليقين»[4].

ودل قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ على أن الطمأنينة لا تحصل إلا بذكر الله وحده. فتكون هذه الحالة النفسية من انشراح الصدر ولين القلب وطمأنينته مصاحبة لهذا الخشوع أو أثرًا له.

وقد ذكرت آية سورة الزمر تأثيرًا آخر للقرآن الكريم على ما يظهر على أبدانهم فنصت على أن جلودهم تقشعر عند سماعه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٧٧.

(٢) المفردات، الراغب ص٧٥٢.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٢.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣١١.

﴿يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فـ «هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف»[١].

وهذه الحالة ترد عليهم أولًا، ثم تعقبها حالة أخرى هي لين الجلود والقلوب: «﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه.

قال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلى وعد الله»[٢].

وفي قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ «دليل على أن هذه القشعريرة ناتجة عن شيء في القلب وهو الخشوع والخشية؛ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الوجل في القلب كإحراق السعفة، أَمَا تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك»[٣].

أي: إنها حالة متفرعة من الخشوع والخوف والوجل، وسائر ذلك مما يرد على قلب المؤمن عند سماعه آيات التنزيل تتلى.

مواضيع ذات صلة:

الإنجيل، التوراة، الكتب المنزلة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣)







عناصر الموضوع

مفهوم القراءة

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس: «القاف والراء والحرف المعتل: أصلٌ صحيح يدل على جمعٍ واجتماع، ومن ذلك: «القرية»، وسميت بذلك؛ لاجتماع الناس فيها، والمقراة: الجفنة، سميت بذلك؛ لاجتماع الضيف عليها»[(1)].

من: قرأ يقرأ قراءةً، فهي مصدر للفعل: «قرأ»، واسم الفاعل: «قارئ»، تقول: قرأ فلانٌ قراءة حسنة، ورجل قراءٌ حسن القراءة من قوم قرائين، والمفعول مقروء، تقول: صحيفة مقروءة، وقارأه مقارأةً وقراءً: دارسه، واستقرأه طلب إليه أن يقرأ، والقراء يكون من القراءة جمع قارئٍ، وقرأ عليه السلام يقرؤه عليه وأقرأه إياه أبلغه[(2)].

والأصل في القراءة: الجمع والضم، تقول: «قرأت الكتاب قراءةً»، ضممت حروفه بعضها إلى بعض، وكل شيءٍ جمعته فقد قرأته، و«قرأت الشيء قرآنًا»: جمعته وضممت بعضه إلى بعضٍ[(3)]. ومنه سمي القرآن قرآنًا؛ لأنه يضم القصص والأحكام، والآيات والسور بعضها إلى بعض.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف معنى القراءة في الاصطلاح عن معناها في اللغة.

وقد عرف الكفوي القراءة بقوله: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، ولا يقال ذلك لكل جمع؛ بدليل أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة[(4)].

يقول ابن عاشور: «القراءة هي: تلاوة كلامٍ صدر في زمن سابق لوقت تلاوة تاليه، بمثل ما تكلم به متكلمه، سواء كان مكتوبًا في صحيفة، أم كان ملقنًا لتاليه بحيث لا يخالف أصله، ولو كان أصله كلام تاليه، ولذلك لا يقال لنقل كلام أنه قراءة إلا إذا كان كلامًا مكتوبًا أو محفوظًا»[(5)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٧٨.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٩٢، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٧٨، لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٥٠، تاج العروس، الزبيدي ١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: لسان العرب ١٢/ ٥١، تاج العروس ١/ ٣٠٧.
(٤) الكليات ص ٧٠٣.
(٥) التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٥٣.



القراءة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (قرأ) في القرآن الكريم (٨٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٨٧) مرة[١].
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]
الفعل المضارع	٥	﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء:١٠٦]
الفعل الأمر	٦	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١]
المصدر	٧٠	﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨﴾ [القيامة:١٧-١٨]

الأصل في القراءة أنها بمعنى الجمع والضم؛ وكل شيء جمعته فقد قرأته؛ فالقراءة جمع الحروف والكلمات، والقرآن يجمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٥٣٩-٥٤٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب القاف ص٩٣٧-٩٣٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٢٨، تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ص ٣٧٠-٣٧١، الفروق اللغوية، العسكري، ص١٤٠-١٤١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ٢٦٢-٢٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ التلاوة:

التلاوة لغة:

مصدر الفعل: «تلا» بمعنى: «تبع»، تقول: «تلوته تلوًا» أي: تبعته، ويقال: «ما زلت أتلوه حتى أتليته»، أي: تقدمته وصار خلفي، وأتليته أي: سبقته، وتلا فلانٌ القرآن يتلو تلاوة، وتلا الشيء: تبعه تلوًا[(١)]. وتطلق التلاوة: على القراءة، تقول: تلا يتلو تلاوةً يعني: قرأ قراءةً؛ لأن القارئ في قراءته كأنه يتبع الحروف والكلمات بعضها بعضًا[(٢)].

التلاوة اصطلاحًا:

هي القراءة لكلام مكتوبٍ أو محفوظٍ من كلامٍ له أو لغيره، يحكيه لسامعه، وغلب استعمالها في: قراءة القرآن وتجويده وترتيله بتفكر وتدبر[(٣)].

الصلة بين التلاوة والقراءة:

التلاوة صورة من صور القراءة فهي إتباع الحروف والكلمات بعضها لبعض، وبينها وبين القراءة عموم وخصوص، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، وغلب استعمالها في قراءة القرآن خاصة.

يقول الراغب الأصفهاني: «والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب، فهي أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة»[(٤)].

ويقول أبو هلال العسكري: «الفرق بين التلاوة والقراءة: أن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدًا، والقراءة تكون للكلمة الواحدة يقال: قرأ فلان اسمه، ولا يقال تلا اسمه»[(٥)].

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ١٣٤، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢٩٠، لسان العرب، ٢/ ٢٣٥، تاج العروس، ٣٧/ ٢٤٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٦٩.
(٣) انظر: التمهيد في علم التجويد، ابن الجزري ص ٥٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٥٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٦٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ١٤٠.



٢ الترتيل:

الترتيل لغة:

مصدر من: «رتل فلان كلامه إذا أتبع بعضه بعضا»، والرتل: حسن تناسق الشيء، وثغرٌ رتلٌ ورتَلٌ: حسن التنضيد، مستوي الثنيات، وكلامٌ رتلٌ ورتَلٌ أي: مرتّلٌ حسنٌ على تؤدة، ورتل الكلام أحسن تأليفه، وأبانه وتمهل فيه[١].

وقيل الكلام المرتل: المفصل، يقال: فلانٌ يترتل في كلامه ويترسل: إذا فصل بعضه من بعض[٢]. والترتيل في القراءة: الترسل فيها، والتبيين من غير بغيٍ[٣].

والترتيل اصطلاحًا:

القراءة بتؤدة واطمئنان، وإخراج كل حرف من مخرجه، مع تدبر المعاني، ومراعاة الوقوف[٤].

الصلة بين الترتيل والقراءة:

أن الترتيل وصفٌ مخصوص لصورة من صور القراءة، فهو تحقيق لوصف التؤدة والطمأنينة في تلاوة القرآن خاصة.

٣ الكتابة:

الكتابة: لغة:

مصدر كتبت، والكتب: الجمع، يقول ابن فارس: «الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على جمع شيءٍ إلى شيءٍ، من ذلك: الكتاب والكتابة، يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتبًا، ويقولون: كتبت البغلة، إذا جمعت شفري رحمها بحلقة»[٥].

والكتاب في الأصل: اسم للصحيفة المكتوب فيها، وسميت الكتابة لجمعها الحروف[٦].

الكتابة اصطلاحًا:

خطوطٌ موضوعةٌ مجتمعة تدل على المعنى المقصود، وأصلها: نقش الحروف في حجرٍ

---

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٢٢، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٧٠٤، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٥٧٨.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٨/ ١١٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٥٧٨.
(٤) انظر: التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو الداني ص ٧٢.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٠٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٨.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١/ ٣٦٣.

أو رق أو ثوبٍ[1].

ويعبر عن المقروء بالمكتوب، إذ القراءة والكتابة يشتركان في معنى الجمع والضم، فالقرآن الكريم هو المقروء المكتوب في المصاحف، فروعي في تسميته قرآنًا كونه مقروءًا بالألسن، وروعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه[2].

الصلة بين الكتابة والقراءة:

يتضح مما سبق: أن الكتابة هي رسم المقروء، الدال على المقصود، فالمكتوب يكون بالقلم والرسم، والقراءة باللسان والنطق، ويعبر بكلٍ منهما عن الآخر، من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

د الأمية:

الأمية لغة:

نسبةٌ إلى: «الأمي»، والأمي: هو الذي على خلقته لم يتعلم الكتابة ولا القراءة، فهو على جبلته التي خلق عليها[3].

الأمية اصطلاحًا:

الأمي الذي لا يحسن الكتابة ولا القراءة، قاله أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النخعي، وغير واحد[4].

وقيل: الأمية: الصفة التي هي على أصل ولادة أمه لم يتعلم الكتابة ولا قراءتها، أو هو من لا يحسن الكتابة؛ لأنه لا يقدر عليها[5]. وقيل للذي لا يكتب: أمي؛ لأن الكتابة والقراءة مكتسبة؛ فكأنه نسب إلى ما ولد عليه من الجهل بهما.

الصلة بين الأمية والقراءة:

يتضح مما سبق: أن الأمي هو الذي لم يدرك الكتابة ولا القراءة خاصة، فالأمية لفظة مقابلة للقراءة، يزيد العلم بمفهومها إجلالًا وتعظيما للقراءة، إذ القراءة خصيصةٌ مكتسبة فوق أصل الخلقة.

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٧٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٣٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ١/ ٣٦٣، النبأ العظيم، محمد دراز ص ١٢ - ١٣.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٢٣٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن، ابن كثير ١/ ٣١٠.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ١٨٢، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٥٧.



منزلة القراءة في القرآن

جاء القرآن الكريم مشيدًا بالقراءة مناديًا بها في أول كلمة نزلت منه من السماء، ومستعملًا لاشتقاقاتها، مدللًا على منزلتها الرفيعة، ومكانتها السامية، يوضح ذلك ما جاء في النقاط الآتية:

أولًا: إسناد القراءة لله تعالى.

قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ⁦(٦)⁩﴾ [الأعلى:٦].

هذا إخبار من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه سيعلمه هذا القرآن ويحفظه عليه، وسيقرئه بقراءة جبريل عليه السلام عليه، فلا ينسى منها إلا ما شاء الله أن ينساه مما نسخ الله تلاوته من القرآن.

قال مجاهد: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل عليه السلام لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولها مخافة أن ينساها، فأنزل الله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾»[(١)].

يقول القرطبي: «وهذه بشرى من الله تعالى، بشره بأن أعطاه آيةً بينةً، وهي أن يقرأ عليه جبريل عليه السلام ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه»[(٢)].

ويقول أبو السعود: «والسين في: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ إما للتأكيد، وإما لأن المراد: إقراء ما أوحى الله إليه حينئذٍ وما سيوحى إليه بعد ذلك، فهو وعدٌ كريم باستمرار الوحي أو سنجعلك قارئًا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلًا من قوة الحفظ والإتقان، مع أنك أميٌّ لا تدري ما الكتاب وما القراءة ليكون ذلك آيةً أخرى لك»[(٣)].

لقد أمن الله نبيه صلى الله عليه وسلم من النسيان في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾، ولما كانت الآية توهم لزوم ذلك له صلى الله عليه وسلم، جاء الاستثناء بعدها: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فنسيان النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد الله أن ينساه جائز.

يقول ابن حجر: «فإن المراد بالمنسي ما ينسخ تلاوته، فينسي الله نبيه صلى الله عليه وسلم ما يريد نسخ تلاوته»[(٤)].

ويقول الألوسي: «وإسناد الإقراء إليه تعالى مجازي، أي: سنقرئك ما نوحي إليك الآن وفيما بعد على لسان جبريل عليه السلام»[(٥)].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٧١، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود باختصار ٩/ ١٤٤.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٩/ ٨١.

(٥) روح المعاني، الألوسي ٣٠/ ١٠٥

وإسناد قراءة القرآن وتلقيها لله عز وجل يعلو ذلك بشرفها، ويعظم بمكانتها، وأن مصدرها الوحي السماوي، والتلقي الإلهي، وأن طريقتها متلقاة من الله عز وجل لا صنعة فيه للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا لأحدٍ من الخلق، وإنما هي منزلة من عنده سبحانه وتعالى[(١)].

وقد استمر هذا الإسناد المبارك لقراءة القرآن الكريم موصولًا، فقد عرض القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعٌ من الصحابة رضي الله عنهم منهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه، وأبى بن كعب رضي الله عنه، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وأبو الدرداء رضي الله عنه، وعليهم دارت أسانيد قراءة الأئمة العشرة.

فقراءة القرآن بقراءاته المتعددة توقيفية من الله عز وجل لا مجال فيها للاجتهاد والقياس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

يقول ابن الجزري: «وكل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ به فقد وجب قبوله، ولم يسع أحدًا من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وإن كله منزل من عند الله»[(٢)].

ويقول أبو عمرو الداني: «وأئمة القراءة لا تعمل في شيء من حروف القرآن، على الأفشى في اللغة، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت لا يردها قياس عربية، ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة، يلزم قبولها والمصير إليها»[(٣)].

ثانيًا: الأمر بالقراءة.

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١].

إن أول أمرٍ أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وكلفه به، هو الأمر بالقراءة، فأول كلمة تلقها النبي صلى الله عليه وسلم من أمين الوحي جبريل عليه السلام حينما لقيه في غار حراء هي: ﴿ٱقْرَأْ﴾، بصيغةٍ تلفت النظر، وتجذب الانتباه، وتسترعي الاهتمام.

إن هذا الأمر ليوضح بجلاء أن مصدر القراءة في كافة مجالاتها الحسية الآلية منها والمعنوية الكونية هو الوحي الرباني، والذي استوعب المعاش والمعاد، والدنيا

---

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٥١، النبأ العظيم، محمد دراز ص ٥٠.

(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٥١.

(٣) جامع البيان في القراءات السبع، الداني ١/ ٥١.

والآخرة، والمبدأ والمنتهى[1].

ومجيء الأمر بها أولًا فيه تنويهٌ بشأنها، ودعوةٌ إليها؛ لأنها شعار دين الإسلام.

يقول القرطبي: «نبه على فضل علم القراءة والكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا»[2].

إن هذا الأمر بالقراءة لهو أمر تكليفي لابد من القيام به إما عينًا، وإما كفاية، ولا غرو في ذلك فالقراءة هي السبيل إلى المعرفة والعلم، وبناء العقل، والوصول بالإنسان إلى درجة التكريم والتفضيل.

فخص الله الإنسان بالقراءة دون سائر الحيوانات، وذلك لأن القراءة من لوازم العقل والإدراك، فتخصيص خلق الإنسان بالذكر دون سائر المخلوقات، ليدل على أن الإنسان هو المختص بالقراءة والعلم، المنفرد بتبعية التكليف، المخاطب بكل ما سوف ينزل به الوحي من كلمات الله[3].

يقول ابن تيمية: «﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾: ذكر سبحانه أنه خلق أكرم الأعيان الموجودة عمومًا وخصوصًا وهو الإنسان، وأنه المعلم للعلم عمومًا وخصوصًا: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

ثم قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾: ذكر بعد الخلق تعليم الإنسان ما لم يعلم، فخص هذا التعليم الذي يستدل به على إمكان النبوة فإن النبوة نوع من التعليم، وليس جعل الإنسان نبيًا بأعظم من جعل العلقة إنسانًا حيًا عالمًا ناطقًا سميعًا بصيرًا متكلمًا قد علم أنواع المعارف»[4].

ويقول ابن عاشور: «وذكر العلقة التي هي مضغة الدم العالقة بالرحم: فيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة، وقابليات عظيمة، أقصاها قابلية العلم والقراءة والكتابة»[5].

ثالثًا: القراءة تكريم للإنسان:

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق:٣-٥].

لما كانت القراءة هي الطريق للعلم والرفعة؛ والذي يرفع الإنسان ويخرجه من جهله وأميته التي خلق عليها؛ كان تخصيصه بالقراءة وأمره بها من أعظم النعم الموهوبه، والفضائل المهداة.

يقول الرازي: - مبينًا الترابط بين الأمرين:

(١) انظر: القراءة أولاً، محمد عدنان ص ١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٢٠.
(٣) انظر: التفسير البياني، بنت الشاطئ ٢/ ١٤.
(٤) مجموع الفتاوى ابن تيمية، بتصرف يسير ٤/ ٣٨.
(٥) التحرير والتنوير، باختصار ٤/ ٤٣٨.

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ و ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فيقول: «أولًا: وصف نفسه سبحانه بأنه خلق الإنسان من علق، وثانيًا: بأنه علمه بالقلم، ولا مناسبة في الظاهر بين الأمرين، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة، وهي أخس الأشياء، وآخر أمره هو صيرورته عالمًا بحقائق الأشياء، وهو أشرف مراتب المخلوقات، فكأنه تعالى يقول: انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية، فالأكرم هو الذي أعطاك العلم؛ لأن العلم هو النهاية في الشرف»[(١)].

ويقول الزمخشري: «الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم»[(٢)].

و﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ الذي لا يوازيه كريم، ولا يعادله في الكرم نظير، هو الذي يعطي بدون مقابل، ولا انتظار مقابل، فهو سبحانه كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم.

بل من كرمه سبحانه أنه جعل من القلم الذي هو قطعة جامدة من الحطب، أو الخشب، أداة للعلم والمعرفة، ففتح به على الإنسان أبواب العلوم والمعارف، وجعل من ثماره هذه الكتب التي حفظت ثمار العقول، فكانت ميراثًا للعلماء، يرثها الخلف عن السلف، وينميها ويثمرها العلماء جيلًا بعد جيل وبهذا تعلم الإنسان ما لم يكن يعلم، ويعلمه هذا المستفاد من سلفه، فتح أبوابًا جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده، ويفعل فعله، بما يفتح من أبواب جديدة للعلم وهكذا تتسع معارف الإنسان، ويزداد علمه على مدى الأجيال[(٣)].

ومجيء الوصف هنا بالأكرم بدلًا من أي صفة أخرى؛ لما في هذه الصفة من تلاؤم للسياق، ما لا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة في أمرين:

فأولًا: رحمة الخليقة بهذه القراءة التي ربطت العباد بربهم.

وثانيًا: نعمة الخلق والإيجاد.

فهما نعمتان متكاملتان: الإيجاد من العدم بالخلق، والإيجاد الثاني من الجهل إلى العلم، ولا يكون هذا كله إلا من الرب الأكرم سبحانه[(٤)].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢١٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٤٤/ ٧٧٦.
(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٦٢٥.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٧.

آداب القراءة

قراءة القرآن من أفضل القربات، وأشرف العبادات، ولذا جاء القرآن الكريم مرشدًا إليها، موضحًا الآداب التي ينبغي لقارئ القرآن أن يتأدب بها تعظيمًا للقرآن، وإجلالًا له، وهي كما يلي:

١. البدء بالبسملة.

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾: أي: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، قل: «باسم الله»، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبتدئ القراءة باسم الله تأدبًا، وبركةً، وثناءًا.

يقول أبو جعفر الطبري: «إن الله تعالى أدب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ما أدبه به من ذلك وعلمه إياه منه لجميع خلقه سنةً يستنون بها، وسبيلًا يتبعونه عليها، فبها افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم»[(١)].

ومحل «باسم ربك»: النصب على الحال، أي: اقرأ مفتتحًا باسم ربك[(٢)].

ويجوز أن تكون الباء زائدة، والتقدير: «اقرأ اسم ربك»، وقيل: الباء بمعنى: «على»، أي: «اقرأ على اسم ربك»، يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله، وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي: اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله[(٣)].

يقول أبو الحسن القيرواني: «بسم الله افتتاح إيمان ويمن، وحمد عاقبة، ورحمة وبركة، وثناء، وتقرب إلى الله عز وجل ورغبة فيما عنده وهو أدب من آداب الدين، ومدح لله تعالى، وتعظيم وشعار للمسلمين، وتبرك للمستأنف، وإقرار بالعبودية، واعتراف بالنعمة»[(٤)].

ويقول الرازي: «والتسمية توجه القلب إلى هيبة جلال الله.

ثم قال: «قال: باسم ربك» ولم يقل: «اقرأ باسم الله» كما قال في التسمية المعروفة: «بسم الله الرحمن الرحيم»، وجوابه: أنه أمرٌ بالعبادة، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة»[(٥)].

فالقراءة مبدوءةً باسم الله تنتج حضارةً ربانية قرءانية، قلبها التوحيد، وطابعها اليمن والبركة والتزكية، وهدفها العمران والإصلاح في الأرض.

والبسملة عند قراءة القرآن مستحبة عند جمهور القراء، ومحلها البدء في السور.

يقول النووي: «وينبغي أن يحافظ على

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١١٤.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٨١، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٨.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١١٩.
(٤) النكت في معاني القرآن وإعرابه، القيرواني ص ١٠٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٦٨.

قراءة: «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول كل سورة «سوى براءة»[(١)].

وإذا ابتدأ قراءته أثناء السورة لا من أولها، فالأصح من مذاهب القراء أن القارئ مخير في الإتيان بها أو تركها.

قال أبو عمرو الداني: «فأما الابتداء برؤوس الأجزاء التي في بعض السور، فأصحابنا يخيرون القارئ بعد الاستعاذة بين التسمية وتركها في مذهب الجميع»[(٢)].

ولفظ البسملة يتضمن الاستعانة بالله، فـ«بسم الله»، أي: أستعين بالله.

والاستعانة: هي طلب العون من الله، ولما كانت قراءة القرآن عبادة تحتاج إلى جهد وفهم، وتفريغ للقلب، كانت الاستعانة بالله عند القراءة مقوية للعبد ومعينة له عليها[(٣)].

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

أي: اقرأ بعون ربك وتوفيقه، فالباء للاستعانة، والمفعول محذوف، تقديره: «اقرأ ما يوحي إليك مستعينًا باسم ربك»[(٤)].

ومعنى الاستعانة باسم الله: أي: ذكر اسمه عند هذه القراءة، وذكر كلمة: «اسم» لأن الاستعانة بذكر اسمه تعالى لا بذاته، وهذا الوجه يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: باسم الله حين تلقى هذه الجملة[(٥)].

يقول الراغب: «إنما قال «بسم الله» ولم يقل: «الله»؛ لأنه لما استحب الاستعانة بالله تعالى في كل أمر يفتتح به من قراءة وغيرها، فبعضهم يذكره بقلبه، وبعضهم يزيد عليه ويقوله بلسانه ويكون أبلغ، وذكر الله مستعمل في كل ذلك، وألفاظ الاستعانة نحو: «أستعين بالله» فصار لفظة «بسم الله» مستغنى به عن جميعها وقائمًا مقامها»[(٦)].

إنها دلالة واضحة على أن القراءة التي تتضمن التوحيد والإخلاص، والتوكل على الخالق الباري، وستخرج هذا الإنسان بعون الله من جهله وضعفه إلى تفوقه وتقدمه، بل وتجعله يسير بنور رباني يكشف له حجب الغفلة والظلام.

٢. الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى.

أمر الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة قبل قراءة القرآن، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

أي: إذا أردت القراءة فاستعذ بالله،

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٨١.
(٢) جامع البيان في القراءات السبع، أبو عمرو الداني: ١/ ٤٠٥.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٣٦.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٨.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١/ ٥٣١٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٣٦.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٧.

واسأله سبحانه أن يعيذك من الشيطان الرجيم من أن يعرض لك أثناء قراءة القرآن فيصدك عن تدبره، فهي لدفع وسواس الشيطان.

وقراءة القرآن هي أشرف مقروء وأفضله، فيها صلاح القلوب، والشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها؛ فشرعت الاستعاذة لطلب الإعاذة والاعتصام بالله[1].

يقول ابن عاشور: «وإنما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانًا بنفاسة القرآن ونزاهته، إذ هو نازل من العالم القدسي الملكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائص عن نفسه إلا بأن يسأل الله تعالى أن يبعد الشيطان عنه بأن يعوذ بالله»[2].

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾: أن الاستعاذة واجبة عند القراءة؛ لأن صيغة: «افعل» للوجوب، وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الأمر في الآية للندب والاستحباب[3].

يقول أبو شامة: «ووقت الاستعاذة ابتداء القراءة جرى على ذلك العمل في نقل الخلف عن السلف»[4].

٣. ابتغاء مرضاة الله.

قراءة القرآن عبادة رتب الله عليها الأجر والثواب إذا كانت خالصةً لله، وقصد بها القارئ ابتغاء مرضاة الله، وأداؤها بدون إخلاصٍ وصدق مع الله يجعلها لا قيمة لها ولا ثواب، بل صاحبها متعرض للوعيد الشديد.

يقول النووي: «يجب على القارئ الإخلاص، وأن يستحضر في نفسه أنه يناجي الله تعالى، ويقرأ على حال من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه»[5].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك، أهل العبادة وقراءة القرآن والإخلاص، فعن مجاهد والحسن. قيل: المراد بالدعاء: الذكر وقراءة القرآن[6].

وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٩٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٣٩.
(٣) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٥٧.
(٤) إبراز المعاني في شرح حرز الأماني، أبو شامة ص ٦١.
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١/ ٤.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٣٢.

وسلم يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ورجلٌ تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)[(١)].

فالإخلاص في قراءة القرآن تخليص للقلب من كل شائبة تشوبه من رياء، أو سمعة، أو تصدر مما يكدر صفاء النية، ويفسد مرادها، فيتجرد في القلب قصد التقرب لله فلا يكون فيه باعث سواه.

وقد أخبر الله أنه مطلع على عبده حال قراءته عالم بحاله، كاشف لقصده، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك، فالله مطلع عليه وقت شروعكم فيه[(٢)].

٤. السؤال عند عدم المعرفة.

لأهمية السؤال في التعلم والتعليم فقد أرشد الله إلى أهمية السؤال، فقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فأهل الذكر: هم أهل العلم والكتابة والقراءة، العارفون بكتاب الله، المفتون في أمور الدين وأحكامه.

وقد أشاد الله في كتابه بسؤال المؤمنين عما أشكل عليهم في أمور دينهم، آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم بالإجابة عن ما سألوا عنه، فقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[المائدة: ٤].

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما شفاء العي السؤال)[(٣)]، والعي: الجهل.

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم -زيادةً في طمأنته بشأن نبوته- أن يسأل أهل القراءة من أهل التوراة والإنجيل عن وجود هذه الحقيقة في كتبهم.

قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٦/ ٤٧، رقم ٥٠٢٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٧.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب المجدور يتيمم، ١/ ٢٥٢، رقم ٣٣٦، وابن ماجه، كتاب الطهارة، باب المجروح تصيبه الجنابة فيخاف على نفسه إن اغتسل، ١/ ٣٦٢، رقم ٥٧٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٠٥، رقم ٤٣٦٤.



كما نهى الله سبحانه في المقابل عن كثرة الأسئلة التي لا فائدة فيها، أو الأسئلة التي يترتب عليها تشديد على الأمة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

أي: لا تسألوا عما لا حاجة لكم بالسؤال عنه، ولا هو مما يعنيكم في أمر دينكم.

يقول ابن كثير: «﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾: فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد، وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد»[١].

فأهل القراءة هم أهل العلم والذكر الدائم والفهم الحي، والذي يجب على المسترشد أن يعرض عليهم شكه وتردده، وعدم علمه، بسؤالٍ يطلب فيه النفع، وليس التعنت، وبذلك يكون قد قطع الطريق الطويل الشاق في البحث عن المجهول.

٥. تعاهد القراءة.

تكرار المقروء وسيلة من وسائل حفظه، ورسوخه في العقل، وهو أسلوب من أساليب الفصاحة والبيان، فالكلام المكرور أوقع في النفوس، وأمتع للأذهان والعقول، وقد استخدمه القرآن وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه، وإقراره في أفئدتهم[٢]، وأشار إلى أهميته فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فقد كرر الأمر بقوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾؛ لأن القراءة لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود على ما جرت به العادة، وتكرار الأمر الإلهي يقوم مقام تكرار المقروء، وبذلك تصير القراءة ملكة[٣].

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى تعاهد تلاوة القرآن وتكرار قراءته حين قال في حديث ابن عمر رضي الله عنه: **(إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت)**[٤].

وقراءة القرآن كلما تقاربت أوقاتها، وكثر تكرارها كانت أقوى في رسوخ حفظ القرآن وفهم معانيه، ومن أجل ذلك كان السلف يحرصون على كثرة التلاوة والقراءة، ويحزبون القرآن، ويتواصون بذلك.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما**

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٠٧.
(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٩، من بلاغة القرآن، أحمد البيلي ص ١١٢.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٩٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، ٦/ ١٦٣، رقم ٥٠٣١.

قرأه من الليل)[1].

وهذا فيه الإشارة إلى أهمية التكرار والتعاهد للقرآن.

كما أن تكرار قراءة القرآن سبيل إلى إجادة تجويده وضبط أدائه، يقول ابن الجزري: «ولا أعلم سببًا لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد، ووصول غاية التصحيح والتشديد، مثل رياضة الألسن، والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن»[2].

٦. التؤدة والتمهل.

القراءة بتمهل وتؤدة أقرب إلى الإجلال والتوقير للمقروء، وأشد تأثيرًا في القلب، وأدعى إلى التدبر والفهم.

وقراءة القرآن بتؤدة وتمهل أجل قدرًا، وأعظم شأنًا، ولذلك جاء الأمر بقراءته على هذه الصفة فقال سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وترتيله: قراءته على ترسل، وتفريقه آيةً بعد آيةٍ، قاله النخعي والحسن وقتادة، وقال ابن عباسٍ رضي الله عنه: «بينه بيانًا فيه ترتيلٌ وتثبيت»[3].

والتصريح بالتأني والتؤدة في القراءة ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

يقول ابن كثير: «قراءته على تمهل تكون عونًا على تدبره»[4].

ويقول النووي: «يستحب الترتيل؛ لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشد تأثيرًا في القلب»[5].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: (صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة فقرأها، ثم النساء فقرأها، ثم آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤالٍ سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ)[6].

ونهي في القراءة عن إفراط الإسراع فيها، ويسميه القراء: الهذرمة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تهذوه هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»[7].

يقول ابن الجزري: «وليحترز -في: القراءة- عن بتر حروف المد، وذهاب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، ٢/ ١٤٢، رقم ٧٤٧.
(٢) النشر في القراءات العشر ١/ ٢١٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٠.
(٥) التبيان في آداب حملة القرآن، مختصرا: ص ٩١.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، ١/ ٥٣٦، رقم ١٨٥٠.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب في القراءة يسرع بها، ٦/ ١٤١، والبغوي في معالم التنزيل ٤/ ٤٠٧، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٣٤٤.

صوت الغنة، واختلاس أكثر الحركات، وعن التفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة، ولا توصف بها التلاوة، ولا يخرج عن حد الترتيل»[(١)].

وقد اختلف العلماء في هل الأفضل هو الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرة القراءة؟ فذهب بعضهم إلى أن كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها الحديث)[(٢)].

يقول ابن الجزري: «والصحيح بل الصواب ما عليه معظم السلف والخلف، وهو أن الترتيل والتدبير مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها؛ لأن المقصود من القرآن فهمه، والتفقه فيه، والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه»[(٣)].

وقال ابن حجر: «والتحقيق أن لكلٍ من الإسراع والترتيل جهة فضل، بشرط أن يكون المسرع لا يخل بشيء من الحروف، والحركات والسكون، والواجبات، فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الآخر، وأن يستويان، فإن من رتل وتأمل، كمن تصدق بجوهرة واحدة مثمنة، ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر، لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكبر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالعكس»[(٤)].

ولعل ما ذهب إليه ابن حجر يكون هو الأقرب للصواب، فقد أوضح علماء القراءات ومنهم ابن الجزري أن القراءة على مراتب، ومنها الحدر وهو القراءة بسرعة مع مراعاة أحكام التجويد، وهي مرتبة معتبرة، يقول ابن الجزري: «فالحدر يكون لتكثير الحسنات في القراءة، وحوز فضيلة التلاوة، وليحترز فيه عن بتر حروف المد، وذهاب صوت الغنة، واختلاس أكثر الحركات، وعن التفريط إلى غاية لا تصح بها القراءة، ولا توصف بها التلاوة، ولا يخرج عن حد الترتيل»[(٥)].

٧. الأمانة في التلقي والإقراء.

إن المصدر الإلهي لقراءة القرآن الكريم بتلقي النبي صلى الله عليه وسلم لها من ربه

(١) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٠٧.

(٢) نقل الخلاف النووي في المجموع شرح المهذب ٢/ ١٦٥، وابن الجزري في النشر ١/ ٢٠٧، والسيوطي في الإتقان ١/ ٣٦٨.
والحديث أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، ٥/ ١٧٥، رقم ٢٨١٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٣٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٠٩.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ٩/ ٨٩.

(٥) النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٠٧.

عز وجل لهو الحق، الذي ذكره الله بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

تلك المصدرية التي تشعر بالطمأنينة وعدم الخوف على فوات شيء من القرآن، وقد وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بجمع القرآن في صدره، وعدم نسيانه، وأمره بمتابعة القراءة المتلقاة من الله، والاستماع إليها ثم القراءة على طريقتها، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨].

يقول ابن كثير: «هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك»[(١)].

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بتبليغ ما يوحى إليه كما أنزل، من غير زيادة أو نقص فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

فأداه صلى الله عليه وسلم للصحابة رضي الله عنهم كما تلقاه من ربه، وأدوه لمن بعدهم من التابعين.

يقول ابن كثير: «كانوا أحرص شيء على أداء الأمانات، وهذا من أعظم الأمانة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أودعهم ذلك ليبلغوه إلى من بعده،كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ففعل صلى الله عليه وسلم ما أمر به؛ ولهذا سألهم في حجة الوداع يوم عرفة على رؤوس الأشهاد، والصحابة رضي الله عنهم أوفر ما كانوا مجتمعين، فقال: (إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون)، فقالوا: نشهد إنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يشير بأصبعه إلى السماء، وينكبها عليهم، ويقول: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، وقد أمر أمته أن يبلغ الشاهد الغائب)»[(٢)].

وقراءة القرآن إنما تؤخذ بالتلقي والمشافهة والتوقيف، اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في تلقى القرآن عن جبريل عليه السلام مشافهة عن الله تعالى، والاعتماد في القراءة والإقراء على النص المتلقى بالتواتر عنه صلى الله عليه وسلم.

وهذا الذي سار عليه أئمة القراءات، واعتمدوه في النقل والرواية لقراءة القرآن.

يقول مكي بن أبي طالب: «يجب على طالب القرآن أن يتخير لقراءته ونقله وضبطه أهل الديانة والصيانة، والفهم في علوم القرآن، والنفاذ في علم العربية والتجويد، بحكاية ألفاظ القرآن، وصحة النقل عن الأئمة المشهورين بالعلم»[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٧٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٧. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٣٩، رقم ٣٠٠٩.

(٣) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب ص ٨٩.

٨. الصبر.

القرآن الكريم كلام الرب عز وجل، له وزنه وهيبته، ليس بالخفيف، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

أي: نوحي إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيأ له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه، ويتحلى الصبر في قراءته وفهمه[(١)].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «قولًا ثقيلًا يعني: كلامًا عظيمًا»[(٢)].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاني شدة عند نزوله وتلقيه من جبريل عليه السلام مما يدل على عظمة وهيبة الكلام المنزل.

تقول عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صلى الله عليه وسلم في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[(٣)].

كما روي كذلك عن عائشة رضي الله عنها: (إن كان ليوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته، فتضرب بجرانها)[(٤)].

وقراءة القرآن وتدبره، والعمل به تحتاج إلى صبر ومجاهدة للنفس، وحبسٍ لها على مدارسة القرآن، وتلقي كيفية قراءته، وتصحيح تلاوته ومدارسة معانيه وأحكامه، فهو الكلام العظيم ذو الخطر والأثر، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١][(٥)].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ تعليل للأمر بقيام الليل، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي: لا بد وأن تصير نفسك مستعدة لذلك القول العظيم، وذلك بالصبر في صلاة الليل، فإن الإنسان إذا اشتغل بعبادة الله في الليلة الظلماء، وأقبل على قراءة القرآن والتضرع بين يديه، استعدت نفسه لإشراق وجلال الله فيه[(٦)].

يقول ابن عاشور: «ويستعار ثقل القول

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٣٨، البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٣١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٢، رقم ٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٦/ ١١٨، رقم ٢٥٥٠٨، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٩٤، رقم ٣٩٢٢.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٣٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٨.

(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٧/ ١١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٦٠.

لاشتماله على معانٍ وافرة يحتاج العلم بها لدقة النظر، وذلك بكمال هديه ووفرة معانيه، وحسبك أنه حوى من المعارف والعلوم ما لا يفي العقل بالإحاطة به، فكم غاصت فيه أفهام»[(١)].

٩. اختيار الوقت والمكان المناسب.

القراءة عمل يجتمع فيه القلب والبصر واللسان، وإقبال النفس عليها يحتاج إلى وقت يكون أزكى وأنفع، وقد أرشد الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى قراءة القرآن في قيام الليل، مخبرًا أن ذلك أشد موافقة بين القلب والبصر والسمع واللسان، وأجمع على التلاوة؛ لانقطاع الأصوات فقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

فناشئة الليل أي: أوقاته وساعاته، وأشد وطئًا: أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس، ولغط الأصوات، وأوقات المعاش[(٢)].

قال الفراء: «وأقوم قيلا»: قال: «أثبت قراءة»[(٣)].

وعن قتادة: «وأقوم قيلا»: أحفظ للقراءة[(٤)]، وقيل: أتم نشاطًا، وأتم إخلاصًا، وأكثر بركة[(٥)].

وقال ابن الجوزي: «وأقوم قيلًا» أي: «أخلص للقول وأسمع له، لأن الليل تهدأ فيه الأصوات فتخلص القراءة، ويفرغ القلب لفهم التلاوة، فلا يكون دون سمعه وتفهمه حائل»[(٦)].

ومن تعظيم القرآن: قراءته في مكان طاهر، وأفضله المساجد، فهي بيوت الله التي أذن الله برفع ذكره فيها، وقد كانت المساجد محلًا للإقراء ومدارسة القرآن.

يقول الإمام النووي: «ويستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد لكونه جامعًا للنظافة، وشرف البقعة»[(٧)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ما جلس قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا حفت بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**)[(٨)].

ومن حرمته أن تجتنب القراءة في أماكن

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٦٠.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٥٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٨٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤١.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٨٦.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤١.
(٦) زاد المسير ٤/ ٣٥٤.
(٧) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤٤.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٨/ ٧١، رقم ٧٠٢٨.

اللغط واللغو والنجاسات.

يقول القرطبي: «ومن حرمته ألا يقرأ في الأسواق، ولا في مواطن اللغط واللغو، ومجمع السفهاء، ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراما، هذا لمرورٍ بنفسه، فكيف إذا مر بالقرآن الكريم تلاوةً بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء»[1].

١٠. الاستماع والإنصات للقارئ.

الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن طريق الرحمة، ووسيلة الانتفاع والتدبر، وسبيل المؤمنين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

فلما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا، ويتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة[2].

قال الليث: «يقال ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقول الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، و«لعل» من الله واجبة»[3].

والاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن، ولما جاء به من إصلاح النفوس، وهذا ما يقود إلى الرحمة من الله سبحانه.

يقول الطبري: «ليرحمكم ربكم باتعاظكم بمواعظه، واعتباركم بعبره، واستعمالكم ما بينه لكم ربكم من فرائضه في آياته»[4].

فالأمر بالاستماع والإنصات إرشاد إلى طريق الفوز بما أشير إليه من صفات القرآن: الهدى والرحمة، والمنافع الجليلة التي ينطوي عليها القرآن.

والاستماع: أخص من السمع، لأنه إنما يكون بقصد ونية، أما السمع: فيحصل ولو بغير قصد، والإنصات: السكوت للاستماع حتى لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ[5].

يقول ابن سعدي: «والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٣٦، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٨٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٤٥.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٥٠، تفسير المراغي ٩/ ١٥٤.

ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير»[1].

يقول النووي: «ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها فمن ذلك اجتناب الضحك، واللغط، والحديث في خلال القراءة إلا كلامًا يضطر إليه، وليمتثل قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]»[2].

وقد ذكر الله حال الكافرين في تواصيهم بعدم سماع القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

و﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾: أي: إذا تلي لا تسمعوا له، قال مجاهد: يعني: الغوا بالمكاء، والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن»[3].

١١. الخشية والبكاء والسجود عند القراءة:

القرآن الكريم موعظة القلوب ومذكر النفوس، اشتمل على الترغيب والترهيب، والتذكير للإنسان بمصيره ومآله ورجوعه، فهو يرقق القلب ويبكي العين، ويزيد الإيمان، ويقوي الخشية.

وقد ذكر الله من صفات أهل خشيته، وطرائق أوليائه أنهم عند سماع القرآن وتلاوته توجل قلوبهم، وتقشعر جلودهم وتلين قلوبهم، ويخرون سجدًا وبكيًا، وهذا دليل على خوفهم من الله وتعظيمهم لكتابه، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ ﴿٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

يقول القرطبي: «وصفهم بالخشوع والبكاء وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته»[4].

ويقول ابن كثير: «أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة، وحمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي»: جمع باكٍ، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعًا لمنوالهم»[5].

ووصف الله حالة أهل الخشية عند سماعهم القرآن بقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٤.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٩٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٧٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١٢٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٤٢.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فتقشعر منه جلودهم لما فيه من التخويف والترهيب، ثم تلين عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر[١].

وقد امتدح الله أهل العلم الذين إذا يتلى عليهم القرآن يخرون تعظيمًا له وتكريمًا، وعلمًا منهم بأنه من عند الله، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

يقول القرطبي: «هذه مبالغة في صفتهم، ومدحٌ لهم، وحقٌّ لكل من توسم بالعلم وحصل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويذل»[٢].

لقد كان شأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سماعهم القرآن وتلاوته الخشوع والبكاء والسجود، وقدوتهم وأسوتهم في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ علي، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل، قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

قال لي: كف -أو أمسك- فرأيت عينيه تذرفان[٣].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، ٦/ ٢٤٣، رقم ٥٠٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، ٢/ ١٩٥، رقم ١٩٠٣.

سند قراءة القرآن

الإسناد معتمدٌ أصيل، وطريق متين، والقرآن الكريم أعظم المنقولات إسنادًا، وأقدسها اتصالًا، فهو وحي رباني، اتصل بالخالق سبحانه، ونقل عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام، ونزل على قلب إمام المنذرين، وسيد الخلق أجمعين، يوضح منزلة هذا الإسناد ما يلي:

أولًا: الإسناد إلى الله تعالى:

قراءة القرآن عظمت هيبتها، وعلت منزلتها، وازداد جلالها حينما اتصل سندها بالله عز وجل، فمصدرها طريقٌ إلهي، ووحيٌ رباني، وقد أشار الله في كتابه إلى هذا السند المعظم، والاتصال المقدس، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

أي: أنزله الله إليك بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وجبريل تلقاه عن الله تعالى سماعًا.

فقد جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخروا سجدا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر)[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

يقول ابن قتيبة: «أي: يلقى عليك القرآن فتلقاه أنت، أي: تأخذه من عند حكيم عليم»[(٢)].

وأخبر الله أنه هو الذي سيقرئ نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وأمره باتباع قراءته، ليتعلم كيفيتها وطريقتها، وهو المتكفل بحفظها له في صدره، قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إذا تلاه عليك جبريل عليه السلام عن الله عز وجل فاستمع لقراءته، ثم اقرأه كما أقرأك.

يقول ابن عاشور: «وقوله: فإذا قرأناه أي: إذا قرأه جبريل عنا، فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي، والقرينة واضحة»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين ١/ ٣٣٦، رقم ٥٩١، والطبري في تفسيره ٢٠/ ٣٩٠. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٤٧٥: أخرجه الطبراني عن شيخه يحيى بن عثمان بن صالح وقد وثق..وبقية رجاله ثقات.
(٢) غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٣٢٢.
(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٤٩.

﴿بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

فأسند سبحانه التلاوة إلى نفسه؛ لأنها كلامه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك، وأمر الملك أن يتلوه عليه مبلغًا عنه سبحانه[(١)].

ثانيًا: الإسناد إلى جبريل عليه السلام:

أخبر الله بالواسطة بينه سبحانه وبين نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم في نقل القرآن أنه روح القدس، الملك القوي الكريم، جبريل الأمين عليه السلام، وأقسم سبحانه على فضله، ورفعة منزلته بين الملائكة، مشيدًا بعلو سند القرآن وجلالته فقال سبحانه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝﴾ [التكوير: ١٥ - ٢١].

يقول ابن سعدي: «وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن، وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو: جبريل عليه السلام نزل به من الله تعالى، ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه»[(٢)].

قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

أي: نزل بالوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام، شديد القوة على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، وعلى إيصال الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن الصفة التي كان يأتيه جبريل عليه السلام بالوحي عليها، فقد سأله الحارث بن هشام رضي الله عنه فقال: (يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول)، قالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا)[(٣)].

وهذه الحالة والتي يكون فيها جبريل عليه السلام على هيئته الملكية هي التي نزل القرآن الكريم جميعه عن طريقها.

يقول ابن حجر: «والصلصلة المذكورة صوت جبريل بالوحي والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه صلى الله عليه وسلم الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره»[(٤)].

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩١٢.
(٣) سبق تخريجه قريبًا ص ٣٧.
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ١/ ٢٠.

ثالثًا: الإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

اصطفى الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وشرفه بتبليغ رسالته، وتلاوة كتابه، وأمره بإقراء أمته، فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٠].

أي: لتبلغهم ما أرسلتك به إليهم من وحيي الذي أوحيته إليك، وتقرأ عليهم القرآن»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩١ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩٢].

أي: وأن أتلوا القرآن على الناس، فحذف متعلق التلاوة لظهوره، فقام صلى الله عليه وسلم بمهمته خير قيام، وأقرأ صحابته رضي الله عنهم الكرام.

ووصفه الله بصفة تلاوة القرآن وقراءته تشريفًا وتكريمًا فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

يقول الرازي: «فقوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إشارة إلى كونه مبلغًا لذلك الوحي من عند الله إلى الخلق»[(٢)].

ويقول ابن عاشور: «وابتدأ بالتلاوة؛ لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثنى بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجس المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوئ الأعمال والطباع، وعقب بذكر تعليمهم الكتاب؛ لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تبين لهم مقاصده ومعانيه وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كله؛ لأن من تدبر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة»[(٣)].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتولى تعليم أصحابه رضي الله عنهم قراءة القرآن، ويقرئهم بما أقرأه جبريل عليه السلام، ويقرأ عليهم، ويأمرهم بالقراءة عليه.

فقد ورد عن عثمان رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كان يقرئهم العشر الآيات، فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فيعلمهم القرآن والعلم والعمل جميعًا)**[(٤)].

يقول السخاوي: «كان القراء في الأمر الأول يقرأ المعلم على المتعلم اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يتلو كتاب الله عز وجل على الناس كما أمره الله عز وجل، كذلك كان جبريل عليه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٤٥، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٨١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٠٩.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٣٨/ ٤٦٦، رقم ٢٣٤٨٦، وابن أبي شيبة في مصنفه، ٦/ ٢٣٧.

السلام يعرضه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يلقنونه من يتعلمه خمسًا خمسًا، ويقولون: إن جبريل عليه السلام كذلك كان يلقنه رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1].

مراتب الناس في القراءة

لقد أشار القرآن الكريم إلى أقسام الناس في حالهم مع قراءة القرآن من حيث الانتفاع وعدمه، والإعراض والهجر مبينًا صفاتهم، وموضحًا أسباب كل حالٍ من أحوالهم ووسائله وموجباته، يوضح ذلك ما يلي:

أولًا: القراء المنتفعون بالقراءة:

أشار القرآن الكريم إلى أن المنتفعين بقراءة القرآن وتلاوته هم المؤمنون خاصة، فإذا قرؤوا القرآن وسمعوا قراءته زادتهم قوةً في التصديق، وشدةً في الإذعان، ورسوخًا في اليقين، ونشاطًا في الأعمال الصالحة، وسعةً في العلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

يقول ابن سعدي: «يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»[2].

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٢].

يقول القرطبي: «خص المؤمنين لأنهم

(١) جمال القراء، السخاوي ص ٥٣٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٥.

المتفعون به»[1].

ومن صفات المتفعين بقراءة القرآن أنهم أهل خشية وخوف من الله عز وجل، يظهر ذلك على جوارحهم.

قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣].

فخص بالتذكرة من يخشى دون غيرهم، لأنهم هم المتفعون بها، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥][2].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

يقول ابن كثير: «كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المعلى في الدنيا والآخرة»[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢].

وفيض دموعهم؛ لمعرفتهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله الذي أنزله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حقٌّ.

ومن صفات المتفعين بقراءة القرآن الكريم الاهتداء بهديه في السير على الطريق المستقيم في حياتهم الموصل إلى رضوان الله، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

يقول ابن كثير: «ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة

وقال: وهذه صفة المؤمنين المتفعين بالقرآن، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات»[4].

ثانيًا: القراء غير المتفعين بالقراءة.

لقد أخبر الله في كتابه العزيز بأن الذين لا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢١٧.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير بتصرف يسير ٣/ ٦٨.

يؤمنون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم لا ينتفعون بقراءة القرآن وتلاوته، ففي آذانهم ثقل عن استماعه، وفي قلوبهم عمى فلا يبصرون هدايته.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

يقول الطبري: «وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذبين بها عمى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من مواعظه»[(١)].

قال قتادة: «عموا عن القرآن وصموا عنه، فلا ينتفعون به»[(٢)].

لقد أشار الله في كتابه إلى أن عدم الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم مانع قوي وعظيم من الانتفاع بالقرآن الكريم عند سماعه وقراءته؛ لأنه يطفئ نور القلب ويظلمه، ويرين عليه، ويحجبه، ويجعله في قفل وغطاء وأكنة، ويختم عليه، ويحمله على الإنكار، بل ويعطل الحواس من سمع وبصر وعقل عن الفهم والتدبر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦].

أي: جعلنا بين القرآن إذا قرأته وبين الكفار حجابًا يحول بينهم وبين فهمه وتدبره، والإيمان به، والأكنة: جمع: «كنان» وهو الغطاء الذي يغشى القلب فلا يفقه القرآن، ولا ينتفع به.

يقول ابن كثير: «أن يفقهوه»، أي: لئلا يفهموا القرآن، ففي آذانهم الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعًا ينفعهم ويهتدون به»[(٣)].

بل عاقبهم الله بالطبع على قلوبهم، وجعلها غلف كالأوعية المغلقة فلا تعي ولا تفقه ما تقرأه عليهم، قال تعالى: «﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨ - ٥٩].

ولقد حذر الله في كتابه العزيز من مشابهة أهل الكتاب في قراءتهم للتوراة والإنجيل دون انتفاع بها، أو إيمان بما فيها.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

لا يعلمون من الكتاب إلا قراءة ألفاظِ دون إدراك معانيها.

يقول ابن سعدي: «ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط»[(٤)].

وعن زياد بن لبيد رضي الله عنه قال: (ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا،

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٨٤.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٧٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦.

قال: (وذاك عند أوان ذهاب العلم، قال: قلنا يا رسول الله يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة، قال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل فلا ينتفعون مما فيهما بشيء)[1].

ثالثًا: الهاجرون للقراءة:

جاء الذم في القرآن الكريم لهجر القرآن، ونقل الله عز وجل شكاية رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ربه من حال قومه في هجرهم للقرآن وإعراضهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ونقل الإمام الطبري عن ابن زيد قوله: «لا يريدون أن يسمعوه، وإن دعوا إلى الله قالوا لا، وقرأ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه».

وقال الطبري: وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. وذلك هجرهم إياه»[2].

قال القرطبي: «وقيل: معنى ﴿مَهْجُورًا﴾ أي: متروكًا. ونقل عن أنسٍ مرفوعًا: (من تعلم القرآن وعلق مصحفه لم يتعاهد، ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقًا به يقول يا رب العالمين إن عبدك هذا اتخذني مهجورًا فاقض بيني وبينه)[3].

وجاء الندب في السنة المطهرة إلى قراءة القرآن في البيوت، وعدم هجر قراءة القرآن فيها فتكون كالقبور، فالموتى في قبورهم لا يقرؤون قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)[4].

رابعًا: المعرضون عن القراءة:

قراءة القرآن هي الحياة للقلب، والسعادة في الدارين، والإعراض عنها، وعن تدبر القرآن، والعمل به سبب في عقوبات عظيمة:

١ - المعيشة الضنك في الحياة الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٢١٨، رقم ١٧٩١٩، والحاكم في المستدرك ٣/ ٦٨١، رقم ٦٥٠٠، والطبراني في الكبير ٥/ ٢٦٥، ٥٢٩١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، ٢/ ١٤٥، رقم ١٨٦٠.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فعن ابن عباس رضي الله عنه، قال: «معيشةً ضنكا: الشقاء»[١].

يقول البغوي: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ يعني: القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه، فإن له معيشة ضنكا، ضيقا»[٢].

ويقول ابن كثير: «﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه في قلقٍ وحيرة وشك»[٣].

٢. يجيء يوم القيامة أعمى منسيًا، يحمل أوزارًا.

قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٥- ١٢٦].

فالمعرض عن آيات الله يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة، في تناسٍ لحاله وعدم اعتبار به، فالجزاء من جنس العمل، فلما أعرض عن آيات الله، وعاملها معاملة من لم يذكره فكذلك يعامله الله معاملة من ينساه[٤]، بل يحمل حملاً ثقيلاً من الآثام والأوزار، وبئس الحمل حمله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠٠- ١٠١].

٣. التعرض لانتقام الله عز وجل.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

أي: لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له، ثم بعد ذلك تركها وجحدها، وأعرض عنها وتناساها، كأنه لا يعرفها، وسيتقم الله ممن فعل ذلك أشد الانتقام.

قال قتادة رحمه الله: «إياكم والإعراض عن ذكر الله، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة، وأعوز أشد العوز، وعظم من أعظم الذنوب»[٥].

يقول ابن كثير: «وقد أدخل بعض المفسرين - نسيان القرآن في معنى الإعراض - فإن الإعراض عن تلاوة القرآن، وتعريضه للنسيان وعدم الاعتناء به فيه تهاون كثير، وتفريط شديد، نعوذ بالله منه»[٦].

والمعرضون عن قراءة القرآن لا ينتفعون

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٩٠.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٧٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٣.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٢٤.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٧٠.
(٦) المصدر السابق ١/ ٧٣.

به فحالهم كحال الأموات الذين لا يسمعون، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

يقول ابن عاشور: «وإن عدم انتفاع المعرضين هو بسبب موت قلوبهم فكأنهم الأموات في القبور، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأموات واستعير من في القبور للذين لم تنفع فيهم النذر، وعبر عن الأموات بمن في القبور لأن من في القبور أغرق في الابتعاد عن بلوغ الأصوات؛ لأن بينهم وبين المنادي حاجز الأرض»[(١)].

ثمرات القراءة

أرشد القرآن الكريم إلى قراءته مرتبًا عليها ثمرات عظيمة، ومنافع عديدة، من حصول الأجر، وإصابة الحق، وبلوغ منزلة العلم والخشية لله عز وجل يوضح ذلك ما يلي:

أولًا: ثمرات قراءة القرآن:

قراءة القرآن عبادة عظيمة، ومنزلتها رفيعة، فقد أشار القرآن الكريم إلى ثمراتها، ومنها:

١. قراءة القرآن تجارة مع الله، فكلما ازداد العبد تلاوة للقرآن كلما ازداد أجرًا ومثوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

يقول البغوي: «﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني: قرأوا القرآن يرجون تجارة لن تبور، لن تفسد ولن تهلك، والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب»[(٢)].

وروي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟**

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٢٩٦.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٩٤.



فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار)[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[٢].

٢. من ثمرات قراءة القرآن حصول الهداية باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وهذا حال المؤمنين إذ تلقوا القرآن وقرؤوه ودرسوه وتفقهوا فيه.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

فهم الذين هداهم الله، ووفقهم للرشاد، وإصابة الصواب، فهم يميزون بين ما يؤمرون به، وبين ما ينهون عنه[٣].

يقول ابن عاشور: «وقد دل ثناء الله على عباده المؤمنين الكمل بأنهم أحرزوا صفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه ويقرؤونه، على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الحق والباطل، وللتفرقة بين الصواب والخطأ، ولغلق المجال في وجه الشبهة ونفي تلبس السفسطة»[٤].

٣. من ثمرات قراءة القرآن حصول العلم النافع الذي يورث خشية الله والخوف منه، وحصول النفع بتدبره، والهدى بالعمل به.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

يقول السيوطي: «وتسن القراءة بالتدبر والتفهم فهو المقصود الأعظم، والمطلوب الأهم، وبه تنشرح الصدور وتستنير القلوب»[٥].

وقال ابن سعدي: «هذه هي الحكمة من إنزاله ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمه، ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٥/ ٣٥٢، رقم ٢٢٩٥٠، والحاكم في المستدرك وصححه، ١/ ٧٤٢، رقم ٢٠٤٣، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٧٥، رقم ١٨٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، ٥/ ١٧٥، رقم ٢٩١٠، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٣٤، رقم ١٧٨٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٨٢، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٥٦.

(٤) التحرير والتنوير، بتصرف ٢٣/ ٣٦٧.

(٥) الدر المنثور، السيوطي ١/ ٣٦٨.

مرة تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود، وأن هذا المقصود من التذكر»[1].

لقد وصف الله أهل العلم بانتفاعهم بقراءة القرآن وتلاوته وأن ذلك يثمر عندهم خشوعًا وبكاءًا وخشية فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

قال القرطبي: «قال الحسن: الذين أوتوا العلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا تلوا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا»[2].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى: أن الله تعالى يرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به»[3].

قال تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فأهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، يعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، فيؤمنون به[4].

يقول ابن عاشور: «هم الذين تمكنوا في علم الكتاب، ومعرفة محامله، وقام عندهم من الأدلة ما أرشدهم إلى مراد الله تعالى، بحيث لا تروج عليهم الشبه»[5].

وإذا كان الحق سبحانه حث على طلب القراءة فيما ينفع، ويحصل به العلم؛ ومن باب: «وبضدها تتميز الاشياء» ففي المقابل نجده سبحانه قد نعى على أولئك الذين يتعلمون ما فيه شرٌّ وضرر، قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره.

ثانيًا: ثمرات القراءة في كتاب الكون:

الكون كتاب مفتوح لكل قارئ له، فهو ميدان رحب للتفكر والتدبر فيما أودع الله فيه من آيات بينات، ودلائل واضحات، فإن الأرض والسماء، والبحار والجبال وما فيهما من مخلوقات عجيبة، وكائناتٍ حية، وما قامت عليه من نظام محكم دقيق؛ ليجعل المؤمن المتبصر يدرك صنع الله وقدرته وحكمته.

وقد أرشد الله الخلق في كتابه إلى قراءة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٤٠.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٨/ ٥٤٥.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٦٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٦٤.

هذا الكتاب بعين العقل والفكر والوجدان، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

يقول ابن عاشور: «أي: فادعهم إلى النظر في دلائل الوحدانية والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان، ودفع غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النظر والاستدلال بما هو حول الإنسان من أحوال الموجودات، وتصاريفها الدالة على الوحدانية، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوال النور والظلمة والرياح والسحاب والمطر، وكذلك البحار والجبال»[(١)].

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد نزلت علي الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾) [البقرة: ١٦٤][(٢)].

فالقراءة في كتاب الكون المفتوح، وتتبع يد الله المبدعة، وهي تحرك هذا الكون، وتقلب صفحات هذا الكتاب هو عبادة لله من صميم العبادة.

فالكون ليس جامدًا ولا صامتًا، ولا أصمًا أبكمًا، ولكنه كتاب ناطق بالحجة والبرهان على وحدانية الله جل جلاله.

ومن سدت عيناه عن قراءة كتاب الكون، وكان في هذه الدنيا أعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق، فهو في الآخرة أشد عمى، وأضل سبيلا.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٢٩٥.
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب التوبة، ٢/ ٣٨٧، رقم ٦٢٠.

القراءة في الآخرة

اليوم الآخر تجتمع فيه الخلائق عند ربهم، ويقوم الناس لرب العالمين، وهو يوم الجزاء والحساب، ينشر الله فيه سجلات الأعمال، وصحائف الحسنات والسيئات فيعرف المرء عمله، فيكون المؤمن فرحًا مسرورًا يأخذ كتابه بيمينه، ويكون الكافر خائفًا وجلًا يأخذ كتابه بشماله.

ويوم القيامة يأمر الله المرء بقراءة كتابه، قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

يقرؤه هو وغيره، فيه جميع ما عمله من أول عمره إلى آخره.

قال قتادة: «سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئًا في الدنيا»(١).

قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [الكهف: ٤٩].

أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات.

وقد قرأ بعضهم(٢): ﴿ هُنَالِكَ تتلوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس: ٣٠].

قال ابن كثير: «فسرها بعضهم بالقراءة»(٣)، ويقول الطبري: «يتلو كتاب حسناته وسيئاته»(٤).

وقال بعض الصلحاء: «الكتاب يوم القيامة، لسانك قلمه، وريقك مداده، وأعضاؤك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظتك، ما زيد فيه، ولا نقص منه، ومتى أنكرت منه شيئًا يكون فيه الشاهد منك عليك»(٥).

فالقراءة يوم القيامة شاهد حي، ولسان ناطق، وباب من أبواب إقامة الحجة، فأمر الله بها يوم القيامة يذكر بالأمر بها في الدنيا، ففي الدنيا جاء الأمر: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ويوم القيامة جاء الأمر: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ دلالة على ما بين الأمرين ماذا قرأ الإنسان وماذا حصل.

وينقسم الناس يوم القيامة في قراءتهم لكتاب أعمالهم إلى فريقين: فريق آخذ كتابه بيمينه، وفريق آخذ كتابه بشماله، واحد يوضع له كتابه فتجري على وجهه نضرة النعيم، وآخر يوضع له كتابه فتعلو وجهه ظلمة الجحيم.

فأهل اليمين: يقرؤون كتابهم مسرورين فرحين، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧١].

يقول ابن عطية: «يقرؤون كتابهم،

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٢٤.
(٢) قراءة: حمزة والكسائي وخلف العاشر.
انظر: السبعة، ابن مجاهد ص ٣٢٥، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ١/ ٢٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٦٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٨١.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٣٠.

عبارة عن السرور بها، أي: يرددونها ويتأملونها»[1]، ويقول ابن كثير: «أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته»[2].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

فدعوته الناس إلى القراءة علامة الفرح والنشاط وقوة العزيمة، أي: دونكم كتابي فاقرؤوه فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب[3].

وأما أهل الشمال: فيعطون كتاب أعمالهم السيئة بشمالهم، تمييزًا لهم وخزيًا وعارًا، فيضعه وراء ظهره حتى لا يطلع عليه أحد؛ لأنه يعلم أن هذا الكتاب مليء بالسيئات، فهو لا يريد أن يطلع الناس على ما عمله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

يقول ابن عاشور: «وتمنى كل من أوتي كتابه بشماله أنه لم يؤت كتابه؛ لأنه علم من الاطلاع على كتابه أنه صائر إلى العذاب، فيتمنى أن لا يكون علم بذلك إبقاء على نفسه من حزنها زمنًا فإن ترقب السوء عذاب»[4].

يقول صاحب الكشاف: «لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم، كأن أصحاب الشمال لا يقرؤون كتابهم؟.

قلت: بلى، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته، والاعتراف بمساويه، أما التنكيل به والانتقام منه، من الحياء والخجل والانخزال، وحبسه اللسان، والتتعتع، والعجز عن إقامة حروف الكلام، والذهاب عن تسوية القول، فكأن قراءتهم كلا قراءة.

وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]»[5].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٩١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٨٣.
(٤) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٥.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٨٢.

أثر القراءة في نهضة الأمة الإسلامية

إن القراءة من أهم وسائل اكتساب العلوم والمعارف المختلفة، والاستفادة من منجزات المتقدمين والمتأخرين وخبراتهم، فهي طريق التعلم والمعرفة، والحاجة لها لا تقل أهمية عن الحاجة إلى الطعام والشراب، فبالقراءة تحيا العقول، وتستنير الأفئدة، ويستقيم الفكر.

فهي من أعظم أسباب نهضة الأمة، وسمو مكانتها، وارتفاع شأنها لما يلي:

أولًا: تحصيل العلم الشرعي:

القراءة تعد وسيلة مهمة لتحصيل العلم الشرعي وإدراكه؛ من خلال تلاوة كتاب الله عز وجل وفهم معانية، والقراءة في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، شرحًا وتعليقًا، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة.

وقد أثنى الله على أهل العلم ورفع شأنهم وجعل لهم التكريم والتفضيل على سائر الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

يقول ابن جماعه: - معلقًا على قوله صلى الله عليه وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء) - «وحسبك هذه الدرجة مجدًا وفخرًا، وبهذه الرتبة شرفًا وذكرًا، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة، فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة»[(١)].

فالعلم والتعلم سلم المجد، وباب الترقي والنهوض، ولو نظرنا إلى واقع الأمم الصاعدة والمتقدمة نجد أنها اعتمدت التعليم أساسًا لتقدمها الحضاري، فحرصت على إشاعة العلم وتيسير أسبابه، وجعلت مفتاح ذلك: التشجيع على القراءة، والتحريض عليها، وترويجها بين فئات المجتمع المختلفة.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ٣ - ٤].

«وأن من كرمه تعالى: أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة»[(٢)].

روى سعيد عن قتادة قال: «القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدر الدين بن جماعة ص ٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا»[(١)].

ثانيًا: توسيع المدارك وتعزيز الملكة الفكرية:

القراءة وسيلة لتوسيع المدارك والقدرات وتعزيز الملكة الفكرية؛ لأن المرء حينما يقرأ في علوم المقاصد وعلوم الوسائل، ويقرأ في ما ألف قديمًا وما ألف حديثًا؛ فإن ذلك مدعاة لتوسيع مداركه وإثراء عقليته، والاطلاع على الثقافات المختلفة والحضارات المتنوعة، والتجارب المتباينة، والتي يستفيد المرء من صوابها ويطلع على فضائلها، بل تفتح له بابًا في مجال الاجتهاد والتجديد، فباب الاجتهاد والتجديد إنما يتحرك انفتاحًا أو انغلاقًا بمقدار القراءة والاطلاع، فالقارئ الذي يتوغل بقراءته إلى أعماق التاريخ، ويجول ببصره في رحاب الواقع هو القادر على تقديم رؤى جديدة تستوعب الرؤى السالفة وتأخذ بأحسنها، ثم تضيف إليها[(٢)].

ولذلك نقل عن أعلام السلف - والذين كان لهم إسهام في نهضة الأمة - كثرة كتبهم وسعة اطلاعهم، فالحافظ ابن القيم الجوزية كان مغرمًا بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها دهرًا طويلًا سوى ما اصطفوه لأنفسهم[(٣)].

ونقل عن الجاحظ قوله: «ما وقع في يدي كتاب إلا وقرأته من أوله إلى آخره، أي كتاب كان»[(٤)].

بل نقل شغفهم بالكتب واهتمامهم بها، يقول ابن المعتز في وصف الكتاب «الكتاب والج للأبواب، جريء على الحجاب، مفهمٌ لا يفهم، وناطق لا يتكلم، وبه يشخص المشتاق إذا أقعده الفراق، فأما القلم فمجهزٌ لجيوش الكلام، يخدم الإرادة ولا يمل الاستزادة، ويسكت واقفًا، وينطق سائرًا على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء».

ونقل الخطيب البغدادي عن محمد بن علي النحوي، قال: «ودع رجلٌ صديقًا له فقال له: استعن على وحشة الغربة بقراءة الكتب، فإنها ألسن ناطقة، وعيون رامقة»[(٥)].

وفي المقابل فإن الشعوب التي لا تملك بنية معرفية صحيحة، وسعة فكرية سليمة فإنها تنعت بالتخلف، وتصبح في ذيل الأمم معرفةً وصناعةً وسلوكًا، وما ذاك إلا نتيجة طبيعية لانحسار ممارسة القراءة والعناية بها، وتقدير العلم والتعلم.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٠.
(٢) انظر: القراءة أولاً، محمد عدنان سالم ص ١٦.
(٣) انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر ٥/ ١٣٨.
(٤) تقييد العلم، الخطيب البغدادي ص ١٣٩.
(٥) المصدر السابق ص ١٢٠.

ومن المؤسف أن ترى في العالم الإسلامي من يستحوذ على ناشئة المسلمين وشبابهم، بإشغال أفكارهم، واستمال قلوبهم بسيل جرار من وسائل الترفيه، واللعب، مع ما يصحب ذلك من استحواذ الشاشات والفضائيات، وألعاب الكمبيوتر، والمحادثات الفارغة عبر وسائل التواصل كل ذلك على حساب الاستفادة من الوقت تعلمًا وقراءة، حتى صار الداعون للقراءة والمشتغلون بها غرباء في مجتمعهم[1].

ثالثًا: حفظ الوقت واستثماره:

القراءة وسيلة لاستثمار الوقت وحفظه، فحفظ الوقت من أعظم النفائس، وأجل الذخائر، وهو من أسباب رقي الأمة ونهضتها.

يقول ابن القيم: «فالوقت منقض بذاته، منصرم بنفسه، فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته، وعظم فواته، واشتدت حسراته»[2].

ولقد ضرب عظماء المسلمين ممن كانت لهم الريادة في رقي الأمة أروع الأمثلة في الاستفادة من الوقت في القراءة والتأليف، فقد نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدي قوله: «أثقل الساعات علي: ساعة آكل فيها»[3].

موضوعات ذات صلة:

الأمية، التدبر، القرآن، الكتابة

(١) انظر: الإضاءة في أهمية الكتابة والقراءة، خالد النصار ص ٦.

(٢) مدارج السالكين ٣/ ٥٠.

(٣) قيمة الزمن عند العلماء، أبو غدة ص ٦٦.





عناصر الموضوع

مفهوم القسم

أولًا: المعنى اللغوي:

بالنظر في المعاجم اللغوية يظهر أن مادة (القاف والسين والميم) تشمل عدة معانٍ، إلا أن القسم بالتحريك يرادف الحلف واليمين، قال ابن فارس: «القاف والسين والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جمالٍ وحسن والآخر على تجزئة شيء. فالأول القسام، وهو الحسن والجمال، وفلانٌ مقسم الوجه، أي: ذو جمالٍ. والقسمة: الوجه، وهو أحسن ما في الإنسان والأصل الآخر القسم: مصدر قسمت الشيء قسمًا. والنصيب قسمٌ بكسر القاف. فأما اليمين فالقسم. قال أهل اللغة: أصل ذلك من القسامة، وهي الأيمان تقسم على أولياء المقتول إذا ادعوا دم مقتولهم على ناسٍ اتهموهم به»[1].

فالقسم، وهو المصدر، والجمع أقسام، وقد أقسم بالله واستقسم به وقاسمه: حلف له، وتقاسم القوم تحالفوا، والقسامة: الذين يحلفون على حقهم ويأخذونه، ويمين القسامة منسوبة إليهم، والمقسم: القسم، والمقسم: الموضع الذي حلف فيه، والمقسم: الرجل الحالف، أقسم يقسم إقسامًا[2]، فالعلاقة بين القسامة والقسم وطيدة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هو: «ربط العقد بالامتناع والترك أو بالإقدام على فعلٍ بمعنى معظمٍ حقيقةً أو اعتقادًا»[3].

أو هو: «ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا. وسمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف»[4].

فالمعنى الاصطلاحي لا يختلف عن المعنى اللغوي كثيرًا إلا أنه قيد بتقييدات معينة.

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٨٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ٢/ ٢٤٢، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٤٧٨.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢١٦.
(٤) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان ص٣٠١.



القسم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أقسم) في القرآن الكريم (٢٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
فعل الماضي	٩	﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف:٤٩]
فعل المضارع	١٣	﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة:٧٥]
فعل الأمر	١	﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النمل:٤٩]
اسم مصدر	٢	﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر:٥]

وجاء القسم في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الحلف، وأصله من (القسامة) وهي الأيمان تقسم على الأولياء في الدم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٤٥.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٣٨٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الحلف:

الحلف لغةً:

قال ابن فارس: «الحاء واللام والفاء أصلٌ واحد، وهو الملازمة. يقال: حالف فلانٌ فلانًا، إذا لازمه»[١].

الحلف اصطلاحًا:

هو «العهد بين القوم، والمحالفة المعاهدة والملازمة»[٢].

الصلة بين الحلف والقسم:

قال أبو هلال العسكري: «الصلة بين القسم والحلف: أن القسم أبلغ من الحلف؛ لأن معنى قولنا: أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله والمراد أن الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله، والحلف من قولك: سيفٌ حليف، أي: قاطع ماضٍ، فإذا قلت: حلف بالله، فكأنك قلت: قطع المخاصمة بالله، فالأول أبلغ؛ لأنه يتضمن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه معنيان. وقولنا: (حلف) يفيد معنى واحدًا، وهو قطع المخاصمة فقط، وذلك أن من أحرز الشيء باستحقاق في الظاهر فلا خصومة بينه وبين أحد فيه، وليس كل من دفع الخصومة في الشيء فقد أحرزه»[٣]. وعلى هذا فالقسم أعم من الحلف.

٢ اليمين:

اليمين لغةً:

القسم، يقال: سمي بذلك؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كل منهم يمين صاحبه[٤].

اليمين اصطلاحًا:

هو «عقد يقوى به عزم الحالف على الفعل والترك»[٥].

الصلة بين اليمين والقسم:

يظهر أنهما مترادفان في المعنى.

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٧٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٤٦.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٢٩.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٢٢١.
(٥) الكليات، الكفوي ص٩٨٥.

٣ الميثاق:

الميثاق لغةً:

قال ابن فارس: «الواو والثاء والقاف كلمةٌ تدل على عقدٍ وإحكام. ووثقت الشيء: أحكمته، وناقةٌ موثقة الخلق. والميثاق: العهد المحكم. وهو ثقةٌ، وقد وثقت به»[١].

الميثاق اصطلاحًا:

«هو العقد المؤكد إما بوعيدٍ أو بيمينٍ»[٢]. قال صاحب المنار: «العهد ما يتفق رجلان أو فريقان من الناس على التزامه بينهما لمصلحتهما المشتركة، فإن أكداه ووثقاه بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به سمي ميثاقًا»[٣].

الصلة بين الميثاق والقسم:

أن الميثاق عهدٌ مؤكدٌ بالقسم، فالقسم أعم من الميثاق؛ إذ يشمل العهد المؤكد به، ويشمل القسم ما ليس بعهد، وقد نص ابن هشام على أن أخذ الميثاق قسم[٤]، أي: جزء من القسم.

٤ الحنث:

الحنث لغةً:

هو الإثم والحرج. يقال: حنث فلانٌ في كذا، أي: أثم. ومن ذلك قولهم: بلغ الغلام الحنث، أي: بلغ مبلغًا جرى عليه القلم بالطاعة والمعصية، وأثبتت عليه ذنوبه[٥].

الحنث اصطلاحًا:

هو «الذنب المؤثم، وسمي اليمين الغموس حنثًا لذلك»[٦].

الصلة بين الحنث والقسم:

هما نقيضان فلا يجتمعان، فالقسم إلزام النفس بفعل شيء أو تركه، والحنث نقض ذلك القسم.

---

(١) مقاييس اللغة ٦/ ٦٣.
(٢) أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٧.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ١٦٧.
(٤) مغني اللبيب، ابن هشام ص٥٣٢.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٠٨.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٤٨.

٥ النقض:

النقض لغةً:

من نقضت البناء نقضًا، والنقض اسم البناء المنقوض إذا هدم، ونقضت الحبل نقضًا: حللت برمه، وانتقضت الطهارة: بطلت، وانتقض الجرح بعد برئه، والأمر بعد التامه: فسد، وتناقض الكلامان: تدافعا كأن كل واحد نقض الآخر، وفي كلامه تناقضٌ إذا كان بعضه يقتضي إبطال بعض[(١)].

النقض اصطلاحًا:

«الفسخ وفك التركيب»[(٢)].

الصلة بين النقض والقسم:

إذا كان القسم في إلزام النفس على فعل شيء أو تركه، فإن النقض هو فك ذلك الإلزام، وعدم الوفاء به، فكل منهما مناقض للآخر.

٦ النكث:

النكث لغةً:

نكث العهد، والحبل، ينكثه وينكثه: نقضه فانتكث، ونكث السواك: تشعث رأسه[(٣)].

النكث اصطلاحًا:

«هو ما نقض من غزل الشعر وغيره»[(٤)].

الصلة بين النكث والقسم:

هما ضدان، فالقسم في إلزام، والنكث نقض ذلك الإلزام.

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص٣٢٠.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٢٩.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ١٧٧.
(٤) الكليات، الكفوي ص٢٠١.



أنواع القسم في القرآن

ذكر العلماء أن للقسم أنواعًا ثلاثة: (لغو، ومنعقدة، وغموس) وذهب البعض إلى أنهما نوعان فقط (لغو ومنعقدة) وفيما يلي نستجلي حقيقته، ونبين أحكامه المذكورة في القرآن الكريم:

أولًا: اليمين اللغو:

ذكر المولى سبحانه أنه لا يؤاخذنا باللغو في اليمين في قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

«اللغو: سقط الكلام الذي لا حكم له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان تشبيهًا بالسقط من القول، واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو:

فقال ابن عباس وعائشة وعامر الشعبي وأبو صالح ومجاهد رضي الله عنهم: «لغو اليمين: قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله دون قصد لليمين».

وقال أبو هريرة وابن عباس أيضًا والحسن ومالك رضي الله عنهم وجماعة من العلماء: «لغو اليمين: ما حلف به الرجل على يقينه فكشف الغيب خلاف ذلك». قال ابن عطية: «وهذا اليقين هو غلبة ظن أطلق الفقهاء عليه لفظة اليقين تجوزًا».

وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن وعبد الله وعروة ابنا الزبير رضي الله عنهم: «لغو اليمين: الحلف في المعاصي كالذي يحلف ليشربن الخمر أو ليقطعن الرحم، فبره ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه».

وقال ابن عباس أيضًا وطاووس رضي الله عنهما: «لغو اليمين: الحلف في حال الغضب».

وقال مكحول الدمشقي رضي الله عنه وجماعة من العلماء: «لغو اليمين: أن يحرم الرجل على نفسه ما أحل الله فيقول: مالي علي حرام إن فعلت كذا أو الحلال علي حرام».

وقال زيد بن أسلم وابنه رحمهما الله: «لغو اليمين: دعاء الرجل على نفسه؛ أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي هو مشرك إن فعل كذا».

وقال ابن عباس رضي الله عنه أيضًا والضحاك رحمه الله: «لغو اليمين: هو المكفرة، أي: إذا كفرت اليمين فحينئذ سقطت وصارت لغوًا ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير».

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «لغو اليمين: ما حنث فيه الرجل ناسيًا».

وقيل: «اللغو: أيمان المكره»(١).

هذه أقوال تسعة في تفسير لغو اليمين، إلا أننا إذا نظرنا في الآية الكريمة نجدها تصرح بأن اليمين اللغو هي التي لا كفارة فيها، فنص الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فقابل بين اليمين اللغو واليمين التي فيها كفارة، وهذا يسقط بعض الأقوال، فيسقط القول بأنها الحلف في المعاصي؛ لأنها -على فرض أنها لا كفارة فيها- فيها مؤاخذة.

والقول: بأنها دعاء الرجل على نفسه؛ لأن هذا دعاء وليس قسمًا، والقول: بأنها اليمين المكفرة؛ وذلك لأنه على هذا القول يكون قابل بين الشيء ونفسه.

وأما القول: بأنها اليمين في غضب فقد ذكر قائلوه حديثًا لم أقف عليه؛ لذلك تركت ذكره، ولو صح فليس بنص في أن هذا هو اليمين اللغو.

وأما القول بأنها: أن يحرم الرجل على نفسه ما أحل الله، فإن هذا فيه مؤاخذة؛ إذ فيه مخالفة صريحة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨٧].

قال ابن عطية رحمه الله تعليقًا على الأقوال السابقة: «وطريقة النظر أن يتأمل لفظة: (اللغو) ولفظة: (الكسب) ويحكم موقعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده ونواه، واللغو: ما لم يتعمده أو ما حقه لهجته أن يسقط، فيقوى على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها، وقد رفع الله عز وجل المؤاخذة بالإطلاق في اللغو، فحقيقته ما لا إثم فيه ولا كفارة، والمؤاخذة في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس، وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة، وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة؛ لأن المؤاخذة قد وقعت فيها، وتخصيص المؤاخذة بأنها في الآخرة فقط تحكم»(٢).

قلت: وأقوى الأقوال فيها: القول بأنها قول الرجل: لا والله وبلى والله دون قصد لليمين. والقول بأنها ما حلف به الرجل على يقينه فكشف الغيب خلاف ذلك، وذلك أن الحالف في هاتين الحالتين لم يتعمد معصية، ففي القول الأول جرى لفظ القسم على لسانه دون معناه، وهذا أشبه بالساقط من الكلام؛ إذ اللغو -كما عرفه الراغب- «ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن رويَّة وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير»(٣).

(١) المحرر الوجيز: ١/ ٣٠٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق بتصرف.

(٣) المفردات ٢/ ٣٤٠.

وفي الثاني: تعمد القسم، ولكن لم يتعمد الكذب.

وأما القول: بأنها ما حنث فيه الرجل ناسيًا، والقول: بأنها أيمان المكره فلا يبعدان عن القولين السابقين، فالحنث ناسيًا غير مؤاخذ به؛ وذلك أن النسيان مرفوع عن هذه الأمة، وأيمان المكره كذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: (**تجاوز الله عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**)[١].

وقد رجح أبو حيان رحمه الله القول بأنها ما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد، قائلًا -بعد ذكره الأقوال-: «وهذه الأقوال يحتملها لفظ اللغو، إلا أن الأظهر هو ما فسرناه أولًا؛ لأنه قابله كسب القلب، وهو تعمده للشيء، فجميع الأقوال غيره ينطبق عليها أنها كسب القلب؛ لأن للقلب قصدًا إليها: ونفي الوحدة يدل على أنه لا إثم ولا كفارة، فيضعف قول من قال: إنها تختص بالإثم، ويفسر اللغو باليمين المكفرة»[٢].

قلت: ولا مانع من أن يكون المعنيان مرادين؛ إذ اللغو في اليمين «الساقط الذي لا يتعلق به حكم»[٣] ويكون هذا من باب ما يسمى عند البلاغيين بأسلوب الاستخدام، وما يسمى عند الأصوليين استخدام المشترك في معنييه، ويكون هذا من الإعجاز القرآني؛ إذ يشمل اللفظ القليل المعاني الكثيرة.

وقد ذهب الشيخ أبو زهرة رحمه الله لأبعد من هذا، فقال: «وأرى أن كل صور أيمان اللغو الواردة عن الصحابة تدخل في معنى يمين اللغو التي كان من فضل الله على عباده ورحمته بهم أن رفع عنهم إثمها، ولم يجعلها موضع مؤاخذة ولا اعتداد، فلا إثم ولا كفارة فيها»[٤].

وأما حكم هذه اليمين فقد وضحت آيتا سورة البقر وسورة المائدة أنها لا مؤاخذة فيها.

ثانيًا: اليمين المنعقدة:

اليمين المنعقدة: هي على المستقبل التي يصح فيها الحنث والبر[٥].

وعرفها ابن العربي بأنها: «ربط القول بالقصد القائم بالقلب، يعزم بقلبه أولًا متواصلًا منتظمًا، ثم يخبر عما انعقد من ذلك بلسانه»[٦].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب، الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ٣/ ٢٠١، رقم ٢٠٤٥، الحاكم في المستدرك، كتاب الطلاق، ٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٢) البحر المحيط ٢/ ١٩٠.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٧٠٥.

(٤) زهرة التفاسير ٢/ ٧٤٦.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٩١.

(٦) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢١٢.

ثم إن الأيمان المنعقدة -في نفسها- تنقسم إلى أقسام، فالأيمان المنعقدة التي تتكرر كأن تقول: أقسم بالله العظيم. أقسم بالله العظيم. أقسم بالله العظيم؛ أقوى من قولك: أقسم بالله -مرة واحدة-.

والأيمان التي تنشأ ابتداءً أقل رتبة في العظم من الأيمان المصبورة التي يحبس عليها صاحبها، والأيمان المصبورة التي حبس عليها صاحبها أيضًا تتفاوت في العظم، فمثلًا: إذا حبس شخص بعد الصلاة كما قال الله سبحانه: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

أي: صلاة العصر، فإذا حبس في مسجد ما ليس ذلك كمن يحبس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقواها رجل حبس على يمين بعد صلاة العصر عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذه أعظم من اليمين الأخرى، وإن كانت كلها أيمانًا منعقدة [(١)].

واليمين المنعقدة لا تكون إلا باسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته، فلو حلف بغير الله تعالى لا تعد يمينًا منعقدة، وقد ذكروا لانعقاد اليمين شروطًا:

١. أن يكون الحالف بالغًا عاقلًا؛ فلا تنعقد يمين الصبي والمجنون؛ لرفع المؤاخذة عنهما.

٢. ألا تكون اليمين لغوًا.

٣. أن يكون الحلف بذات الله تعالى مثل: أقسم بالله، أو بأحد أسمائه تعالى، مثل: أقسم بالرحمن أو برب العالمين، أو بصفة من صفاته تعالى مثل: أقسم بعزة الله، أو بعلمه أو بإرادته أو بقدرته [(٢)].

ثم إن لليمين المنعقدة أنواعًا:

النوع الأول: اليمين على ما هو متصور الوجود عادة، إذا كان المحلوف عليه أمرًا يتصور حدوثه بحسب العادة والإمكان، كأن يقول: (والله لأكلن هذا الرغيف).

النوع الثاني: اليمين على ما هو مستحيل غير متصور الوجود أصلًا، وهو المستحيل عقلًا مثل قول الشخص: (والله لأشربن الماء الذي في هذا الكوب) وليس في الكوب ماء.

النوع الثالث: اليمين على ما هو مستحيل عادة، وذلك إذا كان الأمر المحلوف عليه متصور الوجود في نفسه، ولكنه مستحيل بحسب العادة كالصعود في السماء، و الطيران في الهواء [(٣)].

واليمين المنعقدة يجب فيها الكفارة؛

(١) انظر: سلسلة التفسير، مصطفى العدوي ٥٠/ ٤.

(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٤/ ١٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ١.

لنص الآية الصريح على ذلك: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وسيأتي تفصيل الحكم فيها -إن شاء الله-.

ثالثًا: اليمين الغموس:

اليمين الغموس: الحلف على فعلٍ أو تركٍ ماضٍ كاذبًا، سميت به؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم[1].

قال الزمخشري: «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع. هي اليمين الكاذبة تغمس في المآثم، وتقول العرب للأمر الشديد الغامس في الشدة والبلاء: غموس»[2].

وفي تسميتها بالغموس زيادة في تقبيحها، فكأنها سبب في إحاطة صاحبها بالذنوب وغمره بها، فكأنه انغمس فيها، إذ الغمس «إرساب الشيء في الشيء الندي في ماءٍ أو صبغٍ حتى اللقمة في الخل»[3].

واليمين الغموس وتسمى المصبورة؛ لأن صبرها مغالبة وقوة عليها، كما يصبر الحيوان للقتل والرمي[4].

واليمين الغموس عادة من عادات المنافقين، ذمهم الله تعالى عليها في كتابه، وتوعدهم عليها، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٤-١٨].

فهؤلاء المنافقون دأبهم الحلف الكاذب، وهذا هو اليمين الغموس، فهيأ الله لهم عذابًا شديدًا مؤلمًا، وكانوا يحلفون هذه الأيمان؛ ليتستروا بها، وليصدوا عن منهج الله تعالى، فكان مصيرهم عذاب مذل لهم، ولن ينفعهم كثرة الأموال والأولاد، وهم أصحاب النار الملازمون لها يوم القيامة حين يبعثهم الله ويخبرهم، فيحاولون أن يحلفوا أيمانًا كاذبة ظانين أن أيمانهم ستروج يوم القيامة كما كانت تروج في الدنيا، ولكن هيهات هيهات.

وقد كثرت الأحاديث الصحيحة، وكذلك الآثار التي تدل على أنها من الكبائر،

(١) أنيس الفقهاء، القونوي ص ١٧٢.
(٢) الفائق ٣/ ٧٦
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ٧٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٩١.

فمن ذلك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس)[١].

وورد تفسيرها في حديث آخر فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: (جاء أعرابيٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: (الإشراك بالله) قال: ثم ماذا؟ قال: (ثم عقوق الوالدين) قال: ثم ماذا؟ قال: (اليمين الغموس) قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: (الذي يقتطع مال امرئٍ مسلمٍ هو فيها كاذبٌ)[٢].

وقد ورد في الوعيد عليها قوله صلى الله عليه وسلم: (من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان)[٣].

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والذي نفسي بيده لا يحلف الرجل على مثل جناح بعوضة إلا كانت كية في قلبه يوم القيامة)[٤].

ومن الآثار في ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه: «كنا نعد من الذنب الذي لا كفارة له اليمين الغموس. فقيل: ما اليمين الغموس؟ قال: اقتطاع الرجل مال أخيه باليمين الكاذبة»[٥].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كنا نعد اليمين الغموس من الكبائر»[٦].

وقد فسر الشعبي رضي الله عنه الحنث العظيم في قوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦].

بأنه اليمين الغموس[٧]. ومعنى الآية: أنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون وكذبوا في ذلك[٨]. فعلى هذا تكون هذه اليمين سببًا لجعل صاحبها من أصحاب الشمال، ومن ذهب من العلماء إلى أنها لا تكفر -كما

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس، ٦/ ٢٤٥٧، رقم ٦٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا والآخرة، ٦/ ٢٥٣٥، رقم ٦٥٢٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ١/ ١٢٢، رقم ٢٢٠.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحظر والإباحة، ١٢/ ٣٧٤، رقم ٥٥٦٣.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الأيمان والنذور، ٤/ ٣٢٩، رقم ٧٨٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى، ١٠/ ٣٨ رقم ١٩٦٦٨.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فقد اتفقا على سند قول الصحابي. ولم يتعقبه الذهبي.

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٨/ ١٢٥، رقم ٢٥٦.

(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٥.

(٨) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٨.



سيأتي - ليس للتخفيف على صاحبها، بل؛ لأنها «أعظم من أن تكفر»[1].

وإنما كانت اليمين الغموس بهذه الدرجة؛ لأن صاحبها امتهن من حلف به؛ إذ الحلف يكون في أمر جد، أما هذا فجعل الهزل موطن الجد، فكأنه احتقر من حلف به، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن اليمين يكون الغرض منها تأكيد الكلام وتوثيقه، مما يجعل المخاطب يصدق ما يقال له، ويذعن لخصمه في الوقت الذي هو كاذب محتال، فتضيع الحقوق، وتميع الحقائق، ويختلط الحق بالباطل، وهذه اليمين عادة المنافقين، وديدن الفاسقين، وعادة المستهترين، فما أجرأهم على اسم الله تعالى، حتى رأينا منهم في زماننا هذا من يقفون على أبواب المحاكم يشهدون زورًا، ويحلفون فجورًا، يتربحون بذلك، فيشترون الدنيا بالآخرة، يغدون في صباحهم على الحنث عازمين، وعلى الكذب مجترئين، ويروحون فرحين مسرورين، ولا يشعرون أنهم باؤوا بغضب عظيم، وسخط جسيم، لا يبالون بأن يقتل إنسان بسبب يمينهم، أو يسجن آخر جراء إجرامهم؛ لذلك كان رأي الجمهور أنها أعظم من أن تكفر بكفارة ضئيلة، ودراهم قليلة، بل أمرها إلى الله، فإذا أراد التوبة لا بد وأن يحسن توبته، ويظل يعيش بين خوف ورجاء، تؤرقه يمينه، وتنغص عليه حياته، فهي يمين مكر وخديعة، لا يرضى بها ذو مروءة، حسبنا الله ونعم الوكيل.

ورغم اتفاق العلماء على حرمة هذه اليمين، إلا أنهم اختلفوا فيها، هل لها كفارة أم لا، وسوف يأتي تفصيل القول في ذلك في موضعه إن شاء الله.

(١) تفسير ابن عرفة ٢/ ٥٢٣.

صيغ القسم

صيغ القسم نوعان:

- صريح.
- وكناية.

«فالصريح يكون مع الإتيان بلفظ الحلف، كقوله: أحلف بالله لأفعلن كذا، وأقسم بالله لأفعلن كذا، ومع الإتيان بحرف من حروف القسم، وهي الواو، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وبالتاء المثناة، كما في قوله تعالى حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

إلى غير ذلك من الأدوات القسم -التي سيأتي ذكرها-، فإذا أتى باليمين بصيغة من هذه الصيغ انعقدت يمينه، نوى اليمين أو لم ينو.

والكناية كقوله: بالله -بحرف القسم- وتالله، ولعمر الله، وايم الله، وأشهد بالله، وأعزم بالله. فإذا أتى بصيغة من هذه الصيغ ونوى اليمين انعقدت، وإلا فلا.

وفي معنى ذلك تعليق التزام فعل أو تركه، بشرط أن يكون ذلك قربة، كقوله: إن فعلت كذا فعلي نذر كذا، أو يكون كفارة يمين، مثل أن يقول: إن فعلت كذا فعلي كفارة يمين»[(١)].

والقسم إما ظاهر، وإما مضمر:

فالظاهر: هو ما صرح فيه بفعل القسم، وصرح فيه بالمقسم به، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء.

والمضمر: هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم، ولا بالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أي: والله لتبلون[(٢)].

والمضمر قسمان:

- قسم دلت عليه لام القسم، كقوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
- وقسم دل عليه المعنى، كقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. تقديره: والله[(٣)].

وبما أن معرفة التقسيمين السابقين يترتب على معرفة أشياء منها أدوات القسم، فلا بد من معرفة هذه الأدوات:

قال ابن سيده رحمه الله: «وللقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر فأكثرها

(١) صبح الأعشى، القلقشندي ١٣/ ٢٠٩.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٣٠٤.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٣/ ٤٣، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٥٥.

الواو ثم التاء وتدخل فيه اللام وأصل هذه الحروف الباء، والباء صلة للفعل المقدر أحلف أو أقسم أو ما جرى مجرى ذلك، فإذا قال: بالله لأضربن زيدًا، فكأنه قال أحلف بالله»[1].

وكانت الباء أصل هذه الأدوات «لأنها للإلصاق، فهي تلصق فعل القسم بالمقسم به»[2].

وجعلوا الواو بدلًا من الباء، وخصوا بها القسم؛ لأنها من مخرج الباء، واستعملوا الواو أكثر من استعمالهم الباء؛ لأن الباء تدخل في صلة الأفعال في القسم وغيرها، فاختاروا الواو في الاستعمال؛ لانفرادها بالقسم، وقد تدخل الباء في ثلاثة مواضع من القسم لا تدخلها الواو ولا غيرها:

أحدها: أن تضمر المقسم به كقولك إذا أضمرت اسم الله: (بك لاجتهدن يا رب)، وإذا ذكر اسم الله فأردت أن تكني عنه قلت: به لألزمن المسجد، كما نقول: بالله لألزمن المسجد.

والموضع الثاني: أن تحلف على إنسان كقولك إذا حملت عليه: بالله إلا زرتني، وبالله لما زرتني، ولا تدخل الواو ههنا[3].

والواو لا يظهر معها فعل القسم، بل يضمر وجوبًا، نحو: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]. كما لا يظهر مع التاء واللام[4].

وأما الباء فلا يحذف معها الفعل إلا قليلًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ [فاطر: ٤٢].

وقد ذكر الزركشي رحمه الله أن من هذا القليل قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

على قول من ذهب إلى أن الباء للقسم، وليست متعلقة بـ ﴿تُشْرِكْ﴾ وكأنه قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿بِٱللَّهِ﴾ لا تشرك، وحذف شبه الجملة المتعلقة بـ﴿لَا تُشْرِكْ﴾؛ لدلالة الكلام عليه[5].

وقد ذكر ابن عاشور رحمه الله أن «القسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرًا عجيبًا ومستغربًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فالإتيان في القسم هنا بحرف التاء مؤذن بأنهم يسألون سؤالًا عجيبًا بمقدار غرابة الجرم المسئول عنه»[6].

ومن أدوات القسم أيضًا: ايم وايمن، ولن نفصل فيهما؛ لأنهما لم يذكرا في القرآن الكريم.

وهناك ألفاظ جارية مجرى القسم، قال أبو علي الفارسي: الألفاظ التي جرت في

(١) المخصص ٤/ ٧١.
(٢) همع الهوامع، السيوطي ٢/ ٤٧٧.
(٣) المخصص، ابن سيده ٤/ ٧١.
(٤) انظر: همع الهوامع، السيوطي ٢/ ١٧٩.
(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٤٣.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ١٤٦.

كلامهم مجرى القسم، حتى أجيبت بجوابه تستعمل على ضربين:

أحدهما: أن يكون كسائر الأخبار التي ليست بقسم، فلا يجاب كما لا يجاب.

والآخر: أن يجري مجرى القسم فيجاب كما يجاب القسم. فمما لم يجب بأجوبة القسم قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨].

ومنه قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

فما جاء بعد من ذلك فيه ذكر الأول مما يجوز أن يكون حالًا احتمل ضربين: أحدهما: أن يكون حالًا، والآخر- أن يكون قسمًا، وإنما جاز أن تحمله على الحال دون جواب القسم؛ لأنه قد جاز أن يكون معرى من الجواب، وإذا جعلت ما يجوز أن يكون حالًا، فقد عريتها من الجواب. فمما يجوز أن يكون حالًا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا﴾ [البقرة: ٦٣].

فقوله: ﴿وَرَفَعْنَا﴾ يجوز أن يكون حالًا وتريد فيه (قد). وإن شئت لم تقدر فيه الحال[(١)].

ومن القسم الظاهر قوله تعالى:

- ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].
- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].
- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].
- ﴿وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

إلى غير ذلك، فهذا صرح فيه بلفظ القسم أو الحلف، وذكر المقسم به، وأداة القسم.

أما ما حذف فيه فعل القسم -كما هو الغالب- اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو

---

(١) الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٢/ ١٢١.

التاء، فهو أكثر من أن يحصى، ومنه:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].
- ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].
- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣].
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].
- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].
- ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].
- ﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١-٣].
- ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١ - ٤].
- ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦].
- ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].
- ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٢-٣].
- ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٢ - ٣].
- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].
- ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].
- ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ١-٥].
- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢].
- ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧].
- ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١ - ٢].
- ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [المرسلات: ١-٧].
- ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١-١٠].

- ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣].

وأما القسم المضمر فهو كثير جدًا ويصعب حصره لأمرين: الأول: أنه من الكثرة بمكان بحيث يجعل حصره شاقًا. والثاني: أن هناك مواطن كثيرة فيها اختلاف هل هي قسم أو غير قسم، ولكن عند التأمل نجد أن من المواطن المتفق عليها المواطن التي ذكر فيها (لقد) و (لئن) وهي من أكثر المواطن ورودًا في القرآن الكريم، ومن ذلك:

- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].
- ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣].
- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].
- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: ١٠].
- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧].
- ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].
- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].
- ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١].
- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].
- ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر: ١٢].
- ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].
- ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥].

ومن هذه الصيغ (لعمرك): ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

فكلمة ﴿لَعَمْرُكَ﴾ صيغة قسم، واللام الداخلة على لفظ: (عمر) لام القسم. و«العمر بفتح العين وسكون اللام أصله: لغة في العمر -بضم العين-، فخص المفتوح بصيغة القسم؛ لخفته بالفتح؛ لأن القسم كثير الدوران في الكلام. فهو قسم بحياة المخاطب به. وهو في الاستعمال إذا دخلت عليه لام القسم رفعوه على الابتداء محذوف الخبر وجوبًا. والتقدير: لعمرك قسمي»(١).

وذكر الطاهر رحمه الله أن من صيغ

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٥٤.

القسم: (أشهد الله) فقال: «لفظ (أشهد الله) من صيغ القسم، إلا أنه إن لم يكن معه معنى الإشهاد يكون مجازًا مرسلًا، وإن كان معه معنى الإشهاد -كما هنا- يقصد آية النور ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٨].

فهو كناية عن القسم مراد منه معنى إشهاد الله عليهم، وبذلك يظهر موقع قوله: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: أشهده عليكم. وقريب منه ما حكاه الله عن هود: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ [هود: ٥٤]»(١).

دخول حرف النفي على القسم:

وهو من صيغ القسم الواردة في القرآن، وقد ذكرت في القرآن تسع مرات:

- ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ - ٢].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥].
- ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦].
- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٦.

وقد اختلف العلماء فيها، هل هي قسم أم نفي للقسم، على قولين:

الأول: أنها نفي للقسم. والمعنى: لا أقسم؛ إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم(٢) واعترض على هذا القول بأنه «يأباه تعيين المقسم به وتفخيم شأن القسم به»(٣).

الثاني: أنها قسم، واختلف في توجيهها، فقيل: إن (لا) زائدة، وقيل: على بابها ونفى بها كلامًا تقدم منهم، كأنه قال: ليس الأمر كما قلتم من إنكار القيامة فـ ﴿أُقْسِمُ﴾ جواب لما حكي من جحدهم (البعث)؛ لأن القرآن يجري مجرى السورة الواحدة. قال الزركشي: وهذا أولى من دعوى الزيادة؛ لأنها تقتضي الإلغاء وكونها صدر الكلام يقتضي الاعتناء بها وهما متنافيان(٤).

قال الطاهر رحمه الله: «﴿لَا أُقْسِمُ﴾ صيغة تحقيق قسم، وأصلها أنها امتناع من القسم امتناع تحرج من أن يحلف بالمقسم به خشية الحنث، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه، واعتبر حرف (لا) في هذا القسم إبطالًا لكلام سابق وأن فعل: ﴿أُقْسِمُ﴾ بعدها مستأنف»(٥).

وذهب بعضهم إلى أنها نفي لما بعد

(٢) أنوار التنزيل، البغوي ٥/ ٢٩٢.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٩٩.
(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٤/ ٣٥٩.
(٥) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٣٠.

القسم، أتى بالنافي قبل القسم للإشعار ابتداء بأن جوابه منفي. ولكن هذا القول فيه تكلف، ورده ابن هشام رحمه الله في المغني، فقال: «ورد بقوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ الآيات، فإن جوابه مثبت، وهو: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ ومثله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾»[1].

وقيل: «هي مؤكدة تعطي في القسم مبالغةً ما، وهي كاستفتاح كلام شبهه في القسم، إلا في شائع الكلام القسم وغيره»[2].

وهذا القول يؤول إلى القول بزيادتها، وهو ضعيف؛ إذ القول بالزيادة فيه اختلاف كبير، والراجح: أنه لا يوجد في القرآن شيء يصح أن يسمى زائدًا، ثم إنه من القواعد المعمول بها عند العلماء أن التأسيس خير من التأكيد.

وقيل: «إنها لام أشبعت فتحتها، فتولدت منها ألف فالمعنى: فلأقسم، ويؤيده قراءة الحسن وعيسى -رحمهما الله-: فلأقسم ورجحه أبو حيان»[3].

قلت: وما ذهب إليه الزركشي رحمه الله أولى؛ لأنه في سورة الواقعة قال بعده: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

أركان القسم

للقسم أركان أربعة: مقسم، ومقسم به، ومقسم عليه، وأداة القسم، وسوف نتناول كل ركن منها بالدراسة المفصلة فيما يأتي:

أولًا: المقسم:

بالنظر في القرآن الكريم نجد أن الأقسام المذكورة إما أن تكون صادرة من الله تعالى أو صادرة من غيره، والأقسام الصادرة عن غيره تعالى إما أن تكون صادرة من رسول من رسل الله عليهم السلام، وإما أن تكون صادرة من المؤمنين، وإما أن تكون صادرة عن الشهود، أو المتلاعنين، وإما أن تكون صادرة عن غير المؤمنين كالمشركين، والمنافقين، وإبليس.

ومعظم أقسام القرآن صادرة من الله عز وجل ومن المقرر أن لله تعالى أن يقسم بما شاء على ما شاء، فأقسم بذاته المعظمة فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

---

(١) مغني اللبيب ص ٣٢٩.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٥٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢١٢.

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

وقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

وأقسم سبحانه بحياة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

وهناك قسم صادر من الرسل عليهم السلام، وهو إما أن يكون قسمًا صادرًا منهم ابتداءً أو يكونوا أمروا من الله تعالى بالقسم، فمن الأول قسم آدم عليه السلام وزوجه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقول الخليل عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

وقسمه لهم أيضًا: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وقسمه عندما غاب القمر: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وقول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقول موسى لفتاه: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢].

وقوله للخضر: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

وقوله له: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وقسم داود عليه السلام لأحد الخصمين في القضية المشهورة: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤].

ومن الثاني:

- ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].
- ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ومن قسم المؤمنين قسم ابن آدم لأخيه: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وقسم إخوة يوسف عليه السلام:

● ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤].

● ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

● ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

● ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

● ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].

وقسم بني إسرائيل: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

وقسم الذي دخل الجنة ودخل صاحبه النار: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦].

وقسم أصحاب الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

وقسم المؤمنين في الآخرة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

ومن قسم الكفار قولهم وهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وقولهم عند الحساب -كما حكى القرآن الكريم-:

● ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢- ٢٣].

● ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

● ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وقسم الظالم: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٩].

ومن قسمهم في الدنيا:

● ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

● ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

• ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

• ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

• ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٢- ٨٣].

• ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

وقسمهم عند الشدائد على أنهم سيشكرون الله عندما ينجيهم: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

وقسم قوم إبراهيم عليه السلام له: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

وقسم أبيه له ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

وقسم قوم شعيب عليه السلام: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وقسم قوم لوط عليه السلام له: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وقسم امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وقسم قوم فرعون لموسى: عليه السلام ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وقسم فرعون لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقسم السحرة: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

وقسم اليهود للسيدة مريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧].

ومن قسمهم قسم الرهط التسعة من قوم صالح: عليه السلام ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:

٤٩].

وقسم صاحب الجنتين: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ومن قسم الشهود قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٧].

ومن قسم الشهود كذلك قسم المتلاعنين، إذ أقيمت أيمانهم مكان الشهادة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦-٩].

ومن قسم المنافقين ما حكاه الله تعالى عنهم عندما تحل بهم مصيبة: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢].

وقسمهم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

وقسمهم عند تخلفهم عن غزوة تبوك: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٥].

وحلفهم الذي ذكره المولى سبحانه: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقسمهم ليهود المدينة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١٢].

وحلفهم طلبًا لإرضاء المؤمنين: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ

﴿مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: ٧٤].

وقسم الشيطان، فقد أقسم على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وحلفهم في غزوة بني المصطلق: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقين: ٨].

ثانيًا: المقسم به:

وأما الركن الثاني من أركان القسم فهو المقسم به، وهو الذي تدخل عليه أداة القسم، وهو المعظم الذي نحلف به؛ لتوكيد الكلام، قد ورد النهي عن الحلف بغير الله في قوله صلى الله عليه وسلم: **(من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)**[١].

وقوله: **(ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت)**[٢].

قال العلماء: «السر في النهي عن الحلف بغير الله، أن الحلف بشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده، وظاهر الحديث، تخصيص الحلف بالله خاصةً، لكن قد اتفق الفقهاء: على أن اليمين تنعقد بالله وذاته وصفاته العلية. واختلفوا في انعقادها ببعض الصفات، وكان المراد بقوله: بالله الذات لا خصوص لفظ الله، وأما اليمين بغير ذلك فقد ثبت المنع فيها، وهل المنع للتحريم، قولان عند المالكية، كذا قال ابن دقيق العيد، والمشهور عندهم الكراهة، والخلاف أيضًا عند الحنابلة، لكن المشهور عندهم التحريم، وبه جزم الظاهرية وجمهور أصحابه على أنه للتنزيه»[٣].

وهذا النهي خاص بالبشر، وأما الله تعالى فله أن يقسم بما شاء على ما يشاء، لذلك نجده سبحانه أقسم بما يلي:

أقسم بذاته العلية.

أقسم بصفاته وأقسم بالقرآن الكريم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف؟: ٢/ ٩٥١، رقم ٢٥٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، رقم ١٦٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، ٦/ ٢٤٤٩، رقم ٦٢٧٠.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٥٣١.

أقسم بمخلوقاته.

فأقسم بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم وأقسم بالشمس والقمر والنجم والسماء والأرض والملائكة والنفس وبيوم القيامة، وبالقارعة، وبالرياح، ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١].

وبالبحر وبالقلم وبالحاقة، وبالخيل، وأقسم بالأمكنة (بالبيت المعمور، وطور سيناء، ومكة) وأقسم بالأزمنة (بالليل والنهار، وبالفجر والليالي العشر، والشفع والوتر، والضحى والعصر).

وقد اختلف العلماء في القسم بهذه الأشياء، فقيل: أقسم بها؛ للتنبيه على عظمها وعظمة خالقها، وقيل: على تقدير حذف مضاف، كأنه قال: أقسم برب هذه الأشياء، فإذا قال ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فيقدر: ورب النجم، وإذا قال ﴿وَالطُّورِ﴾ يقدر: ورب الطور، وإذا قال: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ يقدر: ورب الشمس.

فيتفرع ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المقسم به خالق هذه الأشياء؛ لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف بغير الله تعالى؛ ولأن الحلف في مثل هذا الموضع تعظيم للمحلوف به، ومثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى، ففي ذلك إضمارٌ تقديره: ورب الصافات ورب الزاجرات ورب التاليات، ومما يؤيد هذا أنه تعالى صرح به في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٥: ٧].

الثاني: «-وعليه الأكثرون- أن المقسم به هذه الأشياء، لظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل، وأما النهي عن الحلف بغير الله تعالى فهو نهي للمخلوق عن ذلك، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ فإنه علق لفظ القسم بالسماء، ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء، ولو كان المراد بالقسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد، وهو لا يجوز، و أيضًا لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الأشياء، التنبيه على شرف ذواتها»[1].

الثالث: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه[2].

والراجح: القول الثاني، وهو مع ذلك ليس يبعد عن الأول؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى كما يقول ابن القيم: «يقسم بأمور على أمور، وإنما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته، فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣].

(١) السراج المنير ٣/ ٤٤٨.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٤/ ٥٤.

وإما على جملة طلبية كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

مع أن هذا القسم قد يراد به تحقيق المقسم عليه، فيكون من باب الخبر، وقد يراد به تحقيق القسم، فالمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه، وذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها، فأما الأمور المشهورة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها، وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسمًا به ولا ينعكس[(١)].

وعلى أية حال فـ «المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به»[(٢)].

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «وما به سبحانه من حاجة إلى القسم، ولكن هذا القسم منه -جل جلاله- بالقرآن وحروفه، يخلع على المقسم به عظمة وجلالًا، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين»[(٣)].

وأما بالنسبة لإبليس فقد أقسم بعزة الله، قد أقسم على إغواء بني آدم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وأقسم بإغواء الله تعالى إياه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

فقد قال بعض العلماء: «هذا قسمٌ من إبليس بإغواء الله له على أنه يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين»[(٤)] «وإقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافي إقسامه بهذا، فإنه فرعٌ من فروعها وأثرٌ من آثارها، فلعله أقسم بهما جميعًا فحكي تارة قسمه بهذا وأخرى بذاك»[(٥)].

والفرق بينهما أن العزة صفة ذات والإغواء صفة فعل، «والفقهاء قالوا: القسم بصفات الذات صحيح، أما بصفات الأفعال فقد اختلفوا فيه»[(٦)].

وعلى أية حال فلا إشكال في الآية؛ وذلك لأن هذا القسم صادر من إبليس وليس فعله تشريعًا، ثم إن بعض العلماء ذهب إلى أن الباء للسببية، والمعنى: بسبب إغوائك إياي.

ثم إن الكفار مع أنهم لا يلتزمون بمنهج إلا أن ما حكاه المولى عز وجل عنهم إما قسم بالله تعالى وإما قسم حذف المقسم به إلا ما حكاه عن سحرة فرعون

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية ص٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٢٣٣.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٥٨.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٧٦.
(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٧٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٤٧.

من حلفهم بعزة اللعين فرعون: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

العطف على المقسم به:

تكرر في القرآن الكريم العطف على المقسم به، قال أبو حيان رحمه الله: «والذي يظهر أن ما عطف بالفاء هو من وصف المقسم به قبل الفاء، وأن المعطوف بالواو وهو مغاير لما قبله، على أنه يحتمل أن يكون المعطوف بالواو ومن عطف الصفات بعضها على بعض»[١].

وبناءً على ذلك فإن العلماء قالوا: إنه قسم واحد بأشياء متعددة، أو بشيء واحد ذي صفات متعددة، نص المفسرون على ذلك، قال ابن عاشور عند تفسير سورة الصافات: «والمقسم به نوع واحد مختلف الأصناف، وهو طوائف من الملائكة كما يقتضيه قوله: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾»[٢].

وذهب بعضهم مذهبًا آخر وهو أنه «إذا كان المدلول متغايرًا، فتكون أقسامًا متعاقبة. وإذا كان غير متغاير، فهو قسم واحد، وهو من عطف الصفات»[٣].

ولعله يقصد بكونها أقسامًا متعاقبة كون كل واحد منها مقسمًا به، ولا يقصد أن لكل واحد منها جوابًا.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٦.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٣٣.

ثالثًا: المقسم عليه:

المقسم عليه هو جملة جواب القسم، وقد يحذف هذا الجواب إما للعلم به، وهذا قليل؛ نظرًا لأن المقصود الرئيس من القسم هو توكيد المقسم عليه، والذي يسوغ حذفه كون المقسم به والمقسم عليه شيئا واحدا ومنه قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

«وهو هذا القرآن، الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه، فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه»[٤].

ثم إننا بالنظر نجد أن الموضوعات المقسم عليها في القرآن موضوعات كثيرة أهمها:

أصول الإيمان من التوحيد، كما في قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ١ - ٥].

فقد أقسم بالملائكة حين تصف نفسها، وحين تزجر الريح وحين تتلوا القرآن على أن إله هذا الكون إله واحد.

والرسالة وما يتعلق بها، فأقسم على نفي الجنون عن نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله:

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٩.

﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ① مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ١ - ٢].

وذلك لمقابلة تأكيدات الكفار الكثيرة على أن الرسول مجنون، ومن ذلك قولهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦].

وأقسم على أنه أرسل رسلًا كثيرين، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وأقسم على بعثة رسل بأعيانهم، فقال:

- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥].
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦].
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥].
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

البعث واليوم الآخر وما يتعلق به، فأقسم على أنه سبحانه سيسأل جميع الناس، فقال سبحانه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ① فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ② فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ③ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ⑤ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

فأقسم بالرياح التي تذرو التراب، وتحمل السحاب، وبالسفن التي تجري في البحار بسهولة ويسر، وبالملائكة على أن ما وعدوا به من البعث والحساب واقع لا محالة. وقال: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

فأقسم أن الجميع سيسأل عن أعماله؛ ليجازى عليها. ثم أقسم في آية أخرى على نزول العذاب بالكافرين لا محالة في الآخرة: ﴿وَٱلطُّورِ ① وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ② فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ③ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ④ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ⑤ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ⑦ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ [الطور: ١ - ٨].

فأقسم بجبل الطور الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وباللوح المحفوظ وبالبيت المعمور الذي هو في السماء السابعة حيال الكعبة، وبالسماء التي هي كالسقف فوقنا وبالبحر المملوء على أن عذابه واقع لا محالة، لا يدفعه دافع ولا يمنعه ممانع.

وقريب من هذا القسم أول سورة المرسلات والنازعات.

والكتب الإلهية من القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿حمٓ ① وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ②

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١: ٣].

فقد أقسم بالكتاب المبين، وهو القرآن الكريم على أن القرآن نزل عربيًا؛ ليتعقله العرب الذين نزل عليهم «وفي جعل المقسم به -القرآن- بوصف كونه مبينًا، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينًا، تنويه خاص بالقرآن؛ إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع؛ لأنه يومئ إلى أن المقسم على شأنه بلغ غاية الشرف، فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به؛ للتناسب بين القسم والمقسم عليه»[1].

وأقسم على أن القرآن وحي من عنده تعالى فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١- ٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

وأقسم على إيتاء التوراة لموسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩].

وأقسم على أنه أعطى آل إبراهيم الكتاب، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

وفي مجال الجهاد أقسم على نصرته للمؤمنين، ومن ذلك: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

وأقسم على أن المنافقين لا ينصرون أهل الكتاب ولو حاولوا ذلك لما استطاعوا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٢- ١٣].

وأقسم على خلق الإنس والجن: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢١١.

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].
* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].
* ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ١: ٥].

وأقسم على اختلاف عمل الناس: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١ - ٤].

وأقسم على نفي الإيمان عن من لم يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم أو حكمه ولم يرض بحكمه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأقسم على كفران الإنسان لنعمة ربه وحبه للمال، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۞ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۞ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١ - ٨].

فأقسم بالخيل، أو بـ«رواحل الحجيج، فإن إثارة النقع يشعرون بها عند الوصول حين تقف الخيل والإبل دفعة، فتثير أرجلها نقعًا شديدًا فيما بينهما، وحينئذ تتوسطن الجمع من الناس»[1]. على أن الإنسان شديد الكفران لنعم ربه، وسوف يشهد على نفسه بذلك يوم القيامة، وما ذلك إلا لحبه الشديد للمال الكثير.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وهو سبحانه وتعالى يقسم على أصول الإيمان التي تجب على الخلق معرفتها، وتارة يقسم على التوحيد، وتارة يقسم على أن القرآن حق، وتارة على أن الرسول حق، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة يقسم على حال الإنسان»[2].

«والقسم إما على جملة خبرية -وهو الغالب- كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣].

وإما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]؛ لأن المراد التهديد والوعيد»[3].

اتحاد المقسم به وجواب القسم:

«وفي جعل المقسم به القرآن بوصف كونه مبينًا، وجعل جواب القسم أن الله جعله مبينًا، تنويه خاص بالقرآن إذ جعل المقسم به هو المقسم عليه، وهذا ضرب عزيز بديع؛ لأنه يومىء إلى أن المقسم على شأنه بلغ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٢.
(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص ٦.
(٣) مباحث في علوم القرآن، القطان ص ٣٠٦.

غاية الشرف فإذا أراد المقسم أن يقسم على ثبوت شرف له لم يجد ما هو أولى بالقسم به؛ للتناسب بين القسم والمقسم عليه»[(١)].

أغراض القسم في القرآن

القسم من أقوى مؤكدات الجملة، وذلك أن الخبر -كما يقول البلاغيون- ينقسم باعتبار حال المخاطب إلى ابتدائي؛ يساق مجردًا عن المؤكدات لخالي الذهن، وطلبي؛ يؤكد بمؤكد واحد يساق للمتردد، وإنكاري؛ يؤكد بأكثر من مؤكد، يساق للمنكر، وتكثر المؤكدات حسب درجة الإنكار، والقسم من أقوى ما يؤكد به الكلام[(٢)].

إذًا فالغرض الرئيس للقسم هو توكيد الخبر وتحقيقه، حتى يكون أوقع في النفس، وأقرب للقبول، وأبعد عن الشك، وهناك أغراض متفرعة عن هذا الغرض الرئيس، منها:

١. تأكيد الخبر وتقريره، وذلك أن المقسم عليه كثيرًا ما يكون من الأمور الخفية الغائبة، فيقسم عليها لإثباتها، مثل إثبات الألوهية وإثبات البعث والحساب، فيأتي القسم؛ ليزيل ما عسى أن يعتري النفوس من شكوك، ويزيل الشبهات، ويقيم الحجة، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

٢. بيان شرف المقسم به، وعلو قدره؛ حتى يعرف الناس مكانته عند الله ورفعة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢١١.

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ٢/ ٢١٤.

منزلته لديه، كالقسم بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: «ما خلق الله نفسًا أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾»[(١)]. قال ابن العربي رحمه الله: «وهذا كلامٌ صحيحٌ، ولا أدري ما الذي أخرجهم عن ذكر لوطٍ إلى ذكر محمدٍ، وما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوطٍ، ويبلغ به من التشريف ما شاء؛ فكل ما يعطي الله للوطٍ من فضلٍ ويؤتيه من شرفٍ فلمحمدٍ ضعفاه؛ لأنه أكرم على الله منه. أو لا تراه قد أعطى لإبراهيم الخلة، ولموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمدٍ، فإذا أقسم الله بحياة لوطٍ فحياة محمدٍ أرفع، ولا يخرج من كلامٍ إلى كلامٍ آخر غيره لم يجر له ذكرٌ لغير ضرورةٍ»[(٢)]. وكالقسم بالقرآن الكريم: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

٣. توجيه النظر إلى الآيات الكونية؛ للتوصل منها إلى خالقها، والتأمل فيها تأملًا يبين مبلغ نعمتها، وأنها غير جديرة بالعبادة، وإنما الجدير بالعبادة هو خالقها، و«لفتٌ إلى وجوب التأمل في تلك المخلوقات، يستلهم منها الدلالة على قدرة خالقها، والاستدلال على تغير الأزمان، وحركة الأفلاك، وإحداث السماء بالبناء؛ أنه لا بد لهذا العالم من صانعٍ، ولا بد للمحدث المتجدد من فناءٍ وعدمٍ»[(٣)]. ونقل السيوطي رحمه الله عن أبي القاسم القشيري رحمه الله قوله: «القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة، أو لمنفعة. فالفضيلة، كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ٢- ٣]. والمنفعة كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]»[(٤)].

٤. إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ العرب كانت تعتقد أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع، وأنها تضر صاحبها. وقد كان إكثار النبي صلى الله عليه وسلم من الحلف بأمر الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. ومع قسمه صلى الله عليه وسلم لم يصب بسوء، بل ارتفع شأنه وعلا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١١٨، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٦٧٥.
(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ١٤٦.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٤١.
(٤) الإتقان في علوم القرآن ٤/ ٥٥.

ذكره، فكان دليلا على صدقه.

٥. إبراز المعقول في صورة المحسوس، وذلك أن الأمر المعقول إذا صور في شيء حسي، فإن العقل يستوعبه، أكثر ما لو كان مجردًا عن الحس، ومثله تشبيه الوحي بالضحى في رائعة النهار، وتشبيه الباطل بالليل، وانتصار الحق بالنهار، إشارة إلى أن الليل البهيم، لابد وأن يعقبه صبح مشرق بهيج، يبدد ظلامه وظلماته، وكذلك ظلام الشرك والجهل، لابد وأن يعقبه نور الحق واليقين.

٦. تصحيح العقائد الباطلة، فالقسم بالنجم إذا هوى، وبالكواكب، وبالشمس، والقمر، فيه رد على من اعتقد أنها آلهة، وأن لها تصرفًا في العالم السفلي.

٧. لفت الأنظار إلى أحداث بارزة، كان لها أكبر الأثر في تاريخ البشر، وذلك الغرض يظهر في القسم بالأمكنة مثل (الطور)، فالقسم به فيه إشارة إلى ما كان عند ذلك الجبل من الآيات التي ظهرت لموسى[١].

كفارة القسم

تقدم القول بأن اليمين ثلاثة أنواع:

١. لغو.

٢. منعقدة.

٣. غموس.

فاللغو لا كفارة فيها باتفاق، كما قال المولى سبحانه: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وأما اليمين المنعقدة فيخرج من عهدتها بواحدٍ من ثلاثة أشياء:

«الأول: إبرارها بفعل ما حلف عليه.

الثاني: الكفارة، وهي جائزةٌ قبل الحنث وبعده على التحقيق.

الثالث: الاستثناء بنحو إن شاء الله»[٢].

واليمين المنعقدة فيها الكفارة باتفاق؛ لنص الآية الكريمة: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ

(١) انظر: أسلوب القسم، سامي طه ص ٢٦.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٢٣.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهي بنص الآية الكريمة إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق رقبة، فإن تعذر واحد من هذه الثلاثة انتقل إلى صيام ثلاثة أيام، فهي مخيرة ابتداءً مرتبة انتهاءً.

ولا خلاف في أن كفارة اليمين على التخيير، قال ابن العربي: «ذكر الله عز وجل في الكتاب الخلال الثلاث مخيرًا فيها، وعقب عند عدمها بالصيام فالخلة الأولى هي الإطعام، وبدأ بها؛ لأنها كانت الأفضل في بلاد الحجاز لغلبة الحاجة فيها على الخلق، وعدم شبعهم.

ولا خلاف في أن كفارة اليمين على التخيير؛ وإنما اختلفوا في الأفضل من خلالها، وعندي أنها تكون بحسب الحال؛ فإن علمت محتاجًا فالإطعام أفضل؛ لأنك إذا أعتقت لم ترفع حاجتهم وزدت محتاجًا حادي عشر إليهم، وكذلك الكسوة تليه، ولما علم الله غلبة الحاجة بدأ بالمهم المقدم»[1].

والحكمة من تقديم الإطعام على العتق مع أن العتق أفضل:

أولًا: أن المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب؛ لأنها لو وجبت على الترتيب لوجبت البداية بالأغلظ.

ثانيًا: قدم الإطعام؛ لأنه أسهل، ولكون الطعام أعم وجودًا، والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف.

ثالثًا: أن الإطعام أفضل؛ لأن الحر الفقير قد لا يجد طعامًا، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام، فيقع في الضر.

وأما العبد فيجب على مولاه إطعامه وكسوته[2].

واختلف الفقهاء في مقدار الإطعام، وربما تفاوت بتفاوت الأزمنة والأمكنة والأشخاص، والمراعى في ذلك أن يطعم عشرة مساكين طعامًا كافيًا من متوسط ما يطعمه أهله، وذلك يختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر ومن شخص لآخر.

ويقال في الكسوة ما قيل في الإطعام.

والإطعام يكون لمن توافرت فيه أوصاف خمسة هي:

١. أن يكونوا مساكين، فلا يدفع إلى غيرهم؛ لأن الله تعالى أمر بإطعام المساكين، وخصهم بذلك.
٢. أن يكونوا أحرارًا، فلا يجزئ دفعه إلى عبد ومكاتب.
٣. أن يكونوا مسلمين، فلا يجوز عند الجمهور صرفه إلى كافر، ذميًا كان أو

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢٣٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٦٤.

حربيًا. وأجاز الحنفية دفعه إلى الذمي؛ لدخوله في اسم المساكين، فيدخل في عموم الآية.

٤. أن يكونوا قد أكلوا الطعام في رأي الحنابلة والمالكية، فلا يجوز دفعه لطفل لم يطعم. وأجاز الحنفية والشافعية دفعه إلى الصغير الذي لم يطعم، ويقبضه عنه وليه. ويجوز بالاتفاق للمكفر أن يعطي من أقاربه من يجوز أن يعطيه من زكاة ماله. وكل من يمنع الزكاة من كالغني والكافر والرقيق يمنع أخذ الكفارة. إلا أن الحنفية أجازوا دفعها للذمي.

٥. أن يوزع الطعام على عشرة مساكين فعلًا، فلو أطعم واحدًا طعام عشرة لم يجزئه باتفاق الفقهاء، واختلفوا فيما لو أطعم واحدًا عشرة أيام، على النحو السابق بيانه[(١)].

وأما الكسوة، فلا تجوز إلا على سبيل التمليك؛ لأن الكسوة للوقاية من الحر والبرد، وهذه الحاجة لا تتحقق إلا بالتمليك، بخلاف الإطعام، فإنه لدفع الجوع، وهو يحصل بتناول الطعام، وتكون الكسوة للمساكين كالإطعام.

وأما قدر الكسوة: فاختلف فيه، فقال الحنفية: أدنى الكسوة ما يستر عامة البدن.

وقال الحنابلة: تتقدر الكسوة بما تجزئ الصلاة فيه؛ فإن كان رجلًا كساه ثوبًا تجزئ الصلاة فيه، وإن كانت امرأة كساها قميصًا وخمارًا؛ لأن الكسوة إحدى خصال الكفارة، فلم يجز فيها أدنى ما يطلق عليه اسم الكسوة؛ ولأن اللابس حينما لا يستر العورة يسمى عريانًا لا مكتسيًا.

وقال المالكية: أقل ذلك للرجل ثوب يستر جميع جسده، وللمرأة ما يجوز لها فيه الصلاة، وذلك ثوب وخمار.

وقال الشافعية: «يجزئ أقل ما يطلق عليه اسم الكسوة من إزار أو رداء أو جبة أو قميص أو ملحفة؛ لأنه يقع عليه اسم الكسوة؛ ولأن الله تعالى لم يذكر في الكسوة تقديرًا، فكل ما يسمى لابسه مكتسيًا يجزئ»[(٢)].

وبالنسبة للرقبة ففيها الخلاف المشهور، وهو أنه هل يشترط الإيمان أم يجزئ أي رقبة؟

وذلك مبني على الخلاف في حمل المطلق على المقيد، فقد أطلقت الرقبة هنا وقيدت بالإيمان في كفارة القتل الخطأ، فمن قال بحمل المطلق هنا على المقيد هناك اشترط الإيمان، ومن لم يحمل المطلق هنا على المقيد هناك ذهب إلى عدم اشتراط الإيمان.

قال الشوكاني رحمه الله: «والظاهر أنه

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٤/ ١٣٧.

(٢) المصدر السابق ٤/ ١٣٨.

لا وجه للقول بالتقييد؛ لأن ذنب كفارة القتل مغلظ وذنب كفارة اليمين مخفف، ولا يقيد ما هو مخفف بما هو مغلظ، فإنه اختلاف يوجب بقاء المطلق على إطلاقه، ولا سيما مع اختلاف السبب، فإنه بمجرده مانع من التقييد»[1].

وبحث مثل هذه المسألة قليل الجدوى في زماننا هذا نظرًا لعدم وجود الرقيق، فلا نطيل فيها.

«واختلفوا في وجوب التتابع في هذا الصوم: فذهب جماعةٌ إلى أنه لا يجب فيه التتابع بل إن شاء تابع وإن شاء فرق، والتتابع أفضل وهو أحد قولي الشافعي، وذهب قومٌ إلى أنه يجب فيه التتابع قياسًا على كفارة القتل والظهار، وهو قول الثوري وأبي حنيفة، ويدل عليه قراءة ابن مسعودٍ رضي الله عنه: صيام ثلاثة أيامٍ متتابعاتٍ»[2].

وأما اليمين الغموس وهو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كذاب وهي التي في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩][3].

واختلفوا فيها، فقال مالك، وجماعة: لا تكفر، وهي أعظم ذنبًا من ذلك. وقال عطاء، وقتادة، والربيع، والشافعي: «تكفر، والكفارة مؤاخذة»[4].

والخلاف فيها نشأ من أنها فيها شبه بالمنعقدة وشبه باللغو.

فأما شبهها بالمنعقدة، فهو أن القلب عقد عليها، وأصر على فعلها، فهي من كسبه، وعلى ذلك فتدخل ضمن المؤاخذ عليها.

وأما شبهها باللغو، فهو أنها لم ينص على أن فيها كفارة.

فمن نظر إلى الأول حكم بالكفارة عليها.

ومن نظر إلى الثاني حكم بالثاني.

وقد حل ابن العربي هذا الإشكال، فقال: «وجه إشكالها أنها إن كانت لا كفارة فيها فهي في قسم اللغو، فلا تقع فيها مؤاخذةٌ، وإن كانت مما يؤاخذ بها فهي في قسم المنعقدة، تلزم فيها الكفارة.

وحله طويلٌ؛ اختصاره أن الآية وردت بقسمين: لغوٌ، ومنعقدةٌ خرجت على الغالب في أيمان الناس؛ فأما اليمين الغموس فلا يرضى بها ذو دينٍ أو مروءةٍ، ويحل الإشكال أيضًا أن الله سبحانه علق الكفارة على قسمي اليمين المنعقدة، فدع ما بعدها يكون مائة قسمٍ فإنه لم تعلق عليه كفارةٌ.

فإن قيل: اليمين الغموس منعقدةٌ، والدليل عليه أنها مكتسبةٌ بالقلب، معقودةٌ بخبرٍ، مقرونةٌ باسم الله تعالى. قلنا: عقد القلب إنما يكون عقدًا إذا تصور حله،

(١) السيل الجرار ١/ ٦٩٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٩٣.
(٣) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٧٥٠.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٩١.

واليمين الغموس مكرٌ وخديعةٌ. والدليل عليه أن هذا الذي صوره أصحاب الشافعي موجودٌ في يمين الاستثناء، ولا كفارة فيها؛ فثبت أن مجرد القصد لا يكفي في الكفارة»[1].

موضوعات ذات صلة

الكفارات، الوفاء

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٢١٥.







عناصر الموضوع

مفهوم القلب

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «القاف واللام والباء أصلان صحيحان: أحدهما: يدل على خالص شيءٍ وشريفه، والآخر على رد شيءٍ من جهةٍ إلى جهة، فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره، سمي بهذا؛ لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيءٍ وأشرفه قلبه»(١).

ومنه: قلب النخلة وقلبها: لبها وشحمتها، وأجود خوصها وأشده بياضًا، ويقولون: هو عربي قلب، أي: محض خالص، ويقولون: القلب: تحويل الشيء عن وجهه، وقلب الأمور: بحثها ونظر في عواقبها، وتقلب في الأمور وفي البلاد: تصرف فيها كيف شاء، ورجل قلبٌ يتقلب كيف شاء وتقلب ظهرًا لبطنٍ وجنبًا لجنبٍ: إذا تحول، والقلب: مضغةٌ من الفؤاد معلقةٌ بالنياط، والجمع أقلبٌ وقلوبٌ(٢).

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «القلب: لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم: النفس الناطقة، والروح باطنه، والنفس الحيوانية مركبة، وهي المدرك، والعالم من الإنسان، والمخاطب، والمطالب، والمعاتب»(٣).

وقيل: هو محل النفس والعقل والعلم والفهم والعزم. وسمي قلبا لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم والاعتقادات والإرادات(٤)، وقيل معناه: الروح. ولم يرتض الراغب هذا التعريف فقال: فأما العقل فلا يصح عليه ذلك(٥).

فالقلب في المعنى الاصطلاحي يمكن أن يحمل على أصليه الصحيحين في اللغة.

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ١٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧١٣.
(٣) التعريفات ص١٧٨.
(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي: ص٤٨٢.
(٥) المفردات: ص٦٨٢.



القلب في الاستعمال القرآني

ورد (القلب) في القرآن الكريم (١٣٢) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٩	﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:٣٧]
المثنى	١	﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب:٤]
الجمع	١١٢	﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [آل عمران:١٥١]

وجاء القلب في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[2]:

الأول: العقل: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧]. يعني: عقل.

الثاني: الرأي: ومنه قوله تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:١٤]. يعني: آراؤهم شتى.

الثالث: القلب بعينه الذي في الصدر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. يعني: القلب الذي هو محل النفس.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٥٤٩- ٥٥١.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤٨٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٣٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العقل:

العقل لغةً:

هذه المادة تدل على حبسة في الشيء، ومنه العقل: وهو الحابس عن ذميم القول والفعل، وهو نقيض الجهل، يقال: عقل يعقل عقلا، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله، وجمعه عقول. ورجل عاقلٌ وقوم عقلاء وعاقلون ورجل عقول، إذا كان حسن الفهم وافر العقل[١].

العقل اصطلاحًا:

قال الراغب: «العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقلٌ»[٢].

وقيل: العقل آلة التمييز. وعرفه الجزائري: قوة باطنية يميز بها المرء بين النافع والضار، والصالح والفاسد[٣].

الصلة بين العقل والقلب:

ذهب الشافعي وأكثر المتكلمين إلى أن محل العقل هو القلب، وهو مستعد لأن تنجلي فيه حقيقة الحق في الأشياء كلها[٤].

٢ الفؤاد:

الفؤاد لغةً:

التفؤد: التوقد. والفؤاد: القلب لتفؤده وتوقده، وهو مذكرٌ لا يأتي مؤنثًا[٥].

الفؤاد اصطلاحًا:

قال الراغب: «الفؤاد كالقلب لكن يقال له: فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد، أي: التوقد»[٦].

الصلة بين الفؤاد والقلب:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦.
(٢) المفردات ص٥٧٧.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ٥٠.
(٤) انظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٦١٩.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٢٨.
(٦) المفردات ص٦٤٦.



قيل: الفؤاد هو باطن القلب، وقيل: هو غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه، كما أن الفؤاد الرقيق تسرع إمالته، والقلب الغليظ القاسي لا ينفعل لشيء[(١)].

فالأفئدة توصف بالرقة، والقلوب باللين؛ لأن الفؤاد غشاء القلب إذا رق نفذ القول فيه وخلص إلى ما وراءه[(٢)].

٣ الصدور:

الصدور لغةً:

جمع (صدر) وصدر كل شيء: أوله، وصدر السهم: ما جاز من وسطه إلى مستدقه، وسمي بذلك؛ لأنه المتقدم إذا رمي. والصدر: الطائفة من الشيء، والصدرة من الإنسان: ما أشرف من أعلى صدره[(٣)].

الصدور اصطلاحًا:

قال المناوي: «الصدر: مسكن القلب، يشبه رئيس القوم، والعالي المجلس؛ لشرف منزلته على غيره من الناس»[(٤)].

الصلة بين الصدور والقلب:

يتبين أن القلب جزء من أجزاء الصدر وأعضائه.

---

(١) انظر: الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٦٩٦.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص٤٣٣.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٧٠٩.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص٢١٣.

أنواع القلوب في القرآن الكريم

أولًا: القلب السليم.

ويتصف هذا القلب السليم بعدة صفات، منها:

١ . الاطمئنان .

وردت آيات متعددة تحمل وصف الاطمئنان لقلوب المؤمنين، من هذه الآيات قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

ومعني الآية الكريمة: اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين طلب إبراهيم عليه السلام من ربه كيفية البعث، حيث سأل مع إيمانه الجازم بالقدرة الربانية ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فكان يريد أن يعلم بالعيان ما كان يوقن به بالوجدان؛ ولهذا خاطبه ربه سبحانه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: أو لم تصدق بقدرتي على الإحياء، قال: بلى آمنت ولكن سألتك لأزداد يقينا على يقيني، وعلما لا مجال فيه لتشكيك، وليسكن قلبي بالمعاينة المضمومة إلى الاستدلال برؤية ذلك فكان ما كان من أمر الله عز وجل له.

والطمأنينة والاطمئنان: السكون بعد الانزعاج[(١)].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٧.

يقول القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ الطمأنينة: اعتدال وسكون. فطمأنينة الأعضاء معروفة، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتقد.

فاليقين في شأن خليل الرحمن موجود كائن، ولكنه صلى الله عليه وسلم يريد سكون قلبه بمضامة العيان إلى الإيمان والإيقان بأن الله قادر على ذلك، إذن فالقلب المطمئن هو الذي امتلأ سكونًا وهيبة من عظمة الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨][(٢)]

فبمعرفة الله والإكثار من عبادته يكتسب القلب سكونه، يقول الإمام الغزالي: «الطاعات تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقًا ونورًا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين، وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر»[(٣)]. واستشهد بالآية الكريمة السابقة[الرعد ٢٨].

من معاني طمأنينة القلب في القرآن

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٠٠.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢.
قال بعض السلف: دواء القلب في خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين.
انظر: القلوب، البيانوني ص١٤١.



الكريم:

١ . يقين النفس.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٦].

٢ . الطمأنة والطمأنينة.

السكون وعدم الاضطراب، واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر تشبيهًا للعلم الثابت بثبات النفس أي: عدم اضطرابها[(١)].

٣ . السكون مع اليقين بالنصر.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال:٩-١٠].

قال الطبري: «لتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم»[(٢)].

٤ . عدم تغيير العقيدة.

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل:١٠٦].

ومعنى ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: لم تتغير عقيدته، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب[(٣)].

٢ . السكينة.

من صفات القلوب السليمة «السكينة» وقد وردت في القرآن في مواضع متعددة. من ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح:٤].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن حدث له أهميته في حياة الإسلام والمسلمين، حيث معونة الله ونصرته لعباده الصادقين وقت الشدائد والمحن، وذلك أنه لما منع صلى الله عليه وسلم هو ومن معه من المسلمين من دخول مكة معتمرين كادت صفوف المسلمين تتفكك، وتذهب ريحهم لعظم أمر احتباسهم من المشركين والحيلولة دون دخول مكة. (فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: بلى، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٧٨.
(٢) جامع البيان، ٩/ ٢٥٥.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٦٥٧.

يحكم الله بيننا؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدًا، فرجع متغيظًا فلم يصبر حتى جاء أبا بكرٍ فقال: يا أبا بكرٍ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولن يضيعه الله أبدًا فنزلت سورة الفتح)[(١)].

فأصل السكينة: الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، بل يوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات؛ ولهذا أخبر سبحانه بإنزالها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب نحو:

- يوم الغار: قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠].

- يوم حنين: قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

- يوم الفتح: قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح:١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح:٢٦].[(٢)]

أما السكون: فثبوت الشيء بعد تحرك.

وقد فسر الضحاك السكينة: بالرحمة.

وقيل السكينة: الوقار، وقيل: الملائكة، وهي بحسب ورودها تنتظم كل هذه المعاني.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، ٥/ ٢٦٤.

(٢) انظر: المفرادت، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٧.

سكينة في القرآن هي الطمأنينة إلا التي في البقرة ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة:٢٤٧-٢٤٨][1].

وقد فسرت بزوال الرعب وهذا لا يبعد عن الطمأنينة.

٣. الخشوع و الإخبات.

من صفات القلب السليم «الخشوع» قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

الآية الكريمة «تحمل عتابًا مؤثرًا من المولى الكريم الرحيم، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله، فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور، وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحذر.

عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله، والخشوع لذكره، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع للحق ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج»[2].

و﴿يَأْنِ﴾ كيحن: آن يئين، كحان يحين لفظًا ومعنى»[3].

﴿تَخْشَعَ﴾: أي: تلين، وتسكن، وتخضع تضرع وتذل، وتطمئن لذكر الله.

والخشوع الخوف الدائم في القلب، ومصدر الخشوع هو القلب[4].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٨٩.
(٣) انظر: حاشية الشهاب ٩/ ٩٩.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٤.

في ظلال هذه الآية يقول أديب العربية مصطفي صادق الرافعي: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ هذه الكلمة حث وإطماع وجدال وحجة، وهي في الآية تصرح أن خشوع القلب الذي تلك صفته هو كمال للإيمان، وأن وقت هذا الخشوع هو كمال العمر، وكيف يعرف المؤمن أنه سيأتي له أن يعيش ساعة أو ما دونها ؟!

إذن فالكلمة صارخة تقول: الآن الآن قبل ألا يكون آن، أى: البدار ما دمت في نفس من العمر فإن لحظة بعد «الآن» لا يضمنها الحي.

وإذا فني وقت الإنسان انتهى زمن عمله فبقى الأبد كله على ما هو، ومعنى هذا أن الأبد للمؤمن الذي يدرك الحقيقة، وإن هو إلا اللحظة الراهنة من عمره التي هي «الآن» فانظر ـ ويحك ـ وقد جعل الأبد في يدك، انظر كيف تصنع به.

تلك هي حكمة اختيار اللفظة من معنى «الآن» دون غيره.

ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهذا كالنص على أن غير هؤلاء لا تخشع قلوبهم لذكر الله ولا للحق، فلا تقوم بهم الفضيلة، ولا تستقيم بهم الشريعة، وعالمهم وجاهلهم سواء، لا يخشعان إلا للمادة، وكأن إنسانهم إنسان ترابي، لا يزال يضطرب على مكر الليل والنهار بين طرفين من الحيوان عيشه وموته، وما تقسو الحياة قسوتها على الناس إلا بهم، وما ترق رقتها إلا بالمؤمنين.

وجعل الخشوع للقلوب خاصة، إذ كان خشوع القلب غير خشوع الجسم، فهذا الأخير لا يكون خشوعًا، بل ذلًا، أو ضعة، أو رياء أو نفاقًا، أو ما كان.

أما خشوع القلب فلن يكون إلا خالصًا مخلصًا محصن الإرادة، واشترط القلب كأنه يقول: إنما القلب أساس المؤمن، وإن المؤمن ينبع من قلبه لا من غيره، متى كان هذا القلب خاشعًا لله وللحق، فإن لم يكن قلبه على تلك الحال، نبع منه الفاسق والظالم الطاغية وكل ذي شر.

ما أشبه القلب تتفرع منه معاني الخلق بالحبة تنسرح منها الشجرة، فخذ نفسك من قلبك كما شئت، حلوًا من حلو، ومرًا من مر.

وخشوع القلب لله وللحق معناه السمو فوق حب الذات، وفوق الأثرة والمطامع الفاسدة، وهذا يضع للمؤمن قاعدة الحياة الصحيحة، ويجعلها في قانونين لا قانون واحد.

ومتى خشع القلب لله وللحق، عظمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها، فيراها كبيرة وإن عمي الناس عنها، ويراها وهي بعيدة منه بمثل عين العقاب يكون في لوح الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرى.

وقد تخشع القلوب لبعض الأهواء

خشوعًا هو شر من الطغيان والقسوة فتقيد خشوع القلب «بذكر الله» هو في نفسه نفي لعبادة الهوى، وعبادة الذات الإنسانية في شهواتها، وما الشهوة عند المخلوق الضعيف إلا إله ساعتها»[1].

ومما يورث الخشوع: ترقب آفات النفس والعمل ومطالعة عيوب ونقائص النفس من العجب والكبر والرياء، وضعف الصدق وقلة اليقين[2].

الخشوع ـ بصفة عامة ـ في القرآن على أربعة أوجه:

الأول: التواضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥]. يعني: المتواضعين.

الثاني: الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]. يعني: خائفين.

الثالث: سكون الجوارح ورمي البصر إلى موضع السجود؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:١-٢].

الرابع: الذل والتذلل؛ لقوله تعالى في سورة طه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨] يقول: ذلت كقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾﴾ [الغاشية:٢].

مثلها في سورة القلم: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القلم:٤٣].

ونحوه في سورة القمر: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ [القمر:٧].

الإخبات:

ورد لفظ الإخبات في آيات ثلاث في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

يتحدث الحق جل وعلا عن حملة وحيه «الرسل» الذين يتمنون إيمان الناس بربهم وإسلامهم الوجه لله عز وجل، ويتحدث عن الشياطين وما جبلوا عليه من كراهية طريق

(١) انظر: وحي القلم ١/ ١٩٧،١٩٦.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ١/ ٣١٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٤٢.

الله عز وجل ووقوفهم وقفة الأعداء في وجه المرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢].

جاءت هذه الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم تقول له: «لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين، ثم يبين المولى عز وجل سنته أيضًا حيال مكر الشياطين، وأنه يبطله ثم يثبت آياته الدالة على وحدانيته، ويجعل وساوس الشياطين فتنة للمنافقين وللكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله، وإن الكافرين لفي عداوة شديدة لله ولرسوله، وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق الحقيق بالإيمان فيؤمنوا به فتخبت له أي: «تخشع وتسكن قلوبهم» بخلاف من في قلبه مرض، وإن الله لمرشد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم.

والإخبات: نزول الخبت وهو المكان المنخفض، وتفسيره بالإخلاص؛ لأنه لازم للتواضع والتذلل[١].

وإخبات القلوب: يكون بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص، ولكل أوامر الله على التعميم[٢]، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

ولقد ورد عن السلف تفسيراتٌ متعددة للمخبتين كلها ترجع إلى ما ذكرنا سابقًا وإن اختلفت العبارة.

قال سفيان: هم الراضون بقضاء الله، وقال الكلبي: المجتهدون في العبادة، وقال عمرو بن أوس: الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا[٣].

هذا وقد وصف الله تعالى المخبتين بصفات ذكرها في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

والإخبات ورد في القرآن على وجهين:

الأول: الإخلاص ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود:٢٣].

يعني: أخلصوا ومثلها في سورة الحج ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

يعني: المخلصين، والإخلاص محله القلب.

الثاني: الإخبات بمعنى القبول ومنه

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٥١٧.

(٢) روح المعاني، الألوسي: ١٧/ ١٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٥٩.

قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٤].

يعني فتقبل له صدورهم[١].

٤. التقوى، الوجل، والإنابة، والخيرية، والطهر، والاهتداء.

التقوى:

من صفات القلوب السليمة «التقوى» وهي كنز عزيز إن ظفرت به فكم تجد فيه من جوهر شريف، وعلقٍ نفيس، وخير كثير، ورزق كريم، وغنم جسيم وملك عظيم، فهي الخصلة التى تجمع خير الدنيا والآخرة، وعليها مدار القبول، وبها وصى سبحانه الأولين والآخرين فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١].

ومن هنا علمنا أنها الغاية التى لا متجاوز عنها؛ لجمعها محض النصح والدلالة والإرشاد والتأديب والتعليم والتهذيب[٢].

والتقوى مشتقة من الوقاية وهي حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، يقال: وقاه وقيًا ووقاية: صانه.

والتوقية: الصيانة والحفظ.

والمتقي: هو من جعل بينه وبين المعاصي وقاية تحول بينه وبينها من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك؛ فلذلك قيل له: متق.

وتعريفها شرعًا: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور وبترك بعض المباحات[٣].

وقد ذكر أهل التفسير أن التقوى في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: التوحيد، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء:١٣١].

وفي الحجرات: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

والثاني: الإخلاص، ومنه قوله تعالى في الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢] أراد من إخلاص القلوب.

والثالث: العبادة، ومنه قوله تعالى في النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢].

وفي المؤمنين: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

---

(١) الوجوه والنظائر، الدامغاني ١/ ٣٢٦.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٦١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٠.

﴿وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢].

وفي الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء:١٠-١١].

والرابع: ترك المعصية، ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة:١٨٩].

والخامس: الخشية، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١].

وفي الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الشعراء:١٠٦] وكذلك في قصة هود وصالح وشعيب[١].

ومحل التقوى هو القلب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج:٣٢].

والنكتة في تخصيص القلب في الآية بالتقوى، أن حقيقة التقوى في القلب وهو منشؤها؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (التقوى ها هنا وأشار إلى صدره)[٢].

أو للإشارة إلى أن التقوى تنقسم إلى قسمين: تقوى القلوب، وتقوى الأعضاء.

وتقوى القلوب: المراد بها التقوى الحقيقية الصادقة التي يتصف بها المؤمن الصادق وهي المثبتة هنا، وتقوى الأعضاء المراد بها التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي كثيرًا ما تخشع أعضاؤه وقلبه ساه لاه، وما في الآية شديد الشبه بقولهم: العفو من شيم الكرام، فمتى فهم منه كون العفو من أعظم أبواب الشيم فليفهم من ذلك كون التعظيم لشعائر الله من أعظم أبواب التقوى[٣].

الوجل:

وردت صفة الوجل في آيات كثيرة من القرآن العظيم، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

الوجل: استشعار الخوف، يقال: وجل يوجل وجلًا فهو وجلٌ[٤].

والوجل في الاستعمال القرآني لا يكون إلا للقلب قال تعالى في شأن المؤمنين حقًّا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٥٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٢٢٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ٤/ ١٩٨٦، رقم ٢٥٦٤.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ١٥١.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٥٥.

يقول الشيخ زاده: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل هو الخوف والفزع وهو ههنا متفرع على مجرد ذكر الله تعالى وملاحظة عظمته وجلاله، فإن هذا الخوف لا يزول عن قلب من ذكر الله تعالى عالمًا بنعوت جلاله وصفات كماله، سواء أكان ملكًا مقربًا أم نبيًا مرسلًا أم مؤمنًا تقيًا، فإن كل واحد منهم عند ذكر الله تعالى يلاحظ عظمة الله تعالى واستغناءه عن جميع ما سواه ويعلم احتياجه إليه في جميع مهماته، فلا جرم يهابه ويقشعر جلده، وتغلب عليه الدهشة بحيث يكاد يفنى وجوده»[1].

وقال تعالى في شأن المتواضعين لربهم المبشرين على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٥].

وقال تعالى في شأن المشفقين من خشية الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١].

وقال تعالى في شأن ضيف إبراهيم عليه السلام حين دخلوا عليه فسلموا، فرد عليهم السلام، ثم قدم لهم الطعام فلم يأكلوا، قال: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعون. ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحجر:٥٢-٥٣].

وقد شبه الوجل في القلب باحتراق السعفة، فعن شهر بن شوحب، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: الوجل في القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى. قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإن الدعاء يذهب بذلك[2].

وقال سفيان الثوري سمعت السدي يقول في الوجل -بالكسر-: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية. فيقال له: اتق الله فيجل قلبه»[3].

فالمؤمن الوجل هو المؤمن حقا كما قال عز من قائل: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر:٢٣].

والوجل من الله ينقسم إلى قسمين:

- الخوف من عقابه سبحانه وهذا للعصاة.
- الخوف من عظمته وجلاله سبحانه وتعالى، وهذا لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين، سواء أكان ملكًا مقربًا

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٢/ ٢٩٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن، العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٧، الدر المنثور، السيوطي ٣/ ١٧٦.

أم نبيًا مرسلًا.

وذلك لأنه تعالى غني لذاته عن كل الموجودات، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه، والمحتاج إذا حضر الملك الغني يهابه ويخافه، وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنيًا عنه، وكونه محتاجًا إليه يوجب تلك المهابة، وذلك الخوف[1].

الخطوات الموصلة إلى الوجل:

في سورة «المؤمنون» يبين الحق تبارك وتعالى الخطوات الموصلة إلى الوجل، فيقول عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

فالخطوة الأولى فهي: الإشفاق من جلال الله وعظمته والخوف من عذابه. وذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ومثله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠].

أما الثانية فهي: التصديق بآيات الله القرآنية والكونية فكلها براهين على وجود الله عز وجل ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾

أما الثالثة فهي: عدم الإشراك بالله تعالى والمراد نفي الشرك بعامة ونفي الشرك الخفي بصفة خاصة، وذلك بالإخلاص في عبادة الله طلبًا لرضوانه ينطق بذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾

أما الرابعة فهي: البذل والعطاء بسخاء، وذلك بإعطاء حق الله في الزكاة وغيرها بالتقرب بكل أنواع القربات مع الخوف أن لا يقبل الله منهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾

فالخوف يبعث على الاجتهاد لإزالة أسبابه مع الحذر من التقصير والإخلال، روى الترمذي أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: **(سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات)**[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ١٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون، ٥/ ٣٠٥، رقم ٣٠٩٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٠٤، رقم١٦٢.

يقول الفخر الرازي: وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي، والصفة الثانية دلت على ترك الرياء في الطاعات، والصفة الثالثة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين، رزقنا الله سبحانه الوصول إليها. آمين[(١)].

والإمام القرطبي له ملحظ جدير بي أن أنقله يخص أدعياء ظنوا أنفسهم أنهم من الوجلين الخائفين وهم واهمون في حالهم.

يقول الإمام القرطبي عن الخوف في الآية: فهذه حالة العارفين بالله الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهال العوام والمبتدعة الطغام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذي يشبه نهاق الحمير.

فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساوي حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا حال أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك كانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله، والبكاء خوفًا من الله، وكذلك وصف الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه، ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٣].

فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، فمن كان مستنًا فليستن، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسهم حالًا، والجنون فنون[(٢)].

مسألة يوهم ظاهرها الاختلاف والتناقض هي:

أنه جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] جاء في هذه الآية الوصف للمؤمنين بالاطمئنان وهو السكون والراحة، وجاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

الوصف بالوجل والخوف، وهو أيضًا للمؤمنين، فهل هناك اختلاف وتناقض؟

الجواب: إن المؤمنين إذا علموا ما أعده الله لهم في الجنة -دار الكرامة- مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر -إذا علموا ذلك- استبشروا وفرحوا واطمأنوا وتهيؤوا للنعيم المقيم، وعند هذا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣ / ١٠٧-١٠٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٦، ١٢/ ٥٩.

تكون الطمأنينة والسكينة.

وعلى المقابل: إذا علموا ما أعده الله للعاصين والظالمين في النار، التي ترمي بشرر كالقصر، وفيها من أصناف الإهانة ما فيها: المهل، والصديد، والمقامع من حديد، والتميز من الغيظ، والطمع في المزيد حتى يقول الله لها: هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ فهي ممزوجة بغضب الجبار، أعاذنا الله منها.

إذا علم المؤمن ذلك خاف واقشعر واضطرب والتجأ إلى جناب الرحمن الرحيم ليقيه الشر والعذاب، وهنا يكون الوجل، والمؤمن الذي يحمل بين جنبيه قلبًا يطمع في رحمة الله ويخشى عذابه هو مؤمن تحققت فيه غاية أوصاف المؤمنين المتقين.

وقد جمع الله عز وجل هذه الأوصاف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر:٢٣].

الإنابة:

من صفات القلوب السليمة «الإنابة» وهي كما يقول الراغب: «النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، يقال: ناب نوبًا ونوبة، وسميت النحل نوبًا لرجوعها إلى مقارها، والإنابة إلى الله تعالى: الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل[1].

ووصف القلب بالإنابة التي هي الرجوع إلى الله تعالى؛ لأن الاعتبار بما ثبت منها في القلب[2].

يقول الفخر: القلب المنيب هو القلب الخالي من الشرك، ومن سلم قلبه من الشرك ترك غير الله، ورجع إلى الله وحده فكان منيبًا. ومن أناب إلى الله بريء من الشرك فكان سليمًا[3].

ولم تقترن الإنابة بالقلب في الاستعمال القرآني إلا مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق:٣١-٣٣].

والمعنى: وقربت الجنة للمتقين إكرامًا واحتفاءً بهم على سبيل المبالغة، ويقال لهم: هذا الذي ترونه من النعيم هو ما وعده الله لكل أواب رجاع إلى الله، حافظ لعهده، خائف مطيع طاعة متيقن، يعلم أن الله حري بذلك، وجاء هذا الخائف ربه بقلب خاضع خاشع لله مقبل على طاعته مخلص، فلا يشوب توحيده شائبة.

وعلامة القلب المنيب كما يقول أبو بكر

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٨.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٧٧.

الوراق: أن يكون عارفًا لحرمة الله، ومواليًا له، ومتواضعًا لجلاله وتاركًا لهوى نفسه[1].

إذن فالرجوع الدائم لجناب الحق عين الإنابة التي هي صفة عظيمة من صفات القلب السليم.

الخيرية:

من صفات القلب السليم «الخيرية»، والخير: ما يرغب فيه من المستحسنات كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع والخير يقابل به الشر مرة، والضر مرة أخرى، فمن الأول قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [الأنعام: ١٧].

والخير يفسر على وجوه منها الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

قال ابن عباس: إن يعلم الله في قلوبكم إيمانًا وتصديقًا يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم، نزلت في العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا أن يطعموا الناس الذين خرجوا من مكة إلى بدر، وكان قد خرج ومعه عشرون أوقية من ذهب؛ ليطعم بها إذا جاءت نوبته فكانت نوبته يوم الوقعة ببدر، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا فلم يطعم شيئًا وبقيت العشرون أوقية من ذهب معه.

فلما أسر أخذت منه، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: (أما شيءٌ خرجت به لتستعين به علينا فلا نتركه لك). وكان العباس قد فدى أخاه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحرث، فقال العباس: يا محمد تتركني أتكفف قريشًا ما بقيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فأين الذهب الذي دفعته لأم الفضل وقت خروجك من مكة به وقلت لها: إني لا أدرى ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهذا المال لك ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم، يعنب بين بنيه). فقال العباس: وما يدريك يا ابن أخي؟ قال: (أخبرني به ربي). فقال العباس: أنا أشهد أنك صادق وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبده ورسوله، فإني أعطيتها إياه في سواد الليل، ولم يطلع عليه أحد إلا الله، وأمر ابني أخيه عقيلًا ونوفل بن الحرث فأسلما، فذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم﴾ يعني: الذين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢١.

أسرتموهم وأخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يعني: إيمانًا وتصديقًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ يعني: من الفداء، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعني: ما سلف منكم قبل الإيمان ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: لمن آمن وتاب من كفره ومعاصيه، رحيم بأهل طاعته.

قال العباس: فأبدلني الله خيرًا مما أخذ مني عشرين عبدًا كلهم تاجر يضرب بمال كثير، أدناهم يضرب بعشرين ألفًا مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عز وجل[(١)].

الطهر:

الطهارة في الأصل: الوضاءة والنظافة. يقال من ذلك: تطهر يتطهر فهو متطهرٌ ومطهر، والطهور: الماء، ويقال: فلان طاهر الثياب إذا كان نقيا من الدنس والوسخ.

وقد ذكر أهل التفسير أن الطهارة في القرآن على ثلاثة عشر وجها:

منها ما يتعلق «بطهارة القلب من الريبة.

ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة:٢٣٢]يريد أطهر لقلب الرجل والمرأة من الريبة. وفي الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب:٥٣].

أي: وإذا سألتم نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة من أواني البيت ونحوها فاسألوهن من وراء ستر؛ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الريبة والدنس؛ فالرؤية سبب الفتنة؛ لأن العين روزنة القلب، أي: موصل صورة الأشياء إلى القلب. فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر، ومن هنا كان فرض الحجاب، فالإسلام حريص على تجنيب أبنائه مخاطر الاختلاط إبعادًا لهم عن الريبة والتهمة، وذلك أحسن للحال، وأحصن للنفس[(٢)].

وحيث إن الآية السابقة قد احتوت على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٢٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٦.

مطهرات القلوب؛ تعليمًا للمسلمين؛ وتبيينًا للموحدين؛ فإن آية سورة المائدة تبرز أوصاف قوم جنحوا إلى النفاق، واستقر في قلوبهم فكتب الله عليهم عدم طهارة القلب.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: ٤١].

فالإشارة في ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفساد، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، أي: من رجس الكفر وخبث الضلالة لانهماكهم فيهما، وإصرارهم عليهما، وإعراضهم عن صرف اختيارهم إلى تحصيل الهداية بالكلية، كما ينبئ عنه وصفهم بالمسارعة في الكفر أولًا، وشرح فنون ضلالهم آخرًا.

والجملة استئنافية مبينة لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم، وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء[1].

يقول ابن القيم: فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق، وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله»[2].

فالقلب الطاهر ـ لكمال حياته ونوره وتخلصه من الأدران والخبائث ـ لا يشبع من القرآن ولا يتغذى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل المريض، لا تلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

وقد دلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على إرادة الله تعالى، وأنه سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق لم يحصل لها طهارة.

ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلابد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في

(١) إغاثة اللهفان، ابن القيم ١/ ٥٥.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٥٨.

الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه.

ولهذا حرم الله سبحانه وتعالى الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين؛ ولهذا يقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

أي: ادخلوها بسبب طيبكم، فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاسته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، والله سبحانه وتعالى بحكمته جعل الدخول عليه موقوفا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر، وكذلك الجنة فيها طهارتان طهارة البدن، وطهارة القلب فطهارة البدن بالماء، وطهارة القلب بالتوبة، فالذي يجتمع له الطهران يصلح للدخول على الله تعالى، والوقوف بين يديه ومناجاته[(١)].

وقد حمل جمهور المفسرين قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ [المدثر: ١-٤].

حملوا الأمر بتطهير الثياب على تطهير القلب، يقول ابن القيم: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق»[(٢)].

إذًا فطهارة القلب من أعظم صفات المدح والثناء، وعدم طهارته من أعظم أسباب الشقاء والازدراء.

الاهتداء:

من صفات القلب السليم: الاهتداء أي: التسليم لله تعالى والرضا بحكمه سبحانه.

والهداية: دلالة بلطف، ومنه الهدية، وخص ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت.

فإن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

قيل: إن ذلك على سبيل التهكم والمبالغة في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١][(٣)].

وقد فسر العلماء هداية القلب على وجوه تختلف اختلاف تنوع فقالوا: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن ١١].

أي: للثبات والاسترجاع عند حلول المصائب، وقد عمد البيضاوي إلى هذا التفسير؛ لأن المؤمن مهتد أصالة، وقال أهل المعاني: يهد قلبه للشكر عند الرخاء،

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ص٦٣-٦٤.

(٢) المصدر السابق ص٦٢.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٨.

والصبر عند البلاء[1].

عن ابن عباس قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[2].

وخلاصة القول: أن هداية القلب تعني: انفساحه ورضاه بكل ما قدره الله عامة، وما ينزل من المكروه خاصة، كالموت والمرض والفقر والقحط، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦].

وبهذه الصفة نتنهي من تناول صفات السلامة في القلب، لنشرع في تناول صفات القلب المريض.

ثانيًا: القلب المريض.

ويتصف هذا القلب المريض بعدة صفات، منها:

١ . القسوة.

من صفات القلوب المريضة القسوة.

والقسوة: غلظ القلب، وأصله مأخوذ من قول القائل: هذا حجر قاسٍ، أي: صلب[3].

وقد وردت هذه الصفة في آيات متعددة من القرآن الكريم مرتبطة بالقلب: مرتان (قست أشد قسوة) في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:٧٤].

وردت هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن مخازي بني إسرائيل ومساويهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ أي: صلبت قلوبكم، فلا يؤثر فيها وعظ ولا تذكير ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد المعجزات الباهرة التي رأيتموها بأم أعينكم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد تنصدع مسببة بذلك مصلحة للناس، أما قلوبكم فلا تلين ولا تتأثر.

والثالثة: في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكدة طردهم الله من رحمته، وجعل قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان.

والرابعة: في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣].

والخطاب في الآية الكريمة للأمم المكذبة الذين لم يلاقوا البلاء بالضراعة لله؛

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٢٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٥٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٧١.

ليرفع ما نزل بهم من بأس، بل لاقوه بالعناد والقسوة والصلابة.

والخامسة: في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الحج: ٥٢-٥٣].

والآيتان تثبتان أن الشيطان يلقي وساوسه أثناء قراءة كتاب الله على لسان كل نبي وكل رسول للصد عن اتباع الوحي، لكن الله يبطل كيد الشيطان ويثبت آياته، وما كان هذا الفعل من الشيطان إلا ليجعله الله اختبارًا للذين في قلوبهم شك ونفاق، ولقساة القلوب من المشركين الضالين.

والسادسة: في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

والآية تتحدث عن بعض مخازي بني إسرائيل التي منها نقض الميثاق والتي تسببت في طرد الله إياهم من رحمته ولعنهم وجعل قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان.

والسابعة: في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

الآية تحمل ترغيبا للمؤمنين على رقة القلب، والخشوع لله تعالى عند سماع وحيه الشريف، والحذر من التشبه باليهود والنصارى، في قسوة قلوبهم وغلظتها وفسقهم.

وقد أرشدنا العلماء إلى علاجٍ لهذا المرض العضال، ومن ذلك ما صوره العلامة الألوسي بقوله: «ولا تنظروا إلى ذنوب العباد كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد، والناس رجلان مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية، ومن أحس بقسوة في قلبه فليهرع إلى ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، يرجع إليه حاله، كما أشار إليه قوله عز وجل: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

فهو تمثيل ذكر استطرادًا لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث؛ للترغيب في الخشوع، والتحذير عن القساوة»[(١)].

(١) روح المعاني، الألوسي ٢٧/ ١٨١.

من آثار القسوة:

١. الاجتراء على تحريف كلام الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

٢. الغش: قرأ حمزة والكسائي: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً﴾ مأخوذ من قولهم: درهم قسي: أي زيف، أي: قلوبهم مغشوشة، ليست خالصة[(١)].

٣. عدم التذلل للخالق، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام:٤٣].

يقول المحقق الألوسي: «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، هذا محمول على التوبيخ والتنديم، وهو يفيد الترك وعدم الوقوع؛ ولذا ظهر الاستدراك والعطف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

والتضرع: التذلل بالتوبة من الكفر، وهو منفي هنا؛ لأن التضرع ناشئ من القلب، فنفيه نفيه.

فكأنه قيل: فما لانت قلوبهم ولكن قست[(٢)].

وهذا ليس بغريب على الكفار ولا على بني إسرائيل من لدن موسى عليه السلام وحتى عصرنا الحاضر، فلا عهد لهم ولا ميثاق ولا ذمة، الخيانة طبعهم، والنفاق صنيعهم، والغدر ديدنهم، والكفر أسهم وأصلهم.

مسألة: ذكر الله سبحانه وتعالى أن اطمئنان القلب لصيق الذكر ورفيقه، فكيف ينتج ذكر الله عز وجل قسوة، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

يجيب العلامة الفخر فيقول: «إن النفس إذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات، شديدة الميل إلى الطبائع البهيمية والأخلاق الذميمة فإن سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورةً.

وتقرير هذا الكلام بالأمثلة: فإن الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل، كنور الشمس يسود وجه القصار، ويبيض ثوبه، وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح، وقد نرى إنسانًا يذكر كلامًا واحدًا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره، وما ذلك إلا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس، ومن اختلاف أحوال تلك النفوس، ولما نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون:١٢] وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وإنسان آخر، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه

---

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٢٧٠.
(٢) روح المعاني ١٧/ ١٧٤.

وسلم إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال كل واحد منهما: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اكتب فهكذا نزلت) فازداد عمر إيمانًا على إيمان، وازداد ذلك الإنسان كفرًا على كفره.

إذا عرفت هذا لم يبعد أيضًا أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية، ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية.

وإذا عرفت هذا فنقول: إن رأس الأدوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله سبحانه وتعالى، فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله سببًا لازدياد مرضها فكان مرض تلك النفوس مرضًا لا يرجى زواله، ولا يتوقع علاجه، وكانت في نهاية الشر والرداءة؛ فلهذا المعنى قال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢][1].

ولا غرابة أليس قد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر:٤٥].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

٢. الريب.

الريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة وهي قلق النفس واضطرابها، والريبة وإن اشتهرت في معنى الشك إلا أن معناها الأصلي قلق النفس واضطرابها إلا أنه عدل عن معناه المصدري واستعمل في معنى الشك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

وفي نظائره لكونه سببا لقلق النفس واضطرابها على طريق إطلاق اسم المسبب وإرادة السبب، والشك وقوف النفس بين شيئين متقابلين بحيث لا ترجح أحدهما على الآخر فتقع في الاضطراب والحيرة، ومن هنا فإنه لا ريب في القرآن صادر ممن آمن به؛ ولذلك نفى الله عز وجل عن المؤمنين الارتياب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات:١٥][2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ١/ ٧٥.

وقد جاء الريب مقترنا بالقلوب في مواضع كلها تخص المنافقين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٥].

هذه الآية الكريمة تتحدث عن المنافقين إذ هم الذين كانوا يستأذنون النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد معه، من غير عذر بينٍ، وهم الذين شكت قلوبهم في حقيقة وحدانية الله، وفي ثوابه أهل طاعته، وعقابه أهل معاصيه فهم في شكهم متحيرون، وفي ظلمة الحيرة مترددون، لا يعرفون حقًا من باطل، فيعملوا على بصيرة.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور:٤٨-٥٠].

في شأن المنافقين بين سبحانه أن من خصالهم الذميمة أنهم إذا دعوا في خصوماتهم إلى ما في كتاب الله وإلى رسوله؛ ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرض لا يقبل حكم الله وحكم رسوله، مع أنه الحق الذي لا شك فيه. ثم يستفهم القرآن استفهاما إنكاريا قائلا: أسبب الإعراض ما في قلوبهم من مرض النفاق، أم شكوا في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟!

الثالث: قوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة:١٠٧-١١٠].

ولنا وقفة مع هذه الآية الكريمة التي بينت حال المنافقين وأظهرت دينهم وديدنهم ـ وهم أهل الريب وأس التشكيك والشك ـ من خلال هذه الفعلة الآثمة التي فعلوها مع نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وسجلها الله عز وجل في قرآنه لنحذرهم، ونعد العدة لفضح مؤامراتهم وعدم تصديقهم أو السير في ركابهم، هذه الفعلة التي فعلوها ببنائهم مسجد الضرار، فقد بناه المنافقون بهدف مضارة المؤمنين وكيدهم ونصرة الكفرة والكافرين.

وهذا الهدف لم يظهروه فلا ننس أنهم منافقون، وليقسمن ما أردنا ببنائه إلا الخير، والله يعلم كذبهم في ذلك، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأن هذا المكان لم يبن إلا ليكون معقلًا للنفاق وأهله، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى ما يتعلق بمسجد قباء، وما على شاكلته من بيوت الله الخالصة له وحده، فيقول: لمسجد أسس على التقوى من بداية أمره أحق أن تقوم فيه؛ لأن فيه رجالًا مؤمنين أطهارًا، والله يحب من كان كذلك، والله يحب المطهرين.

ثم يعقب ذلك باستفهام إنكاري: أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، كمن أسس بنيانه على طرف واد متصدع مشرف على السقوط فسقط به في نار جهنم؟! والله لا يوفق الظالمين إلى الرشاد، لا يزال بنيانهم الذي بنوه ريبة في قلوبهم.

يقول الفخر: المعنى: إن بناء ذلك البنيان صار سببًا لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة لكونه سببًا للريبة؛ ولكونه سببًا للريبة وجوه:

منها: أن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له، وازداد ارتيابهم في نبوته[1].

وحاصل المعنى: لا يزال هدم بنيانهم الذي بنو سببًا للقلق والاضطراب والوجل في القلوب[2].

هذه الريبة تمكنت من قلوبهم، ولن تخرج إلا بعد مفارقة الروح للجسد، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تتصدع قلوبهم فيموتوا.

وذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة:٤٦].

لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين[3].

فالاستثناء في ﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ من أعم الأوقات أو من أعم الأحوال، وما بعد ﴿إِلَّا﴾ في محل النصب على الظرفية، أي: لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت إلا وقت تقطع قلوبهم.

أو في كل حال إلا حال تقطعها، أي: تفرقها وخروجها عن قابلية الإدراك وإضمار الشرك بحيث لا يزول منها ما داموا أحياء إلا إذا انقطعت وفرقت، وحينئذ تخرج منها الريبة وتزول، وهو خارج مخرج التصوير والفرض.

وقيل: المراد بالتقطيع ما هو كائن بالموت من تفرق أجزاء البدن حقيقة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٠٢.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٦٦.

وروي ذلك عن بعض السلف.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن أيوب، قال: كان عكرمة يقرأ: (إلا أن تقطع قلوبهم في القبور)[1].

وقيل: إلا بمعنى إلى، بدليل أنه قرئ بها شاذًا[2].

وهذه الآية تؤكد ثوابت هذا البحث من أن القلب هو محل أمور الإنسان، يقول الفخر: «وارتابت قلوبهم: يدل على أن محل الريب هو القلب فقط، ومتى كان محل الريب هو القلب كان محل المعرفة والإيمان ـ أيضًا ـ هو القلب؛ لأن محل أحد الضدين يجب أن يكون محلًا للضد الآخر؛ ولهذا السبب قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]وإذا كان محل المعرفة والكفر القلب، كان المثاب والمعاقب في الحقيقة هو القلب، والبواقي تكون تبعًا له»[3].

٣. الغل.

من الصفات المذمومة التي تمرض القلب وتجعله ذا علة «الغل».

الغل بالكسر مصدر غل يغل بمعنى غش وحقد، والغين واللام أصلٌ صحيحٌ يدل على تخلل شيء، وثبات شيء، كالشيء يغرز. من ذلك قول العرب، غللت الشيء في الشيء إذا أثبته فيه، كأنك غرزته، ومن الباب الغل، وهو الضغن ينغل في الصدر[4].

وقيد القرطبي الغل بالكمون في الصدر حيث قال: «الغل: الحقد الكامن في الصدر»[5].

وهو العداوة، وغل يغل: إذا خان، وأغل: أي: صار ذا أغلال، أي: خيانة[6].

وفي استعمال القرآن الكريم جاء الغل مرتبطا بالقلب صراحة في موضع واحد هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر:٩-١٠].

وقد بين المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية بعضًا من سجايا الأنصار وأخلاقهم، فيقول عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: اتخذوا المدينة منزلًا وسكنًا، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه من قبل كثير من المهاجرين يحبون من هاجر إليهم فيمدونهم

(١) روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٤.
(٢) انظر: حاشية الجمل ٣/ ٣٢٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٨٠.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٣٧٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٢٢]
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٣.

بالأموال وينزلونهم منازلهم ويحتفون بهم أيما احتفاء، وفوق هذا كله لا يجدون حزازة و لا غيظًا مما أعطى المهاجرون من الغنيمة دونهم، ويفضلون غيرهم بالمال وغيره، ولو كانوا في غاية الاحتياج إليه، ومن حماه الله من البخل والجشع والطمع فأولئك هم الموفقون في الدنيا، المفلحون في الآخرة، والذين جاؤوا من بعدهم وهم التابعون لهم بإحسان في كل زمان ومكان يدعون ربهم قائلين: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا المؤمنين الذين سبقونا بالإيمان بك، ولا تجعل في قلوبنا بغضًا ولا حسدًا لأحد من المؤمنين الموحدين، ربنا إنك رؤوف رحيم فاستجب وتقبل منا يا ربنا.

وهاتان الآيتان بفضل الله تعالى استوعبتا جميع شرائح المؤمنين في الدنيا.

يقول الفخر الرازي رحمه الله تعالى: «اعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار أو الذين جاؤوا من بعدهم، وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين -وهم المهاجرون والأنصار- بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجًا من جملة أقسام المؤمنين حسب نص الآية»[(١)].

وفي الآية ذم للغل إذا كان على أحد من المؤمنين، وحث على الدعاء للصحابة، وتصفية القلوب من بغض أحد منهم.

سمع رجل وهو يتناول بعض المهاجرين، فدعي فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر:٨] الآية.

ثم قيل له: هؤلاء المهاجرون أفمنهم أنت ؟ قال: لا، ثم قرأ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الآية. ثم قال أفمن هؤلاء أنت؟ قال: أرجو. فرد عليه: لا والله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء، فكان أعظم ما تميز به الصحابة رضوان الله عليهم خلو قلوبهم من الغل.

وخلو القلب من الغل كان سببًا في أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حاروا في رجل وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة، وما كانت فيه ميزة أعظم من أنه يبيت وليس في قلبه غل ولا حقد ولا حسد لأحد من المسلمين.

(فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ـ في أيام ثلاثة ـ (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلع فيها رجل من الأنصار، فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص ثلاث ليال مستكشفًا حاله، فلم ير له كثير عمل، فأخبره الخبر، فقال له: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي غلًا لأحد من المسلمين، ولا أحسده على

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٨٩.

خير أعطاه الله تعالى إياه.

فقال له عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق.

وفي رواية أنه قال: لو كانت الدنيا لي فأخذت مني لم أحزن عليها، ولو أعطيتها لم أفرح بها، وأبيت وليس في قلبي غل على أحد.

فقال عبد الله: لكني أقوم الليل وأصوم النهار، ولو وهبت لي شاة لفرحت بها، ولو ذهبت لحزنت عليها، والله لقد فضلك الله تعالى علينا فضلًا بينًا) (١).

وبعـد:

فالغل من الأمراض الفتاكة بالقلوب، وعلاجه القناعة بقسم الله للعبد، وعدم التطلع إلى الغير؛ لأن ذلك يورث القلب همًا، والهم ينتج حقدًا وحسدًا، ولا يجوز لمسلم أن يحمل في صدره هذا الداء إلا في حالة واحدة، ويكون عين الداء أصل الدواء، هذه الحالة تكون عندما يوجه الحقد والغيظ والغل لأعداء الإسلام والمسلمين، لا من المسلم ضد أخيه المسلم.

٤ . الغلظة.

من صفات القلوب المريضة: الغلظة.

الغلظة ضد الرقة، يقال: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصله يستعمل في الأجسام، لكن قد يستعار للمعاني، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] أي: خشونة أو قسوة (٢).

وأحسن ما قيل في الغلظة ما قاله القرطبي: «وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه، وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة.

وقد وردت هذه المادة في آي القرآن الكريم، من ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

هذه الآية الكريمة وردت في معرض الحديث عن غزوة أحد، وذلك في سورة آل عمران، هذه الغزوة التي أصيب فيها المسلمون بمصيبة عدم النصر؛ وذلك لأمور متعددة يعلمها الله عز وجل منها عدم تطبيق الصحابة رضوان الله عليهم أوامر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان حاله صلى الله عليه وسلم بين العقاب والعتاب للمخالفين، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: فبسبب رحمة من الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ١٦٦، رقم ٢٥٦.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٤.

أودعها قلبك يا محمد صلى الله عليه وسلم فألنت جانبك لأصحابك مع مخالفتهم، ولو كنت جافي الطبع، قاسي القلب لتفرقوا عنك، ونفروا منك، فاعف عنهم، واصفح واطلب المغفرة لهم، وأعد إليهم ثقتهم بالله، ثم بأنفسهم وذلك بمشورتك إياهم في الأمر، فإذا عزمت وصممت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين عليه، والآية يحمل مضمونها نفيًا صريحًا لكل معايب الأخلاق عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنها الفظاظة والغلظة كما بين عبد الله ابن عمرو في حديث البخاري في وصف النبي صلى الله عليه وسلم من أنه (ليس بفظٍ ولا غليظٍ ولا سخابٍ في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر)[1].

الفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولًا وفعلًا.

والله سبحانه وتعالى منع نبيه صلى الله عليه وسلم من الغلظة، وأمره بالغلظة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم:٩].

فهاهنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح:٢٩].

وتحقيق القول فيه: أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة وسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة وأخرى بالنهي عنه إنما كان لأجل أن نتباعد عن الإفراط والتفريط فيبقى الأمر وسطا وكذلك جعلناكم أمة وسطًا[2].

والمراد بالوسطية العدل باستعمال الرأفة والرحمة من المؤمنين، والغلظة والشدة مع الكافرين لا سيما في الجهاد. إذن فالغلظة من أمراض القلوب التي يجب على المؤمن أن يتنزه عنها.

٥. اللهو.

من الصفات الممرضة للقلب: اللهو.

واللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه. يقال: لهوت بكذا، ولهيت عن كذا: اشتغلت عنه بلهو قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦].

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤].

ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو. قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء:١٧].

وهو مأخوذ من قول العرب، لهيت عن ذكر الشيء إذا تركته وسلوت عنه، ألهى لهيًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا)، الفتح ٨/ ٤٧٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٦٦.

ولهيانًا[1].

فاللهو: سهو وإعراض وتشاغل وذهول وغفلة عن الحق، وقد جاء اللهو مقترنا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ③﴾ [الأنبياء:١-٣].

مطلع سورة الأنبياء يحمل تخويفًا وترهيبًا وإنذارًا، تحسبًا لقرب وقت حساب الناس على أعمالهم، وهم مستغرقون في شهواتهم غافلون عن اليوم الذي تشيب له النواصي.

وغفلتهم وإعراضهم لكونهم لا يعبؤون بالقرآن، فما يأتيهم من شيء من القرآن متجدد النزول فيه عظة لهم وتذكير إلا استمعوه وهم يلعبون استهزاءًا ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾والمعنى: أنهم وإن فطنوا فهم في قلة جدوى فطنتهم كأنهم لم يفطنوا أصلًا، وثبتوا على رأس غفلتهم وسهوهم وذهولهم عن التأمل والتبصر بقلوبهم[2].

فاللهو والتشاغل عن ذكر الله من صفات القلوب المريضة التي تحول بين القلب والجد، وإن كنا نرى اللهو في الجوارح، إلا أنه في الحقيقة لو لم يله القلب لما لهى عضو من أعضاء الجسد، أليس القلب رئيسه وسيده المطاع.

٦. الزيغ.

ورد الزيغ في القرآن العظيم في آيات متعددة بلغت ثمانيا منها أربعة متصلة بالقلب، ثنتان منها في سورة آل عمران هما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ⑦ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ⑧﴾ [آل عمران:٧-٨].

والثالثة في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑰١١﴾ [التوبة:١١٧].

والرابعة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ⑤﴾ [الصف:٥].

(١) انظر المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٤٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٥٦٢.

ومعنى الزيغ: الميل عن الاستقامة، والتزايغ: التمايل، ورجل زائغ وقوم زاغة وزائغون[1].

وعلى ذلك فالزيغ إذا أضيف إلى القلوب كان معناه ابتعادها عن الاستقامة، وابتعادها عن الاستقامة يعني: جنوحها إلى الضلال، وقد ورد دعاء المؤمنين ألا يميل سبحانه قلوبهم إلى الباطل بعد أن هداهم للإيمان الحق في قوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨].

ومعني ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: امنحنا من فضلك وكرمك رحمة تثبتنا بها على دينك الحق، إنك أنت الوهاب المتفضل على عبادك بالعطايا والمنح.

وهذا الدعاء[2] يحتمل أن يكون من تمام مقالة الراسخين، ويحتمل أن يكون على معنى التعليم، أي: قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه بعد إذ هديتنا إلى معالم الحق من التفويض في المتشابه أو الإيمان بالقسمين أو التأويل الصحيح.

يقول الألوسي: ﴿لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تضلنا بعد الهداية؛ لأن زيغ القلوب في مقابلة الهداية، ومقابل الهداية الإضلال، وصحة نسبة ذلك إلى الله تعالى مذهب أهل السنة في أفعال العباد الظاهرة.

ومذهب أهل السنة: أن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان، وصالح لأن يميل إلى الكفر، ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يحدثها الله تعالى، فإن كانت تلك الداعية داعية الكفر فهي الخذلان والإزاغة والصد والختم والطبع والرين والقسوة والوقر والكنان، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن.

وإن كانت تلك الداعية داعية الإيمان فهي التوفيق، والرشاد، والهداية، والتسديد، والتثبيت، والعصمة، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن الكريم.

وأخرج الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء، قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقيني قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. فيجلس نتذكر الله تعالى على ما يشاء، ثم قال: يا عويمر هذه مجالس الإيمان، إن مثل الإيمان ومثلك كمثل قميصك، بينا أنت قد نزعته إذ لبسته، وبينا أنت قد لبسته إذ نزعته، يا عويمر للقلب أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا[3].

والإزاغة عقوبة ربانية لكل من اجترأ على الله عز وجل. يقول القرطبي: «هذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢١٧.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٩٣.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٩٠.

وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران»[(١)].

ومن عدله سبحانه وإحسانه أن رتب عقابه بالإزاغة على إجرام العبد في حق نفسه بالزيغ ابتداءً. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

أي: فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به عليه الصلاة والسلام واستمروا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو العمى والضلال[(٢)].

فهم أولًا مالوا عن الحق فكان المترتب عليه إمالة الله لقلوبهم عن الهدى.

وقيل: فلما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعة الرب خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم[(٣)].

وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى[(٤)].

يقول العلامة الفخر: «اعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغي مقدم على تنويره بما ينبغي، فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولًا أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل والعقائد الفاسدة، ثم إنهم ابتغوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضائهم بزينة الطاعة[(٥)].

ثالثًا: القلب الميت.

ويتصف هذا القلب المريض بعدة صفات، منها:

١ . العمى.

من أمراض القلوب العمى، والعمى كما يقول الراغب: يقال في افتقاد البصر والبصيرة، ويقال في الأول: أعمى، وفي الثاني: أعمى وعمٍ، فمن الأول: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ [عبس:٢].

ومن الثاني: ما ورد من ذم العمى في القرآن، نحو قوله سبحانه وتعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة:١٨].

وقوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة:٧١].

بل لم يعد افتقاد البصر في جنب افتقاد البصيرة عمى، وجمع أعمى: عميٌ وعميان، وهو يحتمل لعمى البصر والبصيرة معًا[(٦)].

وعند ابن فارس: «العين والميم والحرف

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٣.
والمقصود بالآية في كلام القرطبي، آل عمران رقم ٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨/ ٨٥.
(٣) المصدر السابق ١٨/ ٨٢.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٣١٣.
(٥) المصدر السابق ٧/ ١٩٦.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٨.

المعتل أصل واحد يدل على ستر وتغطية[1].

وقد ورد العمى مقترنا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

يخاطب المولى تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أهل مكة، وكل من على شاكلتهم، فيقول: أفلم يسيروا: أي: يسافروا ويرتحلوا ويسيحوا في الأرض؛ ليشاهدوا ما حل بالكافرين من هلاك ودمار فيعتبروا بهم وبما حل بديارهم، وهلا عقلوا ما يجب أن يعقل من الإيمان والتوحيد فتكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ الزاجرة، فليس العمى على الحقيقة عمى البصر، ولكن العمى عمى البصيرة. فكم من مبصر حسيًا كزرقاء اليمامة [2] حدة في الإبصار، ولكنه أعمى في ذات الوقت فلا يرى الحق فيهتدي ولا الباطل فيجتنب.

ويعبر الإمام الغزالي بعباراته المتفردة عن العمى فيقول: «المعاصي دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب، ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبًا عن الله.

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب، وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين، ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا، ويصير مقصور الهم عليها، فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن، ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]»[3]

أقوال العلماء في عمى القلب، أعاذنا الله منه.

يقول المحقق الألوسي أثناء تفسيره آية الحج السالفة: «لا يعتد بعمى الأبصار، وإنما يعتد بعمى القلوب، فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل ما أبهم من عدم فقه القلب، وأنه العمى الذي لا عمى بعده، بل لا عمى إلا هو.

أو المعنى: أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها، وإنما العمى بقلوبهم، فكأنه قيل: أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بإبصار عيونهم، وهي الآفة التي كل آفة دونها، فكأنه يحثهم على إزالة المرض،

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٣٣.

(٢) كانت امرأة عربية حادة البصر تنظر إلى مسافة بعيدة على غير قياس، فكانت مضرب المثل في قوة الإبصار.
انظر: خزانة الأدب ٢/ ٣١٩.

(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ١٢.

وينعي عليهم تقاعدهم عنها»[1].

قال قتادة: البصر الناظر جعل بلغة ومنفعة، والبصر النافع في القلب.

وقال مجاهد: لكل عين أربع أعين [يعني لكل إنسان أربع أعين] عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئًا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئًا.

نتابع الكلام حول قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾[الإسراء:٧٢].

سبق تفسير هذه الآية بما قاله الإمام القرطبي «من أن من كان في هذه الدنيا أعمى بقلبه عن الإسلام وإبصار الحق فهو في الآخرة في النار، وهذا عين الإنصاف؛ لأنه لا ذنب للأعمى فيما حل به.

قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية فقال: اقرؤوا ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:٦٦-٧٠].

قال ابن عباس رضي الله عنه: من كان في هذه النعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يعاين أعمى وأضل سبيلًا.

قال الحسن: من كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله البالغة بعثه الله يوم القيامة أعمى، كما قال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

وقيل: فهو في الآخرة أعمى: أي: أشد عمى؛ لأنه من عمى القلب، ولا يقال مثله في عمى العين»[2].

بقيت فائدة تخص ذكر الصدور وكونها مكان القلوب قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ومعلوم أن القلب مكانه الصدر بداهة، فما الفائدة المترتبة على ذكر ﴿ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾؟

والجواب على ذلك يكفينيه جار الله الزمخشري طيب الله ثراه، فيقول:

«الذي قد تعورف عليه واعتقد أن العمى

(١) روح المعاني، الألوسي ١٧/ ١٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٩٨.

على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب استعارة، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الإبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف؛ ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما يقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه وتثبيت؛ لأن محل المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة ولا سهوًا مني ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمدًا»[1].

إذن فذكر الصدر جاء على سبيل التأكيد وزيادة التعيين والتعريف، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ [آل عمران:١٦٧].

وقولك: «نظرت بعيني رأسي».

نخلص إلى حقيقة الحقائق، وهي أن العمى على سبيل الحقيقة الشرعية هو في القلب، ويكون حسيًا في العين، ولكن لا أثر له مع نور القلب، أعاذنا الله من العمى والعمه، ونسأله أن ينور بصائرنا بنوره.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧.

٢ . الران.

مما يميت القلب ـ والعياذ بالله ـ تغشيه بالران، وللإمام الفخر الرازي تفصيلات تخص معنى الران ذكرها من خلال أهل اللغة وأهل التفسير فيقول: «ولأهل اللغة في تفسير لفظة الرين وجوه، ولأهل التفسير وجوه أخر.

أما أهل اللغة فقال أبو عبيدة: ران على قلوبهم: غلب عليها، والخمر ترين على عقل السكران، والموت يرين على الميت فيذهب به.

قال الليث: ران النعاس والخمر في الرأس إذا رسخ فيه، وهو يرين رينًا وريونًا.

قال أبو زيد: يقال: رين بالرجل يران به رينًا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه.

قال أبو معاذ النحوي: الرين: أن يسود القلب من الذنوب، وهو كالصدأ يغشى القلب، ومثله العينين.

والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين.

والإقفال: أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب.

وأما أهل التفسير فلهم وجوه: منها: أنه هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه، فيموت القلب.

ومنها أن القلب كالكف فإذا أذنب الذنب انقبض، وإذا أذنب ذنبًا آخر انقبض وضم

أخرى ـ حتى ضم أصابعه كلها ـ ثم يطبع عليه، وهو الرين.

والإنسان إذا واظب على الإتيان ببعض أنواع الذنوب حصلت في قلبه ملكة نفسانية على الإتيان بذلك الذنب، ولا معنى للذنب إلا ما يشغلك بغير الله، وكل ما يشغلك بغير الله فهو ظلمة فإذن الذنوب كلها ظلمات وسواد، ولكل واحد من الأعمال السالفة التي أورث مجموعها حصول تلك الملكة أثرٌ في حصولها، فذلك هو المراد من قولهم: كلما أذنب الإنسان حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب، ولما كانت مراتب الملكات في الشدة والضعف مختلفة لا جرم كانت مراتب هذا السواد والظلمة مختلفة، فبعضها يكون رينًا، وبعضها يكون طبعًا، وبعضها إقفالًا.

قال القاضي الباقلاني: ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالًا بعد حال متجرئين عليه، وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع فاستمروا وصعب الأمر عليهم؛ ولذلك بين أن علة الرين لا تمنع من الإقلاع والتوبة[1].

ولقد فسرت السنة النبوية المطهرة الران بالسواد الذي يعلو القلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾)[2].

إذن فالران ظلمة وسواد تحول بين القلب ومعرفة الحق أو الاعتراف به. نسأل الله العافية.

والران في الاستعمال القرآني جاء في معرض الحديث عن الفجار في قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:٧-١٤].

تتحدث هذه الآيات عن الأشقياء الفجار، وتصور جزاءهم في الآخرة، فيقول الله عز وجل ردعًا وزجرًا للمطففين: ﴿كَلَّا﴾ وهي للردع والزجر لهم عن غفلتهم عن البعث والجزاء، إن كتاب الأشقياء لفي مكان ضيق سحيق ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ وهو مأخوذ

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٩٥-٩٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة ويل للمطففين، ٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٢، رقم ١٦٧٠.

من السجن، وهو الضيق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وهل تعلم ما هو سجين ؟ استفهام في غاية التهويل والتعظيم. ثم يجيب سبحانه وتعالى ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ومكتوب لا ينسى ولا يمحى. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاك ودمار للمكذبين الذين يكذبون بيوم الجزاء والحساب؛ لأنه لا يكذب به إلا كل متجاوز للحد في الكفر والضلال مبالغ في العصيان والطغيان.

هذا المكذب إذا تتلى عليه آيات القرآن قال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: حكايات وأقاصيص وخرافات الأوائل سطروها وحبروها في كتبهم، ثم يأتي الردع لهذا المعتدي الأثيم عن قوله المتجرئ فيه على ربه تكذيبًا له: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بيان ما أدى بهم إلى التفوه بتلك المقالة الباطلة: أي: ليس في آياتنا ما يصح أن يقال في شأنها مثل تلك المقالة الباطلة، بل ركب قلوبهم وغلب عليها ما استمروا على اكتسابه من الكفر والمعاصي حتى صار كالصدأ في المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفة الحق؛ فلذلك قالوا ما قالوا[1].

نسأل الله معافاته.

٣. الكفر.

من أخطر أسباب موت القلب الكفر.

وقد وردت مادة الكفر في القرآن العزيز مرتبطة بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة:٩٣].

هذه آية من آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن بني إسرائيل وفظائعهم الفاضحة، فقد أخذ الله عليهم العهد المؤكد ـ عن طريق رسله وأنبيائه ـ على العمل بما في التوراة، وقد تهددهم الله تعالى برفع الطور فوقهم فعلًا، قائلًا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وحزم، وإلا طرحنا الجبل فوقكم ﴿وَاسْمَعُوا﴾ سماع طاعة وقبول، فكان جوابهم: سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: خالط حب العجل قلوبهم حتى امتزج بدمائهم، ودخل السويداء، كما يدخل الصبغ في الثوب، والماء في العود الأخضر، كل ذلك بسبب ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما تزعمون[2].

يقول الألوسي: «وذكر القلوب لبيان مكان الإشراب، وذكر المحل المتعين يفيد المبالغة في الإثبات.

(١) انظر: روح المعاني الألوسي ٣٠/ ٧٢.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٧٩.

وأشربوا من الشراب، ومن عادة العرب أنهم إذا عبروا عن مخامرة حب أو بغض استعاروا له اسم الشراب، إذ هو أبلغ منساغ في البدن؛ ولذا قال الأطباء: الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن[1].

وقريب منه «السلك» في الآية الأخرى، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر: ١٢].

والسلك: إدخال الشيء في الشيء، كإدخال الخيط في المخيط.

والمعنى: كذلك نسلكه -أي: الضلال والكفر والاستهزاء والشرك- في قلوب المجرمين من قومك، قاله الحسن وقتادة، أو نسلك القرآن في قلوبهم فيكذبون به.

وأعظم أنواع الكفر: جحود الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، وهو ما ينطبق على الآية التي نحن بصددها، وعلى كلٍ فالكفر من أحط أمراض القلوب، فليس بعد الكفر ذنب، أعاذنا الله والمؤمنين منه[2].

٤ . النفاق.

من الأمراض التى تقضي على القلب فتؤدي به إلى الموت: النفاق، والنفاق يطلق على الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

أي: الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرًّا من الكافرين. فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥][3].

وقد وصف النفاق في الاستعمال القرآني بالمرض، والمرض يعرف بأنه: حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل، وقد يطلق المرض لغة على أثره، وهو الألم، وعلى ضعف القلب وفتوره، وعلى كل ما يعرض للمرء مما يخل بكمال نفسه، كالبغضاء، والغفلة، والغل، والحسد، وسوء الاعتقاد والهوى، وغير ذلك من موانع الكمالات المشابهة لاختلال البدن المانع عن الملاذ، والمؤدية إلى الهلاك الروحاني، الذي هو أعظم من الهلاك الجسماني.

والمنقول عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وسائر السلف الصالح: حمل المرض في الآية على ما يخل بكمال النفس، ولا شك أن قلوب المنافقين كانت ملأى من تلك الخبائث التي منعتهم مما منعتهم، وأوصلتهم إلى الدرك الأسفل من النار[4].

(١) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٢٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧١٤.
(٣) المصدر السابق ص٨١٩.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١/ ١٤٩.

فالمرض: إما آفة في الإدراك، كسوء الاعتقاد والكفر، وإما الهيئة الباعثة على ارتكاب الرذائل، كالغل والحسد والبغض، أو المانعة عن اكتساب الفضائل، كالضعف والجبن والخور.

وكل ذلك كائن موجود في المنافقين، حيث تأصل فيهم سوء الاعتقاد الذي أدى إلى ارتكاب الرذائل، الذي يؤدي بدوره إلى المنع من اكتساب الفضائل، ففساد اعتقادهم أدى بهم إلى الحقد والغل والحسد لدرجة أن صدورهم كانت تغلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين غلًّا وحنقًا، فهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران:١٢٠].

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨].

ومن أفدح أنواع الأمراض وأخطرها مرض النفاق، وقد جاء في الاستعمال القرآني مقترنا بالقلب في آيات منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⁽٨⁾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ⁽٩⁾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ⁽١٠⁾﴾ [البقرة:٨-١٠].

هذه الآيات من سورة البقرة جاءت عقب ذكر صنفين من الناس.

يقول القاضي البيضاوي: «لما افتتح الله تعالى بشرح حال الكتاب، وساق بيانه، ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهرًا وباطنًا، وثلث بالمذبذبين بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلًا للتقسيم، وهم أخبث الكفرة، وأبغضهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعًا واستهزاءً؛ ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بأفعالهم، وسجل عليهم عمههم وطغيانهم، وضرب لهم الأمثال، وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]»[(١)].

فوائد مهمة متعلقة بالنفاق:

الفائدة الأولى: المرض جاء منونا في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة:١٠].

فما الحكمة من ذلك ؟ قلت: قال المحقق الألوسي: «جاءت كلمة ﴿مَّرَضٌ﴾ بالتنوين: للدلالة على أنه نوع غير ما يتعارفه الناس من الأمراض»[(٢)] وقد زاد الله مرضى القلوب بآفة النفاق مرضا ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ فما سبب هذه الزيادة

(١) أنوار التنزيل ١/ ٤٦١.
(٢) روح المعاني ١/ ١٤٩.

؟ قلت: الجواب: أنه كلما نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعوه كفروا به فازدادوا كفرًا إلى كفرهم، أو كلما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ازدادوا حسدًا وغلًا وبغضًا، وازدادت قلوبهم ضعفًا وخورًا، وهذا زيادة في المرض[(١)].

الفائدة الثانية: معلوم أن مرض النفاق مجمع على ظهوره بالمدينة، فكيف تناوله القرآن المكي ؟

قال سبحانه وتعالى في سورة المدثر المكية: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

والجواب: أن الله تعالى أخبر في هذه الآية المكية عما سيقع من المنافقين، وعلى هذا نعتبر هذه الآية معجزة؛ لأنه إخبار عن غيب سيقع، وقد وقع على وفق الخبر، فيكون معجزًا، ويجوز أن يراد بالمرض: الشك؛ لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب.[(٢)] ويمكن أن يكون المراد بالمرض ما هو مترتب على عداوة الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم من كراهية وغل وحقد وحسد وضغينة وحبٌّ، لأن يغلب فكل هذه أمراض لا مانع من وجودها في القلب مع الكفر.

الفائدة الثالثة: كثيرًا ما يفسر النفاق بالشك في حين أن آية النور يقول منطوقها: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا﴾ [النور:٥٠] ومعروف أن المرض مرض النفاق، فكيف نوفق بين حمل القرآن للمرض على أنه النفاق ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نفاق، وبين تفسير النفاق بالشك مع وجود هذه الآية الكريمة؟

يقول الألوسي: «هذا ترديد لسبب الإعراض المذكور، فمدار الاستفهام ما يفهم من الكلام كأنه قيل: أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه صلى الله عليه وسلم أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم، أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا في أمر نبوته صلى الله عليه وسلم مع ظهور حقيقتها، أم سببه أنهم يخافون أن يحيف ويجور الله تعالى شأنه عليهم ورسوله صلى الله عليه وسلم والاستفهام إنكاري»[(٣)].

ويقول الرازي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إشارة إلى النفاق ﴿ارْتَابُوا﴾ إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الإسلام في القلب[(٤)].

ففسر المرض بمرض يقوم بأعيانهم، أو المرض: الكفر، والريب: النفاق، أو المرض: الكفر، والريب شيء حدث بعد تقرير الإسلام في القلب.

---

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٢٠٧.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٨/ ١٩٦.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٤/ ٢١.

الفائدة الرابعة: ما معنى ذكر النفاق والمرض في موضع واحد؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب:١٢].

وقال أيضًا: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب:٦٠].

وظاهر العطف أن الذين في قلوبهم مرض قوم لم يكونوا منافقين، فقيل: هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم، وقيل: قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام.

وجوز أن يكون المراد بهم المنافقين أنفسهم، والعطف لتغاير الوصف كقولهم: «إلى الملك القرم وابن الهمام» سواء جعل العطف تفسيريًا، أو فسر مرض القلوب بالإحن والعداوات والشك مما هو غير النفاق، وعلى هذا فهم فريق واحد إلا أن لهم اعتبارات متعددة: المرض، الإرجاف، الارتياب، التردد.

وهذا نظير قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

حيث ذكر أصنافًا عشرة كلهم يوجد في واحد منهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار[١].

خلاصة القول: أن المرض من أعظم آفات القلوب فتكًا بمن تمكن منه، وأكثر ما يفسر بالنفاق والشك والشهوة، وغير ذلك، ولكنه غلب على النفاق نسأل الله معافاته.

(١) انظر: الكشاف الزمخشري ١/ ١٧٦، روح المعاني الألوسي ٢١/ ١٥٨.

سنة الله في اصحاب القلوب

أولًا: سنة الله في أصحاب القلوب السليمة:

تناولنا فيما سبق صفات القلوب في الاستعمال القرآني من حيث السلامة والمرض والموت، ومما لا شك فيه أن القلوب ليست هي الغايات بل أصحابها بنص القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

فالذي يحمل قلبا مخلصا لا شرك فيه ولا شبهة ينتفع به في الآخرة.

من هنا يجدر بنا أن نبين سنة الله وعادته في أصحاب القلوب على اختلاف أوصافها ليعيش المسلم بين الخوف والرجاء، الخوف من هلاك القلب وخسران صاحبه، والرجاء في مزيد من الطاعة ليفوز فوزًا عظيمًا.

وبناء على ما تقدم نستطيع استجلاء سنة الله وعادته مع أصحاب القلوب السليمة، وكونه سبحانه وتعالى يرزقهم من عطاياه الجزيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيهبهم:

- الطمأنينة وسكون النفس وراحة البال.
- ويرزقهم الله عز وجل الخوف منه، فلا يقدمون على معصيته، ولا يجترئون على منكر.
- ويغرس فيهم الرأفة والرحمة والشفقة.
- ويمنحهم الله الطهر والنقاء وصفاء السريرة.
- كما يرزقهم الله الإخبات والخشوع والتذلل لجناب الحق - جل وعلا - ويغرس في قلوبهم الإيمان غرسًا.
- كما يحبوهم الله ألفة، وما أدراك ما الألفة ؟ إنه سمت المسلم وسمته.
- كما يعطيهم الله التقوى والإنابة وكثرة الرجوع إليه سبحانه.
- كذلك الهدى والرشاد، وكفى بهما ظفرًا لصاحبهما.
- كذلك يرزقهم الله القوة في الصدع بالحق، فلا يخافون من مخلوق البتة.
- كذلك يرزقهم الله ليونة وطواعية تجعل صاحب القلب السليم حيًا يتأثر بالمواقف وينفعل بها.
- كذلك الفقه، ونعمة الفهم، وأجزل بهما من عطاء لصاحب القلب السليم المستقيم.

هذه نعم حياتية نستطيع استشفافها من خلال آيات القرآن الكريم التي تقدم ذكرها في صفات القلوب السليمة من هذا البحث.

أما في الآخرة: فكفى صاحب القلب السليم شرفًا وفضلًا أن الله أعد له الجنة، وأعد له فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر، ومن كان جزاؤه الجنة فقد رضي الله عنه، وفاز فوزًا عظيمًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

ولما كان مآل أصحاب القلوب السليمة مفسرًا واضحًا فلا يحتاج إلى مزيد بيان وترغيب، اكتفيت بما ذكرته سابقًا مفصلًا، ولاحقًا مجملًا؛ لأسير على سنن القرآن وهديه، حيث إن الله عز وجل لم يفصل الحلال المباح ولكن فصل ما حرم علينا فحسب؛ لنتوقاه، وفي توقيه خروج من ضيق الحرام والمعصية إلى سعة الحلال الطيب.

ثانيًا: سنة الله في أصحاب القلوب المريضة:

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعاجل من عصاه بالنقمة، بل يمهله لعله يتوب ويتدارك أمره.

قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧﴾ [الأنعام:١٤٧].

وفي الصحيحين: (إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته). ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢] الآية[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٨﴾ [الحج:٤٨] فمن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء:١١٠].

ومن أمن العقاب أساء الأدب وكان جزاؤه ما يستحقه.

ومرضى القلوب إن لم يتداركوا مرضهم فإن سنة الله تعالى فيهم أن يزيد علتهم عللًا، وأمراضهم مرضًا، ويطمس على بصيرتهم بتسليط الرجس، والصرف على قلوبهم مما يفضي إلى هلاكها.

١ . الرجس.

وهو عقاب يصيب به الله تعالى أصحاب القلوب المريضة ليزيدهم به مرضا على مرضهم، وقد اقترن بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ)، رقم ٤٣١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٨٣.

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة ١٢٤-١٢٥].

في حق المنافقين نزلت هذه الآية وما بعدها، والمعنى: فإذا أنزلت سورة من سور القرآن فمن هؤلاء المنافقين من يقول استهزاءً: أيكم زادته هذه إيمانًا، فأما الذين آمنوا فزادتهم تصديقًا على ما فيهم من تصديق، وذلك بزيادة الأدلة والبراهين، وأما الذين في قلوبهم مرض النفاق والشك فزادتهم نفاقًا إلى نفاقهم وكفرًا إلى كفرهم، وماتوا على ذلك.

والقذر هنا في الاعتقاد الفاسد؛ لذا فسر الرجس في الآية بالعقائد الفاسدة الباطلة، أو الأخلاق المذمومة.

فإذا كان الأول كان المعنى: أنهم كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة، فقد انضم مرض عقدي إلى مرض عقدي.

وإن كان الثاني كان المراد أنهم كانوا في الحسد والعداوة واستبطان وجوه المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة[1].

وكفى بالقذر نهاية للقلوب المريضة والعياذ بالله.

٢. الصرف.

الصرف مرض يصيب القلب ليزداد ضلالًا.

وقد اقترن الصرف بالقلوب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧].

والآية تخبر أن المنافقين كانوا إذا أنزلت سورة تفضح النفاق والمنافقين، وهم في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينظر بعضهم إلى بعض مستقرئين حال الجالسين، متحينين الفرصة للهرب والانصراف، فهم لا يطيقون سماع مذمتهم وفضيحتهم، فإذا وجدوا الأمر على ما يريدون انصرفوا وقاموا ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ وهذه جملة دعائية، أي: صرفها عن الهدى والإيمان ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحق ولا يتدبرون.

فالصرف هنا: دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بسبب أنهم قوم لا يفقهون[2].

وهو خذلان وإضلال للمنافقين ومن على شاكلتهم من أصحاب القلوب المريضة.

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٣٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٢٣.

ثالثًا: سنة الله في أصحاب القلوب الميتة:

سنة الله في أصحاب القلوب الميتة أنه سبحانه وتعالى يذيقها من صفات العذاب ما يزيدها عزلة واحتجابًا، حتى أصحابها فمن الإرعاب إلى الطبع إلى الختم إلى القفل و الكنان.

١ . الرعب.

الرعب: أصله التقطيع، من قولهم: رعبت السنام ترعيبًا إذا قطعته مستطيلًا، كأن الخوف يقطع الفؤاد، أو يقطع السرور بضده، ورعب السيل الوادي إذا ملأه، كأن السيل قطع السلوك فيه، أو لأنه انقطع إليه من كل الجهات[(١)].

وقد ورد الإرعاب مقترنا بالقلب كعقوبة لأصحاب القلوب الميتة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال:١٢-١٣].

والمعنى: اذكر يا محمد وقت إيحاء الله للملائكة بقوله: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ثبتوا المؤمنين وقووهم، سأقذف في قلوب الكافرين الخوف والفزع حتى ينهزموا، فاضربوهم على الأعناق واضربوا منهم كل بنان، وهذا في غزوة بدر الكبرى.

والمعنى عليه: سنملأ قلوب المشركين خوفًا ورعبًا، هذا الخوف والرعب يكاد يقطعهم عن الحياة لقسوته.

يقول الفخر الرازي مبينًا وجه الربط بين سابق هذه الآية واللاحق: «وهذا من النعم الجليلة؛ وذلك لأن أمير النفس هو القلب، فلما بين الله سبحانه وتعالى أنه ربط قلوب المؤمنين بمعنى أنه قواها وأزال الخوف عنها، ذكر أنه ألقى الرعب والخوف في قلوب الكافرين، فكان ذلك من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنين»[(٢)].

ومن فضل الله سبحانه وتعالى علينا جعله سبحانه الرعب في قلب كل من لا يسلم وجهه لله.

يقول الفخر: «وظاهر قوله: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران:١٥١].

يقتضي وقوع الرعب في جميع الكفار، فذهب العلماء إلى إجراء هذا العموم على ظاهره؛ لأنه لا أحد يخالف دين الإسلام إلا وفي قلبه ضرب من الرعب من المسلمين،

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٣٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ١٣٩.

إما في الحرب وإما عند المحاجة»[1].

ومن الملاحظ أن الإلقاء في آية آل عمران ﴿سَنُلْقِي﴾ وآية الأنفال ﴿سَأُلْقِي﴾ مفسر بالقذف في سورة الأحزاب، قال تعالى في معرض حديثه سبحانه عن غزوة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٦].

وأصل القذف: الرمي بقوة، أو من بعد، وعليه يكون المعنى: وأنزل الله الرعب في قلوب بني قريظة إنزالًا شديدًا كأنه قد قذف الحجارة فيها، وهذا ما حدث فعلًا عندما قذف الله الرعب في قلوب اليهود حتى أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم وأولادهم للأسر حسبما نطق القرآن العزيز: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦].

وما في سورة الأحزاب هو ما ازداد وضوحًا وبيانًا في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر:٢].

وقد كان هذا الإرعاب لليهود بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، وكان مقتله في ربيع الأول من السنة الثالثة، وكانت غزوة بني النضير في ربيع الأول من السنة الرابعة، وسبب قتله أنه لما رأى ما وقع في غزوة بدر من عز الإسلام والمسلمين ازداد اللعين غيظًا وحسدًا، وكان شاعرًا فصار يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بشعره، وذهب إلى مكة محرضًا قريشًا على حرب المسلمين وحزبهم، فجاؤوا في وقعة أحد، فلما ظهر أمره للنبي صلى الله عليه وسلم أرسل له محمد بن مسلمة ومعه أربعة، وكلهم من الأوس، فقتلوه في حصنه غيلة وخديعة، فألقى الله الرعب في قلوب بني النضير، وخافوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفًا شديدًا، فغزاهم صلى الله عليه وسلم وأمكنه الله منهم.

وكان الإشراك سببًا لإلقاء الرعب وقذفه في قلوبهم، أليس الشرك من موجبات الخذلان، كما أن الإيمان من موجبات التوفيق والنصر ؟![2].

والخلاصة أن الرعب يقذفه الله تعالى غالبا في قلوب أصحاب القلوب الميتة جزاءًا وفاقًا.

(١) المصدر السابق ٩/ ٣٣.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٨/ ٤١.

٢ . الحسرة.

من سنن الله في أصحاب القلوب الميتة أن يجعل الحسرة والندامة صفة لهم تلازمهم، وذلك حين لا ينفع التحسر أو الندم، والحسرة: الغم على ما فاته، والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، أو انحسر قواه من فرط غم، أو أدركه إعياء من تدارك ما فرط منه [(١)].

وقد وردت الحسرة مقترنة بالقلب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران:١٥٦].

معنى الآية: لما كان من طبيعة المنافقين تعيير المؤمنين على جهادهم مع الكفار بقولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ ثم إنه لما ظهر عند بعض المؤمنين فتور وفشل في الجهاد حتى وقع يوم أحد ما وقع، وعفا الله ـ بفضله ـ عنهم، ذكر في هذه الآية ما يدل على النهي عن أن يقول أحد من المؤمنين مثل مقالتهم، فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لمن يريد الخروج إلى الجهاد: لو لم تخرجوا لما متم، وما قتلتم، فإن الله هو المحي والمميت، فمن قدر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدر له الموت لم يبق، وإن لم يجاهد، وهو المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وأيضًا الذي قتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم كان ذلك خيرًا له من أن يموت من غير فائدة.

وهو المراد من قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران:١٥٧] [(٢)].

وذكر القلوب مع أن الحسرة لا تكون إلا فيها لإرادة التمكن والإيذان بعدم الزوال [(٣)].

أو الاهتمام على فائت لم يقدر بلوغه قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٥٦].

وإسناد الفعل إلى الله تعالى ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ له نكتة، وهي كما يقول جار الله الزمخشري رحمه الله: «فإن قلتَ: ما معنى إسناد الفعل إلى الله تعالى؟ قلتُ: معناه: أن الله عز وجل عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة في قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة، فاعتقادهم فعلتهم وما يكون عنده من الغم والحسرة وضيق الصدور فعل الله عز وجل كقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٣٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٩.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٠١.

ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهي، أي: «لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة في قلوبهم؛ لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم مما يغمهم ويغيظهم»[(١)].

فالحسرة والندامة عقوبة لازمة لمن مات قلبه.

٣. الشد.

الشد على القلب عقاب لمن مرض قلبه حتى أجهز عليه فمات.

ومعنى الشد على القلوب: الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان[(٢)].

وقد جاء الشد مقرونًا بالقلب في الاستعمال القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

والمعنى: قال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وكبراء قومه زينة من متاع الدنيا وأنواعًا كثيرة من المال.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾: اللام: للعاقبة، أي: آتيتهم تلك الأموال الكثيرة لتكون عاقبة أمرهم إضلال الناس عن دينك، ومنعهم عن طاعتك وتوحيدك، ربنا أهلك أموالهم وأزلها وبددها.

والطمس: إزالة أثر الشيء بالمحو.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اطبع عليها وقسها حتى لا تنشرح للإيمان فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وهذا دعاء عليهم بلفظ النفي، أي: اللهم فلا يؤمنوا حتى يذوقوا العذاب المؤلم، ويوقنوا به حيث لا ينفعهم ذلك، وإنما دعا عليهم موسى لطغيانهم ولعلمه بالوحي أنهم لن يؤمنوا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ على فرعون وأشراف قومه فكان الغرق لفرعون وقومه، وثبت الله موسى وأخاه هارون[(٣)].

قال الجمل: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أي: اربط على قلوبهم واطبع عليها وقسها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان[(٤)].

وقال ابن عباس: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ امنعهم الإيمان.

وقيل: اطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان[(٥)].

وكل هذه المعاني مختلفة اختلاف تنوع لا اختلاف تعارض بينها.

---

(١) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٧٤.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٥٠.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٩٥.
(٤) الفتوحات ٣/ ٤٠٤-٤٠٥.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٧٤.

٤ . الطبع.

من سنة الله في أصحاب القلوب الميتة أنه سبحانه يطبع عليها.

والطبع: يطلق على تأثير الشيء بنقش الطابع، وعلى الأثر الحاصل عن النقش، يقول الراغب: الطبع: أن تصور الشيء بصورة ما، كطبع السكة وطبع الدراهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش، والأكثرون على تفسيره بالختم مرادًا به المنع.

وجاء الطبع بمعنى: الدنس، ومنه طبع السيف لصدئه ودنسه(١).

وقد سوى بعض العلماء بين الطبع والختم والرين كما يقول الفخر: «الطبع، والختم، والرين، والكنان، والغشاوة، والصد، والمنع، واحد»(٢).

قلت: لعله أراد التوحد من حيث انتظام هذه الأوصاف تحت شيء واحد، ألا وهو العقاب لأصحاب القلوب الميتة، أما من حيث دلالات الألفاظ وما تحمله، فمن المقطوع به أن كل لفظ له دلالته وظلاله التي اختص بها.

وقد ترتب على الطبع عدة آفات، منها:

- عدم السمع: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠].
- عدم الفقه: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨٧].
- عدم العلم: قال سبحانه وتعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٩٣].

وبالتأمل وجدنا أن عدم السمع وعدم الفقه، وعدم العلم يعني: اتباع الهوى والغفلة التامة، والاعتداء على حدود الله، وذلك كله مردود إلى الطبع.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٦].

وقال سبحانه وتعالى في الغافلين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٠٨﴾ [النحل:١٠٨].

وقال سبحانه وتعالى في المعتدين: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

وكل ذلك كائن عند الكافرين الذين استجمعوا كل صفات المهانة والقبح، فقال عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠١].

وقد ورد الطبع في الاستعمال القرآني في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٥٧.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

[الأعراف:١٠٠-١٠١].

يخاطب الله سبحانه وتعالى كفار مكة وكل من يصلح له هذا الخطاب محذرًا بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي: أولم يتضح ويتبين للذين يخلفون الأرض من بعد هلاك أهلها الذين عمروها قبلهم أن لو أردنا إهلاكهم لأهلكناهم بسبب ذنوبهم كما أهلكنا من كان قبلهم، ونطبع: أي نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يقبلون موعظة ولا تذكيرًا لتعطلها.

تلك القرى نقص عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم من أخبارها وما حصل لأهلها من صنوف النكال والعذاب ليعتبر بذلك من يسمع، ولقد جاءتهم رسلهم بالحجج البينات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل؛ لتكذيبهم إياهم قبل مجيئهم بالمعجزات، وبعد مجيئهم بها، فحالهم واحد في العتو والضلال.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد المحكم نطبع على قلوب الكافرين، فلا تكاد تؤثر فيهم النذر والآيات.

أعاذنا الله بفضله وكرمه من الطبع ومن كل ما يقرب إليه من قول أو عمل.

[انظر: الطبع على القلوب: أسباب الطبع - نتائج الطبع على القلوب]

٥ . الختم.

من سنة الله تعالى في أصحاب القلوب الميتة «الختم عليها».

تناول المفسر القرطبي الختم تناولا لغويا فقال: «مصدر ختمت الشيء ختمًا فهو مختوم، ومختم» شدد للمبالغة «ومعناه: التغطية على الشيء بطابع ونحوه للاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء، ومنه: ختم الكتاب والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه، والختم يكون محسوسًا، ويكون معنويًا.

وكما يكون الختم على القلوب الذي يعني: عدم الوعي عن الحق سبحانه مفهوم مخاطباته والفكر في آياته، يكون على السمع: فيفسر بعدم السماع للحق، ويكون على الأبصار: ويفسر بعدم هدايتها للنظر في مخلوقات الله وعجائب مصنوعاته (١).

وسبب الختم استمراء المعاصي والولوغ فيها واستحسانها.

يقول الراغب: أجرى الله العادة أن الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل وارتكاب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٦.

محظور فلا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ [النحل:١٠٨].

إطلاقات الختم:

يطلق الختم على: المنع، والطبع، والحفظ، وبلوغ الآخر.

٤. **المنع**: وذلك بالاستيثاق من الشيء والمنع منه اعتبارًا بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس:٦٥]. أي: نمنع أفواههم من الكلام.

٥. **الطبع**: الحفظ: كقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى:٢٤]. أي: يربط على قلبك ويحفظه وهذا المعنى ليس مرادًا هنا.

٦. **بلوغ الآخر**: ومنه ختمت القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٦]. أي: آخره[1].

وقد فسر الختم في آية الأنعام، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام:٤٦]. بالطبع، فقال: طبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى، أو أزال عقولكم حتى تصيروا كالمجانين، أو المراد بالختم الإماتة، أي: يميت قلوبكم، وكله في معنى الطبع[2].

وقد وردت صفة الختم في آيات متعددة من القرآن الكريم مقترنة بالقلب، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾ [البقرة:٦-٧].

والمعنى: إن الذين جحدوا بآيات الله سبحانه وكذبوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم يتساوى عندهم تحذيرك يا محمد إياهم من عذاب الله وتخويفك وعدم تحذيرك، فهم لا يصدقون بما جئتهم به، فلا تطمع في إيمانهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وقد جاء هذا على سبيل التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له.

ولما حكم سبحانه وتعالى عليهم بأنهم لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يجري مجرى العلة الموجبة له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: طبع على قلوبهم فلا يدخلها نور ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ وغطاء فلا يبصرون الهدى ولا يسمعون ولا يفقهون؛ لذلك يرون الحق فلا

(١) انظر: الوجوه والنظائر ١/ ٣٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٣٩.

يتبعونه، ويسمعونه فلا يعونه، ولهم عذاب شديد لا ينقطع في الآخرة.

وقد شنع الإمام القرطبي على الفرق الضالة التي حادت عن الحق متصرًا لأهل السنة والجماعة فيقول: «في هذه الآية أول دليل على أن الله سبحانه وتعالى خالق الهدى والضلال والكفر والإيمان، فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع، فمن أين لهم بالإيمان ولو جهدوا؟! وقد طبع على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة. فمتى يهتدون؟! أو من يهديهم من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم؟! ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

وكان فعل الله ذلك عدلًا فيمن أضله وخذله، إذ لم يمنعه حقًا وجب له فتزول صفة العدل، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم لا ما وجب لهم؛ ولأن الأمة مجمعة على أن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]»[١].

وبناءً على ما تقدم نستطيع الجزم بأن الختم كما هو للحفظ والمنع يكون للطبع؛ عقوبة لصاحبه الذي أهمل قلبه حتى مات ثم استمرأ ذلك.

أعاذنا الله من الختم وما يقرب إليه من قول وعمل. آمين.

٦ . الكنان.

من سنن الله سبحانه وتعالى في أصحاب القلوب الميتة أنه يضع الأغطية والأغلفة على هذه القلوب فلا تعي شيئًا من الخير البتة.

و الأكنة: الأغطية، جمع كنان، مثل: الأسنة والسنان، يقال كننت الشيء في كنه إذا صنته فيه، وأكننت الشيء أخفيته، والكنانة: معروفة جعبة السهام، والكنان للقلب كالجنة للنبل[٢].

وقد ورد الكنان مقترنا بالقلب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

المعنى: وجعلنا على قلوب الكافرين أغطية وأغلفة؛ لئلا يفهموا القرآن مجازاة لهم على كفرهم، وجعلنا في آذانهم صمما، وإذا وحدت الله وأنت تتلو القرآن فر المشركون من ذلك هربًا من استماع التوحيد.

فكأن الكنان الذي كان على قلوبهم هو في الحقيقة كنان العناد والمكابرة مع تهيؤ نفوسهم للإسلام، وإلا لو غطى الله عليها

(١) المصدر السابق ١/ ١٨٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٥/ ٣٣٩، ٦/ ٤٠٤.

بغطاء الطبع أو الختم فقد لا يؤمنون البتة ويموتون على الكفر كما حدث لغير من آمن في الوارد ذكرهم في هذا السبب.

وأمرهم هنا -كما قال بعض المحققين- تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤون النبي صلى الله عليه وسلم وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جيء بها بيانًا لعدم فقههم فصيح المقال[(١)].

والأكنة التي هي الأغطية هي هي الأغلفة التي ورد لها ذكر في موضعين من القرآن، منهما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨].

والغلف: جمع أغلف، وهو الشيء المستور المغشى، قالها اليهود وقصدوا أننا جبلت قلوبنا على ذلك فلا يتوصل إليها بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فقلوبنا لا تفقهه، مستعار من الأغلف، وهو الذي لم يختن[(٢)].

قال مجاهد: غلفٌ: عليها غشاوة. وقال عكرمة: عليها طابع[(٣)].

وقد يكون قول اليهود تعاليًا على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليظهروا أنهم ليسوا في حاجة إلى علمه صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا المعنى قراءة ﴿غُلُفٌ﴾ بضم اللام[(٤)].

قال ابن عباس رضي الله عنه: أي: قلوبنا ممتلئة علمًا لا تحتاج إلى علم محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره[(٥)].

وهذه الكلمة ﴿غُلْفٌ﴾ كقول المشركين: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥].

قصد بنو إسرائيل إقناط النبي صلى الله عليه وسلم عن الإجابة، وقطع طمعه عنهم بالكلية.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ لما قالوه، وتكذيب لهم فيما زعموه.

والمعنى: أنها خلقت على فطرة التمكن من النظر الصحيح الموصل إلى الحق، لكن الله سبحانه وتعالى أبعدهم وأبطل استعدادهم الخلقي للنظر الصحيح بسبب اعتقاداتهم الفاسدة وجهالاتهم الباطلة الراسخة في قلوبهم[(٦)]، فالأكنة والأغلفة جعلها الله عز وجل لمن مات قلبه، كما رأينا في المشركين واليهود.

٧. القفل.

جعل الله القفل واليبس والصلابة عقوبة

(١) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٨٧.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٩٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥.
(٤) قراءة اللؤلؤي عن أبي عمرو. انظر: شواذ القرآن ص١٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣١٨.

لأصحاب القلوب الميتة بالكفر

وأصل القفل: اليبس والصلابة، يقال لما يبس من الشجر: القفل، وأقفله الصوم: أي: أيبسه.

وفي الاستعمال القرآني ورد القفل مقترنا بالقلب في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد:٢٤].

المعنى: أفلا يتفهمون القرآن فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام أم على قلوب أقفالها، أي: بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون.

فالأقفال هنا: إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوه عن الإيمان، أي: لا يدخل قلوبهم ولا يخرج منها الكفر؛ لأن الله طبع على قلوبهم.

وقال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ بالتنكير؛ لتهويل حالها وتفظيع شأنها وأمرها في القساوة والجهالة، كأنه قيل: على قلوب منكرةٍ لا يعرف حالها، ولا يقادر قدرها في القساوة.

ولأنه لو قال: «على قلوبهم» لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة.

والمراد: أم على قلوب هؤلاء، وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها[1].

وإضافة الأقفال إليها ﴿أَقْفَالُهَا﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة، وهي أقفال الكفر والعناد[2].

موضوعات ذات صلة:

التدبر، التفكر، الحياة، الذكر، الطبع على العقل، القلوب، الموت، الوحي

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٦.